

كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449

<https://kan.journals.ekb.eg>

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat

نصير من مؤسسه كان للدراسات والترجمة والنشر

75

السنة
التاسعة عشرة

٢٠٢٦
١٤٤٧

مفوف
قاص

Historical Kan Periodical



تأسست فرة جمافس الاول ١٤٢٩ هـ. وقصور المفوف الاول سبتمبر ٢٠٠٨ م

رقمية الموطن مربية الهوية عالمية الامة

اول مربية مربية رقمية الموطن مربية الهوية عالمية الامة

دورية كان التاريخية- س ١٩، ع ٧٥ (يناير ٢٠٢٦ / شعبان ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 19, no. 75 [Jan. 2026]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ع ١٦ (سبتمبر ٢٠٠٨). القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٦ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2025.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٦ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

- النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.
- ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.
- الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.
- لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني

أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية

دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"

شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفخمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة

الايكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤثر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جبلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

الهيئة العلمية

أ.د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
أ.د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
أ.د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى المرتفعة (Q2) في معامل التأثير أرسيف.

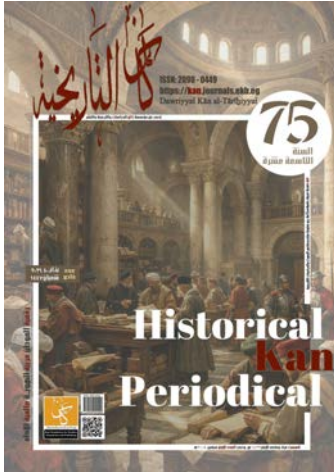
عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ. د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Kan Historique périodique

ISSUE 75 COVER.

SPECIAL DESIGN.

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historicalkan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg

علمية. عالمية. محكمة. ربع سنوية

كان التاريخية

السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون - يناير ٢٠٢٦

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية. عالمية. مُحَكَّمَةٌ. ربع سنوية

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيّد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

يجوز للمشرف العام، ورئيس التحرير، وأعضاء الهيئة الاستشارية، والعلمية، وهيئة التحرير بالدورية التقدم بأبحاث أو دراسات علمية للنشر، وتلتزم الدورية بخضوع هذه المواد للتحكيم العلمي الكامل، ضماناً للشفافية، وتفادياً لأي تعارض محتمل في المصالح، وبما يتوافق مع المعايير الدولية لأخلاقيات النشر العلمي في المجلات المُحكّمة.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحكّمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجه الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب	• تاريخ الحروب الطليعية.
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق	• تاريخ العصور الوسطى.
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن	• تاريخ الأزمات والأوبئة.
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا	• تاريخ الأدب العربي.
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق	• تاريخ العالم القديم.
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر	• التراجم والنساب.
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة ذمار	اليمن	• التاريخ المقارن.
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر	• التاريخ المقارن.
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان	• التاريخ المقارن.
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب	• التاريخ المقارن.
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن	• التاريخ المقارن.
أ.د. حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر	• التاريخ المقارن.
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق	• التاريخ المقارن.
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان	• التاريخ المقارن.
أ.د. شعيب مقنوني	جامعة "أبو بكر بلقايد" تلمسان	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات	• التاريخ المقارن.
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس	• التاريخ المقارن.
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن	• التاريخ المقارن.
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية	• التاريخ المقارن.
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا	• التاريخ المقارن.
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق	• التاريخ المقارن.
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقاً)	سوريا	• التاريخ المقارن.
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق	• التاريخ المقارن.
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر	• التاريخ المقارن.
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر	• التاريخ المقارن.
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب	• التاريخ المقارن.
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر	• التاريخ المقارن.
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب	• التاريخ المقارن.
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق	• التاريخ المقارن.

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية، والإنتاج الفكري، والإشراف على الأطاريح الجامعية، ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
 - تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
 - يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
 - يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
 - تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.
 - يجوز للمشرف العام، ورئيس التحرير، وأعضاء الهيئة الاستشارية، وهيئة التحرير بالدورية التقدم بأبحاث أو دراسات علمية للنشر، شريطة أن تخضع هذه الأعمال لكامل إجراءات التحكيم العلمي المعتمدة بالدورية، وفق نظام التحكيم المزدوج السري، وبما يضمن استقلالية القرار العلمي ونزاهة العملية التحريرية.
 - وفي هذه الحالة، يُستبعد صاحب العمل من أي دور إداري أو تحريري أو إشرافي يتعلق بمسار تحكيم مادته أو اتخاذ القرار بشأنها، ويُحال الإشراف الكامل على إجراءات التحكيم والبت النهائي إلى عضو مستقل من هيئة التحرير أو إلى محرر ضيف، دون أي تدخل مباشر أو غير مباشر من مقدم المادة.
- هيئة التحكيم:**
- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
 - يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
 - تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
 - في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
 - تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانبة النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملاتمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونياً بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس، يونيو، سبتمبر، ديسمبر) بالإضافة إلى أعداد خاصة حسب الحاجة.
- مقالات الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني الرسمي على شبكة الإنترنت.
- تُرسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية بالبريد الإلكتروني.
- يُعلن عن صدور أعداد الدورية عبر منصات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historickan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

المغرب	سماعيلي رشيد جامعة محمد الأول	١٤	الأدعية الشعبية المتوارثة شفهيًا في الذاكرة الجماعية المغربية: دراسة في تاريخ الذهنيات
المغرب	شرف ازناك جامعة القاضي عياض	٢٤	العلاقات السياسية لقبيلتي مزوطة وكدميو في منطقة أسيف المال مع السلطة المركزية بالمغرب من العصور القديمة إلى نهاية العهد السعدي
المغرب	يوسف المساتي جامعة الحسن الثاني	٤٨	بلاد اليونان وجغرافيتها في المصادر العربية الإسلامية
المغرب	فاطمة الحجري جامعة القاضي عياض	٦٢	مدينة تاودا من خلال المصادر الوسيطية: دراسة في المجال والاقتصاد والمجتمع
المغرب	محمد بالدوان جامعة محمد الأول	٧١	جدلية الديني والسياسي في المغرب المريني (١٦٦٨-٨٦٩هـ / ١٢٦٩ - ١٤٦٥م)
المغرب	المهدي شدال جامعة سيدي محمد بن عبد الله	٨٣	تطوان والنخبة المحلية: سلطة العائلات النافذة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين: آل المنظري، آل النقيس، وآل الريفي نموذجًا
المغرب	رابحي رضوان وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي	٩٣	ابن عابد الوكيل ورحلته: جوانب من سيرته وتاريخ شرق المغرب الأقصى في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي
المغرب	محسن بووشن جامعة ابن طفيل	١٠٥	السفير جون هاريسون عين بريطانية على مغرب القرن السابع عشر
المغرب	بويزكارن هشام الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة بني ملال	١٢١	الاقتصاد الرعوي في قبيلة بني يزناسن وأثره في تشكيل المجال الحدودي الشرقي للمغرب قبل الاستعمار
تونس	سلمان العبدليّ جامعة تونس	١٣٠	تحوّلات نظام المواريث في تونس من المرجعية الفقهية إلى التعديل التشريعي (١٨٨١-٢٠١٨)
الجزائر	حسن بربورة جامعة يحي فارس المدية	١٤٦	القايد سي محمد بن السنوسي ودار القيادة بقصر مسعد "ببوكيل" خلال القرن التاسع عشر الميلادي: دراسة تاريخية عمرانية معمارية
المغرب	محمد هواري الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين لجهة طنجة	١٦٣	حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها خلال فترة الحماية: مدينة وزان أنموذجًا سنة ١٩٢٠م
المغرب	سليم الملوغ جامعة شعيب الدكالي	١٧٤	منبر فرنسي لقراءة التاريخ المغربي: جريدة السعادة تحت المجهر
سلطنة عُمان	سليمان بن سعيد الكيومي جامعة البريمي	١٨٤	سياسة ألمانيا الاستعمارية في شرق أفريقيا من خلال حماية بعض الشخصيات العمانية: السيدة سالمة والسيد خالد نموذجًا
المغرب	أنس العزوتي جامعة محمد الأول	١٩٥	تقارير: مناهج البحث في الدراسات الاستشراقية
هولندا	أشرف صالح محمد سيد جامعة ابن رشد	٢٠٥	عرض كتاب: المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية



الأدعية الشعبية المتوارثة شفهيًا في الذاكرة الجماعية المغربية دراسة في تاريخ الذّهنيات

د. سماعيل رشيد

دكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة
جامعة محمد الأول - المملكة المغربية



ملخص

يسعى هذا المقال إلى تجاوز النظرة المحدودة للدعاء باعتباره أداة تواصل بين العبد وربّه، إلى نظرة شمولية تتسجم مع تطور الكتابة التاريخية التي وسعت من مفهوم الوثيقة، والتي أصبحت مع مدرسة الحوليات تستوعب طيفاً واسعاً من الأجناس، ومن بينها الدعاء/ المَعْرُوفُ باعتباره أرشيف المهمشين، ما دامت السجلات الرسمية قد أهملتهم. كما تسعى هذه الدراسة إلى بيان كيف تعكس الأدعية جوانب من التاريخ الاجتماعي وتاريخ الذّهنيات، سواء الحاجة إلى المخزن أو الموقف من الأسعار، والأوثنة، والمجاعات، وعلاقتها بالهجرة، والمجال. وأهمية العمران البشري في الاستقرار، وجوانب من تاريخ الخوف من اللصوصية، وقطاع الطرق، والحروب الأهلية، وأهمية أصحاب القلم في خدمة السلطان والدولة. بناءً على ذلك، فإن الدعاء يشكل مصدراً مهماً لفهم ذاكرة الجماعات المهمشة في المجتمع، حيث يعكس مشاعرهم، ويقدم رؤية تاريخية غائبة عن السجلات المكتوبة. تساهم الدراسة في فتح آفاق جديدة لدراسة العقلية المغربية من خلال الأدعية كأداة لفهم التحولات الاجتماعية والنفسية المرتبطة بالآزمات والظروف التاريخية، مما يجعلها مصدراً غنياً يمكن أن يُعتمد عليه في مشاريع البحث التاريخي.

كلمات مفتاحية:

الدعاء المعروف؛ التاريخ الاجتماعي؛ الذّهنيات؛ المصادر الدفينة؛ تاريخ الخوف

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٢ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2026.483480

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سماعلي رشيد، "الأدعية الشعبية المتوارثة شفهيًا في الذاكرة الجماعية المغربية: دراسة في تاريخ الذّهنيات"، - دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة- العدد الخامس والسبعون، يناير ٢٠٢٦، ص ١٤-٢٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: smmailirachh@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ذهنيات المجتمع من خلاله؟ كيف نفهم مشاعر الناس في زمن معين انطلاقًا من الدعاء؟ وهل هذا الترتيب في اختيار كلمات دعاء "اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا الْغَلَا، وَالْوَبَا، وَالرِّبَا"، هو انعكاس لتسلسل زمني للأزمات؟

ما أثار انتباهنا في هذا الدعاء "اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا الْغَلَا، وَالْوَبَا، وَالرِّبَا"، هو أن العامة سبَّحوا كلمة الغلاء على كلمة الوباء، مما يدفعنا إلى التساؤل: هل الأمر يتعلق فقط بصياغة سعت العامة من خلالها إلى تسهيل الجملة وجعلها أكثر سلاسة على اللسان؟ أم أن الغلاء يسبق الوباء من الناحية الزمنية؟ أم أن الظروف التاريخية هي التي تتحكم في العلاقة بينهما وتنتج أحدهما الآخر؟

للإطالة على الظروف التاريخية سنقتصر على بعض النماذج. يشير ابن هيدور في مقالته "إذا ظهرت الخوارج (الثوار)، واشتدت الفتنة، فحقق ظهور الغلاء، لأنه لازم لها، وناشئ عنها. وإذا كان الغلاء، واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء، وهو علم صحيح، وقانون مطرد، لا يحتاج فيه إلى تعديل ولا نظر في النجوم"^(٢).

لكن هناك بعض الظروف التي كان فيها الوباء سببًا في الغلاء كما هو حال الطاعون الجارف "الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودَّرسَت السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل"^(٤).

من الواضح أن ابن خلدون انطلق في تحليله من الطاعون الذي فتك بالناس، وأدى إلى نقص في اليد العاملة، مما نتج عنه ركود اقتصادي. وعندما تقلَّ السلع يرتفع الطلب، فيحدث الغلاء في الأسعار. وهذا التحليل ينطبق أيضًا على جائحة كوفيد-١٩ (كورونا).

ربما، إلى جانب الظروف التاريخية، يرجع تقديم كلمة الغلاء على الوباء في الدعاء إلى أن تأثير الغلاء على عامة الناس أشد وقعًا في نفس الإنسان، حتى أن أحد المؤرخين وصف هذا التأثير "بكشف الغُمَّة"^(٥)، إذ إن

يختلف التعامل مع ظاهرة الدعاء باختلاف الخلفيات المعرفية للدارسين. فبينما ينظر إليه الباحث في الدراسات الإسلامية باعتباره تجليًا لسانيًا للعقيدة، ونصًا طقسيًا يحفظ ويردد كأداة اتصال بين العبد وربّه، يتجاوز "الباحث" في التاريخ الاجتماعي هذه القراءة اللاهوتية ليغوص في أبعاده الاجتماعية كواحد من أهم "المصادر الدفينة" لتاريخ المهمشين. فالدعاء هنا ليس مجرد نص مقدس، بل هو وثيقة تاريخية تكشف عن كيف تعكس صيغ الأدعية تحولات الذهنية الجمعية تجاه السلطة (الخوف من المخزن)؟ كيف شكلت الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية أنماطًا دعائية خاصة خلال التحول التاريخي (الحروب، الأوبئة، الأمراض، القحوط...؟ كيف تحول الدعاء إلى "أرشيف شفوي" يسجل صوت المغيبين وتاريخ المشاعر الإنسانية (الخوف...؟) من هذا المنظور، يصبح الدعاء أداة منهجية لفك شيفرة الذاكرة الشعبية، ودراسة تاريخ "المهمشين" الذين غابت أصواتهم عن السجلات الرسمية، بينما حفظت لهم الأدعية همساتهم وأحلامهم. كما يقدم مادة خصبة لتتبع تأثير الأحداث الكبرى في تشكيل الخطاب الديني الشعبي، هذه القراءة التاريخية لا تلغي البعد العقدي للدعاء، بل تكمله بكشف النقاب عن دوره كأحد أدوات كتابة التاريخ الاجتماعي، وأداة من أدوات "مهنة المؤرخ"، ووسيط ثقافي نقل وعي العوام من حيز الممارسة الدينية إلى فضاء المشاركة في دراسة الذهنية التاريخية ومدى استمراريتها.

أولاً: الدعاء بوصفه وثيقة تاريخية ونافذة

على تاريخ الذهنيات

١/١-دعاء: "اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا الْغَلَا وَالْوَبَا

وَالرِّبَا"^(١)

سنحاول، من خلال هذه النماذج من الأدعية، البحث في السياق التاريخي الذي ظهرت فيه. أو بصيغة أخرى: كيف يمكن للدعاء / المعروف أن يعكس ظروفًا تاريخية معينة؟ وكيف يسهم التلاعب بالذاكرة الجمعية في نسيان التاريخ وإغفاله^(٦)؟ وكيف يمكن النفاذ إلى

الغلاء يصيب الجميع، في حين أن الوباء لا يصيب كل الناس خصوصاً الذين يتبعون الاحتياطات الوقائية كالاحتراز والفرار^(٦). أما تأخير الربا في الدعاء فهو غالباً من نتائج الغلاء الذي تسبب في فوضى السوق ويكثر في مثل هذه الأوقات.

يمكن، انطلاقاً من هذا الدعاء، التقاط مشاعر الناس، ضمناً يقدم لنا هذا الدعاء إشارات عن تاريخ الخوف، كما يشكل وسيلة "غيبية" في مواجهة عجز المخزن عن التصدي لهذه الأزمات التي يتداخل فيها الاقتصادي/الغلاء والربا، بالصحي/الوباء، بالاجتماعي/الذهنيات.

أما دعاء "اللَّهُ يَرْفَعُ عَنَّا هَازِلَ الْبَلَاءِ، وَيَنْزِلُ عَلَيْنَا الشَّفَا"^(٧)، وإن كان الشق الثاني من الدعاء يبين نوع الطلب وهو رفع الضرر المتمثل في وباء أو مرض فقد استعملت العامة "البلاء" باعتباره أعم ويشمل أصنافاً من الشدائد والمصائب. أما توظيف عبارة "اللَّهُ يَرْفَعُ عَنَّا هَازِلَ الْوَبَاءِ"، ففي مثل هذه الظروف يكون الوباء تهديداً صريحاً مباشراً، خصوصاً مع استعمال اسم الإشارة هذا، كما شهدنا خلال جائحة كوفيد-١٩.

تفيدنا الرواية الشفوية بأنه بعد هذه المعركة، أصبح "إيوشطيدن" من حيث التركيبة الديموغرافية أقل عدداً مقارنة ببطون قبيلة بني يعلى الصفايف. وبالتالي لن تصبح كلمتهم بين القبائل مسموعة ومحترمة، مثل هذه الشروط هي التي جعلت المجتمع يمجّد الذكورة^(٨)، بحثاً عن حمل السيف ويدافع عن "الجماعة"، لكن عندما تتجاوز قبيلة بني يعلى "الانقسامية"^(٩) تستحضر دعاء أشمل: "الجماعة الله يجمع الشمل، ويعمر الحمل، ويرد لهمل".

ثانياً: الدعاء كمصدر لدراسة جوانب من تاريخ الخوف بالمغرب

١/٢-دعاء: "اللَّهُ يَجْعَلْكُمْ إِيلاً هَضْرَتُو تَزْهَرُوا، وَإِيلاً تَكَلَّمْتُوا تَفْرَعُوا، وَدُوزُوا فَوْسَطُ الْعَدُوِّ وَمَا يَفْقِشِي بِكُمْ"^(١٠)

إذا انطلقنا، على سبيل المثال، من الطوبونيميا^(١١) مثل "المقتلة"^(١٢) خصوصاً وأن "التاريخ الجديد" يصنع انطلاقاً من دراسة الأمكنة ومن الذاكرة الجمعية^(١٣)، حيث تفيدنا الرواية الشفوية^(١٤) بأن سبب تسميتها يعود إلى معركة دامية وقعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر بين بطن من قبيلة بني يعلى^(١٥) صفايف يعرف بـ"بُوشطيدن"، وقبيلة أخرى عربية اللسان. وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة "بُوشطيدن"، حيث قُتل معظم أفرادهم، ولم ينج إلا قلة قليلة، تمكنوا من الفرار زحفاً على بطونهم وسط العدو، دون أن يكشف أمرهم، مستفيدين من كثافة الغطاء النباتي في المنطقة (نبات

حتى يستفيد المجتمع من التاريخ ومن الأحداث والتجارب كان لهذا الدعاء "اللَّهُ يَجْعَلْكُمْ إِيلاً هَضْرَتُو تَزْهَرُوا، وَإِيلاً تَكَلَّمْتُوا تَفْرَعُوا، وَدُوزُوا فَوْسَطُ الْعَدُوِّ وَمَا يَفْقِشِي بِكُمْ"، دور نفسي في طلب العون الإلهي قبل المعارك والحركات والتحديت خصوصاً القبائل الضعيفة عددياً وعسكرياً. إلى أي مدى يمكن اعتبار "العصبية"^(١٦) القبلية في المجتمعات التقليدية تحدياً يفشل قيام الجانب الحضاري، وما طبيعة الاستجابات التي تحدد نجاح هذه المجتمعات أو فشلها وفقاً لنظرية أرنولد توينبي في التحدي والاستجابة^(١٧)؟ وهل يمكن للدعاء كاستجابة أن يؤدي إلى الاستقرار؟ أم أن تجاوز العصبية القبلية باعتبارها استجابة هي من تؤدي إلى ذلك؟

فيها ذهنية مرتبطة بالخوف من الفقد والرغبة في النجاة.

من الأهمية الإشارة إلى أنه هناك مجموعة من الأدعية التي يمكن دراستها من حيث مساهمتها في موضوع الذهنيات كتاريخ الخوف من قبيل:

— دعاء: "اللَّهُ يَجْعَلُ النَّهَارَ الْخَائِبَ، تَكُونُ غَايِبٌ" (٢٠)
— دعاء: "اللَّهُ يَنْجِيكَ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَنَهَارَ الزَّكَاءِ تَكُونُ غَايِبٌ" (٢١)
— دعاء: "اللَّهُ يَجْعَلُ النَّهَارَ لِيَكُونَ فَالَسٌ، أَنْتَ تَصْبَحُ نَاعَسٌ" (٢٢)

ثالثاً: الدعاء خلال التحول التاريخي (المجاعات: الهجرة والمجال)

١/٣- دعاء: "لَهْلَا يُجَوِّعُ عَلَيْنَا بَطْنٌ، وَلَا يُخَرِّجُنَا مِنَ الْوُطْنِ" (٢٣)

إذا كانت النخبة^(٢٤) قد عبرت عن معاناة الناس خلال المجاعات بالقلم، من خلال شهادات ووثائق ومذكرات ورسائل تتقلل عمق المأساة، فإن العامة عبرت عنها بطريقتها الخاصة، وكان الدعاء الجماعي واحداً من أبرز الوسائل للتعبير عن الأمل والألم في آن واحد. فقد كانت تُقام صلوات الاستسقاء في المساجد وحتى الحقول والدواوير، مصحوبة "بدعوات"/مرددات، من مثل: "لَوْضُ لَوْضُ أَلْفَادَنْ، ثِيْمَزِيْنُ ثِيْمَزِيْنُ أَلِيْغَالَنْ" (٢٥). عندما تمسك السماء قطراتها، ويطول انحباس المطر، يشتد الجفاف يوماً بعد يوم، فتذبل الأرض، وتتضرب الاحتياطات، ويفرغ المرس والمطمورة والهري والخزين من الزاد. ومع استمرار القحط، تنعدم حتى "التغذية التعويضية"، فيتأثر الإنسان والحيوان معاً، وتتعاظم المأساة.

في مثل هذه الظروف القاسية، لم يكن أمام سكان القرى والبوادي سوى الهجرة نحو المدن إذ غادر قبيلة الرحامنة وحدها في مجاعة ١٩٤٥ تقريباً ٢٠٠٠ (٢٦)، أو الهجرة حتى خارج البلاد بحثاً عن القوت والنجاة. وقد سُجل أحد أسوأ هذه الأعوام في الذاكرة الجماعية للمغاربة باسم عام البون، سنة 1945م، حين شهد المغرب مجاعة خانقة نتيجة الجفاف الحاد، وتداعيات الحرب العالمية الثانية، وما تلاها من تقنين استعماري صارم

٢/٢- دعاء: "اللَّهُ يَصْرِفُ عَلَيْكَ أَوْلَادَ الْحَرَامِ، وَالظُّلَامَ"

إن بيئة المغرب، التي تميزت بالاضطرابات وفترات "السيبة"، مثلاً خلال القرن العشرين، كانت عرضة للظلم، سواء من قبل اللصوص وقطاع الطرق، أو من طرف القواد والشيوخ والأعيان. وقد كان لهذا الدعاء صيغة أخرى تُردد بين الناس: "لَهْلَا يَمْشِيهِمْ فَالْظُّلَامُ، وَلَهْلَا يَصْرِفُ فِيهِمْ أَوْلَادَ الْحَرَامِ". وبحكم أن المجتمع آنذاك لم يكن قادراً على الصمود أمام جبروت هؤلاء، أو كما تقول العامة: "مَا يَقْدَرُوشْ يَرْطُوها" (١٨)، فإن الدعاء في هذا السياق يُصور لنا ضمناً وضعاً تغيب فيه العدالة، ويُعبر عن لجوء العامة إلى الدعاء كشكل من أشكال المقاومة الرمزية.

٣/٢- دعاء: "اللَّهُ يَجْعَلُكَ إِيلاً خَرَجْتَ سَالِمٌ، وَإِيلاً وَلَّيْتَ غَانِمٌ".

لا يختلف هذا الدعاء عن الدعاء السابق من حيث السياق التاريخي فكلاهما يعبران عن أمن الطرق واللصوصية أو بتعبير العروي ظاهرة الصعلكة^(١٩)، لما كان يتعرض له المسافرون أو التجار أو الرعاة (العزيب)... من ظلم واعتداء سواء أثناء الذهاب أو العودة إلى سكناهم. فالشق الأول "اللَّهُ يَجْعَلُكَ إِيلاً خَرَجْتَ سَالِمٌ" يرافق المسافر أو التاجر أو غيره وهو بمثابة تذكرة الذهاب تحصنه وتحميه في الطرق الغير الآمنة، أما الشق الثاني "وَإِيلاً وَلَّيْتَ غَانِمٌ" فخلال عودته قد يعترضه اللصوص ويسرقون سلعه، أو حتى ملابسه، لذلك كان المجتمع يتضرع إلى الله كي ينجو بنفسه وبضائعته، ونجده بصيغة أخرى "اللَّهُ يَسْلُكُكَ مِنَ الْهَلَاكِ".

وفي ارتباط بموضوع الذهنيات، تجدر الإشارة إلى أنه كانت العائلات اليعلاوية تختار اسم "سالم" لأبنائها الذين وُلدوا خلال سقوط الثلوج بكثافة، أو في أوقات الكوارث والعواصف. وإذا كانت المرأة تفقد أجنتها الذكور، أو يموتون بعد الولادة، فإنها تطلق على من ينجو منهم اسم "سالم". بمعنى أن كلمة "سالم" - سواء في الدعاء أو عند إطلاقها اسماً على أحد المواليد - تتحكم

كان ابن خلدون قد أفاض في مقدمته في تفسير نشوء العمران وخرابه، فإن هذا الدعاء يختزل، بعبارة بسيطة، القلق الشعبي من الخراب، والتطلع إلى الاستقرار والرزق.

فابن خلدون، وهو يكتب بلغة النخبة وعلماء الاجتماع وأسلوب تحليلي، يوضح أن فساد العمران لا يحدث إلا نتيجة لعدة عوامل بشرية مثل: توقف الناس عن الإنتاج^(٣٢)، تفشي الفوضى^(٣٣)، الظلم^(٣٤)، والجبايات المجحفة^(٣٥)، ويرى أن هذه العوامل تؤدي إلى هجرة الناس، وكساد الأسواق، وتحول المدن إلى أماكن خالية لا روح فيها، أو بتعبيره في "المقدمة" حدوث المَوْتَانِ^(٣٦).

وفي المقابل، حين يختار العوام أن يقولوا: "الله يعمّر بلادنا"، فإنهم يعبرون عن نفس الفكرة، ولكن بلسان وجداني وعامي، فهم يدركون بتجربتهم في الحياة أن العمران هو الشرط الأساسي للمعاش^(٣٧) والعمل والتجارة والفلاحة، وأنه إذا قلت العمارة، خربت الضياع^(٣٨). كما أنهم يقرّون ضمناً بأن الزاد، أو الرزق، لا يمكن أن يتحقق دون وجود عمران مستقر، مما يجعل الشق الأول من الدعاء "الله يعمّر بلادنا" شرطاً لازماً للشق الثاني "يقوي زادنا".

لقد عبّر ابن خلدون عن هذا بدقة حين قال إن انقباض الأيدي عن العمل يؤدي إلى كساد الأسواق، ثم إلى خلاء المدن، فتحل الهجرة ويعم الخراب^(٣٩). وهذا ما يجعل دعاء العوام في جوهره تلخيصاً شعبياً لفصول من علم الاجتماع الخلدوني، وإن اختلف في اللغة والمنهج. فالتكامل بين "التاريخ من أعلى" / كتابة النخبة و"التاريخ من أسفل" / تعبير العوام واضح في الاعتراف بقيمة العمران وضرورته للرزق والاستقرار، بينما يكمن الاختلاف في أدوات التعبير: فالعوام يلجؤون إلى الدعاء والرجاء وبلغة شفوية عامية، باعتبارها شكل من أشكال تخزين المعلومة في ذاكرتنا^(٤٠)، في حين أن ابن خلدون يقدم تفسيراً عقلانياً وتحليلياً لحركة التاريخ والعمران.

٣/٣-دعاء: "الله يجعل زادنا في بلادنا"

السياق التاريخي لهذا الدعاء يحمل بعدين رئيسيين: الأول الاستعمار الفرنسي ونهبه لخيرات المغرب، والثاني المجاعات وما نتج عنها من هجرات قسرية^(٤١). فيما

للمواد الغذائية، وخاصة من قبل سلطات الحماية الفرنسية، حيث فرض نظام "البون" على المواطنين لاقتناء^(٣٧) المواد الأساسية كالدقيق والسكر^(٣٨) والزيت. وقد تحولت المجاعة في الوعي الشعبي إلى ذاكرة حزينة تُروى عبر الحكايات، ويتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، مقرونة بكلمة "البون"، التي أصبحت رمزاً للحرمان والذل في زمن القهر الاستعماري.

انطلاقاً من عام البون وانعكاساته الاجتماعية، سنحاول ربط الدعاء الشعبي: "لهلا يجوع علينا بطن، ولا يخرجنا من الوطن" بما عاشته قبيلة بني يعلى (الصفاسيف - العيون سيدي ملوك، المغرب) خلال تلك الفترة العصيبة. تذكرنا الرواية الشفوية أن عدداً من العائلات اليعلاوية، بعد أن استنفدت كل "البدايل"^(٣٩) المتاحة لمواجهة القحط والجوع، اضطرت إلى حزم أمتعتها الهجرة نحو مدينة جرادة المنجمية، حيث كان الأمل يحدوها في أن يجد القادرون على العمل فرصة في مناجم فحم جرادة، كملاذ أخير لضمان البقاء وتأمين لقمة العيش. وتؤكد الرواية أن الانتقال من قرية "فاغيلاست" إلى مدينة جرادة لم يكن خياراً طوعياً، بل كان خروجاً قسرياً فرضته ظروف قاسية، عاشتها تلك العائلات خلال فترات المجاعة الدورية، والتي رافقتها مظاهر اجتماعية مأساوية مثل السرقة وقطع الطرق، والوفيات خصوصاً الأطفال وكبار السن، كان لها أثر في سلوك وذهنيات المجتمع إلى يومنا هذا.

ولتجنب تكرار تلك المعاناة، جعلت العائلات سواء اليعلاوية أو المغربية بشكل عام من هذه الحكاية درساً يُرَدّد في المناسبات الاجتماعية كالولائم والأعراس والعقيقة والختان والوضيمة، قائلين: "لهلا يجوع علينا بطن، ولا يخرجنا من الوطن".

٢/٣-دعاء: "الله يعمّر بلادنا، ويقوي زادنا"^(٣٠)

ماهي أوجه الالتقاء والاختلاف بين دعاء العوام وابن خلدون حول العمران البشري^(٣١)؟
الدعاء الشعبي: "الله يعمّر بلادنا، ويقوي زادنا" ليس مجرد عبارة عابرة، بل يحمل في طياته وعياً عميقاً بقيمة العمران البشري وأهميته في حياة الناس. وإذا

في الأرض^(٤٥) ما أضفى عليه طابع القداسة. غير أن هذه العلاقة لم تكن دائماً ثابتة، إذ شهد التاريخ المغربي فترات من "السيبة"^(٤٦)، أي التمرد على السلطة المركزية، خاصة في مناطق البوادي والجبال (الهوامش)، حيث كانت القبائل ترفض في بعض الأحيان أداء الواجبات أو الاعتراف بشرعية السلطان.

فهل كان السلطان^(٤٧)، في مجمل تاريخ المغرب، رمزاً للاستقرار والحماية؟ أم أن بعض السلاطين كانوا، في حالات معينة، سبباً في تأجيج الأزمات؟ وهل تعلق المغاربة بالمخزن نابع من رهبة بطشه، أم من خوف أعمق يرتبط بغضبه الرمزي، الذي يعتقد أن من نتائجه رفع البركة باعتباره شريف، ووقوع المصائب كالجوائح والمجاعات والقحط؟

لقد كان "المخزن" أيضاً، في أزمنة القحط والمجاعات مستودعاً للحبوب ومصدراً للإغاثة^(٤٨)، خصوصاً وأن المخزن قد يؤدي إلى الجوع وهو ما عبرت عنه العامة: "إِيْلًا جَاعَ الْمَخْزَنُ، جَوْعًا"^(٤٩) إضافة إلى وظيفته التحكيمية^(٥٠)، التي نلمسها من خلال ما يتردد على ألسن العوام مثل "المخزن بينأتنا" أو "إِوَى الله يجعل البركة في المخزن"، ما عمق حاجة العامة إليه. ضف إلى ذلك أن تأثير "بلاد السيبة" في الذاكرة الجماعية باعتبارها خراب، لصوصية، وقطع الطرق، صراعات بين القبائل... والتي كانت تقابلها "بلاد المخزن"، لهذا السبب انتشرت أدعية/ أمثال شعبية التي تفضل صرامة المخزن على فوضى القبائل، مثل: "اللَّهُمَّ مَخْزَنَ ظَالِمٍ، وَلَا قَبِيلَةَ سَائِيَةٍ"، وهو تعبير شعبي يُعبر عن تفضيل الحكم القاسي المنظم على الحرية الفوضوية. في بعض الفترات التاريخية، خصوصاً خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت السلطة المحلية ممثلة في الشيخ والقايد أو الباشا والأعيان تمتطي القانون وتوظفه لخدمة مصالحها الخاصة، لا لتحقيق العدالة. فقد كان بعض القواد يستغلون مناصبهم لقهر الناس، والاستيلاء على أراضيهم، وفرض جبايات مجحفة تتجاوز طاقة الأهالي، أحياناً باسم المخزن، وأحياناً باسم "الشرع". وأمام هذا الواقع المرّ، وجدت العامة أنفسها بين خيارين أحلاهما مرّ: إما الخضوع لسلطة "جَائِرَةٍ/ جائرة" تسلب الكرامة وتتهب الأرض باسم "القانون"، أو العيش

يخص البعد الأول، عندما دخلت فرنسا المغرب سنة ١٩١٢ بموجب معاهدة الحماية، بدأت على الفور في الاستيلاء على الأراضي الزراعية الخصبة، واستنزاف الثروات الطبيعية مثل الفوسفات والمعادن (خريكة، جرداء...)، إضافة إلى تصدير الإنتاج الزراعي والصناعي إلى فرنسا. أدى هذا الاستغلال إلى حرمان الكثير من المغاربة من مواردهم الطبيعية وأرزاقهم، فكان ما تبقى لهم قليلاً أو مجرد فتات، وهو ما عبرت عنه العامة في دعائهم الشعبي القائل: "اللَّهُ يَجْعَلْ زَادَنَا فِي بِلَادِنَا"، أي رجاء في أن تبقى خيرات البلاد ورزقها متوفرًا في وطنهم دون أن يهدر أو ينقل إلى الخارج على حسابهم.

أما البعد الثاني فيتعلق بالمجاعات التي ضربت المغرب في فترات مختلفة خلال القرن العشرين، وما نتج عنها من هجرات قسرية. فقد أجبرت هذه المجاعات العديد من المغاربة على مغادرة قراهم والانتقال إلى المدن بحثاً عن فرص العيش، أو حتى الهجرة خارج البلاد إلى دول مجاورة مثل الجزائر وفرنسا. كان السبب الرئيسي وراء هذه الهجرات هو البحث عن "الزاد" الذي ورد في الدعاء الشعبي: "اللَّهُ يَجْعَلْ زَادَنَا فِي بِلَادِنَا"، أي رغبة في أن تبقى موارد العيش متوفرة في وطنهم دون الحاجة إلى النزوح أو تحمل أخطار الغربة والذل. تعكس هذه العبارة شعور الناس بمعاناة الفقر والجوع، ورغبتهم العميقة في استقرار اقتصادي واجتماعي يمنع تكرار هذه الهجرات القسرية التي كانت محفوفة بالمخاطر، كما عبرت عنه العامة بصيغة أخرى "اللَّهُ يَزِينْ يَامَكْ، وَيَقْوِي طَعَامَكَ"^(٥٢).

رابعاً: الدعاء: الحاجة إلى المخزن

١/٤-دعاء: "اللَّهُمَّ مَخْزَنَ ظَالِمٍ، وَلَا قَبِيلَةَ

سَائِيَةٍ"^(٥٣)

من الثابت تاريخياً أن العلاقة بين المغاربة والسلطان كانت علاقة وطيدة، تطبعها في الغالب سمة الهيبة تجاه "المخزن"، وهو الجهاز السلطوي التقليدي في المغرب. وقد تشكلت هذه الهيبة بفعل تداخل معقد بين المخزن والأسطورة الشعبية، وتغذت في جزء كبير منها من التصور الديني للسلطان باعتباره "خليفة"^(٥٤)، وظل الله

تُعَدُّ العلاقة بين الحكام والظُلَّام علاقة متشابكة ومليئة بالتوترات؛ فإذا ما حالف النصر الحكام، وعلى رأسهم القياد^(٥٤)، يتحركون لفرض النظام بالقوة، خصوصاً على الظُّلَّام المتمثلين في اللصوص وقطاع الطرق. وقد شكلت هذه الفئة تهديداً حقيقياً لأمن المجتمع، لا سيما في الفترات التي ضعفت فيها قبضة السلطة المركزية. وكان استتباب الأمن يُعد مؤشراً على عودة الهيبة السلطانية من جهة ومن جهة أخرى هبة القياد والباشوات.

قد توظف العامة مصطلحاً آخر مكان "الظُّلَّام" وهو "غَلَبَةُ الرَّجَالِ" كما يتبن من خلال الدعاء التالي: "اللَّهُ يَبْعِدُ عَلَيْكَ ثَلَاثَةَ الذَّلِّ، وَالزَّمَنَ، وَغَلَبَةَ الرَّجَالِ". ربما يُقصد باختيار لفظ "الظُّلَّام" الإشارة إلى الحُكَّام أو السلطة الجائرة، في حين أن "غلبة الرجال" تشير غالباً إلى شخص من داخل القبيلة أو من قبيلة أخرى، يمارس القهر أو النفوذ على الأفراد بشكل مباشر. تُظهر صيغة "اللَّهُ يَزِينُ عَلَيْنَا الْعَامَ" الارتباط الروحي بين الفرد والزمن، وبين الجماعة والدورة السنوية.

علاقة الفلاح المغربي بـ"العام الزين" و"الصابة"^(٥٥) هي علاقة وجودية وعاطفية عميقة، لأنها تعبّر عن الارتباط المباشر بين الفلاح والطبيعة، والمطر، والمحصول/الرزق. هذه المصطلحات متجذرة في الثقافة الشعبية^(٥٦)، وتعكس تجارب الفلاحين مع المواسم الزراعية. ولحجم الخوف من الأزمات والشدائد التي كانت تعصف بهم في تاريخ المغرب لذلك وظف المغاربة "الزمن" لدلالة على التحولات والتبدلات في أحوال الناس وهو ما عبرت عنه العامة بـ"اللَّهُ يَبْعِدُ عَلَيْكَ ثَلَاثَةَ الذَّلِّ، وَالزَّمَنَ، وَغَلَبَةَ الرَّجَالِ". هذا الخوف من الزمن وغياب الصابة أثر في سلوك التخزين وسلوك تقبيل وتقديس الخبز. وتتداخل في هذه العلاقة الأبعاد الاقتصادية والنفسية، والاجتماعية، والثقافية بشكل، وثيق. فعلى المستوى الاقتصادي، يمتلئ المرس والمطمورة، ويغدو الفلاح في غنى عن السوق، مكتفياً بما أنتجته أرضه.

أما من الناحية النفسية، فيشعر الفلاح بالراحة والاطمئنان، إذ يزول عنه القلق والتوتر اللذان يلازمانه طيلة الموسم خوفاً من الجفاف وتبعاته. وعلى الصعيد

في ظل قبيلة "سَائِيَّة"، أي جماعة بلا نظام مركزي واضح، فيها بعض الفوضى، لكن ربما يحافظ فيها الفرد على حد أدنى من الكرامة والاستقلال. أمام هاذين الخيارين، نشأ الدعاء/ المثل الشعبي المعروف: "اللهم قبيلة سايبة، ولا سلطة جائرة". ماذا سيفضل المغربي جبروت القايد التهامي الكلاوي؟ أم قبيلة "سايبة"؟ ماذا ستفضل قبيلة الشاعرة الشعبية "خربوشة"^(٥١) اعتداءات القائد عيسى بن عمر؟ أم ممارسات قبيلة "سايبة"؟ إلى أي حد أسهمت ضريبة الترتيب سنة ١٩٠١ في تعاطف المغاربة مع بوحمارة؟

إن العلاقة بين المغاربة والمخزن كانت دوماً علاقة معقدة ومبينة على مزيج من الخوف منه وعليه^(٥٢)، إضافة إلى الاعتقاد الديني. فهي ليست مجرد خضوع سياسي، بل منظومة ذهنية واجتماعية تشكلت عبر قرون طويلة من التفاعل بين المخزن والمجتمع.

ما عاشه المغاربة عبر خط كرونولوجي طويل من التوترات، سواء من خلال الحروب القبلية، أو الفتن، أو حركات التمرد، ثم لاحقاً من خلال مرارة الاستعمار الفرنسي والإسباني، جعلهم يتطلعون باستمرار إلى تحقيق الاستقرار. لقد أصبح الأمن ضرورة ملحة للفلاح كي يزرع أرضه، وللتاجر كي يؤمن قوافله، وللباعه كي يعرضوا بضاعتهم دون خوف أو اضطراب. هذا السعي الجماعي نحو الطمأنينة جعل فكرة "المخزن" - بما يمثله من سلطة مركزية ضامنة للنظام - جزءاً من التوازن السياسي والاجتماعي في المخيال المغربي.

٢/٤-دعاء: "اللَّهُ يَنْصُرُ الْحُكَّامَ، وَيَبْعِدُ

الظُّلَّامَ، وَاللَّهُ يَزِينُ عَلَيْنَا الْعَامَ"

لماذا تارة يتم توظيف عبارة "اللَّهُ يَنْصُرُ السُّلْطَانَ"، بينما نجد في هذا الدعاء عبارة "اللَّهُ يَنْصُرُ الْحُكَّامَ"؟ قد يكون مصطلح "الحكام" أقل قداسة من مصطلح "السلطان"، إذ يشمل الشيوخ والقياد والباشوات وربما حتى الأعيان. وبالتالي، فإن اختيار مصطلح "السلطان" في الدعاء بدل "الحكام" يُعزى إلى سياق تاريخي خاص، قد يكون فيه السلطان في مواجهة خصوم داخليين، مثل ابن عرفة أو بوحمارة^(٥٣)... أو خصوم خارجيين، مثل التدخل الفرنسي قبيل وإبان فرض الحماية.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة، يتضح أن الدعاء يشكل مصدرًا تاريخيًا ثريًا وعميقًا، يتجاوز حدوده الروحية ليصبح وثيقة حية تعكس البنى الذهنية والاجتماعية للمجتمعات عبر التاريخ. فمن خلال تتبع نماذج من نصوص الدعاء وطقوسه وسياقاته، استطعنا أن نكشف عن جوانب مخفية من تاريخ العقلية، فاختيار العامة تسبق كلمة الغلاء في دعائها على كلمة الوباء راجع إلى كون الغلاء يصيب جميع الناس في حين الوباء لا يصيب كل الناس.

لقد أثبتت هذه المقاربة فعاليتها في فهم كيفية تفاعل المجتمعات مع الأزمات والتحويلات التاريخية الكبرى، وكيف انعكست هذه التفاعلات في أدعياتها وابتهاالاتها. الخوف من المخزن من قطاع الطرق من الكوارث الطبيعية، كما مكنتنا من الوقوف عند موضوع علاقة المجاعات بالهجرة والمجال انطلاقًا من الدعاء، إضافة إلى التقاء العوام وابن خلدون حول موضوع العمران البشري من خلال دعاء "الله يعمر بلادنا". كما استشف من الدعاء حاجة الإنسان المغربي إلى المخزن وإن كانت بعض الحالات تبين عكس ذلك "بلاد السيبة". كما تُظهر صيغة "اللَّهُ يَزِينُ عَلَيْنَا الْعَامَ" الارتباط الروحي بين الفرد والزمن، وبين الجماعة والدورة السنوية (الصابة).

ومع ذلك، تواجه هذه المقاربة تحديات منهجية مهمة، أبرزها صعوبة التأريخ لنصوص الأدعية بدقة، كما تتداخل في بعض الحالات مع الأمثال الشعبية، لذلك يستدعي تطوير أدوات منهجية أكثر دقة، والاستعانة بمنهج الأنثروبولوجيا التاريخية وعلم النفس الاجتماعي (تداخل المعارف).

وفي النهاية، تؤكد هذه الدراسة أن "المصادر الدفينة" كالدعاء ليست مجرد نصوص هامشية، بل هي نوافذ أساسية لفهم التجربة الإنسانية في أبعادها الروحية والاجتماعية والتاريخية، وأن تاريخ العقلية يجد في هذه النصوص مادة خصبة لا غنى عنها في مشروع إعادة كتابة "التاريخ الجديد".

الاجتماعي، ينعكس "العام الزين" و"الصابة" في مظاهر الفرح والازدهار، فتقام الأعراس بكثرة، وتكثر الهدايا وصور التضامن والتكافل بين الناس. أما على المستوى الثقافي، فتحفل القبائل بطريقتها الخاصة، من خلال تنظيم الوعدة (الموسم)، وإحياء رقصات (النهاري، المنكوشي، العلوي...) وفنون شعبية تعبّر عن الفرح والامتنان.

٤/٣-دعاء: "اللَّهُمَّ احْفَظْ أَصْحَابَ الْقَلَمِ، وَبَعِّدْ عَلَيْهِمُ الْهَمَّ"

يقول ابن خلدون في سياق حديثه عن التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول: "أما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف، لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية... والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه وتكون السيوف مهمة في مضاجع أغمادها... فيكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاها... وأقرب من السلطان مجلسا" (٥٧).

انطلاقًا من تحليل ابن خلدون، يبدو أن المغاربة كانوا يستعملون هذا الدعاء في سياق تاريخي تميز بتشكيل "الدولة" المغربية في مرحلة ما أسماه ابن خلدون بـ"الطور الثالث" (٥٨)، وهي الفترة التي تعرف نوع من الاستقرار. لكن من المرجح أن يكون دعاء الحفظ "اللهم احفظ أصحاب القلم" الذي كانوا يرددونه مرتبطًا بفترة من فترات الفوضى السياسية التي كثيراً ما رافقت الانقلابات على السلاطين، حيث كان أصحاب القلم معرضين للاعتقال أو حتى الاغتيال السياسي. وقد مثل لسان الدين ابن الخطيب أحد أبرز الأمثلة على ذلك، وقد تنبه لذلك قبل اغتياله حين قال: "فمن عوفي من السياسية فليحمد الله" (٥٩)، حيث تحمل نفس المعنى لشق الثاني من الدعاء: "اللَّهُمَّ احْفَظْ أَصْحَابَ الْقَلَمِ، وَبَعِّدْ عَلَيْهِمُ الْهَمَّ". وقد يكون هذا الدعاء موجهاً كذلك لفئة الطلبة (الفقهاء). إلى أي مدى تسهم ذاكرة الجيل الحالي في حفظ بعض معلومات الدعاء التاريخية؟ وهل تقديس الأشخاص المسنين في المجتمع له علاقة بكونهم أشخاص ذاكرات (٦٠)؟

الإحالات المرجعية:

- (١٨) يُنظر عبد الأحد السبتني، بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في **مغرب ما قبل الاستعمار**. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. ١، ٢٠٠٩.
- (١٩) عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية**. ١٩١٢-١٨٣. تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ١، ٢٠١٢، ص ٨١.
- (٢٠) "أسأل الله أن يُغَيِّبَ عن كل يومٍ سيئ".
- (٢١) "أسأل الله أن يُنَجِّبَ من المصائب، وأن يُغَيِّبَ يوم الخصام والنزاعات".
- (٢٢) "نسأل الله أن يُغَيِّبَ عن يوم الفشل، وأن يجعلك فيه نائمًا مرتاح البال".
- (٢٣) "نسأل الله ألا نجوع، وألا نُضطر لمغادرة وطننا".
- (٢٤) يُنظر مثلاً في العصر الوسيط كتابات ابن خلدون، وابن عذاري، وعلي ابن أبي زرع الفاسي وآخرون.
- (٢٥) بالنسبة لقبيلة بني يعلى بحكم لسانها الأمازيغي كانت تردد مثلاً: "لوض لوض ألفادن، ثيمزين ثيمزين أليغان". أي "الوحد الوحد إلى الركبتين، والسنابل السنابل إلى الكتفين" مصحوبة بطقس ثاغنجة.
- (٢٦) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب ١٩١٢-١٩٤٥**. مطابع الرباط نت، ٢٠١٣، ص ٢٦٥.
- (٢٧) ربما كلمة "الكانبو" المتداولة حالياً والتي تطلق على الشخص الفاشل جاءت من هذا السياق التاريخي الذي ارتبط بمجاعة ١٩٤٥ والذي عرف "بعام البون"، أي أن كلمة "الكانبو" مأخوذة من اللفظ الفرنسي "aucun bon"، أي الشخص الذي لا يملك البون/قسمة شراء التي تخول له الحصول على الطعام.
- (٢٨) عبد الأحد السبتني وعبد الرحمان لخصاصي، **من الشاي إلى الأتاي العادة والتاريخ**. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٩٩، ص ٣٢. "يبدو أن شرب الشاي لم يصبح في متناول كافة الفئات الاجتماعية هناك إلا منذ الأربعينيات من هذا القرن. وتشاء المفارقة أن يقترن تعميم المشروب الجديد بمراحل خصاص في الموارد (عام البون)".
- (٢٩) محمد استيتو، **الفقر والفقراء في المغرب القرنين ١٧ و١٨م**. مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، ط. ١، ٢٠٠٤، ص ٤٨٤.
- (٣٠) "اللهم عَمِّرْ بلادنا، وقوِّ زائدنا".
- (٣١) ابن خلدون، **مقدمة**. م.س، ج. ٢، ص ٧٢٤. "أن الاجتماع البشري ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه..."
- (٣٢) ابن خلدون، **مقدمة**. م.س، ج. ٢، ص ٥٠٨.
- (٣٣) **نفسه**. ص ٥٠٩.
- (٣٤) **نفسه**. ص ٦٩٧.
- (٣٥) **نفسه**. ص ٥٠٩.
- (٣٦) **نفسه**. ص ٧٢٢. الموتان: ماتت الأرض موتانا أي خلت من العمارة والسكان.
- (٣٧) ابن خلدون، **مقدمة**. م.س، ج. ٢، ص ٤٦٧. "إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله..."
- (٣٨) **نفسه**. ص ٦٩٨.
- (٣٩) **نفسه**. ص ٦٩٧-٦٩٨.
- (٤٠) جاك لوغوف، **التاريخ والذاكرة**. م.س، ص ١٠٣.

- (١) "اللهم ادفع عنا الغلاء والوباء والربا".
- (٢) جاك لوغوف، **الذاكرة والتاريخ**. ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للدراسات والأبحاث السياسية، قطر، ط. ١، ٢٠١٧، ص ٥١.
- (٣) ابن هيدور، **مقالة في الأمراض الوبائية**. نقلًا عن الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**. منشورات زمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٣٣.
- (٤) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. ٣ أجزاء، تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، ط. ٧، دار نهضة مصر، ٢٠١٤، ج. ١، ص ٣٢٦.
- (٥) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**. تحقيق كرم حلمي فرحات، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٧. تجدر الإشارة إلى أن "إغاثة الأمة" هي بمثابة دعاء يدعو به المقرئ ربه أن يكشف عنهم كربهم ويرحمهم. بمعنى "اللهم أعث أمتنا".
- (٦) محمد استيتو، **الفقر والفقراء في المغرب القرنين ١٧ و١٨م**. مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، ط. ١، ٢٠٠٤، ص ٤٦٥-٤٦٩.
- (٧) "اللهم ارفع عنا هذا البلاء، وأنزل علينا الشفاء".
- (٨) "نسأل الله أن يجعلكم حين تتكلمون مهابين، وإذا تحدثتم تُفزعون (من يسمعكم)، وأن تمرّوا وسط العدو دون أن يشعر بكم".
- (٩) حاولنا في سياق "تناهض العلوم" توظيف تكامل المقاربة الطوبونيمية والدعاء/المعروف في دراسة مظاهر الخوف والذهنيات بالمغرب.
- (١٠) المَقْتَلَة: مكان بقرية مطروح إقيم تاوريرت المغرب. وسمي ذلك المكان بالمقتلة لأنه وقعت فيه مقتلة عظيمة بين بطن من قبيلة بني يعلى الصفايف الأمازيغية وقبيلة عربية، نتج عنه سقوط عدد كبير من القتلى في صفوف القبيلة المنهزمة بني يعلى. واسم طوبونيمية "المقتلة" اسم يحمل طابع تاريخي ورمزي في أوساط بني يعلى.
- (١١) عثمان عفيف حيدر، **"الذاكرة والتاريخ من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف"**. ضمن **مجلة منبر الحوار**، العدد ٣، دار الكوثر، ١٩٩٨، ص ٤٠٤.
- (١٢) رواية شفهية أفادنا بها السيد سماعيل الجليلي، من مواليد ١٩٦٠، مكان اللقاء العيون سيدي ملوك (المغرب)، بتاريخ ٢٠/٧/٢٠٢٥.
- (١٣) عكاشة برباب، **"مادة بني يعلى"**، ضمن **معلمة المغرب**. ج. ٥، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٩٩٢، ص ١٦٠.
- (١٤) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ٦٠٩-١٢١٢/١٢١٢م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**. منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ٤٣٢.
- (١٥) يُنظر **الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي**. ترجمة عبد الأحد السبتني وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٨٨.
- (١٦) ابن خلدون، **مقدمة**. م.س، ج. ٢، ص ٤٨٥.
- (١٧) أرنولد توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**. ج. ٤، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، ج. ١، ص ١٤٧.

السلطان ولصوص، بمعنى متمرد اليوم أصبح قائد الغد. لتوسع يُنظر عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية**. م.س، ص ٨٤٨، ٥٠٨.

(٥٥) يقول المثل الشعبي: "الْحَزْتُ دَوَامًا، وَالصَّابَةُ عَوَامًا". والصابة: هي المحصول الزراعي الذي تنتجه الأرض خلال الموسم.

(٥٦) يُنظر مثلاً "الْمَنَارَل" أو "أدب الأنواء". لتوسع أكثر يُنظر الزجالي، **أمثال العوام**. م.س، ج ٢، ص ٨-٣٠-١١٢-١٩٥-٢٠٥-٢٢٥-٢٧٢.

(٥٧) ابن خلدون، **مقدمة**. م.س، ج ٢، ص ٦٦.

(٥٨) **نفسه**. ص ٥٤٣. تجدر الإشارة إلى نظرية ابن خلدون لا يمكن تعميمها على كل مراحل تاريخ المغرب.

(٥٩) أبو عبد الله محمد لسان الدين ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**. تحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط ١، ١٩٠٠، ص ٢٧.

(٦٠) جاك لوغوف، **التاريخ والذاكرة**. م.س، ص ١٣٢.

(٤١) حتى وإن كنا قد ربطنا هذا الدعاء بفترة القرن العشرين، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن هذا الدعاء ليس له امتداد، مثلاً، بفترة العصر الوسيط.

(٤٢) "اللهم زَيِّنْ أيامك، وقوِّ طعامك".

(٤٣) تجدر الإشارة إلى أن الصعوبات التي قد تواجه الباحث في هذا الموضوع هي صعوبة التأريخ لنصوص الأدعية بدقة، كما تتداخل الأدعية في بعض الحالات مع الأمثال الشعبية. مثلاً ردد أحد العوام دعاء في عزاء معين بصيغة "اللَّهُ يَزِدُّ الْمَاءَ لِمَجْرَاهُ، وَالْعَبْدُ لَمَوْلَاهُ" وهو مثل شعبي يعود لفترة الموحدين، ودليلنا في ذلك، أنه ورد في كتاب أبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**: (مستخرجة من كتابه: **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**). جَزَان، تح محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، فاس، ١٩٧٥، ج ٢، ص ٢٢١.

(٤٤) ابن خلدون، **مقدمة**. ج ٢، م.س، ص ٥٦٤.

(٤٥) محمد نبيل ملين، **السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب**. ترجمة عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة كوتر برانت، الرباط، ٢٠١٣، ص ١٤٨.

(٤٦) عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية**. م.س، ص ٥٠٥. يُنظر أحمد التوفيق، "مادة السببة" ضمن **معلمة المغرب**. ج ١٥، مطابع سلا، ٢٠٠٢، ص ٥٢٠.

(٤٧) عدم فصلنا بين المخزن والسلطان بحكم "أن المخزن مجسد في شخص السلطان"، لتوسع أكثر يُنظر محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**. منشورات مؤسسة عبد الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث الدار البيضاء، ٢٠١١، ص ٣٩٦.

(٤٨) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. ٩ أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج ٨، ص ٤٩. "فكانت هذه المدة كلها مجاعة، أكل الناس فيها الميتة والخنزير والأدمي. وفني أكثرهم جوعاً، والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام ويصير على الجنود الأموال الثقالة...رتب الخبز في كل مصر، يفرق على ضعفائه في كل حومة".

(٤٩) محمد بلاجي، "أقنعة الطعام". ضمن **مجلة أمل**، محور الأطعمة والأشربة في تاريخ المغرب، العدد ١٦، ١٩٩٩، ص ١٦١.

(٥٠) يُنظر جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**. الشركة المغربية للنashرين المتحدين، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦، صص ١٤٥-١٦٤.

(٥١) غلال ركوك، مادة "خربوشة". ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ١١، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص ٣٦٨.

(٥٢) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**. م.س، ص ٣٩٧. "غياب السلطان يربك العامة، وتزيد البلبله في صفوفهم..."

(٥٣) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٩٤، ج ٣، ص ٢٩١.

(٥٤) تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء القياذ الذين يتحركون لفرض الأمن والاستتباب ضد قطاع الطرق بعضهم في الأصل متمردون ضد

العلاقات السياسية لقبيلتي مزوطة وكدميو في منطقة أسيف المال مع السلطة المركزية بالمغرب من العصور القديمة إلى نهاية العهد السعدي

شرف ازناك

باحث بسلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش

جامعة القاضي عياض - المملكة المغربية



ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على جوانب من التاريخ السياسي لأسيف المال ومحيطها القبلي، من خلال تتبع مسار قبيلتين من قبائل الأطلس الكبير الغربي، المعروفة تاريخياً بجبل درن، وهما قبيلة مزوطة وقبيلة كدميو. تركز الدراسة على علاقة هاتين القبيلتين بالسلطة المركزية في المغرب عبر العصور المختلفة، بدءاً من المراحل التي سبقت الفتح الإسلامي، مروراً بالعصور التي شهدت حكم الدولة المرابطية والدولة الموحدية والدولة المرينية، وصولاً إلى نهاية الدولة السعدية في القرن السابع عشر. وتكشف هذه الدراسة عن التباين الكبير في طبيعة العلاقة بين هاتين القبيلتين والسلطة المركزية، حيث تنوعت بين فترات من الانخراط الفاعل في المؤسسات السياسية والمشاركة في أجهزة الدولة، وبين فترات أخرى من الرفض والمقاومة، التي اتسمت أحياناً بالتمرد ضد التوجهات السياسية والسلطوية للأسر المتعاقبة. كانت هذه التحولات في العلاقة مرتبطة بتبدل موازين القوى السياسية وتغيير مراكز النفوذ في تلك الفترة. كما تبرز الدراسة أن منطقة أسيف المال ومحيطها القبلي لم تكن تمثل فضاءً هامشياً معزولاً، بل كانت عنصراً أساسياً في التفاعلات السياسية الكبرى التي شهدتها المغرب الوسيط. فقد أسهمت نخب هذه المناطق المحلية في تشكيل القرار السياسي، سواء من خلال المشاركة أو الدفاع عن مجالها في مواجهة التحديات المختلفة. وتساهم هذه الدراسة في سد الفجوة الواضحة في الدراسات التاريخية المتعلقة بدور الهوامش القبلية في تشكيل البنية السياسية للمغرب قبل العصر الحديث، وتدعو إلى ضرورة إعادة إدماج هذه الأبعاد في السردية الوطنية للتاريخ المغربي.

كلمات مفتاحية:

أسيف المال؛ الأطلس الكبير الغربي؛ المحيط القبلي؛ مزوطة؛ كدميو؛ التاريخ السياسي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٥ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.406098.1248

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

تشرّف ازناك، "العلاقات السياسية لقبيلتي مزوطة وكدميو في منطقة أسيف المال مع السلطة المركزية بالمغرب من العصور القديمة إلى نهاية العهد السعدي". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦. ص ٤٧-٤٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: aznague77@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

وصلتنا عن السكان الأصليين جاءت عرضاً، من خلال ما ورد عند الجغرافيين والرحالة، وهم يكتبون عن شعوب أخرى، فهل لهذا التأثير على الطبونيميا القديمة للمنطقة؟ وما حدود هذا التأثير؟ وبعد وصول الفتح الإسلامي وجدنا أنفسنا أمام واقع آخر، وهو أن أخبار البلاد والسكان ووقائع الفتوحات لا نعرفها إلا من خلال نصوص تاريخية متأخرة^(١).

وهكذا فإن توارد الشهادات عن منطقة الأطلس الكبير الغربي، سواء كانت نقوشاً صخرية^(٢)، أو نصوصاً وردت ضمن الكتابات الأجنبية^(٣)، الإغريقية والرومانية^(٤)، تدل على أن المنطقة، كانت لها أهمية في التعامل الخارجي، في تلك الفترة التاريخية، وإن استعصى رسم نوع هذا التعامل، ومراكزه الرئيسية في هذه المنطقة في حقبة ما قبل الإسلام^(٥).

أولاً: أسيف المال ومحيطه القبلي، ما قبل العهد المرابطي

تتميز هذه المرحلة بالنسبة لمنطقة أسيف المال، بافتقار من حيث المعطيات التاريخية، وهذا ما يدفعنا إلى ربط المجال المدروس تاريخياً، بالمجموعة البشرية الكبرى وهي المصامدة، والتي ستنمخض عنها في مراحل تاريخية، العديد من الكيانات السياسية التي ستعمل دائماً على الحفاظ عن استقلالها في وجه موجات الاحتلال الأجنبية المتوالية^(٦).

لقد دخل الإسلام^(٧) إلى هذه المجالات سنة ٦٢هـ، في نفس الفترة التي فتحت فيها مجموعة من المراكز والمدن بدير الأطلس الكبير الغربي مع عقبة بن نافع، يقول البكري إن الفاتح العربي عقبة قد توغل في المغرب إلى أن وصل مدينة نفيس التي "حاصر بها الروم ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانيتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها، وبنى بها مسجداً إلى اليوم، وأصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنين وستين"^(٨) وهو المعطى نفسه سجله ابن خلدون: "ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر... ودخل المغرب الأقصى، وأطاعته غمارة، وأميرهم يومئذ يليان، ثم جاز إلى ويلي، ثم جبال درن وقاتل المصامدة"^(٩).

نستهدف من خلال هذا العمل وضع منطقة أسيف المال ومحيطها القبلي وتحديداً قبيلتي مزوطة^(١٠) وكدميو^(١١)، في إطار السيرة التاريخية والسياق العام للأحداث والوقائع التاريخية على المستوى المحلي في علاقتها بالسلطة المركزية، أو في علاقتها مع باقي الكيانات القبلية المجاورة، وجدير بالملاحظة أن المادة المصدرية المتوفرة لا تسمح ببناء صورة عامة ومسترسلة عن المسار التاريخي للأحداث^(١٢)، نظراً لكون المنطقة نائية عن المركز ومنطقة الظل والهامش بالنسبة للكتابات التاريخية^(١٣)، إلا أن هذا لا يمنعنا من المحاولة في سد الفراغ، لبناء صورة نسبية لما عرفته المنطقة من تحولات تاريخية واجتماعية عبر العصور التاريخية، فالمصادر والمراجع المعتمدة لا تخلو من إشارات، بدءاً بالاسطوغرافيا القديمة، فالمعلومات المقتضبة التي تتعلق بهذه النقطة، ترتبط بالسياق الذي تحدثت فيه هذه الكتابات عن جبال الأطلس على وجه عام، فمنذ هيرودوت نعلم أن قمم الأطلس تكسوها الثلوج صيفاً وشتاءً، وتخيم عليها السحب^(١٤) وفي الروايات الأسطورية التي همت الأطلس باعتباره جبلاً أو كائناً بشرياً^(١٥)، كما تحدث أحد الكتاب عن الرياح العاتية التي تهب فوق جبال الأطلس، وقد عصفت بأحد أبناء الملك أطلس المدعو هسبيروس الذي كان ذات يوم فوق قمم الجبل يلاحظ حركة النجوم^(١٦)، كما أن هذه الكتابات التاريخية القديمة، تصف جبال الأطلس بكونه يشمل غابات ذات ظلال كثيفة وفواكه متنوعة، وأنها مليئة بالحيوانات المفترسة، وخاصة الأسود والفيلة^(١٧).

يبدو والظاهر عليه أن النصوص التاريخية القديمة^(١٨)، لا تسعنا في تكوين صورة عن تاريخ المجال عامة، وبالتالي الخروج باستنتاج عام عن طبيعة العلاقات السياسية والاجتماعية خلال هذه الفترة، وقد لخص الباحث عبد الله العروي ذلك بقوله: "قبل قدوم الفاتحين المسلمين إلى المنطقة، مرت بها حضارات مختلفة بعضها لم يتجاوز الساحل، وبعضها الآخر توغل داخل البلاد، غير أن ما يميز هذه المرحلة، أننا لا نعرفها إلا من خلال الآداب اليونانية واللاتينية، فالمعلومات التي

الذي عرفه حكم الأدارسة، تطرح حوله العديد من التساؤلات، منها محاولة معرفة الأسس التي على أساسها كان؟ ولماذا اختير الأمير عبد الله لإمارة مدينة أغمات ومدينة نفيس وما والاها من بلاد المصامدة؟ والمصادر في هذا المضمار لا تمدنا بالمعلومات الكافية التي تهم هذا الواقع السياسي بالمنطقة والمتسم بالتبدل، إن هذه الحركية السياسية هي التي جعلت المنطقة محط أنظار الكثيرين حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري، والتي توجت بالحركة السياسية المرابطية.

ثانياً: أسيف المال ومحيطه القبلي خلال العهد المرابطي

عرفت منطقة أسيف المال ومحيطه القبلي، تحولا كبيرا على المستوى السياسي والاقتصادي مع وصول المرابطين إليها، بعد سيطرتهم على بلاد سوس بقيادة أبي بكر بن عمر اللمتوني، وعبد الله بن ياسين الجزولي^(٢٩)، حيث "ارتحل إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، وفتح أيضاً بلاد رودة، وفتح مدينة شيشاوة بالسيف، ثم فتح بلاد نفيس وسائر بلاد كدميو، وأتاه قبائل رجرجة وحاحة فبايعوه، وارتحل إلى مدينة أغمات"^(٣٠)، هذا التحول الذي ستعرفه المنطقة مع مجيء المرابطين سيكون له أثر سلبي اقتصادي على جميع مناطق ومدن الدير التي لم تعد تذكر بعد هذه الفترة، خاصة مع بناء مدينة مراكش، والتي ستلعب دورا مهما في محاصرة المصامدة أصحاب الأرض، ويفهم ذلك من خلال تراجع مجموعة من المدن ذات الأهمية الاقتصادية والسياسية فيما قبل، كمدينة نفيس^(٣١) و أغمات^(٣٢) وشيشاوة^(٣٣)، وكانت هذه المدن هي المتنافس الاقتصادي لقبائل المصامدة، وفي هذا الصدد نورد نص ابن خلدون حيث يقول: "لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيما وجماعتهم موفورة وبأسهم قويا، وفي أخبار الفتح مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف، إلا أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستحلا، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما، حتى لقد اختطوا مدينة مراكش لنزلهم جوار مواطنهم من درن ليتمرسوا بهم،

وبدخول عقبة مدينة نفيس الحصينة انفتح أمامه وادي السوس الأقصى^(٣٤)، فقصده عاصمته مدينة ايجلي، وحسب الفكرة الجغرافية السائدة في ذلك الوقت والتي تعتبر أن الساحل الأطلسي للمغرب يتجه من الشرق إلى الغرب، اعتبر عقبة أنه أنهى فتح المغرب، وفي طريق العودة عرج على قبائل حاحة ورجرجة ثم صودة، فدعاها إلى الإسلام فاستجابت إليه، وعند وادي تانسيف ترك شاكر بن عبيد الله الأزدي، والمعروف حالياً بسيدي شيكر على وادي تانسيف غربي شيشاوة بنحو عشرين كيلومتر، ليعلم البربر الإسلام^(٣٥)، وخلال هذه الفترة عرفت المنطقة بشكل عام مجموعة من الإمارات المستقلة كنفيس، وأغمات وأوريكة وأغمات هيلانة^(٣٦)، هذه الإمارات التي سماها ابن خلدون بدولة إمغارن^(٣٧)، مما يفيد أن المنطقة ظلت تحتفظ بتشكيلاتها السياسية، وبعد ذلك خضعت المنطقة لسلطة الأدارسة سنة (١٩٧هـ / ٨١٢م)، يقول الجزنائي: "وأقام الإمام إدريس رضي الله عنه ساكنا بها - فاس - إلى سنة سبعة وتسعين ومائة، فخرج إلى غزو من بقي من الكفار بنفيس وبلاد المصامدة، فوصل إليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات، وفتح سائر بلاد المصامدة"^(٣٨)، وحقيقة أننا لا نجد في المصادر ما يجعلنا نفتحم خضم الحديث عن طبيعة العلاقة التي بين الأدارسة بفاس واتخاذ المنطقة كولاية تابعة لها، وما شهدته من مجريات الأحداث؛ نظراً للبعد الجغرافي الذي تميزت به مناطق الجنوب عامة^(٣٩).

فالمغرب خلال هذه المرحلة كان يعيش مرحلة التمييز بين العقائد ومجال النفوذ، لتأمين الموارد الاقتصادية التي ضمن بها استمراريته^(٤٠)، فخروج إدريس غازياً إلى بلاد المصامدة أنهى إليها واستولى عليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات وعاد إلى فاس^(٤١)، ومن ثم يمكن القول بأن حملته دامت سنتين، وهو من غير المعقول أن يقوم بهذا المسح الشامل لهذا المجال الترابي الواسع في هذه المدة القصيرة مهما توفرت الوسائل وتعددت الإمكانيات، وبعد التقسيم الذي عرفه الحكم الإدريسي بين أبناء إدريس الثاني، بإيعاز من الجدة كنزة بنت إسحاق^(٤٢)، نجد بأن حكم الأدارسة بمجال المصامدة قد تم بإمرة عبد الله بن إدريس^(٤٣)، وهذا التقسيم بدوره

لها البيدق المعاصر للأحداث بابا سماه " باب نذكر فيه الحصون التي بناها المجسمون ليجعلوا فيها خيلهم ورجالهم ويتحصنوا فيها، فلم ينقدهم من أمر الله شيئاً" (٤٦)، هي التي وفرت الشروط اللازمة لانطلاق الدعوة الموحدية بقيادة محمد بن تومرت، التي كان أول هدف عسكري لها، هو الاستيلاء على هذه المدينة.

ثالثاً: أسيف المال ومحيطه القبلي خلال العهد الموحي

١/٣- النخبة المحلية وتأسيس الدولة

نهضت الدولة الموحدية على حلم عظيم أرادت أن تحققه بكل عزم وفي كل ميدان، ذلك الحلم هو الثورة على كل شيء، الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية، الثورة على مناحي التفكير في العقائد والأحكام والعلوم عامة، الثورة بالتجديد، وبإعادة صرح الدولة الإسلامية الكبرى قوياً شامخاً عظيماً مهاباً (٤٧)، هكذا وصف محمد بن تاويت بداية الدعوة الموحدية التي نشدت التغيير بتوظيف العناصر والقبائل المحلية المحيطة بمراكش، والتي احتضنت محمد ابن تومرت منذ ظهوره الأول بالمجال وفراره من متابعة المرابطين، وقد ذكر البيدق في هذا الصدد مراكز ومحطات توقف عندها ابن تومرت كان من أهمها: "تاكوش متاع كدميو عند دار يوسف بن حمو، ثم منها نحو تينمل، ثم منها نحو اين ماغوس، ومنها نحو صودة فنزل بها عند علي الصودي وعبد الرحمان الصودي، ثم منها نحو تاكطوش ن ينسان" (٤٨)، ويتبين لنا من خلال النص أعلاه أن المنطقة المدروسة كان لها وزن تاريخي مهم في صناعة ومناصرة القوة الصاعدة للموحدين، كما تعكس بحث محمد ابن تومرت عن منطقة آمنة لبث الدعوة الموحدية وتحويلها إلى عمل مسلح (٤٩).

وبعد أن حصل محمد ابن تومرت على بيعة أصحابه تحت شجرة خروب عام ٥١٥ هـ بالمهدية، كان أول من بايع المعصوم، الخليفة عبد المومن بن علي ثم أبو إبراهيم، ثم بعده عمر أصناك، ثم عبد الواحد الشرقي، ثم عبد الله بن محسن الونشريسي، وبعده أبو موسى الصودي (٥٠)، هذا الأخير اختص بخدمة المهدي محمد ابن تومرت (٥١)، وبعد أن شيد هياكل حركته في مجلس

ويذلوا من صعابهم" (٣٤)، ومنذ القرن الرابع الهجري نجد في وادي نفيس دار المرابطين أسسه وجاج بن زلو اللمطي من رجال التصوف... كان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه، وإذا أصابهم قحط استسقوا به (٣٥)، كما أفاض الناصري في ذكر قضية انتداب ابن ياسين للخروج إلى الصحراء ذاكراً أن أبا عمران قال ليحيى: "إني أعرف ببلد من نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقاً ورعاً أخذ عني علماً كثيراً، واسمه وجاج بن زلو المطي من أهل السوس الأقصى... فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ حتى وصل إلى الفقيه وكاك بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب... ونظر الفقيه وجاج في الكتاب ثم جمع تلامذته فقراه عليهم... فانتدب لذلك رجلاً منهم يُقال له: عبد الله بن ياسين الجزولي" (٣٦).

لقد كان لمدينة نفيس (٣٧) شأن تجاري كبير كما اعتبرت مركز ديني جهادي نشيط ومعروف قبل تأسيس مراكش وازاحتها لكل مدن الدير نحو الهامش (٣٨)، ومما يذكر في فضلها من جهاد احتضان عدد من زعماء هذه العمليات منها، "الفقيه ابن تامجورت الهزميري من أبناء بلد نفيس قد مات بمراكش وحمل إلى بلده ودفن فيه" (٣٩) ويضيف كذلك "أن الولي الصالح ابن أكرام الهزميري هو الآخر من أبناء مدينة نفيس" (٤٠)، ونجد في كتاب مفاخر البربر إشارة إلى أحد كبار الشيوخ "الشيخ الفقيه الصالح العالم التاريخي أبي علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس" (٤١)، ويجمع المؤرخون على الاقتراح الذي قدمه القوم لأبي بكر بن عمر اللمتوني في شأن الاختيار الملائم لتأسيس وبناء مدينة مراكش يكون "نفيس جناتها وبلاد دكالة فدائها وزمام جبل درن بيد أميرها" (٤٢).

إن ظهور مدينة مراكش كمدينة كبيرة، ثم كعاصمة للمغرب المرابطي، جعلها تحتكر القرار السياسي وتستحوذ على كل الأنشطة التجارية، أدى بذلك إلى خفوت الأدوار الاقتصادية لمدن الدير (٤٣)، وبالتالي تراجع أهميتها (٤٤)، وهذه الظروف الاقتصادية التي فرضها التواجد المرابطي بعد تشييدهم لمدينة مراكش التي احتكرت وامتصت الأهمية التجارية التي كانت لمدن المصامدة، إلى جانب سياسة بناء الحصون (٤٥)، التي أفرد

(٥٧)، في حين تزايدت أهمية النفوذ القبلي للمصامدة، سواء على مستوى مشاركة أفراد هذه القبائل في الجيش التومرتي الذي هدد غير ما مرة عاصمة المرابطين (٥٨)، أو من حيث الأماكن التي جرت بها أهم المعارك بين الطرفين وخاصة المجال السهلي لأزميز (٥٩)، إلى جانب دورها في بناء الدولة الموحدية، حيث قاموا بالأمر وحملوا سيره وأنفقوا في مذهبهم وممالكهم في سائر الأقطار على نسبة قريبهم من صاحب الأمر (٦٠)، وهم الذين "تجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث" (٦١) وهنا ستظهر إحدى أبرز مميزات الحركة الموحدية وهي تنظيمها، ولكون ابن تومرت هو المهدي المعلوم والإمام المعصوم، فإنه سيصبح رئيس الجماعة الجديدة، لأن الواجب الديني يقتضي ذلك، لكنه لن يمارس السلطة وحده، بل سيؤسس عدة أجهزة تساعد في تسيير الحركة الموحدية.

٢/٣- النخبة المحلية والمشاركة في الحكم من خلال المجالس

تتفق معظم الكتابات التي أرخت للفترة الموحدية على أن القبائل التي شكلت عصبية الدولة كلها تنتمي لمصامدة الجبل (٦٢)، وهم سبع قبائل وصفهم المراكشي عبد الواحد بأنهم: "الجند والأعوان والأنصار ومن سواهم من البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم، سبع قبائل أولهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة هرغة، ثم قبيلة عب المومن تسمى كومية، ثم أهل تننمل، ثم هنناتة ثم جنفيسة، ثم جدميو ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكوة، فهذه جملة من قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم" (٦٣)، وهذه القبائل هي التي شكلت أساس أجهزة الحركة التومرتية ومؤسسات الدولة في مراحلها الأولى، فلعبت شخصيات ونخب هذه القبائل الدور القيادي عند الموحدين والتي توزعت على مجموعة من المجالس أهمها:

١- مجلس أهل الجماعة (٢/٣)

يضم هذا المجلس العناصر التي لعبت الأدوار الأساسية في قيام الحركة الموحدية مع ابن تومرت (٦٤)، وأغلبهم تعلقوا به قبل استقراره بهرغة، ولذلك سماهم بالمهاجرين تشبيهاً بالمهاجرين الذين رافقوا النبي من

شورى محكم، بدأ ثورته على الأوضاع، بفتح عدد من المناطق القريبة من موضع تتمل كبلاد "ماغوس وهناية ووادي نفيس عام (٥١٨هـ / ١١٢٤)" (٥٢)، وكانت من ارهاصات هذا الفتح/ الثورة ومقدماتها الانحلال الذي أصاب دولة المرابطين وضعف شخصية الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، الذي كان على الرغم من صلاحه وزهده عاجزاً عن تدبير قيادة الدولة وتسيير شؤونها، وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي: "واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين، وأحق بالأمر منه، واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله، ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهراً عنه ذلك، وأهمل الرعية غاية الإهمال" (٥٣)، إلى جانب عجز فقهاء الدولة في عهد الأخير عن تطوير المذهب المالكي الذي كان محور حركة المرابطين، وتوقعهم في نطاق لا تسعى إلى غير حماية مكاسبها ومصالحها، وما حققته من امتيازات من جود الأمير ومكافئته (٥٤)، فكان لابد لهذه الأسباب وما نتج عنه من ضعف وانحلال ظهرت بوادرها في مختلف المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية أن تجعل الناس يضيّقون بالوضع ويصرفون النظر عن هذه الدولة، وبالتالي الانضمام للمهدي بتنمل الذي أخذ يدرس العلم لأصحابه ويدعوا الناس لمذهبه، من خلال تأليفه بالبربرية والعربية وبالتالي الإصغاء لدعوته حيث قال: "من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته" (٥٥)، فأصبح هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز (٥٦).

ويظهر من خلال المصادر التي دونت أخبار الحركة التومرتية على أنه بعد مبايعة قبائل المصامدة لابن تومرت ومساندتها له لم يعد للمهدي إلا الدور التنظيمي

مكة إلى يثرب، وأغلب المؤرخين يضعون هذا المجلس على رأس التنظيم الموحد ويسمونه بأهل العشرة ويرجع المؤرخون هذه التسميات إلى كون أعضاء هذا المجلس هم أول من بايع المهدي بن تومرت^(٦٥)، أما البيدق فإنه يسمى هذا المجلس بالجماعة ولا يطلق عليه أهل العشرة، ويذكر أسماء اثني عشر عضواً^(٦٦)، منهم الشيخ أبو يوسف يعقوب أفغور الصودي^(٦٧)، والشيخ أبو موسى عيسى الخلاسي الصودي^(٦٨).

ورغم الاختلافات الموجودة في اللوائح التي يوردها المؤرخون فإنها تضم العناصر التي لعبت الدور القيادي مع ابن تومرت في قيام الحركة الموحدية، يقول البيدق بأن المهدي كان يسمى عبد المومن "بصاحب الوقت"، وأنه اختصه بفرس أخضر^(٦٩)، كما اختص أبا حفص عمر الهنتاتي "بالدرقة" ودعا له بالبركة، ويقول كذلك بأن أبا إبراهيم اسماعيل الهزرجي كان يقضي بين الناس بإذن من المهدي، وأن سليمان أخضري كان يكتب الرسائل بإذنه كذلك، وأبا محمد عبد الله بن سليمان كان يؤم الفريضة بإذنه أيضاً^(٧٠)، وأبو عمران بن تمارا الكدميوي كان أميناً للجماعة^(٧١)، يظهر أن الاختصاصات السالفة لأعضاء أهل الجماعة تبين لماذا أطلق عليهم ابن القطان^(٧٢) وزراء المهدي، فهم كانوا يلعبون دور حياة تنفيذية تساعد المهدي في تسيير أمور الموحدية المختلفة، الدينية والقضائية والإدارية والاقتصادية.

(٢/٣) ٢- مجلس أهل الخمسين

بعد مجلس الجماعة يأتي مجلس الخمسين في الرتبة الثانية للتنظيمات الرسمية لحركة الموحدية^(٧٣)، وأورد كل من البيدق وابن القطان، لائحة أعضاء هذا المجلس، واختلفا في عدد أعضائه وأسمائهم وتوزيعهم بين مختلف القبائل^(٧٤)، ولائحة البيدق تضم أربعة وخمسين اسماً، بينما تضم لائحة ابن القطان واحداً وأربعين فقط، وقد لاحظ هذا الأخير كون اللائحة التي نقلها عن اليسع ناقصة، فيقول: "وهم على هذا زهاء ٤٤ رجلاً فأين تمام الخمسين"^(٧٥)، ويتبين من اللائحتين اللتين أوردهما المؤرخان السابقان، أن عدد أعضاء مجلس الخمسين لم يكن قاراً، بل أنه كان ينقص ويزيد، فهذا المجلس خضع لعملية التمييز^(٧٦)، والتي راح

ضحيتهما خمس قبائل بموقع إيكرن وسنان^(٧٧)، من بينهم: "ابن ماغوس بموضع يقال له إيكرن آيت كورييت مع أصادن وكدميو متاع تاكوشت"^(٧٨)، والظاهر أن تصفية هذه القبائل أو بعض من تركيبها راجع لوزنها وأسبقيتها في مناصرة حركة محمد ابن تومرت منذ ظهورها الأول، وبالعودة إلى تركيبة مجلس الخمسين والتي تهم المنطقة المدروسة فنجد من بينهم "أبو محمد يعيش بن تمارا، وأبو علي سحنون بن تمارا، وأبو محمد عبد الكريم بن تمارا، وأبو محمد سعد الله"^(٧٩) وجميع هذه الأسماء من قبيلة كدميو، وقد أضيف إليه بعد تمام هذه العملية أكثر من تسعة أعضاء جدد، ولا شك أن هؤلاء حلوا محل الأعضاء الذين صفوا خلال إجراء التمييز^(٨٠).

وكان لهذا المجلس دور استشاري، فابن القطان يقول بأن: "مجلس الخمسين كان يضم أصحاب مشورته"^(٨١) ويضيف قائلاً بأنهم "كانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم، فإذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين"^(٨٢)، فهذا المجلس كان بمثابة مجلس استشاري يضم رؤساء القبائل وأعيانها، وأغلب القرارات كانت لا تصدر إلا بعد استشارتهم.

(٢/٣) ٣- الطلبة والحفاظ

بالإضافة إلى المجالس الاستشارية كَوْن المهدي ابن تومرت أجهزة أخرى كجهاز الحسبة وجهاز الغزاة والذي ضم قبيلة كدميو^(٨٣)، إضافة إلى جهاز الدعاية هو جهاز الطلبة والحفاظ^(٨٤)، وقد استعمل هؤلاء لكسب القبائل وتعليمها عقائد المهدي واثارتها ضد المرابطين^(٨٥)، وفي إرساله الطلبة لكسب القبائل كان يعمل على تبيان خصوصية دعوته^(٨٦)، فهي ليست دعوة قبلية، بل دعوة دينية تتجاوز القبائل، دعوة ترتكز على الولاء للعقيدة الجديدة وليس الولاء القبلي، فهي لا تهدف إلى تكريس سيطرة قبيلة على أخرى بل إلى نشر المعتقد الصحيح وإحلال العدل في كل مكان. لكن ابن تومرت كما سبقت الإشارة لم يكن يتجاهل التنظيمات القبلية، لذلك كان يوصي طلبته أن يتصلوا برؤساء القبائل قبل غيرهم؛ لأنه متى كسب ود هؤلاء كسب ود القبيلة ككل، فهو كان يحرص دائماً على الاتصال بالأشياخ وأعيان القبائل واستمالتهم إلى ما هو بصده من الأمر بالمعروف والنهي

وبذلك قطعوا العلاقات التكاملية القائمة بين الجبل و السهل، الذي صار رعوياً بدوياً.

١/٤-أسيف المال ومحيطه القبلي،

والخضوع الهنتاتي / المريني

استغل المرينيون ظروف الدولة الموحدية، فوفدوا إلى المغرب في صيف سنة (٦١٠هـ / ١٢١٣م)^(٩٠)، وقد دفعهم إليه ضعف حاميته، إذ أنهم وجدوه قد "باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته و أبطاله، ومات الكل بغزاة العقاب، واستولى على بلادهم الخراب وعمرته السباع والذئاب، فأقاموا بمكانهم، وبعثوا إلى إخوانهم، وأخبروهم بحال البلاد وقالوا لهم أسرعوا إليها، فليس بها من يصدكم عنها ولا من ينازعكم فيها، فوصل الخبر إلى بني مرين، فبادروا إلى المغرب مقبلين"^(٩١) و "لما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم"^(٩٢).

وبعد ذلك نصب المرينيون أنفسهم لإقرار الأمن، ثم سعوا إلى الإطاحة بالموحدين الذين ظهر عجزهم عن سياسية أمور البلاد، فدخل الطرفان في مواجهات مفتوحة، ابتدأت بالمعركة المؤرخة بعام المشعلة، سنة (٦١٣هـ / ١٢١٦م)، وانتهت بدخول المرينين إلى مقر الخلافة الموحدية سنة (٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، وقد عبر ابن أبي زرع عن هذا الواقع بقوله: "وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقض وتبين أي تبين، وصارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبت أكثر الناس الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدنيء والشريف، وأكل القوي الضعيف، وكل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شراً ابتدعه، وليس لهم سلطان يفهم، ولا أمير عن غيهم يردهم ويصدهم، وكانت قبائل فازاز من جناتة، وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والأوقات"^(٩٣).

عن المنكر ومحاربة المرابطين، كما أنه استعمل في دعايته اللغة الأمازيغية لتحقيق هذا الغرض^(٨٧).

وقد أعطى كذلك للأشياخ عدة امتيازات، ومنهم كون مجلس الخمسين، وهذا ما جعل أعضاء قبائلهم يخضعون لابن تومرت دون صعوبة. يقول ابن القطان عن مكانتهم عند ابن تومرت: "وانعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم إلى أن تسمع بقية عوامهم منهم وتطيع"^(٨٨). ويتبين من خلال دراستنا لتنظيمات الحركة الموحدية، على عهد ابن تومرت، أن الأخير عمل من أجل تجاوز الإطار القبلي دون نفيه تماماً واستبداله بتنظيم يخدم السلطة المركزية الجديدة، فهو استعمل سلطته كإمام معصوم وكمهدي ليعطي لجماعته تنظيمًا يراعي الحزازات القبلية، وفي ذات الوقت يوجه كل طاقاتها لنشر الدعوة، وبهذا التنظيم استطاع أن يضع اللبنة الأولى لأكبر إمبراطورية سيشهدها الغرب الإسلامي. وبعد وفاة المهدي سيجري عبد المومن عدة تعديلات على تنظيمه خصوصاً بإقراره للملكية الوراثية^(٨٩)، جعلته يفقد مميزاته الجوهرية، فعبد المومن أنشأ تنظيمًا جديدًا ابتعد فيه كثيراً عن النموذج الأصلي للحركة؛ لذلك لا نجد في تاريخ الموحدين بعد ابن تومرت إلا آثار شكلية فقط للتنظيم الذي وضعه الداهية المهدي ابن تومرت.

رابعاً: أسيف المال ومحيطه القبلي خلال

العهد المريني، بين الخضوع والتمرد

انصب اهتمام المرينيين على شمال المغرب وشرقه، ولم يهتمهم من الجنوب سوى إبادة فلول الموحدين والقضاء على آثارهم، وطاردتهم القائد أبو علي الملياني إلى تنمل، حيث نشر الخراب ونبش القبور، لما كثرت الخلافات بين زعماء المرينين وضعفت شوكتهم أتيح الفرصة لأسرة حاكمة محلية لتتولى حكم منطقة الجنوب المغربي، ابتداء من سنة ١٣٥٣م، وهي الأسرة الهنتاتية، لكن سرعان ما دب الخلاف بينهم كذلك، فضغفوا ولم يستطيعوا فرض نفوذهم على الأعراب الذين عاثوا فساداً في أحواز مراکش، ودحروا السكان إلى الجبال واستعاضوا على الزراعة بنشر الرعي،

منهم إليه بما فيه وبما في قدر استطاعته، على أنهم لا يملكون لأحد قيادتهم، ولا يسلمون إليه بلادهم، وهم معه على كل حال بين صحة واعتلال^(٩٩)، وقد أدى هذا إلى حدوث دمار وفوضى واختفاء عدد كبير من التجمعات السكنية وعودة النظام القبلي ليهيمن من جديد على التركيبة البشرية للمنطقة حسب ما أفاد به التاسفتي في رحلته: "وأما دار الملك هناك فلم يظهر أثرها؛ لأن عدوهم حين سلطه الله عليهم من ملوك بني مرين بعد انصرام دولة الموحدين خرب وادي نفيس كله، وهدم الديار على أربابها هناك"^(١٠٠)، كما نستحضر هنا شهادة الوزان عن مدينة أغمات التي أضحت مأوى للشعالب والذئاب، ولم يعد سكنها سوى ناسك متعبد مع جماعة من أتباعه^(١٠١)، فإذا كان حال أغمات على هذا الوصف فكيف نتوقع أن يكون عليه حال مدن المجال المدروس: نفيس، تشرافت، فم الجمعة...، والتي بات تحديد موقعها مجهولاً حتى من قبل العارفين بشؤون المسالك والممالك^(١٠٢)، ويظهر من خلال النص أن المصامدة لم يخضعوا للسلاطين المرينيين الذين سبقوا السلطان أبي الحسن المريني، كما أن السلطان المذكور لم يفرض عليهم سلطانه المباشر.

٢/٤- أسيف المال ومحيطه القبلي، والتمرد

على الحكم المريني

شكل استقرار المرينيين بمراكش عامل ردع للقبائل العربية المستوطنة بالسفهل المحيط بها، وبعد انتقال أبي يوسف يعقوب إلى فاس، ثار عرب سفيان ببلاد نفيس بزعامة مسعود بن كانون السفياني، سنة (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، وقد كان وقع ثورتهم عظيماً بسبب تزامنهما مع الاستعدادات الجارية للجهاد بالأندلس "فانخرقت على السلطان الفتوق، وتوالت عليه الخطوب، ولم يدر ما يصنع"^(١٠٣)، ونظراً لجسامة الوضع الذي أصبح يهدد بنفس الدولة، خاصة وأن عرب سفيان كانت لهم الغلبة على بسائط الحوز منذ عهد الموحدين، اضطر أبو يوسف يعقوب إلى تأجيل الجهاد، وتقديم أمر عرب سفيان وزعيمهم مسعود بن كانون، "فكر راجعاً إليه، وقدم بين يديه حفيده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي، وجاء هو على ساقتهما، وفر مسعود بن

ونتيجة لذلك، بدا يتبلور طموح المرينيين في الإطاحة بالدولة الموحدية، خاصة بعد تيقنهم بعدم قدرتها على تأمين السبل والضرب على يد المفسدين، وهو الأمر الذي دعا أبا عثمان المريني، إلى جمع "أشياخ المرينيين وندبهم على القيام بأمر الدين، والنظر في مصالح المسلمين"^(٩٤).

وبتداءً من سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م)، وجه المرينيون جهدهم إلى ضم مراكش، وقد استغرق إخضاعها قرابة عقد من الزمن (٦٥٩هـ - ٦٦٨هـ / ١٢٦١-١٢٦٩م)، تخلله حملات عسكرية انتهت خلالها المرينيون إلى أحواز مراكش تارة، وإلى أسوارها تارة أخرى، كما هو الشأن بالنسبة لحملة أمر الرجلين سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م)^(٩٥)، التي تمكنوا خلالها من الحصول على بيعة جملة من العرب والمصامدة بأنحاء مراكش^(٩٦)، على الرغم من أنه يصعب تحديد القبائل التي انشقت عن الحكم الموحدية، خاصة وأن الغالبية العظمى منه المشكلة للمجال كانت هي ركائز الحكم الموحدية.

والجدير بالذكر، أن علاقة قبائل مصمودة بالدولة المرينية قد تحكمت فيها عوامل عدة، فهناك قبائل أرغمت على تقبل الوجود المريني، يستشف هذا مما ذكره ابن خلدون كون "كدميو كانوا تبعاً لهنتاتة وتتمل في الأمر، وجبلهم لصق جبل هنتاتة"^(٩٧)، ودام هذا الخضوع إلى حين بداية ضعف الدولة المرينية، ويتضح ذلك من خلال قدرة السلطان أبي يعقوب يوسف على اعتقال شياخي قبيلة كدميو وهنتاتة، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "وكان السلطان سخط على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هنتاتة، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميو، وأوعز إلى ابنه الأمير علي بمراكش باعتقالهما، فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية"^(٩٨)، وهنالك قبائل اعتصمت بالجبال الحصينة، وظلت رافضة للوجود المريني منها قبيلة سكساوة؛ وفي هذا السياق قدم العمري نصاً بالغ الأهمية لفهم علاقتها بالدولة المرينية، قال فيها متحدثاً عن المصامدة: "وقد كانوا لا يدينون لسلطان من سلاطين العدو، ولا يقدر أحد من ملوكها يقتل لهم في غارب ولا ذروة، وقد دانوا للسلطان أبي الحسن صاحب بر العدو الآن، وقد دخلوا تحت ذيل طاعته، وتقرب كل

٣/٤-إمارة هنتاتة والاستقلال عن الحكم

المريني

استغل عامر بن محمد الهنتاتي الظروف العصبية التي كانت تجتازها الدولة المرينية، فسيطر على جانب من منطقة الأطلس الكبير الغربي وتحكم بزمائها، وفي هذا الصدد أورد ابن الخطيب وصفاً يبين مكانة عامر بن محمد الهنتاتي، وسطوته بقوله: "وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش المخاطبة إلى عميد تلك البقعة، وشاه تلك الرقعة، صدر هذه الحدود القصوى، المتميز بالرجاحة والرأي والسياسة، المتفق فيه على إفاضة العدل، وكف اليد، والتجافي عن مال الجباية، والمستأثر بحمد الجمهور من الرعية، وحب أولي العفاف والخيرية، إلى النبل الذي لا يطيش نبله، والإدراك الذي لا يسبر غوره، والمعروف الذي لا يتجاوز محال الضرورة حكمته"^(١١٠).

ويمكن وضع عام (٧٨٥هـ / ١٣٨٣م)، تاريخاً لتأسيس إمارة هنتاتة، ويفهم ذلك على ضوء إشارة الحسن الوزان، وذلك بقوله: "تواترت أسرة عبد المؤمن الملك من عام ٥١٦هـ/ إلى عام ٦٦٨، حيث خلعهم ملوك بني مرين....، واحتفظت هذه الأسرة بالملك إلى عام ٧٨٥هـ، فانقرضت بدورها، ودخلت مراكش تحت حكم بعض الأمراء من أبناء جبل درن"^(١١١)، والمقصود هنا بالأمراء في رواية الوزان، هم أمراء هنتاتة، نظراً لسابقتها في الحكم، ولطموحها السياسي الذي برز من خلال سلوك أمرائها تجاه المرينيين.

وأورد في السياق ذاته مارمول كاريخال، نصاً حدد فيه القوى السياسية التي كانت تتقاسم سيادة المجال المذكور بقوله: "كان مولاي إدريس يسيطر على جبال الأطلس الكبير، وابن حدو وأخوه مولاي فارس على الجبل الأخضر، وقسم من إقليم دكالة، وكان هذا الأخير يحتل بعض المواقع على نهر أم الربيع، ولم يفكر الشرفاء بعد استيلائهم على إقليم سوس وبعض مناطق حاحا إلا في التوسع بدعوى الجهاد، وكان الوطاسي ملك فاس قبل الأخير لهذه الدولة يملك إقليم هسكورة وتادلا مع قسم من إقليم دكالة، ولم يكن لمولاي الناصر بوشنتوف سوى حكم مراكش، وهو يعاني الكثير للاستمرار في الحكم،

كانون وجموعه أمام السلطان، فانتهب معسكرهم، وحللهم، واستباح عرب الحارث من سفيان"^(١٠٤)، إلا أنه لم يفلح في القبض على مسعود بن كانون، الذي فر إلى جبل سكساوة وتمنع به إلى أن هلك سنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)^(١٠٥)، وعبرت ثورة عرب سفيان عن رفضهم للسلطة المرينية، وكشفت وجود صلة ترجع جذورها إلى زمن قوة الدولة الموحدية، التي شكل فيها عرب سفيان إلى جانب المصامدة عصب الدولة، وإيماناً من المرينيين بما يمكن لعرب سفيان أن يسببوه لهم من متاعب في البلاد المراكشية، فإنهم حاولوا جهد الإمكان استمالتهم، ومن جملة ما قاموا به في هذا الصدد، مصاهرة أبي يوسف يعقوب لهم بزواجه من أرملة مسعود بن كانون عام (٦٨١هـ / ١٢٨٢م)^(١٠٦)، بعد عام من وفاة زوجها، إلا أن هذا الإجراء لم يفلح في ثني قبيلة سفيان عن موقفها.

لقد شكل مجال الأطلس الكبير عبئاً على الدولة المرينية، طوال الفترة الممتدة من سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م، إلى سنة (٧٦٢هـ / ١٣٦١م)، بسبب ثوراتها المتكررة، ولكونها ملجأً مفضلاً للمطالبين بالحكم^(١٠٧)، ويحدثنا ابن خلدون عن أحد هؤلاء الثوار قائلاً: "ولما تغلب بنو مرين على المصامدة ووضعوا عليهم الضرائب، امتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء، بحص تافرجا، وتيسخت من جبلهم، وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مرين، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستمائة، وعاسكر يوسف بن يعقوب مجمرة على حصاره، فهدموا حصونه وأذلوا من قومه"^(١٠٨)، ويخيل إلينا أن المرينيين سعوا إلى حل هذه المعضلة بإحداث تقسيم ترابي جديد، كانت فيه منطقة كدميو تابعة لهنتاتة^(١٠٩)، ومن الواضح أن لجوء المرينيين إلى هذا الشكل من التدبير نابع من وعيهم باستحالة ضبط المنطقة بسبب ضعف الدولة، وغياب عصبية زناتية قوية بالبلاد المراكشية تشكل سندا مدعماً للدولة، مما أودى في الأخير بالمنطقة ومع حلول النصف الثاني من القرن (٨هـ / ١٤م)، إلى فك ارتباطها بالدولة المرينية وجنحت إلى الاستقلال تحت زعامة هنتاتة.

ما بين (٩١٨هـ / ١٥١٢م)، و(٩٣٢هـ / ١٥٢٦م)، فقد تم إتلاف معظم معالم المنطقة التاريخية، من مدن وقرى، مما ارتكبه القوات البرتغالية، من تخريب وتدمير، ومدهامات وقتل وسبي ومصادرة^(١١٧)، وكمثال على هول ما أصاب المنطقة، ما ورد في رسالة برتغالية مؤرخة ب ١٥ فبراير ١٥١٤م، تذكر أن القوات البرتغالية، "هاجمت المناطق التابعة للشريف، حيث قتل ٥٦٠ نفرا، وأسروا حوالي ٤٢٠ شخصا، وجلب ١٠,٠٠٠ رأس من الغنم، و٦٠٠٠ من الأبقار، و ١٥٠٠ من الجمال، و ٦٠٠ حمار، و ٦٠ من الخيل"^(١١٨)، وتساءل الباحث، معلقا بقوله: "إذا كان هذا ما تمت حصيلة خسارته في حملة واحدة، فكيف ستكون خسائر الحملات الأخرى؟"^(١١٩).

ولم تكن هذه القبائل القائمة بمنطقة مجال الدراسة عرضة للغارات البرتغالية فقط، بل كانت تعاني كذلك من الحركات الوطاسية والهناتية والسعدية^(١٢٠)، وذلك نظرا لأهميتها اقتصادياً، ولكونها منطقة تماس بين هذه القوى كلها^(١٢١)، لقد نتج عن هذه الوضعية انعدام الأمن، وازدياد الضغط على سكان المنطقة، من شدة مضايقة القبائل العربية^(١٢٢)، ومن هذه الحالات، ما كانت تعانيه تيبوت وتشرافت التي كانت "بأسيف المال" يتلف بسايتها بفيضاناته في فصل الشتاء، والأعراب الذين كانوا ينهبون غلتها في فصل الصيف"^(١٢٣)، كما يتبين من خلال رحلات كل من العبدري وابن قنفذ وابن الخطيب والتي وصفوا فيها بلاد المغرب، أن الأمن لم يكن متوفراً دائماً حتى بجوار المدن المحصنة بأسوارها.^(١٢٤)

لقد أصبحت هذه المناطق بسبب الصراعات، منعزلة عن بعضها البعض^(١٢٥)، ولم يعد بالإمكان الانتقال بينها إلا برخص مرور يمنحها زعماء القبائل لزائرهم، مقابل أداء حقوق المرور^(١٢٦)، الشيء الذي قلص من حركة التنقل والتبادل فيما بينها، ونجم عن ذلك أيضاً استبداد الخوف والقلق بالناس إلى حد كبير^(١٢٧)، فالوزان لم يتمكن من النزول ضيفاً عند أحد داخل أمزميز بسبب سوء الأحوال هناك، واكتفى بالبقاء مستحراً بخيمة سيدي كانون، أحد الصلحاء الكبار الذي يحظى بثقة عظيمة^(١٢٨)، فالغارات والصدمات كانت من المشاهد اليومية، ينتج عنها في كل مرة سقوط العديد من القتلى والجرحى والأسرى، إلى درجة أن "كان الناس في النهار

لأن الأعراب كانوا سادة البادية يجوبون البلاد كلها"^(١٢٩)، أما المجالات المحيطة بمراكش، فكانت تتقاسمها قوى محلية، إذ أخضع إدريس الهنتاتي المناطق الجبلية، وسيطر أمير أنماي على المنطقة الممتدة من أنماي، إلى مراكش، في حين انحصر نفوذ ناصر بوشنتوف أمير مراكش في المنطقة الممتدة من مراكش إلى أغمات^(١٣٠)، وظلت الأراضي الواقعة بين مراكش وجبل درن في صراع بين أمير مراكش وأمير الجبل^(١٣١)، وبحلول العقد الثاني من القرن ١٠هـ / ١٦م، أهدقت بالمنطقة الأخطار وتوالت عليها الكروب، وتنافست القوى المحيطة بها في اغتنام الفرص للانقضاض عليها، وقد لخص مارمول كريخال ذلك، أثناء حديثه عن أمير مراكش، بقوله: "كان يزعمه مولاي إدريس والأعراب من جهة، والبرتغاليون ويحي وملك فاس الذي أراد أن يسلبه المدينة من جهة أخرى".^(١٣٢)

إضافة إلى ذلك استغل البرتغال ضعف دولة بني وطاس، فزحفت على احتلال المراكز والمرافئ، يقول صاحب "الاستقصا" واصفا الوضع بالمغرب خلال هذه الفترة بشكل دقيق واضعاً هذا الزحف الأيبيري في سياقه: " فلما دخلت المائة التاسعة، ومضى صدرها، وتداعت دول المغرب، من بني حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى، و بني الأحمر بالأندلس، وأشرفت على الهرم، وحدثت الفتن بين المسلمين، ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو، ومطالبته في أرضه وبلاده، على ما كان لهم في العادة قبل ذلك، وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الإصبيول، والبرتقال وهم البرطقيز، بجزيرة الأندلس، واستفحال أمرهم، فكثرت أسفار البرتقال في البحر المحيط، ودام تقلبهم فيه، ومرنوا عليه، حتى حصلوا على عدة جزائر منه، واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان دونها، حتى تمكنوا منها، ونشبو فيها، فقوت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام، وطمعت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك"^(١٣٣).

لقد أشار الباحث الزرهوني، إلى ما كان لهذه الغارات البرتغالية، من خسائر فادحة وعواقب وخيمة، على منطقة الدير، رغم أن مدتها لم تتجاوز أربعة عشر سنة

خامساً: أسيف المال ومحيطه القبلي خلال العهد السعودي الأول والمتأخر

١/٥-العهد السعودي الأول

تذكر المصادر، أن أشياخ قبائل حاحا و الشياظمة لما سمعوا بالتفاف أهل سوس حول محمد القائم بأمر الله ذهبوا إلى تدسي سنة (٩١٨هـ / ١٥١٣م)، ودخلوا في طاعته وبعدما أطلعوه على أحوال بلادهم طلبوا منه أن يرحل معهم إلى جبال الأطلس الكبير لتكثيف الجهود وتقوية المقاومة وشد عضد المجاهدين هنالك فاستجاب لطلبهم وانتقل معهم إلى أفغال^(١٣٨)، فقد كانت المنطقة فيما قبل وإلى حدود نهر أم الربيع، مجالا لنفوذ أمراء هنتاتة، الذين نزلوا من جبالهم واستقروا بأنماي، ومراكش وشيشاوة^(١٣٩)، وبجوارهم في بلاد حاحة يوجد عمرو السيف^(١٤٠)، وقد كانت هذه القبائل في صراع دائم فيما بينها، وبين القبائل العربية التي فرضت عليها إتاوات، كأزميز^(١٤١) وتشرافت بكدميو^(١٤٢).

إن مناصرة شيوخ قبائل حاحة والشياظمة، للقائم بأمر الله كانت تعبر عن إرادتهم في الخضوع لسلطة سياسية، كان السكان في حاحة إليها ملء الفراغ، ولتسيير العمليات الجهادية وفق تخطيط محكم يضمن توفير شروط الانتصار على العدو^(١٤٣)، ومعنى ذلك التخلص من بيعة الوطاسيين، وعقد بيعة جديدة مشروطة بالجهاد، أي تحرير البلاد كأولوية، وتأسيس دولة قائمة على الجهاد وليس على العصبية، استجابة لمعطيات جديدة داخل إطار ظرفية دولية جديدة مميزاتها هجوم المسيحيين على الغرب الإسلامي، والسيطرة على التجارة العالمية، واكتشاف قارات جديدة اعتماداً على تقنيات جديدة^(١٤٤).

وقد شهدت المنطقة في علاقتها بالدولة السعودية نشأة أول نظام قائدي بقبيلة كدميو^(١٤٥)، مقره أزميز بقيادة محمد بن عبد الله وتوزالت الذي عينه أحمد الأعرج على المنطقة بعد تقديمه له البيعة والولاء معززا إياه بكتيبة عسكرية من خمس مائة فارس، أشرت على بداية واستدامة حكم أيت توزالت لأزيد من ثلاثة قرون ونصف^(١٤٦)، قبل أن تهتز أركانه ويتداعى صرحه مع الأحداث التي صاحبت وفاة الحسن الأول^(١٤٧).

يدرسون محاصيلهم، وهم على ظهور جيادهم متأهبين للفرار في كل لحظة من غارة برتغالية^(١٣٩).

يتبين من هذا أن القرن ١٦م، أعطى فعلاً لسنوات إلا استقرار بعدا لم تعرفه من قبل^(١٣٠)، إذ أن اضطراب الأوضاع وهجرة القبائل قلص من مساحات الرقعة المزروعة، وقلل من أعداد اليد العاملة، مما انعكس على مخزون الأفراد والقبائل من الحبوب، وقلل من إمكانية الصمود في وجه السنوات الجافة^(١٣١)، ذلك أن هذه الأوضاع المضطربة كثيرا ما كانت تجعل القبائل والأفراد يجمعون على الحرث والزرع أو يتأخرون في عملية الحرث، وإن هم حرثوا فإنهم يكتفون بما يلبي حاجاتهم، أو أقل حتى إذا تعرض مجهودهم ذلك للتلف من جهة كانت الخسارة قليلة^(١٣٢)، ولذلك يمكن القول بأن الوجود الوطاسي الذي استغرق قرابة نصف قرن - أي بعد إنشاء دولة السعديين بأكثر من نصف قرن - ليس إلا فترة دامية من تاريخ المغرب^(١٣٣).

كما أن نفوذ الرباطات والزوايا بدأ يتقوى خلال هذه المرحلة المتسمة بضعف السلطة المركزية، وعجزها عن ضبط شؤون البلاد والتصدي للأطماع الأجنبية^(١٣٤)، ففي الوقت الذي تقلص سلطان الدولة عن المنطقة منذ أواخر العهد الموحيدي، مع بروز الثورات^(١٣٥) مروراً بالمرينيين والوطاسيين، وهم إمارة صغيرة في فاس، بقيت أطراف المغرب مستقلة لا تطالها السلطة المركزية، فتعددت الرئاسات وتقوى النفوذ الأجنبي، وظهرت زعامات صوفية سرعان ما تحولت من سلطة اجتماعية واقتصادية إلى سياسية؛ لقتال الأجانب، والحد من نفوذهم، ومحاولة إجلالهم عن المناطق التي استولوا عليها، وإن لم تحفظ المصادر التاريخية المغربية المكتوبة أخبارها، حيث تتردد بعض الإشارات الشفوية^(١٣٦) الباهتة عن وجود حركة جهادية في هذه المرحلة قبل بروز حركة السعديين التي انبنت على الجهاد كمشروعية للحكم^(١٣٧).

بالجبال^(١٥٤)، فالسلطان أحمد الاعرج استقدم قبائل شرفاء أولاد أبي السباع^(١٥٥) وأولاد مطاع^(١٥٦)، وبطون من قبائل تكنة وأحمر ومجاط^(١٥٧)، في حين استقدم أحمد المنصور قبائل دو بلال المعقلية^(١٥٨)، وقد دخلت هذه القبائل في نزاع حول الأرض والماء في أزمنة لاحقة مع القبائل الاصلية المستقرة.

٢/٥- العهد السعودي المتأخر

تميز حال المغرب بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي باستثناء الفتن والاضطرابات نتيجة اندلاع الحرب بين أبنائه الثلاثة، المأمون وأبو فارس وزيدان، ذلك أن أي واحد منهم لم يكن يحظى بإجماع المغاربة، لتصدر ذلك المنصب^(١٥٩)، فقد عمل المنصور إلى خلع ابنه المأمون من ولاية العهد، قبيل وفاته بسبب تورطه في مؤامرة مع أتراك الجزائر، فزج به في السجن بمكناس^(١٦٠)، واتهمت العامة ابنه الثاني زيدان بالمشاركة في اغتياله^(١٦١)، بينما كان أبي فارس مس من الجن^(١٦٢)، وبناء على ذلك كان الأمراء الثلاثة يفتقرون إلى المشروعية، فبذل كل أمير كل ما في وسعه ليستقطب الناس ويكثر سواده لمقارعة منافسيه فانقسم رأيهم واضطربت أوار الفتنة^(١٦٣).

وبالتالي فحين بويع زيدان بفاس هب أهل مراكش إلى مبايعة أبي فارس، الأمر الذي تسبب في نشوب حرب ضروس بين الإخوة الثلاثة، وصفها الإفرائي قائلاً: "وقعت بينه (أي زيدان)، وبين إخوته معارك يشيب لها الرضيع، وكان ذلك سبب خلاء المغرب، وخصوصاً مدينة مراكش^(١٦٤)، ودون تتبع مختلف المعارك الطاحنة التي دارت رحاها في جهات البلاد، ولاسيما بين فاس ومراكش، نشير إلى أن في ظل هذا الصراع، صرف زيدان نظره عن مدينة فاس مكتفياً بمراكش وأحوازها^(١٦٥)، وقد نجم عن هذه الاضطرابات السياسية وما واكبها من حروب، تدهور الحياة الاقتصادية في البلاد، فلم يمض على وفاة السلطان أحمد المنصور سنوات قليلة حتى عصفت تلك الاضطرابات والحروب بالبنات الاقتصادية التي كانت قائمة على صناعة السكر والتجارة الخارجية، كما شجعت حالة الفوضى التي حصلت برجع قبيلة أولاد أبي السباع للاستقرار من

ولعل الحدث التاريخي الأهم الذي شهدته المنطقة هو الخلاف بين قبائل جبل درن الجبلية مع السلطان السعودي محمد الشيخ، في مناسبات متعددة^(١٤٨)، ففي سنة ١٥٤٣ "أيام كان الشريف محمد ملكاً بمراكش، ظهر بهذا الجبل سيدي عبد الله الفقيه المرباط من رهط الموحدين، وحشد عدداً من البربر، لكن الشريف أرسل في الحين لقتاله سبعمائة من رماة البنادق الأتراك، وأربعة آلاف من الفرسان المغاربة... واستسلم على شرط أن ينسحب إلى مملكة فاس، لكن الشريف أمر بقطع رأسه"^(١٤٩).

ويبدو أن أهل جبل درن لم "ينقادوا بعد لسلطة الشريف"^(١٥٠) ولم تهدأ المواجهات بينهما، وقد أجاد الرحالة دي طوريس في نقل وضبط أدق تفاصيل إحدى تلك المواجهات الساخنة، وذكر أن القوم قد استعدوا بما فيه الكفاية لدرء الغزاة وتهيؤوا بكل ما يلزم لتنفيذ مشروعاتهم الحربي ضد عساكر السلطان، "فبدؤوا ينهبون جميع السابلة والتجار الذين يضطرون للمرور بأرضهم، أو التنقل من بلدة إلى أخرى... ويقطعون الطريق بواسطة إقامة حواجز كبيرة، وحضر خنادق عميقة، وقد استقطبوا من أجل ذلك محاربين متطوعين من الذين تحدوهم دائماً آمال النهب والسلب والانتقام، فأحدثوا بذلك اضطراباً مدمراً وشرّاً مستطيماً، هز أركان النظام وأرق وجدان الشريف، الذي أصر على منازلتهم بكل ما لديه من جند وعتاد إلى أن سقط صريعاً، قد اغتالته شرذمة من مرتزقة الأتراك وهو في طريقه نحوهم لاستئصال جذور تمردهم"^(١٥١)، ويعزى سبب تمردهم إلى فداحة الضرائب المجحفة التي عاد ليثقل بها كاهلهم، وإلى مواصلة التتكيل بأصحابهم وإعدام الكثير من شيوخهم بمراكش^(١٥٢)، فقد بلغت هذه المداخل حسب دي هينين زمن أحمد المنصور المستخرجة من امزميز وتزكين وإمين تانوت ٨٠٠,٠٠٠ أوقية^(١٥٣).

كما سعت السلطة السعودية الحاكمة إلى تقوية وتعزيز نفوذها بالمجال من خلال استقدام عدد من القبائل المناصرة من الجنوب المغربي، وتثبيتها بالمجال السهلي لقبائل المنطقة محرمات الأخيرة من مجالها التاريخي وموردها الاقتصادي الهام ودافعا بها للبقاء

كما بيّنت الدراسة أنّ هذه المنطقة لم تكن فراغاً سياسياً أو مجالاً معزولاً، بل شكّلت امتداداً حيويّاً للمجال المخزني، وأسهمت نخبتها المحلية في صنع القرار والدفاع عن المجال، وفي الوقت نفسه كانت ملاذاً للقوى المعارضة في فترات ضعف الدولة. إنّ هذا التداخل بين الهامش والمركز يعكس خصوصية تجربة قبائل أسيف المال، ويستدعي إعادة دمجها في السردية الوطنية العامة للتاريخ المغربي، بما يعيد الاعتبار لدورها في تشكيل البنية السياسية للمغرب قبل العصر الحديث. ومن ثمّ فإنّ إعادة قراءة تاريخ هذه القبائل ومجالها الجغرافي تُسهم في سدّ فراغ كبير في الكتابات التاريخية، وتفتح آفاقاً لبحوث أعمق حول دور الهوامش في صنع التاريخ السياسي للدولة المغربية.

جديد بحوز مراكش، منحصرين غرب وادي شيشاوة^(١٦٦)، والواقع أنه إذا أردنا أن نلخص الأوضاع العامة للبلاد بعد وفاة المنصور، وما أصابها من تفكك وتحكم الحكام وزعماء القبائل، لقلنا إن الرعية باتت رهينة في يد كل من طمع في زعامة، أو إمارة، أو سلطان، لا ينظر إليها إلا بصفتها مورداً للجباية، ومصدراً للوظائف والكلف، أترث في مجرى الأحداث التاريخية بمغرب القرن (١١هـ/ ١٧م).

خاتمة

هكذا يبدو أن لمحيط أسيف المال القبلي تاريخ عريق وممتد عبر الزمن، حسب مختلف الشواهد والوثائق التاريخية، على الرغم من عدم حصول اتصال وسيرورة في الأحداث، كما يمكن القول إن سلطة المخزن لم تكن لتتقي داخل المجتمع القبلي للمنطقة المدروسة، فعلى الرغم من تواجدها على هامش المركز إلا أنها لم تعرف شغوراً مخزنيّاً، وهو الأمر الذي يؤكد لنا بشكل جلي عدم القطيعة بين الهامش والمركز أو ما سماه بعض المنظرين الاستعماريين، بلاد المخزن وبلاد السبية.

يتضح من خلال استقراء المسار التاريخي لمنطقة أسيف المال ومحيطها القبلي، وخصوصاً قبيلتي مزوطة وكدميوة، أنّ هذه الرقعة الجبلية وإن بدت بعيدة عن مراكز القرار السياسي في المغرب، فقد ظلت دوماً جزءاً فاعلاً ضمن ديناميات الدولة المركزية عبر مختلف الحقب؛ من العصور القديمة، مروراً بالعهد المرابطي والموحدي والمريني، وصولاً إلى الدولة السعدية. فقد تباينت علاقتها بالسلطة المركزية بين الانخراط الإيجابي والمساندة العسكرية، وبين التمرد والرفض، تبعاً لتحولات موازين القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهو ما يبرهن على حيوية هذه القبائل وقدرتها على التكيف مع السياقات المتغيرة، رغم بعدها الجغرافي ومحدودية حضورها في المصادر التقليدية.

الإحالات المرجعية:

البندق الصنهاجي أبو بكر: في أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، ط/ الثانية ٢٠٠٤، ص ٣٢؛ بلاوي أحمد: الحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، ضمن أعمال ندوة، **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، مر/س، ص ٤٠؛ بلاوي أحمد: الإطار البشري والحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، **مجلة أطلس مراكش**، العدد ١، السنة الأولى، شتنبر ١٩٩٣، ص ٢١؛ هوزالي أحمد: مادة مدينة نفيس، **معلمة المغرب**، ج/٢٢، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/الأولى ٢٠٠٥، ص ٧٤٥١؛ زروال أحمد: مادة واد نفيس، **معلمة المغرب**، ج/٢٢، مر/س، ص ٧٤٥١؛ أبو ترجي محمد: **أزميز والبحث عن الزمن الضائع، نحو توثيق جزء من ذاكرة أزميز**، مكتبة المعارف - مراكش، ط/الأولى ٢٠١٧، ص ٣٧؛ أزيكو صديقي علي: مادة أزميز، **معلمة المغرب**، ج/٣، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/الأولى ١٩٨٩، ص ٧٥٢-٧٥٤؛ أزيكو صديقي علي: **تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة**، مركز طارق بن زياد - الرباط، ط/الأولى ٢٠٠٢، ص ١٦٦-١٦٣.

Berque Jacques : **De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments**, T/01, op, cit, pp: ٦٩, 250; Berque Jacques: **Structures sociales du Haut-Atlas**, collection sociologie d'aujourd'hui, Presse Universitaires de France, Paris, 3(ème) éd, 1978, pp: 06-07.

(٣) من نماذج الأعمال النقدية لبعض مصادر الحقبة المذكورة نجد: سعيد البوزيدي: إشكالية تناول تاريخ المغرب القديم من خلال المصادر الأجنبية، نموذج حرب يوغرطة للمؤرخ اللاتيني سالوستيوس، ضمن أعمال ندوة، **التاريخ القديم قضايا وأبحاث**، منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الدار البيضاء، ط/الأولى ٢٠٠٥، ص ٣٦-٢٣؛ فيلال عبد الله: مصادر الباحث في التاريخ القديم (نموذج المغرب)، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان**، العدد ١٢، السنة ١٩٩٩، ص ١٨٧-٢٠١؛ العمري عبد النور: إشكالية التأريخ الكولونيالي على الدراسات المغاربية القديمة ومحاولات التجديد المعاصرة، **مجلة روى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطة**، المجلد الأول، العدد ٢، أكتوبر ٢٠٢٠، ص ١٦٠-٤؛ شباحي مسعود: البحث التاريخي في بلاد المغرب القديم، مشاكله وال حلول المقترحة، **مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية**، المجلد الثالث، العدد ٥، ص ١٩١-٢٠٦؛ بولحية يحيى: الميثولوجيا والتاريخ نماذج للتحليل والاختبار، ضمن كتاب، **التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة**، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر، ط/الأولى ٢٠١٧، ص ٨٠٧-٨٣٨.

(٤) ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ١٥-١٧.

(٥) قامت الباحثة خديجة قمش بإنجاز أطروحة دكتوراه عن هذا الموضوع تحت عنوان: قمش خديجة: **الأساطير وتاريخ شمال أفريقيا القديم**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ والأركيولوجيا في شعبة التاريخ وحدة تكوين، شمال أفريقيا القديم تاريخ وأركيولوجيا، جامعة محمد الخامس أكادال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، السنة الجامعية، ٢٠٠٣-٢٠٠٤.

(١) كتابة اسم قبيلة مزوطة بهذه الصياغة المعتمدة حاليا يرجع إلى القرن الثامن عشر كما دلت على ذلك نصوص تلك الفترة ومنها رحلة الوافد، راجع: التاسفاتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأجلال بإذن الواحد**، تحقيق علي صدقي أزيكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل القنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم ١، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/الأولى ١٩٩٣، ص ٢١٧؛ وعن التطور الذي حدث في رسم اسم قبيلة مزوطة عبر التاريخ راجع:

ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ إلى الآن**، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ٢٠١٢، ص ١٥٢؛ الرزكي مريم: **الزاوية النحلية تراث وتنمية**، بحث لنيل شهادة الماستر في شعبة الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص ١٨؛ غاندي يوسف: **الزاوية النحلية ومدرستها بقبيلة مزوطة**، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ٢٠١٢، ص ٣٠-٣٥؛ بلاوي أحمد: الحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، ضمن أعمال ندوة، **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، الملتقى الأول ١٩٨٨، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ١٩٨٩، ص ٤١؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (١٢٨٠/١٨٦٣-١٨٧٣)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الحسن الثاني عين الشق - الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم ٥، مطبعة فضالة - المحمدية، ط/الأولى ١٩٩٨، ص ٧٣؛ المنوني محمد: ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس، **مجلة المناهل**، العدد ٦، السنة الثالثة، يوليو ١٩٧٦، ص ٢٣٤؛ شحامي رشيد: **قبيلة مسفيوة، المجال والمجتمع والتاريخ، من بداية القرن ١٦م، إلى منتصف القرن ٢٠م**، مطبعة SO-ME PRINT - أكادير ط/الأولى ٢٠٢٢، ص ٩٤-٩٥؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراطي**، منشورات جمعية الصلاح للتنمية والثقافة سيد الزوين، مطبعة تبوك - مراكش، ط/الأولى ٢٠٢٢، ص ٣٣-٣٤.

Berque Jacques : Mez'uda, Hydraulique et historicité, In : **De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments**, T/01, éd, Sindibad-paris 1978, p: 248; Berque Jacques : **De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments**, T/01, op, cit, p: ٦٩.

(٢) قبيلة كدميو: أو "إكدميون" حسب النقط المحلي، تقع مجاليتها غربي وادي نفيس في الجنوب الغربي لمدينة مراكش، وعن دلالة التسمية فالباحث أزيكو أشار إلى اشتقاق اسم قبيلة "كدميو" من "كدم"، ومعناه المرتفع والعالي والمطل على مجالات أخرى، راجع: التاسفاتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/س، ص ٦٧، الهامش ٢٣؛ أزيكو صديقي علي: **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم ١، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/الأولى ٢٠٠٤، ص ١٧-١٨؛ الزباني أبو القاسم: **الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع - الرباط، ط/الأولى ١٩٩١، ص ٧٩؛

1953, pp : 255-263 ; Boutaleb Brahim (Autres) : **Histoire du Maroc**, éd, Hatier - Paris, 1^{ère} éd, 1994, pp : 07-14.

(١٢) آيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**, مر/س, ص ٢١.
(١٣) تفيد المتن التاريخي حسب افادة الباحث محمد بوكبوت على أن الرومان كانت معاملتهم سيئة مع دول الجوار، وخاصة مع الشعب الأمازيغي الذي كان يسكن موريطانيا الإفريقية، فقد استهدفت الإمبراطورية الرومانية أذلال هذا الشعب واستنزاف خيراتهم، والاستيلاء على ثرواتهم، بيد أن الشعب الأمازيغي لم يرض بهذا الاحتلال الجشع، وقام بثورات مضادة، كثورة إيدمون، وثورة موريطانيا الطنجية، وثورة إفريقية الشمالية، وثورة دوناتوس، وثورة تافارينا، وفي هذا الصدد يقول الباحث: " **وطبقت روما سياسة اقتصادية جشعة طوال احتلالها، تلخصت في جعل ولايتها تخدم اقتصادياتها، وتلبي حاجياتها من الغذاء والتسليحة لفقرائها...، والتجارة المربحة لتجارها والضرائب لدولتها، والإبقاء على النزر اليسير لسد متطلبات عيش الأمازيغ الخاضعين** "؛ بوكبوت محمد: **الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات**، مركز طارق بن زياد - الرباط، ط/ الأول ٢٠٠٢، ص ٦٠؛ بنحريط ماجدة: **إفريقيا المورية خلال القرن السادس والسابع الميلادي**، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس، مختبر التراث دراسة وصيانة وإنقاذ، ط/ الأول ٢٠١٧، ص ٢٠؛ عرايشي حميد: **نظرات حول المغرب القديم**، بين الرواية الكولونيالية والحكاية الوطنية أي تاريخ، **إسطوغرافيا وبيلوغرافيا**، منشورات جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، ط/ الأول ٢٠١٩، ص ٢٠؛ حلق حسنية بوشامة خولة: **الحياة الاجتماعية للقبائل المغربية الشرقية (اللبية)** قديما من خلال الكتاب الرابع لهيرودوت، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، منشورات مختبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور، جامعة يحي فارس المدينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - الجزائر، ط/ الأول ٢٠٢١، ص ٤١-٦٠؛ محفوظ خالد: **قبائل نوميديا وموريطانيا القيصرية وأزمة الإمبراطورية خلال القرن الثالث للميلاد**، قراءة جديدة في ثورات القرن الثالث، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ٨١-١٠١.

أعشي مصطفى: **نهاية الوجود الروماني بالمغرب**، ضمن أعمال ندوة، **تاريخ الري في الجنوب المغربي**، مجلة **أمل**، العدد ٢٤، السنة الثامنة ٢٠٠١، ص ١١٠-١٤٠؛ عرايشي حميد: **استقلال وزدهار موريطانيا (المغرب القديم) تحت حكم الملك يوبا الثاني وابنه بطوليمايوس**، حقيقة أم أسطورة؟ مقارنة أولية، ضمن كتاب، **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة**، أعمال مهداة للأستاذ محمد ستيتو، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت - الرباط، ط/ الأول ٢٠١٩، ص ٣٨٨-٣٨٥؛ عولمي ربيع: **قبائل موريطانيا القيصرية ودورها العسكرية** إبان ثورة فيرموس (٣٧٢-٣٧٥)، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ١٠٣-١٢٧؛ فوكة محمد: **قبائل منطقة شمال سهل الشلف خلال العهد الروماني**، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ١٢٨-١٤٣؛ أعشي مصطفى: **نقاش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ**

(6) Bel Faïda Abdelaziz : Montagne et sacré en Afrique pré-Islamique, In : **La Montagne dans l'Histoire du Maroc**, Pub, FLSH, Sais - Fès, N°03, éd, 1994, p : 02.

(٧) مجذوب محمد: **الثروة المائية في المغرب القديم**، ضمن أعمال ندوة، **الماء في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني عين الشق، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١١، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط ١٩٩٩، ص ١٧؛ مجذوب محمد: **جبال الأطلس قبل التوسع الروماني**، ضمن أعمال ندوة **الجبل في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، سلسلة ندوات ومناظرات، العدد ٣، ط/ الأولى ١٩٩٤، ص ٢٤-٢٨؛ باصي روني: **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة حمو بوششار، دفاثر وجهة نظر، العدد ٢٣، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٢، ص ٢٧-٢٨؛ قمش خديجة: **جبال المغرب من خلال الأساطير القديمة والوسيطية**، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢٢، ص ١٥١-١٦٢.

(٨) البوزيدي سعيد: **دور المجال الغابوي في حفظ التوازنات البيئية والاقتصادية في المغرب خلال الفترة القديمة**، ضمن أعمال ندوة، **البيئة بالمغرب معطيات تاريخية وآفاق تنموية**، منطقة درعة نموذجاً، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - مركز الدراسات التاريخية والبيئية - سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٩، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص ٢٥؛ البرينسي عبد اللطيف: **جوانب من تاريخ الأطلس الكبير من خلال النقوش الصخرية**، ضمن أعمال ندوة، **المجالات الجبلية والتنمية المستدامة**، نموذج **أطلس مراكش**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، مجموعة البحث حول التدبير الجهوي والتنمية السياحية، سلسلة دراسات مجالية، العدد ٣، دجنبر ٢٠٠٨، ص ٢٥؛ آيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ١٩.

(9) Hamid Khadija : **Histoire du Maroc, à La Lumière de L'Archéologie**, éd : Afrique Orient - Casablanca, 2012, pp : 15-30, 65-120, 137-226.

(١٠) العروي عبد الله: **مجلد تاريخ المغرب**، ج ١، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط/ الخامسة ١٩٩٦، ص ٢٨.

(١١) البرينسي عبد اللطيف: **جوانب من تاريخ الأطلس الكبير من خلال النقوش الصخرية**، ضمن أعمال ندوة، **المجالات الجبلية والتنمية المستدامة**، نموذج **أطلس مراكش**، مر/س، ص ٢٥؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٦١-٦٢؛ أسميري محفوظ: **الجبال المغربية في العصور القديمة**، محاولة لرصد حصيلة البحث الأثري والتاريخي، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/س، ص ١٥-٣٢؛ فك عبد الهادي: **الفن الصخري بالأطلس الكبير مستجدات البحث الأثري وآفاق التثمين**، ضمن أعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/س، ص ٣٣-٥٢.

Mal homme Jean : **Aperçu sur les gravures rupestres de la région de Marrakech**, in : **Revue, Hes-T**, Vol/ XL, 01(er) et 02 tr,

(١٧) البكري عبيد الله: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، د.ت، ص ١٦٠.

(١٨) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج/٦، تحقيق خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط/ الأولى ٢٠٠٠، ص/٢٠٠، ص/١٢٧.

(١٩) أديوان محمد: **النسق الثقافي المشترك بين سوس والصحراء**، ضمن أعمال ندوة، **الصحراء وسوس من خلال المخطوطات والوثائق، التواصل والأفاق**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٩٦، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠١، ص ١٤٤؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ٣٧-٣٨.

(٢٠) ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب**، ج/١، ص/١٠٠، ص/٢٧؛ شقير محمد: **تطور الدولة في المغرب إشكالية التكون والتمركز والهيمنة من القرن الثالث ق.م إلى القرن العشرين**، إفريقيا الشيق - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٢، ص ١٦٧؛ التوفيق أحمد: **عودة إلى البحث في ظروف انفتاح المغرب الأقصى للإسلام**، ضمن كتاب: **في تاريخ المغرب**، مر/س، ص ٩١-١٠٠؛ الوافي نوح: **البادية في مسلسل أسلمة المغرب الأقصى** - وتعريبه، ضمن أعمال ندوة، **البادية المغربية، الذاكرة والتحول**، مر/س، ص ١٤٤.

(٢١) زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٦٥.

(٢٢) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، ص/٢١٧.

(٢٣) الجنائلي علي: **جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمصور، المطبعة الملكية - الرباط، ط/ الثالثة ٢٠٠٨، ص ٢٧؛ ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، ط/ الأولى ١٩٧٩، ص ٥٠؛ الناصري أحمد بن خالد: **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج/١، دار الكتاب الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٧، ص ١٣٥.

(٢٤) عمرأوي هجير: **قبيلة أوربة من الحضور السياسي إلى الفاعلية الثقافية في بلاد المغرب**، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ١٤٤-١٥٧؛ المليح محمد: **قبائل مسمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مطبعة الأمنية - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢٤، ص ٢٠؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ٤٠.

(٢٥) بيجين هوبرت: **تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، مر/س، ص ٥٠.

Boutaleb Brahim (Autres) : **Histoire du Maroc**, op, cit, pp : 60-67.

(٢٦) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص/١٠٠، ص/٥٠.

(٢٧) أزريكم عبد الرزاق: **الغرب الإسلامي من الفتح إلى القرن الخامس الهجري**، مر/س، ص ١٤١.

والرومان في موريطانيا الطنجية خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٢٠٠، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٤.

(١٤) بيجين هوبرت: **تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، عدد مزدوج 07-08، السنة الثانية، صيف/ خريف ١٩٨٨، ص ٤٤؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٦٣؛ بنحون ماجدة: **ملاحم من علاقات القبائل بمدن المغرب القديم**، ضمن أعمال ندوة، **البادية المغربية، الذاكرة والتحول**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٦١، مطبعة أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢١، ص ١٢٧-١٢٨؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ١٨-١٩؛ ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ٢٠-٢٣.

(١٥) جسوس عز الدين: **المجتمع السياسي ونسق تداول السلطة بالمغرب الدولة المرابطة نموذجاً**، منشورات الزمن سلسلة شرفات، العدد ٤٩، مطبعة بني ايزناسن - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٥، ص ١٢-١٣؛ البرينسي عبد اللطيف: **الاقتصاد الضيعي ومقولة اللازدهار الزراعي بإفريقيا الرومانية، مجلة أمل**، العدد ٤٤، ربيع ٢٠١٤، ص ١٥-٩.

(١٦) **عن أهم المراحل والأحداث المرتبطة بدخول الإسلام إلى مجال المغرب الأقصى، يمكن الرجوع إلى:**

الريق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم: **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبد الله الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط/ الأولى ١٩٩٠، ص ٣٣-٤٠؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب**، ج/١، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ط/ الثالثة ١٩٨٣، ص ٢٩-60؛ ابن عبد الحكم عبد الرحمان: **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط/ الأولى ١٩٩٩، ص ١٩٣-٢٠٠؛ ابن الأثير محمد بن محمد: **الكامل في التاريخ**، ج/٤، تحقيق محمد يوسف الحقائق، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط/ الرابعة ٢٠٠٣، ص ٩٠-١٢٠؛ أزريكم عبد الرزاق عمر: **بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى عصر الإمارة**، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص ٤٤-٦٢؛ أزريكم عبد الرزاق عمر: **الغرب الإسلامي من الفتح إلى القرن الخامس الهجري**، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠١٦، ص ٢١-٣٨؛ الطاهري أحمد: **فتوح إفريقية والمغرب والأندلس، حقائق جديدة**، - تطوان، ط/ الأولى ٢٠١٧؛ التوفيق أحمد: **عودة إلى البحث في ظروف انفتاح المغرب الأقصى للإسلام**، ضمن كتاب: **في تاريخ المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٩، ص ٩١-١٠٠؛ الوافي نوح: **البادية في مسلسل أسلمة المغرب الأقصى** - وتعريبه، ضمن أعمال ندوة، **البادية المغربية، الذاكرة والتحول**، مر/س، ص ١٤١-١٦٠.

Boutaleb Brahim (Autres) : **Histoire du Maroc**, op, cit, pp : 57-58.

(٣٩) ابن الزيات أبو يعقوب يوسف التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٢، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الثانية ١٩٩٧، ص ٤٠١.

(٤٠) نفسه: ص ٤٢٢.

(٤١) مجهول: **مفاخر البربر**، تحقيق، عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص ٧٥.

(٤٢) مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الإرشاد الحديثة الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص ١٥؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج/ ٤، ص/ ٤، ص/ ١٩.

(٤٣) قليلة هي الدراسات المونوغرافية التي همت الحواضر المغربية ما أشارت إلى علاقة المدينة بالبداية وما ترتب عنها، فغالبا ما نجدها تركز على قضايا التأسيس والمعطيات الطبيعية والبشرية والسياسية والعمرانية والاقتصادية... باستثناء بعض المقالات التي انفردت بهذا الموضوع لعل أبرزها:

أكدال سعيد: **التمدين غير الرسمي بالمغرب، دراسة لتطور المدينة المغربية عبر التاريخ**، مكتبة السلام الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٢٠، مجموعة من المؤلفين: **علاقات المدن بالأرياف على الطرف الجنوبي لبلاد جبال، منشورات مجموعة البحث المتعدد الاختصاص حول جبال، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ١٩٩٥؛ المودن نور الدين: ملامح من الحياة اليومية بوجدة وبواديها خلال القرن التاسع عشر، منشورات جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة رقم ٤٥، سلسلة بحوث ودراسات، ١٢، ط/ الأولى ٢٠٠١؛ مجموعة من المؤلفين: **المدينة المغربية بين التدبير المحلي والتنظيم الجهوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٨٥، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٠؛****

قدور أحمد: **المدن الموحدة وعلاقتها بالأقاليم دراسة اقتصادية واجتماعية**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٨؛ وهاب حماد: **علاقة الحواضر بالبوادي في العصر الوسيط، مجلة البادية المغربية، العدد ٩، السنة ٢٠٢٠؛ فتح محمد: ملاحظات حول علاقة المدينة بالبداية بالمغرب خلال نهاية العصر الوسيط، ضمن أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء ١٩٨٨، ص ٣٣٨-٣٤٦؛ المودن عبد الرحمان: **التوتر والانفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبل الاستعمار، فاس وأريافها بين القرنين السادس عشر والقرن التاسع عشر، ضمن أعمال ندوة، تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ١٩٨٨، ص ٣٧-٤٣؛ خلوق التمساني عبد العزيز: حول علاقات المدينة المغربية بأحوازها في بداية القرن العشرين، مثال حصار جبال لتطوان ١٩٠٣-١٩٠٤، مجلة الباحث، العدد ٢٢ السنة الرابعة، مارس - أبريل ١٩٨٢، ص ٦١-٧٢؛ مجموعة من المؤلفين: **المدينة المغاربية مقاربات تاريخية**، منشورات مختبر الحضارة المدنية بالحوض المتوسطي، دفاتر البحث العلمي رقم ٢٢، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٩؛ مجموعة من المؤلفين:****

تجارب في كتابة تاريخ المدينة المغربية، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٩، ص ١٤٣

(٢٨) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/ س، ص ٢٨.

(٢٩) جسوس عز الدين: **المجتمع السياسي ونسق تداول السلطة بالمغرب الدولة المرابطية نموذجاً**، مر/س، ص ٣٢؛ بوعينني سهام: دور عبد الله بن ياسين في تنظيم وتسيير قبائل صنهاجة، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ١٩٥-١١٠؛ ولد السالم حماد الله: **تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية**، منشورات الزمن، سلسلة قضايا تاريخية، العدد ٩، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الثانية، ٢٠٠٧، ص ٤٢-٤٣؛ ابن المليف عبد الله: **التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار البيات السياسية**، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشيق - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٤، ص ٣٨؛ المليف محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ٤٥-٥٢؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ٤٢-٤٨.

Hamid Khadija: **Histoire du Maroc, à La Lumière de L'Archéologie**, op, cit, p:277.

(٣٠) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/ س، ص ١٦٣.

(٣١) أبو ترجي محمد: **أمزميز والبحث عن الزمن الضائع**، مر/س، ص ٢١؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ٥٠-٥١.

Boutaleb Brahim (Autres): **Histoire du Maroc**, op, cit, p: ٨٨-٨٩. (٣٢) ازريكم عبد الرزاق: أثر الركود للاقتصادي في خراب المدن، نموذج أغمات وريكة، **مجلة أمل، العدد ٤٤**، مر/س، ص ٣٤-٣٦؛ ازريكم عبد الرزاق: **مدينة أغمات وما إليها، في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدينة الوسيطية ببلاد المغرب، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠١٢، ص ١١٩-١٢٩.**

(٣٣) ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ٢٥-٢٩، ٤٤.

(٣٤) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/ ٦، ص/ ٢٦٦.

(٣٥) الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/ ٢، ص/ ٧٠.

(٣٦) نفسه: ص ٦٠-٧٠.

(٣٧) لم يجد الفقيه الحادي الرحالة العبدري حرجا في توجيه سهام النقد والرفض للجغرافيين القدماء عند حديثهم عن مدينة نفيس ووصفهم إياها بالمدينة فدون في رحلته أنما هي "اسم نهر كبير عليه قرة كثيرة وعمارة متصلة وبينه وبين البحر ثلاثة أيام"، أنظر العبدري أبي عبد الله محمد: **رحلة العبدري**، تحقيق إبراهيم كروي، دار سعد الدين للطباعة والنشر - والتوزيع - دمشق، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص ٣٣٨.

(٣٨) شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ٥٦-٦٥؛ ازريكم عبد الرزاق: **مدينة أغمات وما إليها**، مر/س، ص ١١٩-١٢٩؛ ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ٣٤-٣٥.

الموحدية، ترجمة، عبد الواحد أكمر، منشورات الزمن، مطبعة النجاة الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٤، ص ٦٠.

(٤٩) زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرف الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٧٤، شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشرايحي**، مر/س، ص ٤٩.

(٥٠) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣٤.

والصودي نسبة إلى قبيلة صودة (مزوطة)، والتي كان يرسم اسمها في مؤلفات القدامى بأشكال متعددة، وعن التطور الذي حدث في رسم اسم قبيلة مزوطة عبر التاريخ، راجع:

ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ إلى الآن**، مر/س، ص ١٥٢؛ الرزيكي مريم: **الزاوية النحلية تراث وتنمية**، مر/س، ص ١٨؛ غاندي يوسف: **الزاوية النحلية ومدريستها بقبيلة مزوطة**، مر/س، ص ٣٠-٣٥؛ بلاوي أحمد: **الحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس**، ضمن أعمال ندوة، **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، مر/س، ص ٤١؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٧٣؛ المنوني محمد: **ملاحم العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس، مجلة المناهل**، عدد ٦، السنة الثالثة، يوليو ١٩٧٦، ص ٢٣٤؛ شحمي رشيد: **قبيلة مسفيوة، المجال والمجتمع والتاريخ**، مر/س، ص ٩٤-٩٥؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشرايحي**، مر/س، ص ٣٣-٣٤.

Berque Jacques : Mez 'uda, Hydraulique et historicité, In : **De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments**, T/01, éd, Sindibad-paris 1978, p :248 ; Berque Jacques : **De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments**, T/01, op, cit, p : ٦٩.

(٥١) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٢٦.

(٥٢) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٩٤.

(٥٣) المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا- بيروت، ط/ الأولى ٢٠٠٦، ص ١٣٥.

(٥٤) ابن المليح عبد الله: **التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار البيات السياسية**، مر/س، ص ٤٠؛ المليح محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ٥٢.

(٥٥) الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/02، مص/س، ص ٩٢.

(٥٦) علام عبد الله: **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي**، دار المعارف - مصر، ط/ الأولى ١٩٧١، ص ٦٩.

(٥٧) العمراني محمد: **الثورات والانتفاضات بجلال المغرب الأقصى، بين الميولات المذهبية وضغط السلطة المركزية خلال العصر المرابطي والموحدي**، شركة نادية للنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦، ص ٥٢.

Hamid Khadija : **Histoire du Maroc, à La Lumière de L'Archéologie**, op, cit, p :283.

(٥٨) نذكر من بين هؤلاء الزعماء، **أبو عمران موسى بن تماري الكدميوي**، أمين الجماعة وهو من خاصة المهدي العشرية، توفي في وقعة البحيرة عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، أنظر: البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٣١-٣٢، إلى جانب

؛ بل الفايذة عبد العزيز، الهلالي محمد ياسر: **بيبلوغرافيا المدينة المغربية، قراءة في نواة بيبليوغرافيا تاريخية عن المدينة المغربية**، ضمن أعمال ندوة، **فاس والمجالات الحضرية بالمغرب، التاريخ والتراث والمجتمع**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط/ الأولى ٢٠٠٨، ص ٢٥٨-٢٦٧.

Naciri Mohammed : Qu'en est-il de la citadinité, du passé au présent ? In : **Confluences Histoire Anthropologie et Etudes Littéraires**, Travaux offerts à Abdelahad Sebti, Pub, Institut Royal pour la Recherche sur L'histoire du Maroc, éd, Editions-Impression Bouregreg- Rabat, 01(ème) éd, 2018, pp : ١٧٩-٢٠٨.

(٤٤) رابطة الدين محمد: **مراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، ج/١، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش ط/ الأولى 2008، ص ٢٨-٣١؛ بيجين هوبرت: **تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ**، مر/س، ص ٥٣؛ حيدرة هشام: **قضايا تدبير الماء بزاوية تامصلوحت، من التأسيس إلى أواخر القرن التاسع عشر**، مطبعة عادل بلامين وراقة ومكتبة - مراكش، ط/ الأولى ٢٠٢٣، ص ٤٣؛ ازريكم عبد الرزاق: **أثر الركود للاقتصادي في خراب المدن**، نموذج أغمات وريكة، **مجلة أمل**، العدد ٤٤، مر/س، ص ٤١؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشرايحي**، مر/س، ص ٤٢-٤٨؛ أقديم محمد: **التحولات السوسيو تاريخية في منطقة الأطلس الكبير، من أفيغن إلى إمنتانوت، مساهمة في كتابة التاريخ المحلي**، مطبعة الأمنية - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦، ص ٩٨.

Boutaleb Brahim (Autres) : **Histoire du Maroc**, op, cit, pp : 89-90.

(٤٥) زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، مر/س، ص ٧٠؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوالها من القرن ٧هـ/١٣م إلى القرن ١٠هـ/١٦م، التاريخ المنسي**، منشورات مؤسسة آفاق للدراسات والنشر - والاتصال، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠١٧، ص ١٢٩-١٣٢؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشرايحي**، مر/س، ص ٤٩؛ ومن بين الحصون التي ذكرها البيدق، حصن تارولولت ن كدميون، وحصن نفيس، راجع: البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٩٢.

(٤٦) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٩٠-٩٤.

(٤٧) بن تاويت محمد: **أصداء في الأدب الموحدي، مجلة دعوة الحق**، وزارة الشؤون والأوقاف الإسلامية الرباط، السنة ١١، عدد مزدوج ٩-١٠، غشت / جمادى الأولى ١٩٦٨م / ١٣٨٨هـ، ص ٩٤؛ المليح محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ٦١-٧٥.

Boutaleb Brahim (Autres) : **Histoire du Maroc**, op, cit, pp : 100-102.

(٤٨) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣٢؛ راجع خريطة هذه المحطات والمراكز التي توقف عندها ابن تومرت، ميراندا هويثي أمبروسيو: **التاريخ السياسي للإمبراطورية**

- (٧٢) نفسه: ص ٧٤.
- (٧٣) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٢٨؛ البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٣٢-٣٥.
- (٧٤) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٣٠-٣٥؛ البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٣٢-٣٥.
- (٧٥) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٨٤.
- (٧٦) التمييز هي عملية التصفية الجسدية التي قام بها المهدي بن تومرت، في صفوف قبائل الموحدين، لتطهيرها من العناصر المشكوك في ولاءها للدعوة الموحدية، عن هذه العمليات أنظر: تيتاو محمد: الدولة والعنف في تاريخ المغرب الوسيط- دراسة حالة، **مجلة أمل**، عدد ٣٣، السنة الخامسة عشرية ٢٠٠٨، ص ٨٥؛ تيتاو محمد: الدولة والعنف بالمغرب الأقصى. خلال العصر الوسيط، من إكراه الأجساد إلى احتواء الأذهان، ضمن أعمال ندوة، **العنف في تاريخ المغرب**، منشورات ملتقى الطرق، ط/ الأولى ٢٠١٥، ص ٢٢٣-٢٤٤، المغراوي محمد: **الموحدين وأزمات المجتمع**، جذور للنشر. - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٦، ص ١٩؛ الهلالي محمد ياسر: جرائم موحدية جماعية، **مجلة زمان، المغرب كما كان**، العدد ١٧، مارس ٢٠١٥، ص ٦٩؛ ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ١٤٨؛ البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٥٨؛ الحداد حميد: **النفي والعنف في الغرب الإسلامي**، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣؛ الجندي آية محمد حلمي: سياسة ابن تومرت ما بين العصية القبلية والدعوة الدينية، حادثة التمييز نموذجاً، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغرب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، مر/س، ص ١٥٨-١٧٦؛ جسوس عز الدين: السلطة الموحدية، الأسطورة والمتخيل، ضمن أعمال ندوة، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس، قضايا وإشكاليات**، ج/٣، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة شمس برانت - سلا، ط/ الأولى ٢٠٢٠، ص ٢٤-٣٠؛ الوريطي لبنى: **الإيديولوجية الموحدية، جدل الدين والسلطة في الغرب الإسلامي**، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٢١؛ أزريكم عبد الرزاق: الميز والاعتراف في دولة الموحدين على عهد المهدي وعبد المومن، **مجلة أمل** - عدد مزدوج ٢٢-٢٣، السنة الثامنة ٢٠٠٠، ص ٢٤٣-٢٥٢؛ أزريكم عبد الرزاق: الميز والاعتراف في دولة الموحدين، مجلة وجهة نظر، عدد مزدوج ٤٤-٤٥، ربيع وصيف ٢٠١٠، السنة الثانية عشرية، ص ١٠-١٤؛ أزريكم عبد الرزاق: أثر الركود الاقتصادي في خراب المدن، نموذج أعماق وريكة، **مجلة أمل**، العدد ٤٤، مر/س، ص ٤٢-٤٣؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي**، مر/س، ص ٥٢-٥٤.
- (٧٧) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣٩؛ ميراندا هويشي أمبروسيو: **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، مر/س، ص ٧٥-٨١.
- (٧٨) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣٩.
- (٧٩) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٣٤.

- خروج قبيلة كدميو كجيش مع عبد المومن بن علي في الغزوة الرابعة لمحاربة المرابطين، راجع: البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣٦.
- وعن موضوع الحلف القبلي المصمودي وأهميته في اقلع وتأسيس وسقوط الدولة الموحدية يمكن العودة إلى الأعمال التالية: بولقطيب الحسين: **الحلف القبلي المصمودي وقيام دولة الموحدين**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس ١٩٨٩؛ بيثي محمد: **الجيش المغربي في عهد الموحدين**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٦؛ العربي محمد: **دور أشياخ القبائل في تدهور الدولة الموحدية (١٠٥٠-١٦٧٤هـ)**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٧؛ البزاوي الكبير: **الدعوة والسلطة السياسية في المغرب الوسيط**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٧؛ أزايكو صديقي علي: **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية**، مر/س، ص ١٠١-٩٨؛ نوحي الوافي: مركزية الجبل في الصراع المرابطي الموحدي، ضمن أعمال ندوة، **الجال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/س، ص ١٦٣-١٧٠؛ عشي-علي: البعد القبلي ودوره في التاريخ الحضاري لبلاد المغرب الأوسط، ضمن أعمال ندوة، **الجال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/س، ص ١٨٥-٢٠٢.
- (٥٩) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٤٧-٤٨.
- (٦٠) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣١٧.
- (٦١) المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مص/س، ص ٢٤٤.
- (٦٢) المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مص/س، ص ٢٤٥؛ ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٨٢؛ ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٢٢٥.
- (٦٣) المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مص/س، ص ٢٤٥.
- (٦٤) أنوار إبراهيم: الشيخ أبو محمد عبد الله بن وانودين كنموذج لعلاقة المخزن الموحدي بأحد رجاله، ضمن أعمال ندوة، **السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ١٦٤، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٠، ص 29.
- Boutaleb Brahim (Autres): **Histoire du Maroc**, op, cit, pp : 101-102.
- (٦٥) ابن القطان أبو الحسن المراكشي: **نظم الجمان، لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمد علي مكّي، دار الغرب الإسلامي - تونس، ط/ الأولى ١٩٩٠، ص ٧٦؛ المراكشي-عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مص/س، ص ١٨٧.
- (٦٦) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٣٢-٣١.
- (٦٧) نفسه: ص ٢٥.
- (٦٨) نفسه: ص ٢٦، ٣٢.
- (٦٩) نفسه: ص ٣٠.
- (٧٠) نفسه: ص ٣٠-٣٢.
- (٧١) نفسه: ص ٣٠-٣١، ٤٠.

- (٨٠) نفسه: ص ٣٥.
- (٨١) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٧٥.
- (٨٢) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٨١؛ مجهول: **الحلل الموشية**، مص/س، ص ١٠٨.
- (٨٣) البيدق الصنهاجي أبي بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٥٧-٥٩.
- (٨٤) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٢٨؛ مجهول: **الحلل الموشية**، مص/س، ص ١٠٩؛ البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/س، ص ٥٨-٥٩.
- (٨٥) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٩٤.
- (٨٦) العربي محمد: الحفاظ نموذج النخبة السياسية في العصر الموحي، **مجلة أمل**، العدد ٤، السنة الثانية ١٩٩٣، ص ١١؛ الهلالي محمد ياسر: الحفاظ خدام دولة الموحدين، **مجلة زمان، المغرب كما كان**، العدد ٤٠، فبراير ٢٠١٧، ص ٢١.
- (٨٧) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **أخبار المهدي**، مص/س، ص ٣١-٣٣.
- (٨٨) ابن القطان المراكشي: **نظم الجمان**، مص/س، ص ٨٠-٨١.
- (89) Benaui El Mostafa: *Les Tendances Réformatrice Des Califes AL- Mohades In : Mélanges Halima Ferhat*, éd, Institut des Etudes Africaines, Kawtar print - Rabat 2005, pp : 45-71 ; Boutaleb Brahim (Autres): *Histoire du Maroc*, op, cit, pp : 104-105.
- (٩٠) مجهول: **الحلل الموشية**، مص/س، ص ١٧٥؛ زنيبير محمد: أزمة الحكم الموحي في النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر، الميلادي، ضمن أعمال ندوة، **الإسطوغرافيا والأزمة دراسات في الكتابة التاريخية**، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٣٤، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/الأولى ١٩٩٤، ص ٢٥٠-٩.
- ؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، مر/س، ص ١٤٦-١٤٧؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي،** مر/س، ص ٨٧-٨٩.
- (٩١) عمل السلطان أبي عنان المريني سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، على بناء قصبة القاهرة (القياهرة) للضغط على قبائل الجبل واخضاعها وحثها عن دعم الثوار والرافضين لسلطة المرينيين بحصارهم في الجبل ومنعهم من الاستفادة من السهول، وللإستفاضة أكثر راجع: ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣٥٥؛ الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/٣، مص/س، ص ١٩٠؛ العاطف كمال: **الماء وصناعة السكر بالمغرب السعدي أنموذج شيشاوة**، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص تاريخ وحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش 2013-2014، ص ٤٤؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي،** مر/س، ص ٩٠؛ أيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ٦٢-٦٤، ٢٩٨-٢٩٦.
- Boutaleb Brahim (Autres): *Histoire du Maroc*, op, cit, p : 139.
- (٩١) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٢٨٢.
- (٩٢) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٧، مص/س، ص ٢٢٤.
- (٩٣) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٢٨٨.
- (٩٤) نفسه: ص ٢٨٧.
- (٩٥) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٢٣٧.
- (٩٦) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٣٠٤.
- (٩٧) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣٥١.
- (٩٨) نفسه: ص ٢٣٧.
- (٩٩) العمري ابن فضل الله: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج/٤، تحقيق مصطفى أبو أحمد، الدار البيضاء ١٩٨٨، ص ٦١.
- (١٠٠) التافستي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/س، ص ١٥٩.
- (١٠١) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/٥١، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، والترجمة، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط/ الثانية ١٩٨٣، ص ١٤١.
- (١٠٢) المليف محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ٣٦-٣٧.
- (١٠٣) الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/٣، مص/س، ص ٥١-٥١؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، مر/س، ص ٨٥.
- (١٠٤) الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/٣، مص/س، ص ٥١-٥١.
- Berque Jacques : *De L'Euphrate a l'atlas espaces et moments*, T/01, op, cit, p : ٧١.
- (١٠٥) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣٩؛ الكفثاني مولاي الحسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط ١٩٨٨-١٩٨٧، ص ٢٩.
- (١٠٦) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٣٣٧؛ لطيف محمد: **الزواج والأسرة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، طباعة ونشر سوس - أكادير، ط/ الأولى ٢٠١٥، ص ٢٠؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، مر/س، ص ٨٦؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي،** مر/س، ص ٨٧-٨٩.
- (١٠٧) عمل السلطان أبي عنان المريني سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، على بناء قصبة القاهرة (القياهرة) للضغط على قبائل الجبل واخضاعها وحثها عن دعم الثوار والرافضين لسلطة المرينيين بحصارهم في الجبل ومنعهم من الاستفادة من السهول، وللإستفاضة أكثر راجع: ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣٥٥؛ الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج/٣، مص/س، ص ١٩٠؛ العاطف كمال: **الماء وصناعة السكر بالمغرب السعدي أنموذج شيشاوة**، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص تاريخ وحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش 2013-2014، ص ٤٤؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي،** مر/س، ص ٩٠؛ أيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ٦٢-٦٤، ٢٩٨-٢٩٦.
- Boutaleb Brahim (Autres): *Histoire du Maroc*, op, cit, p : 139.
- (٩١) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٢٨٢.
- (٩٢) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٧، مص/س، ص ٢٢٤.
- (٩٣) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٢٨٨.
- (٩٤) نفسه: ص ٢٨٧.
- (٩٥) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٢٣٧.
- (٩٦) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مص/س، ص ٣٠٤.
- (٩٧) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/٦، مص/س، ص ٣٥١.
- (٩٨) نفسه: ص ٢٣٧.
- (٩٩) العمري ابن فضل الله: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج/٤، تحقيق مصطفى أبو أحمد، الدار البيضاء ١٩٨٨، ص ٦١.
- (١٠٠) التافستي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/س، ص ١٥٩.

الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/الأولى ١٩٩٧، ص ١٩٦.

(١٢٣) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا، ج ١**، ص/م، ص ١٠٠؛ أبو ترجي محمد: **أرميزم والبحث عن الزمن الضائع**، ص/م، ص ٣٢؛ حيدرة هشام: **قضايا تدبير الماء بزاوية تامصوحت، من التأسيس إلى أواخر القرن التاسع عشر**، ص/م، ص ٤٤ ٤٧؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراحي**، ص/م، ص ٩٥-٩٦.

(١٢٤) ابن قنفذ القسطنطيني: **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال - الرباط، ط/الأولى ١٩٦٥، ص ٢٦؛ العبدري محمد: **رحلة العبدري**، ص/م، ص ٣٨، ٣٢؛ ابن الخطيب لسان الدين: **معيان الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، منشورات المعهد الجامعي للبحث - الرباط، ط/الأولى ١٩٧٧، ص ٧٧-٧٨.

(١٢٥) خلال هذه المرحلة التاريخية حسب أحمد التوفيق، بدأ التمييز بين بلاد السببة وبين بلاد المخزن، راجع: التوفيق أحمد: **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، اينولتان (١٩١٢ - ١٨٥٠)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، العدد ٦٣ مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/الثانية ١٩٨٣، ص ٩٣-٢٣٦؛ سعودي نور الدين: **ظاهرة السببة في مغرب القرن التاسع عشر**، أطروحات حول السببة، **مجلة دار النيابة**، العدد ٩، السنة ١٩٨٦، ص ٤١؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرف الأطلس الكبير الغربي**، ص/م، ص ٩٢؛ ايت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، ص/م، ص ١٢١-١٢٤.

(١٢٦) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا، ج ١**، ص/م، ص ١٤٩؛ حمداني محمد: **العلاقات المغربية البرتغالية وآليات كسب ولاء الزعامات المحلية**، من نهاية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر - للميلاد، ضمن كتاب: **المغرب والبرتغال تاريخ مشترك وذاكرة متقاطعة**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أصكوم - القنيطرة، ط/الأولى 2019، ص ١٣٧-١٤٩؛ الصنهاجي أنس: **القائد أوتغوفت خديم المستعمر البرتغالي، مجلة زمان، المغرب كما كان**، العدد ٣٤/٣٥، غشت/شتنبر، ٢٠١٦، ص ٥٢-٥٥؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، ص/م، ص ٨٥-٨٦.

(١٢٧) تملين إيتسام: **انعكاسات الغزو البرتغالي على الذهنية المغربية خلال القرنين ١٦ و ١٧ الميلاديين**، ضمن كتاب: **المغرب والبرتغال تاريخ مشترك وذاكرة متقاطعة**، ص/م، ص ٢٧٨-٢٩٦؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرف الأطلس الكبير الغربي**، ص/م، ص ٩٤؛ بوداود عبيد: **كتب نوازل وفتاوى الغرب الإسلامي الوسيط مصدرا للدراسات التاريخية والتشريعات القانونية**، ضمن أعمال ندوة، **التاريخ والقانون، التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة**، ج ١، منشورات جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، مكناس، سلسلة الندوات، رقم ٢٢، مطبعة برانت شوب - مكناس، ط/الأولى ٢٠٠٩،

(١٢٨) ابن الخطيب لسان الدين: **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، ج ٢، تحقيق أحمد مختار العيادي، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص ٤٣-٤٤.

(١٢٩) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا، ج ١**، ص/م، ص ١٣؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراحي**، ص/م، ص ٩٢.

(١٣٠) كبرخال مارمول: **إفريقيا، ج ٢**، ترجمة محمد زنيبر، محمد حجي، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف الجديدة للنشر والتوزيع - الرباط، ط/الأولى ١٩٨٩، ص ٥٨؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراحي**، ص/م، ص ٩٢-٩٣.

(١٣١) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا، ج ١**، ص/م، ص ١٣٧.

(١٣٢) نفسه: ص ١٤٢.

(١٣٣) كبرخال مارمول: **إفريقيا، ج ٢**، ص/م، ص ٤٩.

(١٣٤) الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا**، ج ٤، ص/م، ص ١١.

(١٣٥) زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، ص/م، ص ٩٤.

(١٣٦) كبرخال مارمول: **إفريقيا، ج ٢**، ص/م، ص ١١٠-١١١؛ زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرف الأطلس الكبير الغربي**، ص/م، ص ٩٤.

(١٣٧) زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي**، ص/م، ص ٩٥؛ شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراحي**، ص/م، ص ٩٧؛ أقديم محمد: **التحولات السوسيوثقافية في منطقة الأطلس الكبير**، ص/م، ص ١١٢.

(١٣٨) العلوي مولاي هاشم: **مجتمع العنف في المغرب، مرصد لمتغيرات التأهيل الاجتماعي والتطور المعرفي الإنساني**، مثال الانتقال من عصر بني مريـن إلى عصر الأشراف السعديين والعلويين (١٤١٥-١٦٥٠)، ضمن أعمال ندوة **العنف في تاريخ المغرب**، ص/م، ص ١٣٣؛ أبيهي محمد: **بواقي سوس وأدوارها السياسية في نشأة الدولة السعدية**، ضمن أعمال ندوة، **البداية المغربية، الذاكرة والتحويلات**، ص/م، ص ١٨٦-١٨٨؛ زريوح زين العابدين: **علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)**، مطبعة دار الأمان - الرباط، ط/الأولى ٢٠١٩، ص ٧٤-٧٥؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، ص/م، ص ١١٧-١١٣؛ النفاتي عادل: **المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة - القرن ١٦، في الهوية والتدين والثقافة**، أفريقيا النشر - الدار البيضاء، ط/الأولى ٢٠١٥، ص ٤٢-٥٦؛ كلاب عبد الخالق: **مراكش وأحوازها**، ص/م، ص ٢٧٢-٢٨٤.

(١٣٩) بوشرب أحمد: **أزمة ضمير المغرب خلال القرنين ١٦ و ١٧، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله**، العدد ٢، السنة ١٩٨٥، ص ٧٢-٧٣.

(١٤٠) يمكن جعل القرن السادس عشر الزمن المرجعي لتواجد وتمركز القبائل العربية بسهل شيشاوة، والتي عادة ما تصفهم كتابات المرحلة بأعراب شيشاوة، راجع: دي هينين خورخي: **وصف الممالك المغربية ١٦٠٣-١٦١٣**، ترجمة عبد الواحد أكميز، منشورات معهد

الزاوية، مر/س، ص ٣١؛ أقديم محمد: التحولات السوسيوثقافية في منطقة الأطلس الكبير، مر/س، ص ١١٦-١١٩.

Boutaleb Brahim (Autres) : *Histoire du Maroc*, op, cit, p : 199.

(١٣٥) عن تورات العهد الموحد راجع:

تيتاو محمد: الدولة والعنف في تاريخ المغرب الوسيط- دراسة حالة، مجلة أمل، عدد ٣٣، السنة الخامسة عشرة ٢٠٠٨، ص ٨٥؛ تيتاو محمد: الدولة والعنف بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، من إكراه الأجساد إلى احتواء الأذهان، ضمن أعمال ندوة، العنف في تاريخ المغرب، مر/س، ص ٢٢٣-٢٤٤؛ محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مؤسسة جذور للنشر- الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٦؛ العمراني محمد: الثورات والانتفاضات بجمال المغرب الأقصى، بين الميولات المذهبية وضغط السلطة المركزية خلال العصر المرابطي والموحدي، شركة نادي للنشر- الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦؛ العمراني محمد: كرونولوجيا ثورات وانتفاضات المغرب الأقصى- والأندلس في زمن المرابطين والموحدين، دراسة إحصائية تحليلية، شركة نادي للنشر- الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦؛ كيكز عبد الله: الثورات والثوار في سوس منذ الفتح الإسلامي إلى الاستعمار الفرنسي، منشورات مركز أكلو للبحث والتوثيق، رقم ٢١، مطبعة الأمانة- الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢١، ص ٣٧-٦٦؛ المنوني محمد: إمارة بني يدر بسوس، مجلة دراسات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن زهر - أكادير، العدد ١، السنة ١٩٨٧، ص ٢٧-٣٦؛ عويناتي صباح: جبال غمارة خلال العصر الموحد بين الولاء والتمرد، ضمن أعمال ندوة، الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية، مر/س، ص ١٧١-١٨٤.

(١٣٦) تواترت روايات شفوية متعددة بخصوص قوة نفوذ البرتغاليين في هذه المناطق، وتنسب إليهم هذه الروايات بناء الحصون وحفر العديد من الغارات والمناجم، كما ترفع لهم كذلك نسب بعض المجموعات البشرية.

Boutaleb Brahim (Autres) : *Histoire du Maroc*, op, cit, p : ٢٠٧.

(١٣٨) الإفرائي محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٨، ص ٥١؛ زريوح زين العابدين: علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)، مر/س، ص ٢٤٠؛ شافع لحسن: أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشرايحي، مر/س، ص ٩٩؛ الكفناي مولاي حسن: جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن السادس عشر، ضمن أعمال ندوة، مراكش خلال العصورين المريني والسعدي، أشغال الملتقى الثاني، ١٩٩٠، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، العدد ٨، السنة ١٩٩٢، ص ١١٨؛ أيت بنصالح عبد العزيز: شيشاوة منذ ما قبل التاريخ، مر/س، ص ٢٩٩-٣٠٣؛ الكانوني محمد بن أحمد العبيدي: جواهر الكمال في تراجم الرجال، ج/ ١، المطبعة العربية - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٣٧، ص ٦١-٦٢؛ أقديم محمد: التحولات السوسيوثقافية في منطقة الأطلس الكبير، مر/س، ص ١٢٠.

Berque Jacques : *Structures sociales du Haut-Atlas*, op, cit, pp : 66,201.

(١٣٩) كور اوغست: دولة بني وطاس (١٤٢٠-١٥٥٤)، ترجمة محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة أعمال ونصوص

ص ٤٣-٤٤؛ أقديم محمد: التحولات السوسيوثقافية في منطقة الأطلس الكبير، مر/س، ص ١١٤-١١٥.

(١٢٨) الوزان الحسن: وصف إفريقيا، ج/ ١، مص/س، ص ١٢٩.

(١٢٩) نفسه: ص ١٥٧.

(١٣٠) حركات إبراهيم: أوضاع المغرب ومشاكله قبيل قيام الدولة السعدية، مجلة البحث العلمي، العدد ٢٤، السنة الثانية عشر، يناير - أبريل ١٩٧٥، ص ٨٣؛ ابن المليف عبد الله: التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار البيات السياسية، مر/س، ص ٤٣-٤٤.

Hamid Khadija : *Histoire du Maroc, à La Lumière de L'Archéologie*, op, cit, pp :299-300; Boutaleb Brahim (Autres) : *Histoire du Maroc*, op, cit, pp : 173-174.

(١٣١) التريكي حميد وروبرجي برنار: المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين ١٧ و ١٨، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار الأمان - الرباط، ط/ الثانية ٢٠١٠، ص ٦٣-٦٤.

(١٣٢) تحدث جاك بيرك على أن المرحلة الفاصلة بين القرن الخامس عشر وأواخر القرن السابع عشر، بأهل الصلاح والتصوف من خلال مؤلفاتهم إلى إبراز الدور الحساس الذي لعبوه في ادماج الأعراب في الحياة العامة وحتهم عن الانصراف من أعمال السبقية، وهو مجهود أدرجته تلك المؤلفات ضمن باب مفرد أطلقت عليه اسم " توبة الأعراب"، كما تولت تلك الكتب بواقع المناطق الداخلية التي بدا حضور مؤسسات المخزن داخله منحسرا، الأمر الذي فتح الباب أمام تجاوزات من سمتهم تلك المتون ب" أهل الوقاحة والظلم والغضب والتعدي"، مشددة على ضرورة ملء أهل الصلاح لهذا الفراغ الذي تركه غياب مؤسسات الدولة، مهية بهم أن يقوموا مقام الحاكم، حتى وإن لم يتجاوز حظهم، نظرا لصعوبة الظروف، بمجرد الإيماء الخاطف " بما يحفظ حقوق الله وحقوق عباده". أنظر:

Berque Jacques : En lisant les nawazil mazouna, In : *Revu, Studia Islamica*, Vol/ XXXII, Année 1970, pp : 31-39; Berque Jacques : *L'intérieur du Maghreb*, éd, Gallimard - Paris 1978, pp : 14-65.

النفاتي عادل: المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب، مر/س، ص ٥٩-٧١؛ كلاب عبد الخالق: مراكش وأحوالها، مر/س، ص ٢٨٥-٣٠٥.

(١٣٣) حركات إبراهيم: أوضاع المغرب ومشاكله قبيل قيام الدولة السعدية، مجلة البحث العلمي، العدد ٢٤، مر/س، ص ٨٤.

(١٣٤) المازوني محمد: رباط تيط من التأسيس إلى ظهور الحركة الجزولية، ضمن أعمال ندوة، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات عدد ٦٩، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٧، ص ٢٥؛ الصغير عبد المجيد: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، ضمن أعمال ندوة، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، مر/س، ص ٢٦٩-٢٧٧؛ أبيهي محمد: قبائل أحاحان في مواجهة التدخل الأجنبي، مراحل الاحتلالين البرتغالي والفرنسي والمقاومة المحلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة NEGOCE COM، ط/ الأولى ٢٠١٨، ص ٨٠؛ لخيفري رشيد: أولاد امطاع بحوز مراكش، القبيلة في رحاب

(١٥١) دي طوريس ديكو: **تاريخ الشيفاء**، مص/س، ص ٢١٩، حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ**، ج/٢، نشر وتوزيع دار الإرشاد الحديثة - الدار البيضاء، ط/الأولى ٢٠٠٠، ص ٢٨٣، حجي محمد: **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج/٢، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ رقم ٢، مطبعة فضالة - المحمدية، ط/الأولى ١٩٧٨، ص ٤٦، بنحادة عبد الرحيم: **في تفسير استقلال المغرب والدولة العثمانية في القرن السادس عشر**، ضمن كتاب، **مقاربات وتقاطعات، المجال والتاريخ والتراث**، ج/١، منشورات مختبر الدراسات حول الموارد والحركة والجاذبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ٢٠٠٢، ص ١٥٩.

(١٥٢) زريوح زين العابدين: **علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)**، مر/س، ص ٦٦-٦٩.

(١٥٣) دي هينين خورفي: **وصف الممالك المغربية ١٦٠٣-١٦١٣م**، مص/س، ص ١٧٦-١٧٧.

Berque Jacques : Antiquité de Seksawa, in : **Revue, Hes-T**, op, cit, p : ٤٠٧.

شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ١٠١-١١٤.

Baritau Louis : **Les grandes Linges de L'histoire des Populations, Chichaoua, C.H.E.A.M, cote. E 3195, N° 1234**, p : ٢٠ ; Berque Jacques : Antiquité de Seksawa, in : **Revue, Hes-T**, op, cit, p : ٤٠١.

الناصري بن خالد أحمد: **الإستقصا**، ج/٥، مص/س، ص ٢٦، السوسني محمد المختار: **المعسول في تراجم علماء سوس، اللالغين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم السوسيين**، ج/١٥، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/١٩٦٢، ص ٢٦٥، الكفنانني مولاي حسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، مر/س، ص ٥٩-٦١، ٦٣-٦٩، ١٠٩، كفنانني مولاي حسن: **جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن السادس عشر، ضمن أعمال ندوة، مراكش خلال العصرين المريني والسعدي**، مر/س، ص ١٢٢، آيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ١٤٥، آيت علا جمال: **تشكيل التراب المائي بحوز مراكش خلال مرحلة الحماية الفرنسية مقارنة تاريخية**، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص تاريخ وحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش ٢٠١٣-٢٠١٤، ص ٣٦-٣٧، شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراذي**، مر/س، ص ١٠٥-١٠٩، آيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ١٤١-١٤٣، لخنيفري رشيد: **أولاد امطاع بحوز مراكش، القبيلة في رحاب الزاوية**، مر/س، ص ٢٨-٢٩، ٦٤.

(١٥٦) الكفنانني مولاي حسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، مر/س، ص ٦١-٦٣، عمالك أحمد: **مادة أولاد مطاع، معلمة المغرب**، ج/٢١، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، ط/الأولى ٢٠٠٥، ص ٧١٩، زريوح زين العابدين: **علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)**، مر/س، ص ٧١.

مترجمة، رقم ١٢، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/الأولى ٢٠١٠، ص ٦٠.

(١٤٠) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/١، مص/س، ص ١٢٣.

(١٤١) **نفسه**، ص ١٢٥.

(١٤٢) **نفسه**، ص ١٢٦.

(١٤٣) بدأ الوجود البرتغالي في التقلص والتراجع عن المنطقة منذ التخلي على حصن ومرفئ أكوز بمصب واد تانسيفت سنة ١٥٢٥، حسب الباحثة زبير لوبني، وذلك بسبب وصول السعديين لمدينة مراكش، وفشل الأهداف البرتغالية الاقتصادية، راجع: زبير لوبني: **الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين (١٦٩١-١٦٩٩هـ / ١٥١٠-١٦٥٩م)**، دار الأمان - الرباط، ط/الأولى ٢٠١٦، ص ٦٢-٦٣، وعن أهمية هذا المرسى ونشاطه التجاري التاريخي، راجع: رابطة الدين محمد: **مراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، ج/١، مر/س، ص ٢٤١-٢٤٣، زرين العابدين: **علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)**، مر/س، ص ٢٤٢-٢٤٣.

Rosenberger Bernard : Note sur Kuz, un ancien port à l'embouchure de l'oued Tensift, in : **Revue, Hes-T**, Année 1967, p : ٤7.

(١٤٤) الكفنانني مولاي حسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، مر/س، ص ٦٥، ٧٥-٨٣، كفنانني مولاي حسن: **جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن السادس عشر، ضمن أعمال ندوة، مراكش خلال العصرين المريني والسعدي**، مر/س، ص ١٢٢، النفاع كمال: **محاولات التحديث والإصلاح في العصر السعدي، عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور نموذجا**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ط/الأولى ٢٠١٧، ص ٢٠٠-٢١٦، أبيهي محمد: **بواقي سوس وأدوارها السياسية في نشأة الدولة السعدية، ضمن أعمال ندوة، البادية المغربية، الذاكرة والتحويلات**، مر/س، ص ١٩٢-١٩٣.

(١٤٥) المليح محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ١٢٨، شقير محمد: **تطور الدولة في المغرب**، مر/س، ص ٦٢٢.

(١٤٦) التاسفتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/س، ص ٦٨-٨١، أبو ترجي محمد: **أمزميز والبحث عن الزمن الضائع**، مر/س، ص ٣٤-٣٦، المليح محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ١٢٦-١٣٠، بن منصور قمشة إبراهيم: **منطقة أمزميز في سطور ومقالات من الكلام المنثور**، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ٢٠١٠، ص ١٩.

(١٤٧) المليح محمد: **قبائل مصمودة الكبرى صفحات من تاريخ أمزميز**، مر/س، ص ١٦٣-١٧٠.

(١٤٨) أقديم محمد: **التحويلات السوسيو تاريخية في منطقة الأطلس الكبير**، مر/س، ص ١٢٢-١٢٣.

(١٤٩) كريخال مارمول: **إفريقيا**، ج/٢، مص/س، ص ٦٣-٦٤، زريوح زين العابدين: **علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي (١٥١٠-١٦٥٩م)**، مر/س، ص ٨٦-٨٧.

(١٥٠) دي طوريس ديكو: **تاريخ الشيفاء**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - سلا، ط/الأولى ١٩٨٨، ص ٢١٩.

Pascon Paul : **Le Haouz de Marrakech**, T/01, éd, Marocains internationales -Tanger 1983, p : 192.

(١٥٧) أقديم محمد: **التحولات السوسيو تاريخية في منطقة الأطلس الكبير**، مر/س، ص ١٢٢.

(158) Baritau Louis: **Les grandes Linges de L'histoire des Populations**, Chichaoua, op, cit, pp : ٢٠, 22-25; Berque Jacques: **Structures sociales du Haut-Atlas**, op, cit, pp : 59, 104-105.

الكفنانني مولاي حسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، مر/س، ص ٧٣؛ السوسي محمد المختار: **المعسول**، ج/٧، ص/س، ص ٤٢-٤٠؛ آيت بنصالح عبد العزيز: **شيشاوة منذ ما قبل التاريخ**، مر/س، ص ١٤٥؛ العاطف كمال: **الماء وصناعة السكر بالمغرب السعدي أنموذج شيشاوة**، مر/س، ص ٤٣-٤٤.

(159) Boutaleb Brahim (Autres): **Histoire du Maroc**, op, cit, p : ٢١٧.

شافع لحسن: **أضواء على الهامش، تاريخ غرب مراكش من رباط عقبة بن نافع إلى زاوية سيد الزوين الشراي**، مر/س، ص ١١٩.

(١٦٠) الإفرائي محمد الصغير: **نزهة الحادي**، مص/س، ص ١٧٩-١٨٠.

(١٦١) **نفسه**: ص ١٨٨-١٨٩.

(١٦٢) **نفسه**: ص ٢٠٦.

(١٦٣) السوسي محمد المختار: **إيلغ قديماً وحديثاً**، تعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية- الرباط، ط/ الأولى ١٩٦٦، ص ١٣.

(١٦٤) الإفرائي محمد الصغير: **نزهة الحادي**، مص/س، ص ٣٤٦.

(١٦٥) السوسي محمد المختار: **إيلغ قديماً وحديثاً**، مص/س، ص ٢٤٠.

-٢٤١؛ القدوري عبد المجيد: **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس**

عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز، المركز الثقافي العربي - الدار

البيضاء، ط/ الثانية ١٢٠٢، ص ٢٧٤-٢٨٠؛ الذهبي نفيسة:

الزوايا المغربية في القرن ١١هـ/١٧م، قراءة تركيبية، مجلة البحث

التاريخي، العدد ٣، السنة ٢٠٠٥، ص ٤٧-٦٠؛ لخنيصري رشيد:

أولاد امطاع بحوز مراكش، القبيلة في رحاب الزاوية، مر/س، ص ٣٣.

(١٦٦) الكفنانني مولاي حسن: **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر**، مر/س، ص ٧٢.

بلاد اليونان وجغرافيتها في المصادر العربية الإسلامية

يوسف المساتي

باحث دكتوراه في التاريخ وعلوم الآثار والتراث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق
جامعة الحسن الثاني - المملكة المغربية



ملخص

تتناول هذه الدراسة حضور اليونان وجغرافيتها في المصادر العربية الإسلامية، من خلال ورودها في النصوص التاريخية على اختلافها، وينطلق البحث من ملاحظة أساسية، هي وجود تضارب واختلاف ملحوظ في كيفية تحديد موقع "بلاد اليونان" أو تعريفها ضمن المجال المعرفي الإسلامي الوسيط. إذ يُسجل البحث وجود خمسة تحديدات رئيسة لبلاد اليونان في هذه المصادر: -الارتباط بالروم: حيث يظهر اليونان في عدد من النصوص متداخلاً مع مفهوم "الروم"، سواء باعتبارهما مجاًلاً جغرافياً واحداً أو باعتبار اليونانية لغة من لغات الروم. - اللغة والجغرافيا البائدة: في بعض النصوص، يُستحضر اليونان باعتباره حضارة أو لغة اندثرت، لا ككيان حاضر، وهو ما يضعه في خانة الماضي الثقافي أكثر من كونه واقعاً جغرافياً معاصراً. - الارتباط بمصر: بعض المصادر تلمح إلى صلات بين اليونان ومصر، إما من زاوية تأثيرات حضارية أو عبر إسقاطات جغرافية متداخلة. - الارتباط بالأندلس: في نصوص أخرى، يحضر اليونان بوصفه متداخلاً مع المجال الأندلسي، ربما عبر الإرث الفلسفي والعلمي الذي انتقل من التراث اليوناني إلى الأندلس. - غياب التحديد الجغرافي الدقيق: كثير من المصادر لا تميز بشكل واضح بين المجال الذي شغله اليونان والمجال الذي شغله الروم، مما يترك "اليونان" مفهوماً سائلاً وغير محدد بوضوح. إضافة إلى ذلك، تُبرز الدراسة غياب تصور لليونان كمجال ثقافي مستقل في المصادر العربية الإسلامية، مقابل حضور إشارات متفرقة إلى اندثار اللغة اليونانية، بما يوحي بأن "اليونان" أعيد تأويله كتصور ثقافي، أكثر منه مجاًلاً جغرافياً قائماً بذاته.

كلمات مفتاحية:

اليونان؛ العصر الوسيط؛ أثينا؛ المصنفات الإسلامية؛ المصادر العربية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٥



معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.423487.1277

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يوسف المساتي، "بلاد اليونان وجغرافيتها في المصادر العربية الإسلامية"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦، ص ٤٨ - ٦١.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: elmoussatiyoussef@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 تحت شروط الترخيص المشاع بلاتسبيل (CC BY) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0)، التي تسمح باستخدام، والتوزيع، وإعادة إنتاج في أي وسيط، شريطة أن نعطي الائحة المناسبة للمؤلف(ين) الأصليين، ونشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أمة وأرض بائدة كانت وانتهت، ما يدفع إلى التساؤل: هل نحن أمام يونان واحدة؟ أم مجالات متعددة حملت جميعاً اسم اليونان؟

أولاً: يونان الروم

قد يبدو ارتباط الروم باليونان أمراً عادياً وطبيعياً، فأرض اليونان خضعت للإمبراطورية البيزنطية، بل وحسب السردية الرسمية قضى الروم على اليونان وخلفوهم في الأرض، واعتبر البعض أن اللغة اليونانية هي أصل لغة الروم أو الحرف اللاتيني. وتعتبر رواية ابن القفطي نموذجاً للسردية الرسمية، حيث أورد: "وبتآن أمة عظيمة القدر في الأمم ظاهرة الذكر في الآفاق فخمة الملوك عند جميع الأقاليم منهم الإسكندر بن فيلبس الماقدوني المعروف بذئ القرنين الذي غزا دارا بن دارا ملك الفرس في عقر داره فاستلبه ملكه بعد إهلاكه وتخطاه إلى المشرق من الهند والصين فجرى له من الاستيلاء على تلك الجهات ما شهدت به التواريخ.

ثم ملك بعد الإسكندر البطالمة وربما قيل البطالسة ودان لهم الملك وذلت لهم الرقاب واستمروا واحداً بعد واحد إلى أن ملكتهم الروم فتقرض ملكهم من الأرض وانتظمت مملكتهم مع مملكة الروم فصارت مملكة واحدة مثل مملكة الفرس والبابليين وكانت بلاد يونان في الربع الغربي الشمالي من الأرض فحدها من جهة الجنوب البحر الرومي والثغور الشامية والثغور الجزرية ومن جهة الشمال بلاد اللان وما حاذها من ممالك الشمال ومن جهة المغرب تخوم بلاد اليمانية التي قاعدتها مدينة رومية من جهة المشرق تخوم بلاد أرمينية وباب الأبواب والخليج المعترض ما بين بحر الروم وبحر نيطس الشمال يتوسط بلاد اليونانيين ولغة اليونانيين تسمى الإغريقية وهي من أوسع اللغات وأجلها"^(١)

ويورد القلقشندي: "واليونان أمة معروفة مشهورة، وكانت مملكتهم أولاً في الجانب الشرقي من الخليج القسطنطيني المعروف الآن ببلاد الروم ثم ملكوا بعدها العراق، والترك، والهند، وبلاد أرمينية، والشام، ومصر، والإسكندرية"^(٢). يشير ابن الوردي في تعريفه لبلاد الروم أنه: "إقليم واسع الأقطار فسيح الديار، وبه مدن عامرة وضياع ورساتيق وأشجار وفواكه وثمار؛ وبه الخير

تحضر اليونان بشكل بارز في المصنفات الإسلامية على اختلاف أنواعها وأشكالها، من كتب الفقه إلى الفلسفة واللغة والمنطق؛ ولا يكاد يخلو كتاب من ذكر اليونان ولو بشكل موجز، ويمكن القول إن اليونان كتمثل كانت عنصراً أساسياً في تشكيل المخيال العربي الإسلامي. لكن في مقابل هذا الحضور البارز ذهنياً وثقافياً، يطرح السؤال عن حضورها مجالياً، أو بصيغة مباشرة: أين كانت هذه اليونان على المستوى الجغرافي؟ قد يبدو السؤال ساذجاً، والجواب عنه من البديهيات المعروفة في التاريخ والجغرافيا بالضرورة، فاليونان تقع شمال المتوسط قبالة الإسكندرية ومهد الفلسفة ومعجزة أوروبا العقلية، تلك البلاد التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية ثم تبعت الإمبراطورية العثمانية، قبل أن تدخل في حروب ضروس معها وتحصل على استقلالها في الربع الثاني من القرن التاسع عشر.

هذا هو الجواب البديهي المقدم عن هذا السؤال، لكن، لأن المعرفة تتطوي على مساءلة البديهيات، فلا بأس أن نطرح السؤال، كيف حضرت اليونان جغرافياً في المصادر العربية الإسلامية؟ ألا يفترض أن يقابل حضورها الثقافي والذهني حضور مجالى جغرافي؟ كان هذا هو السؤال الأساسي الذي أطر هذه الدراسة، ومن أجل الإجابة عليه تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي الوصفي، من خلال تتبع النصوص في تطورها التاريخي، والوقوف على الثابت والمتحول، ومحاولة استخراج المعطيات والأسئلة والإشكاليات التي تقدمها هذه النصوص.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة ركزت على اليونان كمجال جغرافي، ولم يتم التطرق للغة اليونانية إلا في حدود ارتباطها بالموضوع، علماً أن موضوع الحرف اليوناني يطرح إشكاليات كثيرة لا تقل عن الإشكاليات المرتبطة باليونان كمجال جغرافي. ومن خلال هذه الدراسة يبدو وجود اضطراب واضح في تحديد اليونان كمجال جغرافي، فهي في نصوص ترتبط بالروم، وفي نصوص أخرى ترتبط بالشام، وفي نصوص ثالثة ترتبط بمصر أو الأندلس، وفي نصوص متعددة هي

جزيرة كانت الحكماء من الروم ينزلونها . وقال أبو معشر في المقالة الثانية من كتاب الألوف أن بلدة من المغرب كانت تسمى في قديم الدهر أرغس، وكان أهلها يسمون أرغيو، وسميت المدينة بعد ذلك أيونيا، وسموا أهلها يونانيين باسم بلدهم وكان ملكها أحد ملوك الطوائف^(٦).

يقدم ابن أبي أصيبعة معطى مهما إذ يجعل من اليونان مجالاً جغرافياً كان ينزله "حكماء اليونان" وهي صورة تبدو انعكاساً لما ترسخ في المخيال العربي الإسلامي من ربط بين اليونان والعلوم العقلية (الهندسة، الطب، الفلسفة...). وهكذا فالروم يبقون على روميتهن إلا من ارتقى في درجات الحكمة حيث ينزل جزيرة يونان (أرض الحكمة)^(٧). لكن في محاولته لتقديم تحديد جغرافي لموقع اليونان قام ابن أبي أصيبعة بربطه بالمغرب، وهو ما يطرح عدداً من علامات الاستفهام، إذ كيف تصبح اليونان أرضاً غربية يسكنها حكماء الروم، وملكها كان أحد ملوك الطوائف؟

ويشير صاحب خريدة العجائب في تحديد البحر الرومي إلى أنه "يمر مشرقاً في جهة بلاد البربر وبشمال المغرب الأقصى، إلى أن يمر بالمغرب الأوسط ويصل أرض أفريقية إلى وادي الرمل إلى أرض برقة وأرض لوقيا ومراقيا والإسكندرية، إلى شمال أرض التيه، إلى فلسطين إلى سائر ساحل بلاد الشام، إلى أن ينتهي طرفه إلى السويدية، وهناك نهايته ثم ينحرف مغرباً راجعاً إلى جهة المغرب فيتصل بالخليج القسطنطيني، إلى جزيرة بليونس وكمشيلي، إلى أدرنة، وهناك يخرج إلى الخليج البندقي ويتصل إلى أرض مجاز صقلية إلى بلاد رومية إلى بلاد ستومة وأرمونة، ويجتاز بجبال اليونان فيمر شرقي الأندلس، من جهة جنوبها، من حيث ابتداء"^(٨). يطرح هذا النص عدة إشكاليات حول تحديد اليونان، إذ يجعلها جبلية مجاورة لبلاد الأندلس وهو ما لا يمكن أن يصح بالتحديدات الجغرافية الحالية.

بناءً على تجميع هذه الملاحظات الأولية نستنتج غياب تحديد واضح لليونان والروم كمجالين جغرافيين واضحين، أو حتى كمجالين ثقافيين، إذ تطابقهما بعض النصوص وتمايزهما أخرى، وتذهب ثالثة إلى أن الروم تغلبوا على اليونان، وتسير أخرى نحو اعتبار اليونانية

الغامر والخصب الوافر؛ وكلها على جانبي البحر القسطنطيني ومن جهة بلاد الأرمن، له أحد عشر عملاً، منها عمل حربية وفيه خمسة حصون، وعمل العصاة وفيه ثلاثة حصون، وعمل الأرسيق وفيه خمسة عشر حصناً، وعمل الأفشين وفيه أربعة حصون وعمل حرسنون وفيه أربعون حصناً، وعمل البلقان وفيه ستة عشر حصناً. وهذه الأرض كانت في القديم بلاد اليونان فغلبت الروم عليها؛ ومن جملة أعمالها عمل كرميان وفيه عشرة حصون، وعمل الفنادق وفيه ثمانية عشر حصناً^(٩).

هذه الرواية وإن كانت هي الرسمية أو السائدة إلا أنها في المقابل تطرح عدداً من الأسئلة، يرتبط بعضها بالتوطين الجغرافي، والبعض الآخر حول طبيعة هذا الارتباط بين اليونان والروم، إذ يربط بعضها بينهما بشكل متطابق وكأنهما أمة واحدة، بينما تفصل بينهما نصوص أخرى فيصبح الروم متغلبين على اليونان، بينما يجعل البعض لغتهم واحدة، من ذلك ما أورده صاحب عيون الأنباء والذي قال: "حدثني ابناغاثون المطران بشوبك وكان أعلم أهل زمانه بمعرفة لغة الروم القديمة وهي اليونانية أن في لغة اليونان كل ما كان من الأسماء الموضوعة من أسماء الناس وغيرهم"^(١٠). إن الربط بين لغة اليونان والروم قد يبدو عادياً واعتبارها الأصل كان أمراً جارياً، لكن هذا النص لا يتحدث عن نقل حروف من اليوناني إلى الرومي كما دأبت على ذلك المصادر، بل أن اللغة اليونانية هي اللغة الأصلية للروم، وهو ما يطرح عدداً من الأسئلة حول الروم المقصودين في هذا النص، وحول ماهية هذه اللغة واللغة الرومية.

كما أورد صاحب الباب أن: "ذو القرنين هذا لقب الإسكندر الرومي وقيل اليوناني لقب به لأنه بلغ الشرق والغرب وقيل غير ذلك"^(١١)، يبدو الاضطراب واضحاً إذن في تحديد الفرق بين اليوناني والرومي في عدد من المصادر التي لا تغلج على اختلاف أنواعها في تبديد سحب هذا الاضطراب، إذ نجد ابن أبي أصيبعة أورد أنه: "قد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطبين على أن أسقليبيوس كما أشرنا إليه أولاً هو أول من ذكر من الأطباء وأول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة، وكان يونانياً واليونان منسوبون إلى يونان وهي

أورده أبو سعيد عن انقراض اللغة اليونانية والقوم الذين كانوا يتفاوضون بها، والاهم هو أن ما وصل للعربية من اليونانية كان نقلاً عن السريانية، واللافت هنا أن متى المنطقي لم يعترض على هذه الإشارة ولا أنكرها، بل أكدها ومضى مدافعاً عن الإخلاص للحقائق والمعاني. إن هذه الإشارة إلى اندثار اللغة اليونانية والنقل السرياني باللغة الأهمية لأنها تطرح إشكاليات عدة حول اللسان اليوناني وعلاقته بالرومي، وحضوره في الثقافة الإسلامية، ومدى صدق السردية السائدة عن الترجمة من اليونانية إلى العربية، خاصة أن أقدم إشارة في المصادر العربية للحرف اليوناني ترجع إلى القرن الرابع الهجري^(١٠).

وقد يذهب قائل إلى القول أن الأمر ربما كان من غلط أبو حيان التوحيدي، أو أنها إشارة شاردة لم يهتم بها في ضوء السجل الأيديولوجي الذي كان محتتماً في زمنه، لكن هذا القول مردود عليه، فالأمر لا يتعلق بإشارة عابرة أو شاردة، بل برواية حضرت في عدد من النصوص خلال فترات زمنية مختلفة، وفي مجالات جغرافية مختلفة، إذ نجدها بعد ثلاثة قرون أي في القرن السابع الهجري، عند ياقوت الحموي في معجم الأدباء، بنفس الصيغة تقريباً مع بعض الفروقات الطفيفة، حيث: "قال أبو سعيد: فأنت إذن لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية، وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها، وقد عفت منذ زمان طويل، وبأد أهلها وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل من السريانية فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية؟"^(١١)

والملاحظ بخصوص هذه الإشارة، أن ياقوت الحموي لم يضمن كتابه أي تعقيب أو نقد لهذه الرواية، أو كلاماً يفيد بغلطها وبعدم اندثار لغة اليونان، أو تغليط قائل هذا الكلام، وكأن هذه الرواية "من المعروف في التاريخ بالضرورة" والجاري العمل بها فلا تحتاج إلى برهان أو بيان، كما لا تحتاج إلى نفي أو تكذيب. بيد أن هذا لا ينفي أن نصوصاً أخرى تقدم قصة مختلفة، من بينها ما ورد في إخبار الحكماء: "ودخل حنين إلى بلاد الروم

أصل الرومية، وباعتبار موقع اليونان الحالية وكونها كانت "خاضعة للإمبراطورية البيزنطية"، وباعتبارها كانت مهيمنة وحاضرة في المخيال الإسلامي وحتى في السجلات الأيديولوجية المشتدة، فقد كان من الطبيعي أن تكون واضحة التحديد الجغرافي والمعالم، بيد أننا نجد عكس هذا، إذ تختلف المصادر في تحديد علاقتها بالروم وكجمال جغرافي تحديداً بينا واضحاً.

ثانياً: اليونان البائدة

تذهب عدد من نصوص المصادر العربية الإسلامية إلى القول إن اليونان أمة بائدة، كانت في وقت مضى ثم انتهت إلى الاندثار، بل ويبدو أنه في حدود القرن الرابع الهجري، كانت اللغة اليونانية بدورها منقرضة، وما وصل عن اليونان إنما جاء عن طريق الترجمات السريانية. يؤكد هذا الكلام الحوار الذي دار بين أبي سعيد السيرافي النحوي، ومتى بن يونس المنطقي، والذي أورده أبو حيان التوحيدي في الليلة الثامنة من "الإمتاع والمؤانسة"، إذ قال أبو سعيد: "ولكن مع هذا أيضاً إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمنا الحاجة إلى معرفة اللغة؟

- قال: نعم.
- قال: أخطأت، قل في هذا الموضع: بلى.
- قال: بلى، أنا أقلدك في مثل هذا.
- قال: أنت إذا لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عفت منذ زمان طويل، وبأد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها، على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية؟
- قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق^(٩)

بغض النظر عن البعد السجالي لهذه المناظرة، ولسياقاتها الأيديولوجية، فإن ما يهم في هذا السياق ما

الثالث عشر الميلادي) فإن هذه الإشارة تطرح عدداً من علامات الاستفهام والأسئلة حول اليونان كمجال جغرافي، إذ يبدو أنها لم تكن حاضرة بالشكل الذي نتخيله إن لم نقل إنها كانت غائبة. ولعل هذا ما يفسر أن ابن خلدون لا يخصص حيزاً كبيراً للتاريخ اليوناني على عكس اللاتيني، ومن أهم إشارات ابن خلدون ما نقله عن ابن العميد بأنه قد "انقضت مملكة يونان من مصر والاسكندرية والمغرب بملكها وصارت هذه الممالك للروم إلى حين الفتح الإسلامي"^(١٦). إن إشارة "إلى حين الفتح الإسلامي" التي أوردها ابن خلدون نقلاً عن ابن العميد تعتبر بالغة الأهمية، إذ تفيد بتحول اليونان إلى مجال إسلامي منذ الفتح، على عكس السردية السائدة، وربما هذا مما يمكن أن يفسر بعض الاضطراب في المصادر الإسلامية.

يقدم ابن العبري سردية أخرى بالغة الأهمية بالنظر إلى الخلفية الثقافية لابن العبري (سرياني) وسرديته بالتالي يمكن اعتبارها من داخل الثقافة العربية الإسلامية وخارجها في الآن نفسه، في هذا السياق، يورد ابن العبري في تاريخه مختصر الدول عن: "الدولة الثامنة المنتقلة من ملوك الإفرنج إلى ملوك اليونانيين المتتصرين من عهد اغسطوس قيصر إلى أن أقام طيباريوس قيصر والمدة قريبة من ستمائة سنة كان الملوك على القسطنطينية والبطارقة وجل الجند روميين أعني افرنجاً. غير أن الوزراء والكتاب والرعيا كافة كانوا يونانيين. ثم صارت المملكة أيضاً يونانية. والسبب في ذلك أن يوسطينيانس الأخير لما ابتلي بالمرض الشديد ويئس من حياته لم ير في أهل بيته وخاصته من يفي بسياسة الملك غير وزيره طيباريوس وهو رجل يوناني فبايعه ووضع له التاج بيده. ومن حينئذ صارت مملكة القسطنطينية يونانية. إلى أن استعاده افرنج في سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة للإسكندر وهي سنة ستمائة للهجرة، ثم فتحها اليونانيون في أيامنا سنة ألف وخمسمائة وثمانين وستين للإسكندر وهي سنة خمس وخمسون وستمائة للهجرة"^(١٧).

يضع ابن العبري خطأ زمنياً مخالفاً لما درجت عليه المصادر ففي البداية كان الحكام من الروم والباقي من اليونان، ثم أصبح الحكم في القسطنطينية يونانياً، أي

لأجل تحصيل كتب الحكمة وتوصل في تحصيلها غاية إمكانها وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات وحصل نفائس هذا العلم وعاد يلزم بني موسى ابن شاعر ورغبوه في النقل من اللسان اليوناني إلى العربي"^(١٢).

يبدو بعض التناقض في هذه الرواية إذ أن بلاد الروم كانت تكتب بالحرف الرومي وليس اليوناني، وهو ما قد يرتبط بالاضطراب الذي طبع المصادر العربية الإسلامية في التعاطي مع الحرف اليوناني مما لا يسع مجال هذه الدراسة الخوض فيه، وعلى العموم وإن كان لا يمكن الحسم في الحرف اليوناني وحضوره في الثقافة الإسلامية، والترجمات الموجودة، فإن رواية أبو حيان التوحيدي وهو المؤرخ النبيه والفيلسوف المتحيز للمعرفة العقلية التي يمثلها اليونان في المخيال الجمعي الإسلامي تظل أكثر قوة ومصداقية. إضافة إلى اندثار اللغة اليونانية، فإن الإشارات المصدرة تؤكد على فناء الأمة اليونانية ككل، إذ "ذهب ملك اليونان من أيديهم، ودرست حكمتهم"^(١٣).

ويورد القزويني (القرن السابع الهجري)، في حديثه عن اليونان أنها: "موضع كان بأرض الروم، به مدن وقرى كثيرة، وإنها منشأ الحكماء اليونانيين، والآن استولى عليها الماء، من عجائبها أن من حفظ شيئاً في تلك الأرض لا ينساه أو يبقى معه زماناً طويلاً. وحكى التجار أنهم إذا ركبوا البحر ووصلوا إلى ذلك الموضع يذكرون ما غاب عنهم. ولهذا نشأ بهذه الأرض الحكماء الفضلاء الذين لم يوجد أمثالهم في أرض أخرى إلا نادراً"^(١٤). ويورد القلقشندي عن نهاية ملك اليونان: "وكان الملك على الروم يومئذ أغشطش قيصر ملك الروم، فقصدها، فاحتالت بأن اتخذت حية توجد بين الحجاز والشام، فلمست الحية فيبست مكانها، وبقيت الحية في رياحين حولها، وحضر أغشطش فوجدها جالسة ولم يشعر بموتها، فتناول من الرياحين ليشمها فلسعته الحية فمات. وزالت دولة اليونان بزوالها"^(١٥).

إن المعطى المثير في رواية القزويني هو إشارته إلى فناء أرض اليونان حيث غمرها الماء من جميع جوانبها، وهي من بين الإشارات القليلة لليونان كمجال جغرافي، وبالنظر إلى زمن القزويني (القرن السابع الهجري/

حكماء اليونان، وهو ما يخالف السردية الجغرافية السائدة، كما يطرح عدداً من الأسئلة عليها: إذ ما هي العلاقة بين صور وأثينا وبلاد اليونان عموماً؟

قد يعتبر البعض أن الأمر يتعلق بخطأ جغرافي وقع فيه الاصطخري، لكن عدداً من النصوص الأخرى تؤكد هذه الرواية، إذ أورد ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" ما نصه: "ومدينة صور من أحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة ويقال إنه أقدم بلد بالساحل وإن عامة حكماء اليونانية منها، وبالأردن كان مسكن يعقوب النبي عليه السلم وجب يوسف على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق وجميع مياه طبرية فمن بحيرتها".^(١٩) كما أورد المهلب في كتابه: "وأما دمشق فإنها مدينة عادية أزلية. وهي مدينة الشام العظمى، وقصبة الجند. وهي من الإقليم الرابع. وعرضها ثلاث وثلاثون درجة. قالوا: وهي إرم ذات العماد. وهي من أحسن البلاد وأجلها موقعاً سهلية جبلية، وفي شمالها جبل عظيم ممتد مسيرة أربعة أيام، وكانت مدينة اليونانية ودار ملكهم".^(٢٠)

يؤكد المهلب في هذا النص أن دمشق كانت عاصمة البلاد اليونانية، ويضيف البكري خلال القرن الخامس الهجري إشارة مهمة عند حديثه عن ملوك اليونانيين، حيث أورد في "ذكر ملوك اليونانية: فاستوسق (بالإسكندر ملك اليونانيين) بالشام ومصر، وهي مقدونية وإليها يُنسب الإسكندر المقدوني، ونواحي المغرب من الأندلس وغيرها، وكانت دار مملكتهم الإسكندرية. فولي بعده خليفته بطليموس بن لاوي، وهذا الاسم يخص ملوك الإسكندرية من اليونانيين، وكان ملكه أربعين سنة، وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها. واللدازقة (وهم ملوك الأندلس) وغيرهم أول من لعب بالشواحين. وملك بعده بطليموس بن هيفلوس ثمانين وثلاثين سنة، وهو الذي بنى مدينة أنطاكية".^(٢١) يطرح هذا النص للبكري عدداً من الأسئلة، إذ أنه يجعل مصر هي مقدونية^(٢٢)، وبالتالي يصبح الإسكندر المقدوني مصرياً، وأحد حفدته مشيد أنطاكية وهو ما يفتح المجال لمساءلة السردية القائمة جغرافياً وتاريخياً، إذ ما الذي يربط بين أنطاكية واليونان؟ وكيف تصبح مقدونية هي مصر؟ والإسكندر مصرياً؟

ما يفترض أنه بيزنطي إلى غاية سنة ستمائة للهجري (أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، قبل أن يستعيدها الروم (الافرنج) ثم ترجع من جديد إلى اليونان سنة ٦٥٥ هجرية أي القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

تقيم هذه الرواية تطابقاً بين الروم والافرنج، وبالنظر إلى أن الروم (في هذه الرواية) حكموا القسطنطينية قبل أن تؤول لليونان، فإن الأمر يطرح علامات استفهام كثيرة حول هذا المفهوم، خاصة مع استحضار أن فترة كتابة ابن العبري لكتابه شهدت عدداً من حملات الافرنج صوب السواحل الشامية (حيث يقيم ابن العبري) ما يفترض توفر معرفة دقيقة لدى المؤرخ بالفرجة والروم. يقلب ابن العبري السردية السائدة ويجعل اليونان هم أصحاب الحكم الذين تغلبوا على الافرنج (الروم)، وهو ما يطرح عدداً من علامات الاستفهام، إذ هل يمكن أن يقال أن الأمر يتعلق بخطأ في النقل؟ لكن باستحضار ما سبق عند التوحيدي من أن ما نقل عن اليونان تم عن طريق الترجمات السريانية، وباستحضار الفترة الزمنية لابن العبري، وعلاقته بالسرمان والمسيحيين والمسلمين والافرنج، فإن هذا لا يجعلها رواية شاردة فقط، بل تحتل كثيراً من أوجه الصدق، ولعل التفسير الممكن لما يبدو اضطراباً، أن هذا العصر (القرن السابع الهجري) عرف تحولاً في المجالات الثقافية والجغرافية، انعكست على المصادر العربية، حيث امتزج الروم والافرنج واليونان، وصاروا تمثيلات ثقافية ارتبطت بالحروب الصليبية أكثر منها مجالات جغرافية؟

ثالثاً: اليونان الشامية

درجت المصادر على الربط بين الشام والأردن واليونان، فقد أورد الاصطخري في كتابه المسالك والممالك: "وبعض الغور من حد الأردن إلى أن تجاوز بيسان فإذا جاوزته كان من حد فلسطين، وهذا البطن إذا امتد فيه السائر أداه إلى أيلة وصور بلد من أحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة ويقال إنه أقدم بلد بالساحل وأن عامة حكماء اليونان منها".^(١٨) يشير هذا النص إلى أن صور (الشامية) هي مهد عامة

وبالنظر إلى أهمية معجم البلدان، وموسوعيته، فإن هذا التحديد لليونان في الشام وفي بعلبك تحديداً، يطرح كثيراً من علامات الاستفهام والأسئلة، كما يزيد من حدة مآزق السردية القائمة، وهذا ما يؤكد صاحب تاريخ حلب، إذ أورد ما نصه: "عند اليونانيين: وقال: وأما بهراء فتشاءمت فأخذت جبلاً من جبال الأكراد غلبت عليه وعلى جرف منه فقطنته وهو من حد جبل بلد طرابلس إلى حد جبال اليونانية وما تحته من المدن، ومنهم بحماة وأرضها إلى حد الجبل بنو عبد الله بطن كبير، وبنو أرقش بطن كبير، وبنو مسعود أهل بيت شرف وغير ذلك من بطونهم"^(٢٦). لعل أهم جملة تدعو إلى التأمل في هذا النص هي المتعلقة بحد جبال اليونانية، والتي تجاور طرابلس وتحدها جبال الأكراد، فأى علاقة يمكن أن نقيمها بين هذا الثلاثي (جبال طرابلس، جبال اليونان، جبال الأكراد) مع اليونان الحالية وطرابلس الحالية وإلى أي مدى يصح هذا الربط؟ هل يمكن أن نعتبر أن الأمر يرتبط "بمجرد خطأ" نقلته المصادر العربية الإسلامية بالتواتر؟ أم أن الأمر يطرح فرضية أن الأمر يتعلق بمجال جغرافي مختلف؟

يبدو ارتباط اليونان بالشام في عدد من المصادر اللاحقة حيث أورد القلقشندي عن بلاد الشام: "الجملة الرابعة (في ذكر من ملك هذه البلاد) قد ذكر ابن سعيد: أن هذه البلاد كانت بيد اليونان، وهم بنو يونان بن علجان بن يافث بن نوح عليه السلام من جملة ما بيدهم قبل أن يغلب عليهم الروم، ثم غلب عليها الروم بعد ذلك فيما غلبوهم عليه، واستمرت بأيديهم في مملكة صاحب القسطنطينية على ما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة القسطنطينية فيما بعد إن شاء الله تعالى"^(٢٧).

ويورد أبو الفداء نقلاً عن ابن سعيد "ومن كتاب ابن سعيد المغربي: أن بلاد اليونان كانت على الخليج القسطنطيني من شرقيه وغربيه إلى البحر المحيط، والبحر القسطنطيني هو خليج بين بحر الروم وبحر القرم، واسم بحر القرم في القديم بحر نيطش - بكسر النون وباء مثناة من تحتها ساكنة وطاء مهملة لا أعلم حركتها وشين معجمة - قال: واليونان فرقتان: فرقة يقال لهم الإغريقيون وهم اليونانيون الأول، والفرقة الثانية يقال لهم اللطينيون"^(٢٨).

قد يرد البعض على هذا بالقول إن الأمر من خلط الرواة والمؤرخين، لكن يبدو الأمر مستبعداً، إذ ارتبطت أنطاكية باليونان في أكثر من موضع، وفي فترات زمنية مختلفة، حيث أورد "سبط ابن الجوزي" ما نصه: "وفي ساحل حلب مدن منها: أنطاكية، ذكرها ابن الجواليقي في "المعرب"، وقد تكلمت بها العرب قديماً، وكانوا إذا أعجبهم شيء نسبوه إليها. واختلفوا في بانيتها فقال قوم: بناها أنطخس أول ملوك اليونان، وصيرها دار ملكه، وحشد إليها الحكماء وأصحاب الرصد وأخذ الطوالع بها، ومسافة سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاته أربع وعشرون ألفاً، وهذا السور في السهل والجبل، وقال أبو معشر: بنيت بعد الإسكندر الثاني بمئة سنة، والنصارى تسميها دار الله؛ لأن النصرانية ظهرت منها بعدما دثرت"^(٢٩).

مهما اختلفت المصادر في اسم مشيد أنطاكية، فإنها تقر أنه كان يوناني الأصل، وأنه مما جرى به التواتر وذكرته العرب قديماً والنصارى، ما يطرح السؤال على أصل اليونان وموقعهم؛ وفي هذا الصدد يقدم "سبط ابن الجوزي" إشارة مهمة عن أصول اليونان، وهي رواية رغم أسطوريتها إلا أنها تتضمن تحديداً جغرافياً مهماً، حيث أورد: "وتزوج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيصو، فكان أصفر في بياض، فهو أبو الروم كلهم، فكل ما كان من بني الأصفر فهو من ولده. وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام على وادي كنعان، وسكنوا على الساحل على جانب البحر الرومي إلى الإسكندرية، وصار الملك في ولده وهم اليونان"^(٣٠).

يحدد ابن الجوزي المجال الجغرافي لليونان في بلاد الكنعانيين على جانب بحر الرومي، حيث يمتد إلى الإسكندرية، وهذا التحديد الجغرافي نقيض للتحديد السائد الذي يوجد على الضفة المقابلة، وبالتالي، تغير هذه الرواية من المجال الجغرافي لبلاد اليونان نقيضاً لما هو معروف وسائد. كما يشير الحميري في معجم البلدان إلى أن: "يونان: بالضم ثم السكون، ونونين بينهما ألف: موضع منه إلى بردعة سبعة فراسخ ومنه أيضاً إلى بيلقان سبعة فراسخ. ويونان أيضاً: من قرى بعلبك"^(٣١).

بينما تجعل نصوص أخرى الاسكندر مصرياً، إذ قيل: "كان ذو القرنين يوناني من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة من ولد يونان بن يافت بن نوح: حكى ذلك محمد بن اسحاق عن أهل الأخبار من الأعاجم".^(٣١) وقد يبدو الأمر مفسراً بارتباط مصر بحكم اليونان ومقدونية، كما ورد في نص سابق عند البكري، حيث امتد حكمهم على سواحل البحر الرومي وصولاً إلى الإسكندرية، إلا أنه بحسب بعض النصوص فإن ملكهم امتد ليصل إلى بلد المغرب وساحل البلاد الرومية، كما جاء في مرآة الزمان: "وكانت قلان طره تتردد من المغرب إلى مصر، وكانت الجزائر بأسرها داخلة في ملك اليونان: صقلية وقبرس والأندلس، وجميع ما على البحر الرومي من البلاد الرومية وأعمالها، فإنها كانت للروم. وأقامت قلان طره ملكة عشرين سنة، وقيل: اثنتين وعشرين، ثم قتلت نفسها لما نذكر"^(٣٢).

تطرح هذه الرواية بدورها عدداً من الأسئلة والإشكاليات، فإذا كانت قلان طره هي الملكة كليوباترا، فإن المعروف حسب السردية القائمة أن ملكها لم يصل إلى بلاد الأندلس وصقلية، فوفق أي تحديد تم اعتبار ملك قلان طره (كليوباترا حسب التفاسير) قد وصل إلى هذه الفترات، هل التحديدات الجغرافية الواردة في النص السابق هي عينها التحديدات الجغرافية الحالية؟ أم أننا بصدد مجالات جغرافية مختلفة؟ وما طبيعة العلاقة بين اليونان، ومصر، ومقدونية، وآيلة؟

خامساً: اليونان الأندلسية

إذا كان من الممكن فهم ارتباط اليونان بمصر أو بالشام، فإن ارتباط اليونان بالأندلس يظل محط أسئلة كثيرة، وقد سجلت عدد من النصوص هذا الارتباط، إذ ورد في وفيات الأعيان أنه لما: "رأى طارق لذريق قال لأصحابه: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه، ففترقت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص إليه طارق، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريرته، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة اليونان على موضع، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعتلاً معتلاً"^(٣٣).

تربط هذه النصوص بشكل واضح بين الشام واليونان إما على المستوى السياسي أو على المستوى الجغرافي، ولا تسعف السردية السائدة في تقديم أي تفسير لهذا الارتباط الجغرافي، بل التحول من الشمال صوب الجنوب على مستوى الخريطة السائدة، وهو ما يدفع إلى التساؤل هل يتعلق الأمر بمجال جغرافي مختلف.

رابعاً: اليونان المصرية

اقتربت اليونان أيضاً بمصر إضافة إلى اقترانها بالشام، وقد ورد هذا الأمر في عدة نصوص انطلاقاً من القرن الثالث الهجري إلى الثالث عشر الهجري، ومن بين هذه النصوص ما جاء في كتاب البدء والتاريخ للمقدسي (القرن الرابع الهجري) حيث أورد: "وبنى الاسكندر عشر مدن سرنديب بأرض الهند والاسكندرية بأرض اليونان وجى بأرض أصبهان وهرة ومرو وسمرقند بأرض خراسان ومن يحصى بناء المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادي إنشائها إلا الله عز وجل"^(٣٤). وإذا كان من المنطقي الربط بين الإسكندرية والاسكندر، فإن الإشارة إلى أن الإسكندرية بأرض يونان تلفت الانتباه وتدفع للتساؤل عن موضع هذه الإسكندرية وأرض اليونان هذه؟ وقد يحتج في الرد على هذا، بالقول، أن مصر خلال مرحلة الاسكندر كانت تابعة سياسياً لليونان، لكن نصاً آخر لنفس المؤلف يطرح تحديداً جغرافياً ينفي هذا الأمر، إذ أورد في تحديده لمصر: "عمل مصر:

مسيرة شهر في مسيرة شهر طولها من رفح إلى اسوان من حد النوبة وعرضها من برقة إلى آيلة وهي من بلاد مقدونية يونان وماءها من النيل وكانت المدينة في القديم عين الشمس ثم صارت الفسطاط من مصر إلى اسكندرية ثلاثون فرسخاً"^(٣٥).

يجعل هذا النص آيلة من بلاد مقدونية يونان، وبالعودة إلى أغلب مصادر الجغرافيا والرحلات، فإنها تحدد آيلة في الجنوب المصري، وهي المنطقة التي يفترض أنها ظلت بعيدة عن الوجود اليوناني حسب السردية الرسمية، كما أن الربط بين مقدونية ومصر يبدو مثيراً للاستغراب، ولعدد من الأسئلة، الأمر الذي يجعل هذه التحديدات الجغرافية محط شك كبير؟

أن سكان الأندلس من اليونان، وهو ما يناقض السردية الرسمية التي تعتبرهم كانوا قوطاً غربيين ولا علاقة لهم من قريب أو بعيد باليونان، أما المعطى الثاني فهو أن لقب ملوك الطوائف لم يظهر إلا في الفترة الإسلامية، بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)، وهو ما لا يمكن أن يستقيم بأي حال من الأحوال مع فترة حكم الإسكندر، الذي يفترض أنه حكم قبل القرن الرابع الميلادي، أي بين التاريخين حوالي ١٥ قرناً من الزمان، وبالتالي فإننا إما أمام رواية منحولة ومزيفة، أو أننا إزاء واقع مجال جغرافي وزمني مختلف تمام الاختلاف؟ في هذا السياق يورد صاحب "المرآة" نصاً قال فيه: "ولما ظهر بخت نصر على مصر دخل المغرب، ووصل إلى بلاد اليونان، وقرر عليهم أن يؤدوا الخراج إلى ملوك فارس، وفي الجملة بيض من ذهب. واستقر ذلك حتى مات فيلفوس أبو الإسكندر، فأزاله الإسكندر على ما ذكرنا"^(٣٦). يطرح المجال الجغرافي لهذه الرواية سؤالاً أساسياً عن اليونان، إذ جاء فيها أن الإسكندر اتجه من مصر حتى دخل المغرب ثم بلاد اليونان، وهو ما لا يستقيم مع السردية الجغرافية الحالية، حيث توجد اليونان شمال مصر، ولعل هذه الرواية تلتقي مع رواية حكم قلان طره (كليوباتره) إذ كانت "تتردد من المغرب إلى مصر، وكانت الجزائر بأسرها داخلية في ملك اليونان: صقلية وقبرس والأندلس"^(٣٧)، وهذا ما يضع السردية الرسمية في مأزق حقيقي.

تزيد حدة الإشكال المطروح أمام السردية الرسمية، بالعودة إلى نص ورد في وفيات الأعيان، جاء فيه: "وأصل خبر بيت الحكمة أن اليونان - وهم الطائفة المشهورة بالحكمة - كانوا يسكنون ببلاد المشرق قبل عهد الإسكندر، فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس، لكونها طرفاً في آخر العمارة، ولم يكن لها ذكر يوم ذاك، ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرة"^(٣٨). يشير هذا النص إلى انتقال اليونان للأندلس عند ظهور الفرس، لكن الأهم هو سكنهم في بلاد المشرق قبل عهد الإسكندر، وهو ما لا ينسجم بأي حال من الأحوال مع التحديدات الجغرافية الحالية، إذ لا

يشير هذا النص إلى أن طارق بن زياد هزم اليونان، وأن الدخول إلى الأندلس كان دخولاً لبلاد اليونان، وكان من الممكن اعتبار الأمر مجرد خطأ من أخطاء الكتاب أو النسخ، لكن تكراره في مواضع عدة، وبنفس المعنى تقريباً، وإن اختلفت الصياغة، يطرح عدداً من علامات الاستفهام.

من الإشارات المهمة أيضاً التي تربط الأندلس ببلاد اليونان، ما أروده السيرافي عن جزيرة سقوطرا، حيث ذكر في رحلته أن: "في البحر جزيرة تعرف بسقوطرا وبها منابت الصبر الاسقوطري، وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب، وأكثر أهلها نصارى، والسبب في ذلك أن اسكندر لما غلب على ملك فارس، كان يكتبه معلمه ارسطوطاليس فيعرفه ما وقع عليه من الأرضين، فكتب إليه يؤكد عليه في طلب جزيرة في البحر تعرف بسقوطرا، وإن بها منابت الصبر وهو الدواء الأعظم الذي لا تتم الايارجات إلا به، وأن الصواب أن يخرج من كان في هذه الجزيرة، ويقيم فيها من اليونانيين من يحوطها ليحمل منها الصبر إلى الشام والروم ومصر، فبعث اسكندر فأخرج أهلها عنها وأنزل جمعا من اليونانيين فيها، وتقدم إلى ملوك الطوائف - إذ^(٣٩) كانوا عند قتله دارا الكبير طوع يده - بالاحتفاظ بهم فكانوا في صيانة حتى بعث الله عيسى عليه السلام، فبلغ من بهذه الجزائر من اليونانية أمره فدخلوا في جملة ما دخلت فيه الروم من التنصير وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من سكنها من غيرهم، ولم يذكر في هذا الكتاب^(٤٠).

تضم هذه الرواية معطيات جد مهمة، أولها الإشارة إلى نبات الصبر أو الصبار الذي ينبت في المناطق الحارة وليس الباردة، وبالنظر إلى موقع اليونان الحالية وجزرها يبدو من الصعب الربط بينهما، كما يفترض أن هذه الجزيرة التي استوطنها اليونانيون قريبة من مصر والشام من أجل إرسال الصبر إليها، وهو ما يطرح مرة أخرى إشكالية المناخ والغطاء النباتي، وإلى أي حد يمكن أن يستقيم هذا الأمر مع التحديدات الحالية.

أما الإشارة المهمة الثانية فهي قيام الإسكندر بإرسال سكان الجزيرة إلى الأندلس عند ملوك الطوائف، وهو يتضمن معطيين اثنين يخالفان السردية الرسمية، أولهما

ومصر وتولى مناصب القضاء فيهما، وألف عمله الموسوعي "وفيات الأعيان"، وخلال هذه المرحلة كانت الحملة الصليبية الرابعة قد استهدفت جزءاً مما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية التي يفترض أن اليونان كانت خاضعة لها، فكيف إذا يجعلها ابن خلكان في الأندلس؟ وأي علاقة بين اليونان والأندلس خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)؟ ما هي العلاقة بين بلاد الأندلس وجزيرة قادس؟ كيف تحول القوطيون إلى اليونان؟ كيف نفسر التضارب بين من يجعل لذريق قوطياً ومن يجعله يونانياً؟ وهل يعقل أنه في القرن السابع الهجري الذي مثل مرحلة مهمة من الاحتكاك بين ضفتي المتوسط (احتكاك لم يخل من عنف أحياناً) أن يورد المؤلفون مثل هذه الأخطاء دون تحري؟ أم أن الأمر يرتبط بمجال جغرافي آخر؟ هل يعقل أن اليونان التي كانت حاضرة ومهيمنة كتمثل ثقافي في الساحة الفكرية والفقهية أيضاً مجهولة المجال؟

تتكرر هذه الأسئلة بتكرار الإشارات ذاتها في عدد من المصادر إذ نجد بعضها عند ابن أبي أصيبعة، حيث أورد: وقال أبو معشر في المقالة الثانية من كتاب الألوف أن بلدة من المغرب كانت تسمى في قديم الدهر أرغس وكان أهلها يسمون أرغيويا وسميت المدينة بعد ذلك أيونيا وسموا أهلها يونانيين باسم بلدهم وكان ملكها أحد ملوك الطوائف^(٤٢). وهنا لابد من التساؤل عن طبيعة العلاقة بين المغرب واليونان وملوك الطوائف؟ كيف تتحول اليونان إلى بلدة مغربية، ويصبح ملكها أحد ملوك الطوائف، مع ما سبقت الإشارة إليه من إشكال يرتبط بهذا التحديد؟

هذا الإشكال يزيد حدة بحضور نفس الرواية عند "المقري" صاحب "نفع الطيب" وهي الموسوعة الأندلسية التي ألفها المقري التلمساني خلال القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي^(٤٣)، وحسب السردية الرسمية فإنه من المفترض أن اليونان كانت ضمن البلاد العثمانية، على غرار أغلب مناطق العالم الإسلامي التي تنقل فيها المقري، بيد أنه مع ذلك يربط بين اليونان والأندلس والمغرب، ما يجعل السؤال مشروعاً حول هذه الرواية ومصادقيتها، وعلاقتها بالتحديدات الجغرافية الحالية؟؟

يعقل أن تكون اليونان شرق مصر والشام، كما أن انتقال اليونان صوب الأندلس والذي ورد في نصوص أخرى يطرح أسئلة كثيرة. ويبدو أن سردية يونانية الأندلس أو أندلس اليونان كانت راسخة عند ابن خلكان، إذ أورد في نص آخر: "وكان بنواحي غرب جزيرة الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس، وكانت له ابنة في غاية الجمال"^(٤٩)

ويورد في نص آخر: "وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره، فاتفقوا وعملوا الطلسمات في أوقات اختاروا أرسادها، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطلة، وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه، وتقدموا إلى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً، تأكيداً لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك.

ولما كان وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة، وكان الملك لذريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم"^(٤٠). ثم يضيف في نص آخر: "وذهب ملك اليونان من أيديهم، ودرست حكمتهم، فهذا هو بيت الحكمة المقدم ذكره؛ فلما سمع لذريق ما في الرق ندم على ما فعل، وتحقق انقراض دولتهم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب يستفتح بلاد الأندلس؛ انتهى الكلام على بيت الحكمة.

ونعود الآن إلى تنمة حديث لذريق وجيش طارق بن زياد: فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه، ففترقت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص إليه طارق، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريرته، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة اليونان على موضع، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً، ومعقلاً معقلاً"^(٤١).

تطرح هذه النصوص علامات استفهام كثيرة، فهي ترجع إلى القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وصاحبها ابن خلكان الذي تنقل بين دمشق

بعدها عنهم في أوقات انتصاف النهار بعدا كثيرا، فكان مزاج هوائهم معتدلاً فكان قد يختلف إلا أنه لا يعرض له تغير كثير من الحر إلى البرد ومن البرد إلى الحر - صارت ألوان هؤلاء متوسطة ومقادير أبدانهم معتدلة وطبائعهم حسنة المزاج ومساكنهم متصلة وأخلاقهم أنيسة. ومن كان من هؤلاء يميل إلى ناحية الجنوب فهو في أكثر الأمر أذكى وأحيل وأقوى على العلم بأمور الآلهة لقرب فلك البروج والكواكب المتحيرة من موضع سمت رؤوسهم، وحركات أنفسهم تليق بحركات الكواكب في سرعة وقوفها على الشيء، وإنها ذوات فحص ونظر في العلوم التي تسمى التعليمية - أي علم النجوم والحساب - كأنه يريد أداني بابل فبلد فارس فذاها إلى المغرب على أرض مصر وجزيرة يونان".

من خلال هذه الإشارة فإن قاطني المنطقة بين مداري السرطان وبنات نعش (المنطقة الاستوائية) هم الأكثر تميزاً في العلوم العقلية كأرض مصر واليونان، وهنا يجوز التساؤل عن العلاقة بين اليونان والمنطقة الاستوائية خاصة أن النص يربط بين الماضي جنوباً وتطور هذه المعارف، وغني عن البيان ربط المصادر العربية الإسلامية بين تطور المعرفة العقلية واليونان، وهو ما يعيد طرح السؤال حول المجال الجغرافي الذي تغنيه اليونان في المصادر العربية الإسلامية؟ في سياق وضع شبكية جغرافية لبعض المواقع المرتبطة باليونان أشار الاصطخري إلى أن "المسافات بهذه النواحي الطريق من برزعة إلى اردبيل من برزعة إلى يونان ٧ فراسخ ومن يونان إلى بيلقان ٧ فراسخ ومن بيلقان إلى ورتان ٧ فراسخ ومن ورتان إلى بلخاب ٧ فراسخ ومن بلخاب إلى برزند ٧ فراسخ ومن برزند إلى أردبيل ١٥ فرسخاً".^(٤٧)

ويورد صاحب حدود العالم في تعريفه لبلاد اليونان: "يونان: كانت مدينة من أثيناس هذه قديماً. وقد نبغ جميع الحكماء والفلاسفة من أثيناس هذه"^(٤٨)، والملاحظ أن المؤلف يجعل أن يونان كانت جزءاً من أثيناس دون أن يقدم أي إضافات حول أي موقع لأثيناس هذه. يورد المقدسي في أحسن التقاسيم شبكية جغرافية جاء فيها: "وأما المسافات فإنك تأخذ من برزعة إلى يونان أو إلى برديج أو إلى جنزة أو إلى قلقاطوس مرحلة

وقد ظلت سرديّة الأندلس اليونانية أو يونان الأندلس حاضرة في النصوص العربية إلى غاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، إذ أورد المؤرخ محمود مقديش (توفي سنة ١٨١٣) عدداً من هذه الروايات في كتابه نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار، ومن ذلك رواية عنوانها ب"اليونان ودورهم بالأندلس"^(٤٩)، أو في رواية عن "طليطلة وما جاورها: وبلاد الأندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات، وفي جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة، وهي مركز لبلاد الأندلس، (وهي قاعدة ملك اليونان، ولها بساتين محدقة وأنهار مختركة، ورياض وجنان، وفواكه حسان، مختلفة الطعم والألوان، ولها من جميع جهاتها أقاليم وسيعة)"^(٥٠). أو ما أورده عن "وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة".^(٥١) إن استمرار هذه الروايات إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر، قبل ما يعرف بثورة اليونان ومطالبتها بالاستقلال يطرح عدداً من الأسئلة حول التحديد الجغرافي لليونان الحالية وعلاقتها بالأندلس، إذ لم يتم العثور في المصادر المطلع عليها - على ما يمكن اعتباره نقداً أو تفصيلاً لرواية يونان الأندلس أو أندلس اليونان، وكأنها من المعروف بالتاريخ والجغرافيا بالضرورة، كما لم يتصد مؤرخي القرنين الثامن عشر وبداية التاسع عشر لنقد هذه الرواية، وهو ما قد يزكي فرضية اننا إزاء جغرافية مختلفة.

سادساً: محددات جغرافية

تقدم المصادر العربية الإسلامية عدداً من التحديدات الجغرافية التي يمكن أن تعين على تحديد بعض مميزات بلاد اليونان وطبونيميتها، من أجل رسم جدول طبونيمي لليونان في المصادر العربية الإسلامية، يسهم في تحديد أدق لموقعها.

في هذا السياق أورد الهمداني في كتابه "صفة جزيرة العرب أن: "الذين يسكنون في الوسط فيما بين مدار بنات نعش ومدار رأس السرطان، فإن الشمس لما كانت لا تصل إلى موضع سمت رؤوسهم - ولم يكن

حالته، إذ لا قاطع له يقطعه؛ ولم يظهر لهم هذا القسم لبعده عنهم؛ فتركوه على حاله. ومن الناس من يقسم آسيا إلى قطعتين: صغرى وهي: العراق وفارس والجبّال وخراسان، وكبرى وهي: الهند والصين والترك".^(٥٢) والملاحظ في هذه الرواية برغم أنها تقسم العالم انطلاقاً من تحديد يوناني، إلا أنها لا تذكر اليونان كمجال جغرافي، ولا تحدد موقعهم، بل تكتفي بالحديث عن حكماء اليونان، وهو ما يطرح عدداً من الأسئلة حول اليونان مجاًلاً جغرافياً.

"أما اليونانيون فكانوا أمة عظيمة القدر في الأمم طائفة الذكر في الآفاق فخمة الملوك. منهم الإسكندر بن فيليفسوس المقدوني الذي أجمع ملوك الأرض طراً على الطاعة لسلطانه. وكان من بعده من ملوك اليونانيين البطالسة دامت لهم الممالك وذلت لهم الرقاب. ولم يزل ملكهم متصلاً إلى أن غلب عليهم الروم وهم الافرنج. وكانت بلاد اليونانيين في الربع الغربي الشمالي من الأرض. ويحدها من جهة الجنوب البحر الرومي ومن جهة الشمال بلاد اللان ومن جهة المغرب تخوم بلاد اليمانية ومن جهة المشرق بلاد أرمينية وباب الأبواب. ويتوسط بلاد اليونانيين الخليج المعترض ما بين بحر الروم وبحر نيطس الشمالي فيصير القسم الأعظم منها في حيز المشرق والقسم الأصغر منها في حيز المغرب".^(٥٣) يطرح هذا التحديد الجغرافي أسئلة أخرى، إذ كيف يُقال إن حدها الغرب هو بلاد اليمانية، أي علاقة تربط بين بلاد اليمانية واليونان؟ وكيف يمكن اعتبارهما متجاوران، وكيف تصبح بلاد اليمانية غرباً والبحر الرومي جنوباً وأرمينية شرقاً؟ تبدو هذه التحديدات الجغرافية غير منسجمة وغير متناسقة مع التحديدات السائدة، وأبعد ما تكون عنها.

مرحلة، وتأخذ من يونان إلى البيلقان مرحلة ثم إلى وراثان مرحلة ثم إلى تلخاب مرحلة ثم إلى برزند مرحلة ثم إلى أردبيل مرحلتين".^(٥٤)

ويقدم ياقوت الحموي إشارة مهمة في كتابه "معجم البلدان"، حيث: "قال أبو الريحان: كان اليونان يقسمون المعمور من الأرض بأقسام ثلاثة: لوبية، وأورفي، وقد ذكرا في موضعهما. ثم قال: وما استقبل هاتين القطعتين من المشرق يسمى آسيا، ووصف بالكبرى، لأن رقعتها أضعاف الآخرين في السعة، ويحدها من جانب الغرب، النهر والخليج المذكوران الفاصلان إياها عن أورفي، ومن جهة الجنوب بحر اليمن والهند، ومن المشرق أقصى أرض الصين، ومن الشمال أقصى أرض الترك وأجناسهم"^(٥٥). هذا النص وإن كان لا يحدد موضع اليونان بالضبط لكنه يشير لتقسيمهم للعالم إلى لوبية وأورفي وآسيا، وحسب السردية السائدة فإن لوبية ترتبط بشمال أفريقيا وأورفي بشرقها ثم آسيا، وهو ما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينسجم مع هذا النص أو يفصره، ما يعني أننا بصدد تقسيم مجالي آخر.

وتؤكد هذا الأمر الإشارة الأخرى التي أوردها ياقوت الحموي عن أبو الريحان البيروني الذي قال: "كان اليونانيون يقسمون المعمورة بأقسام ثلاثة تصير أرض مصر مجتمعاً لها فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبية ويحدها بحر أوقيانوس المحيط الأخضر من جانب المغرب وبحر مصر من جهة الشمال وبحر الحبش من جهة الجنوب وخليج القلزم وهو بحر سوف أي البردي من جانب المشرق وهذا كله يسمى لوبية، والقسم الآخر اسمه أورفي، والآخر آسيا، وقد ذكرا في موضعيهما"^(٥٦).

يجعل هذا النص أرض مصر مجتمعاً للأجزاء الثلاثة حسب اليونان، وقد ظل هذا التقسيم حاضراً في عدد من المصادر كمراسد الاطلاع وغيرها، مع بعض الاختلافات الطفيفة، فهذا الأخير مثلاً يجعل أصل كلمة آسيا يونانية، "ويقال لها الكبرى؛ لأنها أضعاف القطعتين المتقدمتين؛ لأنهم قسموا الأرض مغرباً ومشرقاً، فما كان عن يمين مستقبل الجنوب فهو المغرب، وما كان عن شماله فهو المشرق. ولما اخترق بحر الروم المغرب بالطول سموا جنوبيه لوبية وشماليه أورفي، وتركوا المشرق على

خاتمة

طارق بن زياد كان دخولاً لبلاد اليونان، وهي الرواية التي تكررت في مواضع عديدة.

إن التحديدات الواردة في النصوص التي تربط بين اليونان والأندلس لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنطبق على التحديدات الجغرافية الحالية لبلاد اليونان، إذ لا يعقل أن تكون اليونان شرق مصر والشام، كما أن انتقال اليونان صوب الأندلس والذي ورد في نصوص أخرى يطرح أسئلة كثيرة. والملاحظ أن سردية يونانية الأندلس أو يونان الأندلس ظلت حاضرة في النصوص العربية إلى غاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، قبل ما يعرف بثورة اليونان ومطالبتها بالاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية وهو ما يطرح عدداً من الأسئلة حول التحديد الجغرافي لليونان الحالية وعلاقتها بالأندلس.

أما أقدم إشارة لليونان الحالية في المصادر العربية الإسلامية، فقد وردت عند صاحب المراء، في أواخر القرن التاسع عشر حيث ورد فيه "إنني أرى اليونان تساعد وتتكون على أساس متين بعد أن فصلت عن الإمبراطورية العثمانية، وأرى شعب بلجيكا يفصل عن هولندا بسبب بعض الاختلاف في المبادئ للسياسية الدينية، وأرى، جميع الشعوب الحرة تهتم بالبولونيين وباسترجاع سيادتهم، كما أنني أرى الحكومة الإنكليزية تخلد مجدها بعق الزنوج".^(٥٤)

إن كل ما سبق يدفع بالتأكيد إلى القول إننا أمام مجالات جغرافية متباينة لا تستقيم والسردية التاريخية والجغرافية الحالية، وأن اليونان لم تكن واحدة، بل كانت أسماء متعددة يحتمل أنها تمثل ثقافي أكثر منها مجال جغرافي. هذه بعض من الإشكاليات التي لن يمكن حلها إلا بتعميق البحث في هذا الموضوع، بالاشتغال حول اللغة اليونانية، وبعض المواقع اليونانية، وأيضاً الترجمات العربية للموروث اليونانية، وهي مشاريع بحثية من شأن تجميعها، أن يفك أسرار اليونان مجالاً وتمثلاً وتاريخاً.

بناءً على ما سبق، يبدو واضحاً أن السردية الرسمية أو السائدة تعرف عدداً من الإشكاليات والثغرات المرتبطة بالتوطين الجغرافي لبلاد اليونان، إذ يغيب أي تحديد واضح للمجال الجغرافي الذي شغله اليونان والروم، بل يغيب تحديدهما حتى كمجال ثقافي، وهو ما يطرح أسئلة عديدة حول سبب هذا الغياب.

إشكاليات السردية الرسمية لا تتوقف، خاصةً مع ما تذهب إليه بعض الروايات الواردة في المصادر الإسلامية، من أن اليونان أمة بائدة كمجال ولغة قبل ظهور الإسلام، وأن ما وصل للعالم الإسلامي كان عن طريق الترجمات السريانية، وهو ما يضرب في العمق كل السرديات القائمة والتي كانت تعتبر الحضارة العربية الإسلامية مجرد مترجمة للتراث اليوناني إلى الغرب. إن فرضية اندثار اللغة اليونانية، قد تفسر لماذا ترجم الأوروبيين عن المصادر العربية عوض العودة إلى "المصادر الأصلية" وتفسر هذا "الاضطراب" في عملية نقل المعرفة بين الشرق والغرب، خلافاً للسردية الرسمية، ما قد يؤشر على أن العملية برمتها لم تكن نهضة بعد انحطاط، بل ربما ولادة جديدة في مجال جغرافي جديد.

من الملاحظ أيضاً من خلال هذه الدراسة، أن المصادر العربية الإسلامية درجت على الربط بين الشام والأردن واليونان، إذ ذهب بعض النصوص إلى اعتبار بعض مناطق الشام كأنطاكية وصور وغيرها، كمهد عامة حكماء اليونان، وهو ما يخالف السردية الجغرافية السائدة، كما يطرح عدداً من الأسئلة عليها: إذ ما هي العلاقة بين صور وأثينا وبلاد اليونان عموماً؟

كما اقترنت اليونان أيضاً بمصر، وقد جعلت بعض النصوص من بعض مناطق الجنوب المصري مقدونية يونانية وهو ما لا ينسجم مع السردية الرسمية. لكن أكثر ما يطرح إشكاليات كبيرة على السردية الرسمية، ويجعلها موضع شك ونقد كبيرين، هو الارتباط الوارد في المصادر بين اليونان والأندلس، حيث سجلت عدد من النصوص هذا الارتباط، حيث ذهب بعضها إلى أن دخول

الإحالات المرجعية:

- (٢٣) شمس الدين سبط ابن الجوزي، "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان"، تحقيق محمد بركات وكامل الخراط وعمار ربحاوي، دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، الجزء الأول، ص ٦١.
- (٢٤) سبط ابن الجوزي، مصدر سابق، ص ٤٣٣.
- (٢٥) أبو عبد الله شهاب ياقوت الحموي، "معجم البلدان"، دار صادر، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٥، المجلد الخامس، ص ٤٣٥.
- (٢٦) كمال الدين ابن العديم، "بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، المجلد ١، ص ٥٦١.
- (٢٧) القلقشندي، مرجع سابق، ص ٣٤٠.
- (٢٨) ابن العبري، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ٨٤.
- (٢٩) المطهر بن طاهر المقدسي، "البداية والتاريخ"، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد-مصر، ج ٤، ص ١٠٠.
- (٣٠) نفسه، ص ٧٢.
- (٣١) أبو محمد مكي، "الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه"، تحقيق بإشراف الشاهد البوشني، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ج ٦، ص ٤٤٤٨.
- (٣٢) سبط ابن الجوزي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤١.
- (٣٣) ابن خلكان، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ٣٢٨.
- (٣٤) أبو زيد حسن بن يزيد السيراقي، "رحلة السيراقي"، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩، ص ٨٧.
- (٣٥) نفسه، ص ٨٨.
- (٣٦) ابن الجوزي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٠٨.
- (٣٧) نفسه، ص ٤١.
- (٣٨) ابن خلكان، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ٣٢٣.
- (٣٩) نفسه، الجزء الخامس، ص ٣٢٤.
- (٤٠) نفسه، الجزء الخامس، ص ٣٢٧.
- (٤١) نفسه، ص ٣٢٨.
- (٤٢) ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص ٢٩.
- (٤٣) شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، "نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٩٧، ج ١، ص ٢٤٣.
- (٤٤) محمود مقديش، "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ج ١، ص ١٥٢ و ١٥١.
- (٤٥) نفسه، ص ١٥٦.
- (٤٦) نفسه، ص ٢٣٥.
- (٤٧) الاصطخري، "مرجع سابق، ص ١٩٣.
- (٤٨) مجهول، "حدود العالم من المشرق إلى المغرب"، تحقيق السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة-مصر، ص ١٨٦.
- (٤٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، مكتبة مديبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٨١.
- (٥٠) ياقوت الحموي، "معجم البلدان"، ج ١، ص ٥٤.
- (٥١) ياقوت الحموي، "معجم البلدان"، ج ٥، ص ٢٥.
- (٥٢) صفى الدين القطيعي، "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، دار الجيل، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ج ١، ص ٤.
- (٥٣) ابن العبري، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ٥٧.
- (٥٤) حمدان بن عثمان خوجة، "المرآة"، تحقيق وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - وحدة الرغبة - الجزائر، ٢٠٠٦، ص ٨.

- (١) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٢٧ و ٢٨.
- (٢) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الجزء السادس، ص ٨٣.
- (٣) سراج الدين ابن الورد، "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، تحقيق أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ١٧١.
- (٤) أبو العباس ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ص ١٢٩.
- (٥) عز الدين ابن الأثير، "اللباب في تهذيب الأنساب"، دار صادر، بيروت - لبنان، الجزء الأول، ص ٥٣٣.
- (٦) ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص ٢٩.
- (٧) يمكن ربط هذا الامر بطبيعة العلاقة مع الآخر والمعرفة العقلية والعلمية في المجتمعات الإسلامية وهو ما لا يدخل في مجال هذه الدراسة.
- (٨) ابن الورد، مصدر سابق، ص ١٩٣.
- (٩) أبو حيان التوحيدي، "الإمتاع والمؤانسة"، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ص ٩١.
- (١٠) البحث في تاريخ الخط اليوناني لا يدخل في مجال هذه الدراسة، لكن وجبت الإشارة إليه على أن يتم التفصيل فيه في دراسة منفصلة.
- (١١) شهاب الدين ياقوت الحموي، "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، الجزء الثاني، ص ٨٩٦.
- (١٢) بن القفطي، مصدر سابق، ص ١٣٣.
- (١٣) شمس الدين ابن خلكان، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، الجزء الخامس، ١٩٩٤، ص ٣٢٨.
- (١٤) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، "آثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت-لبنان، ص ٥٦٩.
- (١٥) القلقشندي، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٣٦١.
- (١٦) عبد الرحمن ابن خلدون، "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، الجزء الثاني، ص ٢٢٩.
- (١٧) غريغوريوس بن توما الملطي المعروف بابن العبري، "تاريخ مختصر الدول"، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢، الجزء الأول، ص ٨٩.
- (١٨) أبو إسحاق الاصطخري المعروف بالكرخي، "المسالك والممالك"، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٥٩.
- (١٩) أبو القاسم ابن حوقل، "صورة الأرض"، دار صادر، أفست، بيروت - لبنان، ١٩٣٨، الجزء الأول، ص ١٧٤.
- (٢٠) الحسن بن أحمد المهلب العيزي، "الكتاب العيزي أو المسالك والممالك"، جمعه وعلق عليه تيسير خلف، ص ٨٧.
- (٢١) أبو عبيد البكري، "المسالك والممالك"، دار الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، الجزء الأول، ص ٣٠٢.
- (٢٢) تكرر هذا الربط بين مقدونية ومصر بشكل ملفت للانتباه في المصادر العربية الإسلامية، وفي عدة مصادر ومصنفات على اختلاف أنواعها.

مدينة تاودا من خلال المصادر الوسيطية

دراسة في المجال والاقتصاد والمجتمع

فاطمة الحجري

طالبة باحثة بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية



ملخص

يستعرض المقال الراهن أهمية مدينة تاودا في تاريخ المغرب الوسيط، مستعرضاً موقعها الجغرافي، ومواردها الطبيعية، ودورها الاقتصادي والاجتماعي. تقع المدينة بين فاس ووادي سبو، مما منحها موقعاً استراتيجياً جعل منها نقطة تلاقي بين السهول والمرتفعات، وهو ما ساعد على ازدهار الزراعة واثراء أسواقها بمنتجات متنوعة كالحبوب، الألبان، والسمن. كما كانت المدينة محمية بشكل طبيعي بسبب قربها من جبل غمارة، ما جعلها مركزاً دفاعياً مهماً ضد الغارات المستمرة من قبائل غمارة. تتناول الدراسة طوبونيميا اسم "تاودا"، معتبرة أنه قد يكون ذا دلالة على الخوف، وهو ما يعكس الوضع الأمني المضطرب في المدينة نتيجة للغارات المتكررة. كما يناقش المقال الدور العسكري والدفاعي للمدينة في ظل الأحداث التاريخية المرتبطة بالصراع بين المرابطين والموحدين، مشيراً إلى دورها في حماية فاس ومنطقة وادي سبو. يتطرق المقال أيضاً إلى الهيكل الاجتماعي لمدينة تاودا، حيث يشير إلى تنوع سكانها بين الأمازيغ والعناصر العربية، كما يبرز دورها كمركز تجاري مهم على طريق القوافل بين فاس وتلمسان. على الرغم من ازدهارها، تعرضت المدينة للتدمير في مراحل تاريخية مختلفة، ليظل ذكرها حياً في المصادر التاريخية والجغرافية. يختتم المقال بتوضيح أسباب تراجع المدينة واندثارها رغم مكانتها الاستراتيجية.

كلمات مفتاحية:

تاودا؛ طوبونيميا؛ المجال الجغرافي؛ الازدهار الاقتصادي؛ تاريخ المغرب الوسيط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2026.483508

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فاطمة الحجري، "مدينة تاودا من خلال المصادر الوسيطية: دراسة في المجال والاقتصاد والمجتمع". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون؛ يناير ٢٠٢٦. ص ٦٢ - ٧٠.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: fatima.elh2023@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يشكل المجال المغربي فضاءً غنياً بتعدد مراكزه العمرانية والاقتصادية التي تفاوتت أحجامها وأدوارها، بين ما ظل حاضراً إلى اليوم، وبين ما اندثر مع مرور الزمن ولم يبق منه إلا شذرات في النصوص التاريخية. ومن بين هذه المراكز التي خفت ذكرها مدينة تاودا، التي تعد من المدن التاريخية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المغرب الوسيط، حيث كانت في موقع مميز قريب من جبل غمارة، مما جعلها ذات أهمية كبيرة من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية.

تميزت تاودا بازدهار أسواقها وكثرة خيراتها، إذ كانت معروفة بإنتاج الألبان، والسمن، والعسل، والحنطة مما جعلها نقطة جذب تجاري في المنطقة، إلى جانب ذلك شكلت المدينة حاجزاً دفاعياً مهماً ضد الغارات القادمة من قبائل غمارة، مستفيدة من موقعها الطبيعي الذي وفر لها الحماية وعزز دورها كقلعة منيعة في وجه التهديدات الخارجية. رغم ازدهارها فقد تعرضت تاودا للتدمير على يد المصامدة، مما أدى إلى اندثارها لفترة قبل أن يعود بعض سكانها لإعادة إعمارها واستغلال أراضيها الخصبة.

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على أهمية مدينة تاودا في تاريخ المغرب من خلال دراسة موقعها الجغرافي ومواردها الطبيعية وطوبونيميتها، اعتماداً على مادة تاريخية وجغرافية، وهي مادة لا نتحرج في وسمها منذ البداية بالقلّة والندرة، بل الانعدام في كثير من الأحيان مما يجعل كل بحث يروم إعادة تشكيل ملامح هذه المدينة -من التأسيس إلى الاندثار- محكوماً بصعوبات جمة غير أن هذا لا يمنعنا من الخوض في لجج هذا الموضوع مستثمرين إلى أبعد مدى ما توفر لدينا من نصوص بخصوص هذه المدينة المندرسة.

ومن ثمّ نتساءل حول الأصل اللغوي والتاريخي لاسم تاودا؟ وما العوامل التي ساهمت في ازدهار المدينة ثم تراجعها بعد ذلك؟

أولاً: طوبونيميا اسم تاودا

يرجع اسم تاودا إلى أصول أمازيغية، وتحمل هذه الكلمة معنيين، الأول المشي من فعل مشى، ثانياً، ويمشي:

يسودا، والمشي: تاودا، المشية: تَاوَدَا^(١)، والمعنى الثاني للكلمة هو الخوف تَاوَدَا^(٢)، والراجع على الظن، أن المعنى الثاني هو الأقرب إلى الصواب، فهذا المعنى قد يكون مرتبطاً بالسياق التاريخي للمدينة، خاصة وأنها كانت محاطة بمخاطر مثل الغارات والصراعات القبلية، ويمكن افتراض وجود ارتباط بين اسم تاودا الذي يعني الخوف وبين الوضع الأمني للمدينة في الماضي، خاصة في علاقتها مع قبائل غمارة التي كانت المدينة تجاورهم، وفقاً لنص الإدريسي كانت بني تاودا قريبة من جبل غمارة، وكانت المدينة عرضة لغارات مستمرة من طرف قبائل غمارة الذين وصفهم بأنهم طغاة عابثون مغيرون على جوانبها^(٣)، إذا كانت المدينة تتعرض لهذه الغارات بشكل متكرر، فمن الممكن أن يكون اسمها انعكاساً لحالة الخوف وعدم الاستقرار التي عاشها سكانها، ويشير الإدريسي إلى أن بني تاودا كانت سداً مانعاً^(٤) بين المناطق المجاورة وغارات غمارة مما يدل على أنها كانت في حالة تأهب دائم، ومن الممكن أن السكان أطلقوا هذا الاسم بسبب إحساسهم المستمر بالخوف من الهجمات، أو أن الاسم كان موجوداً مسبقاً وأصبح يتماشى مع واقعها التاريخي، ومن المعروف أن بعض الأماكن تسمى بأسماء تعكس حالتها أو وضعها الجغرافي مثل أدرار، درن (بل الجبال)، وبالتالي قد يكون تَاوَدَا اسماً قديماً للمنطقة يعكس تاريخها في مواجهة الغارات. لا يوجد دليل قاطع في المصادر التاريخية على أن اسم بني تاودا جاء تحديداً بسبب خوفها من غمارة لكن يمكن أن يكون هذا التفسير احتمالاً معقولاً بناءً على تحليل السياق التاريخي والجغرافي للمدينة.

وهناك تفسير آخر لكن يبقى دائماً مرتبطاً بالخوف، نجد اسم تَوْدَا وهو اسم مؤنث متداول في الأوساط الأمازيغية، يطلق على البنت الأخيرة من بين سلسلة من الإناث رغبة من الوالدين بأن تكون هذه آخر بنت يرزقون بها، وكأن الاسم يحمل نوعاً من التوسل والخوف من تكرار إنجاب البنات، فهذا المعنى قد يرتبط بخوف الأهل أن لا يرزقوا بولد، فيطلقون هذا الاسم تعبيراً عن هذا الشعور. في حالات أخرى يطلق اسم تودا على آخر العنقود من الإناث بعد عدد من الأبناء الذكور. ويذكر محمد حجاج الطويل أن اسم الحصن والقبيلة أخذ من

ازدهار الزراعة واستقرار السكان، وتؤكد الروايات أن أراضيها كانت صالحة للزراعة خصوصاً القمح، إلى جانب الألبان والسمن والعسل ما يجعل المجال الجغرافي ليس فقط إطاراً دفاعياً، بل أيضاً مورداً اقتصادياً أساسياً.

ثالثاً: الازدهار الاقتصادي

ساهم موقع تاودا الواقع في سهل خصب بين فاس ووادي سبو من ازدهارها اقتصادياً، فقربها من وادي سبو وفر لها مصدراً مائياً دائماً لري المزروعات، مما يعزز استدامة الزراعة فيها دون الاعتماد على الأمطار الموسمية، ونهر سبو من أهم الأنهار في المغرب من حيث الموارد المائية التي يستقبلها، وقد شهد هذا النهر تاريخاً غنياً ارتبط بالعديد من الحضارات، حيث لعب دوراً مهماً في الملاحة خلال الفترة الفينيقية والرومانية، فقد أبحرت السفن إن لم يكن من فاس فعلى الأقل من جوارها إلى المحيط الأطلسي^(١٦)، وأسست مدن على ضفافه مثل تاموسيدا وبناسا.

اختلف في كتابة ورسم كلمة سبو بين مجموعة من المصادر فالمقدسي مثلاً كتبها سبوا^(١٧)، بينما ابن حوقل يطلق عليه وادي سب^(١٨)، أما البكري كتبها «نهر عظيم يسمى سبوا»^(١٩)، ويسميه صاحب الاستبصار «وادي سبو»^(٢٠)، أما في المصادر القديمة فقد ورد أن بلين الشيخ كان يطلق على سبو اسم سوبور أو سوبوبوس^(٢١)، والتي تعني الأرض الخصبة، وهو ما يتوافق مع طبيعة المجال الذي يخترقه النهر، واعتباراً لقرب مدينة تاودا من هذا النهر فقد استفادت من نفس الظروف الطبيعية واستمدت اختصاصها الزراعي من نفس التربة الخصبة، وهو ما ويجمع عليه المؤرخون على رأسهم الإدريسي أن أراضي تاودا طيبة خصبة وزراعتها نامية^(٢٢).

كل هذا جعل المدينة مزدهرة زراعياً، رغم أن المصادر لم تتحدث عن أنواع الغلات الفلاحية بتاودا، غير أن الإدريسي وصفها «بكثرة زروعها ومفيد غلاتها»^(٢٣)، وكلمة الزرع تعني بشكل عام كل ما يزرع في الأرض تشمل الحبوب كالقمح، الشعير، الذرة، والخضر، وقد تشمل أيضاً الفواكه، وعرفت تاودا بجودة زرعها خاصة

تضاريس الموضع الذي بني عليه فهو شاهق ومخيف، وقد يكون الاسم كذلك منبثق من شراسة القبيلة في محاربتها لقبائل غمارة أو للسبيين معاً.^(٥)

من خلال كل ما سبق يمكن القول إن التفسيرات اللغوية والاجتماعية تتقاطع حول دلالة الخوف سواء كان خوفاً من الغارات الخارجية كما هو الحال في تهديد قبائل غمارة المجاورة لبنى تاودا، أو خوفاً اجتماعياً مرتبطاً بالإنجاب تكرر ولادة الاناث، أو شراسة القبيلة وهو ما يمكن القول إنه يعكس كيف كانت التسمية مرتبطة بالواقع المعيش وتعبير عن مخاوف ساكنة المدينة سواء من الداخل أو الخارج.

اختلف في كتابة ورسم اسم مدينة تاودا، فقد كتبها صاحب الاستبصار تاودا^(٦)، الإدريسي بني تاودا^(٧)، ابن ابي زرع بني تاودة^(٨)، أما الوزان كتبها بني تودة^(٩)، وكتبها مرمول كبرخال مرة بنى تودى، ومرة تودة^(١٠)، ورغم هذا الاختلاف فالموقع واحد.

ثانياً: تاودا المجال الجغرافي

تشغل مدينة تاودا موقعاً جغرافياً بين مدينة فاس ووادي سبو، فهي على مسافة عشرين ميلاً من مدينة فاس^(١١)، وعلى مقربة من جبل غمارة، إذ تفصلها عنه مسافة تقدر بثلاثة أميال^(١٢)، وبين بنى تاودا وفاس برية يشق وسطها وادي سبو، وبين وادي سبو في طريق بنى تاودا وبين فاس عشرون ميلاً^(١٣)، ويسكن هذه البرية قبائل من لمطة، كما توجد بينها وبين قرية عكاشة مسيرة يوم واحد^(١٤)، هذا الموقع المتميز جعل من المدينة نقطة التقاء بين السهول الغنية والمرتفعات الصعبة، ما منحها خصائص جغرافية متنوعة بين الانفتاح على مناطق التبادل التجاري والانغلاق النسبي الذي وفر لها بعض الحماية.

وقد وصف الإدريسي موقعها بأنه شبه ثغر^(١٥) أي أنها كانت نقطة تماس حدودي بين مجالات قبلية مختلفة، أبرزها قبائل غمارة المعروفة بنزعتها الهجومية وقد جعلها هذا الوضع تلعب دوراً دفاعياً بارزاً، حيث كانت بمنزلة سد مانع أمام هجمات غمارة على الجهات المجاورة، إضافة إلى ذلك فإن وجود وادي سبو جعل المنطقة تمتاز بوفرة المياه وخصوبة التربة ما ساعد على

يبرز النشاط اليومي للسكان من خلال وفرة الإنتاج الزراعي والرعي، وهو ما يدل على مجتمع فلاحي رعي نشيط، بحكم القرب الجغرافي بين فاس وتاودا، يمكن الترجيح أن هذه الأخيرة قد شهدت حضوراً لبعض الحرف ذات الصلة بالزراعة والرعي كأدوات الحرث مثلاً، أو أدوات تحويل الألبان إلى السمن وغيرها من الأدوات التي تلبي حاجيات السكان.

أما على مستوى البنية الاجتماعية فقد ورد في نص صاحب الاستبصار قوله «وكان يسكنها ولاية المغرب منهم بالعسكر وكانت في أيامهم مغمورة بالمباني الحسان والقصور المنيعة»^(٢٦)، ما يفيد أن المدينة احتضنت طبقة حاكمة أو نخبة من العسكر تتولى الإشراف على شؤون أمن المدينة وضبطها خاصة في ظل قربها من قبائل غمارة الذين وصفوا بالطفاة، إلى جانب هذه الطبقة من العسكر أو الحكام هناك المزارعون والرعاة والتجار الذين شكلوا قاعدة الهرم.

ذكر الوزان أن المدينة قديماً كان بها ثمانياً آلاف كانون، ويطلق هذا المصطلح في التداول المغربي على موقد النار الذي يطبخ فيه الطعام «وقد تطورت دلالاته الوظيفية ليأخذ منحى اجتماعياً، فصار يفيد وحدة عائلية مؤلفة من عدة أشخاص مستقرين في محل واحد»^(٢٧) يتفاوت عددهم من منطقة لأخرى وتبقى هذه وحدة الكانون تحمل مرادفات حسب كل منطقة، حيث يطلق عليها أحياناً اسم الخيمة، وأحياناً أخرى اسم الدار، أو البيت^(٢٨)، وقد استعمل المؤرخون والجغرافيون هذه الوحدة كوعاء إحصائي لتقدير وتعداد السكان المستقرين في منطقة من المناطق.

وجود ثمانيا الاف كانون في مدينة تاودا كما ذكر الوزان، إذا افترضنا أن كل كانون يمثل أسرة، وأن متوسط الاسرة في المجتمعات الوسيطية كانت غالباً بين ٥ إلى ٦ أشخاص، بذلك يمكن أن نقدر عدد السكان بتاودا تقريباً بين ٤٠,٠٠٠ إلى ٤٨,٠٠٠، وهذا رقم يدل على كثافة سكانية كبيرة تعكس أولاً أهمية الموقع الجغرافي ويشير إلى أهمية وتعدد أدوار المدينة بين النشاط الزراعي، التجاري، العسكري.

الحنطة التي كانت أساس تغذية السكان. هذه الوفرة والتنوع في الانتاج الزراعي كان له انعكاس على تربية الماشية، كما أن وجود برية بين تاودا وفاس يشق وسطها وادي سبو ولا شك أنها كانت تستخدم كمراعي طبيعية للماشية، وهو ما ساهم في غزارة ألبانها وسمنها.

أنصاف الغلات الزراعية بمدينة تاودا، جعلت أسواقها عامرة وخيراتها وافرة كما وصفها الإدريسي «أسواقها عامرة وخيراتها وافرة»^(٢٩)، نشاط الأسواق العامرة بتاودا هو مؤشر على حركة تجارية نشطة لبيع المنتجات من الحنطة والألبان والسمن والعسل، وعبرة أسواقها تدل على أن هناك سوق أسبوعي أو أكثر، كما أن موقع المدينة في طريق القوافل الذاهبة إلى تلمسان من سجلماسة والتي تمر من فاس إلى تلمسان سيجعل من المدينة محطة للتزود بالمنتجات التي تحتاجها القوافل في رحلاتها ومن ثم خلق رواج أكبر في أسواقها وهذا إن دل على شيء فيدل على أن المدينة لم تكن مجرد مكان يتم فيه الإنتاج بل أيضاً مركز لتوزيع تجاري نشط، وأن وجود مدينة فاس القريبة منها لم ينل من دورها التجاري.

رابعاً: المجال الاجتماعي

لم يذكر الإدريسي بشكل مفصل الساكنة الأصلية لمدينة تاودا، لكنه ذكر بعض القبائل التي استوطنت المناطق المجاورة لها، وبحكم موقعها القريب من فاس وارتباطها بطريق القوافل يمكن الترجيح أن سكان بنى تاودا كانوا غالباً من الأمازيغ خاصة لمطة، اخوة صنهاجة الأم، وهم قبائل وبطون كثيرة وقد أضيفت في بعض المصادر إلى المصامدة وليست منهم، وذلك راجع لكونهم كانوا يسكنون، قبل التحاقهم بناحية فاس، إقليم سوس (السوس الأقصى) وناحية درعة مجاورة لمواطن المصامدة بجبل درن، ومن المؤرخين من عدهم مع مصمودة مع التتبيه انهم ليسوا معهم. ومن هؤلاء صاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، واضطرب ابن خلدون فعدهم مرة من المصامدة ومرة من صنهاجة^(٣٥)، واحتمال وجود عناصر عربية بحكم القرب من فاس وتأثيرات الهجرة والتجارة.

خامساً: الدور الدفاعي لمدينة تاودا

تاودا مدينة «أسسها المثلثون ليملكوا منها جبل غمارة»^(٢٩)، فقد كان لجبال غمارة دور هام في تاريخ المنطقة، وحسب ابن خلدون «تمتد عن يمين بسائط المغرب من لدن غساسنة فنكور فباديس فتكساس فتطاون فسبته، فالقصر، إلى طنجة، خمس مراحل أو أزيد، اوطنوا فيها جبالا شاهقة، اتصل بعضها ببعض، (...) إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب»^(٣٠)، كما وصف صاحب العبر القبائل التي يتكون منها هذا التحالف وهي «مكسة، تجساس، بني سعيد، بني حزم، بني أحمد، أنجرة، بني زكار، اغزاوة، بني أحمد، بني زروال، بني مسارة، بني بوزرة، بني كرير، بني رزين، مايوة، بني منصور، الاخماس، بني شداد، بني منصور، جبل الحبيب، بني عروس، بني كرفط، وسماتة، بني يسف، أهل سريف»^(٣١).

تتفق أغلب المصادر الجغرافية الوسيطية في وصف غمارة على أنها ذات طبيعة جبلية وعرة وتتخللها أودية عميقة ومرتفعات شاهقة، وكثرة العيون والغطاء، وذكر صاحب الاستبصار أن جبلها «من أخصب جبال المغرب، وهو من الجبال»^(٣٢)، وقد شكل موقعها حداً فاصلاً بين الشمال الساحلي والمجالات الداخلية مما جعلها مسلماً طبيعياً للقوافل بين تطوان وسبته وبلاد الهبط جنوباً، وجعلها كذلك تحت حكم فاس وتحت تأثيرها المباشر إلا أن هذا التأثير يكون فترة قويا وفترة يضعف، وعلى أي فقد كان لهذا الموقع أهمية كبرى في الحركات العسكرية والثورات المحلية، فمنذ عهد عبد المومن الموحي كانت تمثل هذه الجبال خطراً على سكان أزغار والسايس وبالتالي على سكان مدينة فاس فبنيت فيها أبراج لمحاولة حصر هذا السيل من السكان^(٣٣)، وقد ذكر الإدريسي أن بناء قلعة بني تاودا كان على يد أمير مرابطي لحصر غمارة في مرتفعاتها.

فالهدف من بناء حصن بني تاودا كان لأهداف عسكرية بحثة، حيث اختير له موقع استراتيجي يتحكم في مداخل ومخارج جبال غمارة بما يمكن من مراقبة تحركات القبائل وتضييق الخناق عليها^(٣٤)، وتدرج هذه الخطوة ضمن سياسة المرابطين التي ارتكزت على انشاء

الحصون في المواقع الجبلية وذلك لضبط المجال والحد من الثورات والتمردات القبلية، فقد قاومت قبائل غمارة منذ البداية يوسف بن تاشفين مقاومة عنيفة، فخرج إليها مقاتلاً، ففتح كثيراً من حصونها وقلاعها حتى أشرف على طنجة، فخرج سنة ٤٦٠هـ ففتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة^(٣٥)، وقد استغرق هذا الفتح حتى سنة ٤٦٢هـ وهي السنة التي فتح فيها فاس (الفتح الثاني).

وفي سنة ٤٦٣هـ أصبحت علاقة يوسف بن تاشفين بقبائل زناتة والمصامدة وغمارة حسنة، ويقول ابن أبي زرع في تحسن هذه العلاقة «وفي سنة ٤٦٤هـ وجه يوسف بن تاشفين إلى أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة و المصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبائعوه فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال...»^(٣٦)، لكن سرعان ما أعلن الغماريون مرة أخرى تمردهم ودخلوا في طاعة سكوت^(٣٧) البرغواطي الذي استقل بسبته وطنجة، فجهز يوسف بن تاشفين حملة لقتاله كان على رأسها القائد صالح بن عمران، فتمكن من قتله في معركة بأحواز وادي منى من أحواز طنجة، وفتح حصن علودان من حصون غمارة^(٣٨)، ويذكر ابن عذاري أن قبيلة غمارة كانت ملاذاً آمناً للخارجين على سلطة الدولة الحاكمة ويقول «قام على يوسف بن تاشفين في سنة ٥٠٧هـ، رجل يعرف الزنر بحارى وادعى أنه ابن منعصر الزناتي الذي كان صاحب فاس ببلاد غمارة، فتوجه له يوسف وقتل خلقاً من أصحابه ثم أعطى غمارة مالا فغدروه وأتوا إليه برأسه»^(٣٩)، لصعوبة الوصول إلى هذه المناطق ومنعة جبالها ووعورتها، وظهر العديد من التمردات ضد اللمتونيين وخروجها عن ولاية الأمر الذي فرض ضرورة تكثيف المراقبة على هذه المنطقة من خلال بناء مجموعة من التحصينات كحصن أمركو الذي أشار إليه صاحب الاستبصار، إلى جانب تاودا التي شكلت مركزاً عسكرياً محصناً يتيح للسلطة المرابطية متابعة تحركات غمارة المتمردة، وقد ساعدها في ذلك موقعها الجغرافي الذي يبعد عن جبل غمارة بثلاثة أميال، والذي وصفه الإدريسي «شبه ثغر سداً مانعاً من طفاة غمارة»^(٤٠).

العشرين مع بداية حرب الريف حينما استعملتها القوات الفرنسية لمراقبة المقاومة الريفية.

الفرضية الأولى تقول إن المدينة تأسست في العصر المرابطي (١٠٥٠م/١١٤٧م) كحصن عسكري لمواجهة ثورات قبائل غمارة وهو ما يتوافق مع سياسة المرابطين في بناء قواعد مثل أغمات وتاسكدلت وغيرها. الفرضية الثانية قد تكون مدينة تاودا أقدم تعود إلى العصر الإدريسي القرن التاسع الميلادي، وقد ذكر الإدريسي (١٢هـ/١٢م)، أنها كانت قائمة بذاتها قبل عصره بفترة، لكن إذا عدنا إلى ابن حوقل (٤هـ/١٠م)، لم يذكر هذه المدينة مما قد يدعم أن ظهورها كان لاحقاً (فرضية العصر المرابطي)، هو نفس الشيء عند البكري في مسالكه وصف حوض نهر سبو دون إشارة صريحة إليها مما قد يعني أنها لم تكن بارزة قبل القرن الثاني عشر الميلادي.

تشير الروايات التاريخية إلى أن مدينة تاودا بلغت ذروتها في القرن الثاني عشر الميلادي، لكن تأسيسها قد يعود إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي أي أواخر العصر المرابطي. ذكر صاحب روض القرطاس حدث في سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)، يتعلق بثورة مرزدغ الغماري الصنهاجي ضد دولة الموحدية، وهي إحدى أخطر الثورات على الدولة الموحدية خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، حيث جاءت هذه الثورة في مرحلة انتقالية ما بين وفاة عبد المومن الكومي، ومبايعة ابنه يوسف، فاستغلت غمارة هذه الظروف لتعلن عن قيام ثورتها بزعامة مرزدغ الغماري من صنهاجة مفتاح^(٤٣)، ضد الدولة الموحدية سنة (٥٥٩هـ/ ١١٤٦م)، وأعلن ثورته في وكرارن^(٤٤) واجتمعت على أمره قبائل غمارة وصنهاجة وأوربة، حاول توسيع نفوذه إلى الجنوب فزحف في اتجاه فاس، ووصل إلى بني تاودا فعات فيها فساداً وقتل كثيراً من أهلها، ويمكن تفسير الهجوم على هذه المنطقة لأهميتها خاصة إذا علمنا عن أهميتها على المستوى الفلاحي التي وصفها الإدريسي بكثرة زروعها ومفيد غلاتها»، أصناف الغلات الزراعية بمدينة تاودا، جعلت أسواقها عامرة وخيراتها وافرة كما وصفها الإدريسي «أسواقها عامرة وخيراتها وافرة»^(٤٥).

أضف إلى ذلك أن المدينة تقع بين فاس ووادي سبو، الشيء الذي منحها موقعاً مميزاً للسيطرة على الممرات والمسالك الجبلية، وتأمين طرق القوافل للاتصال بين مختلف مدن المغرب الأقصى، فالموقع الذي اختير لبناء تاودا لم يكن اعتباطياً، فقد جاء وفق نظرة محكمة تجمع بين البعد الدفاعي العسكري والاقتصادي، فمدينة بني تاودا بنيت في منطقة خصبة وغنية المياه مما ساعد على ازدهار الزراعة وتربية الماشية، وأتاح لها تحقيق اكتفاء ذاتي في الموارد الغذائية، هذه الإمكانيات الطبيعية لم تجعلها فقط مركزاً اقتصادياً حيوياً، بل مكنها كذلك من الصمود والاستقلالية في حال تعرضها لهجمات متكررة من قبائل غمارة، فوفرة المؤن والمحاصيل الزراعية والحيوانية كان عنصر قوة إضافي لبني تاودا عزز دورها كقلعة دفاعية تحمي المجال الغربي من خطر التمردات والاضطرابات.

بناءً على نص الإدريسي وصاحب الاستبصار فقد جاء تأسيس مدينة تاودا مرتبطاً بسياق التوسع السياسي للمرابطين بعد استيلائهم على مدينة فاس (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، إضافة إلى أن مجهول الاستبصار ذكر حصن أمركو الذي كان قائماً على جبل منيف بالقرب من تاودا، وهذا الحصن ذكره الوزان وهي قرية ازدهرت في القرن العاشر بفضل صناعة النسيج التي مكنتها من جمع عدد كبير من السكان. وتقع قرب آثار القصر الذي بناه عبد المومن الموحد^(٤١).

لم يظهر أمركو في النصوص التاريخية التي تحكي تاريخ الدولة المرابطية، ولم يبرز سوى مرتين كانت أولاهما سنة ٥٣٦هـ (١١٤-١١٤٢م) حيث كانت رأس الحرية في استراتيجية محاصرة الجيوش المرابطية المعتصمة بالجبال، وكانت الثانية (٥٤٠هـ/ ١١٤٥-١١٤٦م) عندما لجأ إليها الفارون من دخول عبد المومن بن علي الكومي إلى فاس، على أن هذا الاعتصام لم يدوم طويلاً إذ سرعان ما اقتحم فيلق موحدي القلعة ليخرج منها المعتصمين ويقتلهم عن آخرهم عدى عمر بن ينتان الذي نجا من الهلاك اعترافاً من الموحدين بإشارة أبيه على الأمير علي بن يوسف بالعفو عن المهدي بن تومرت في بداية أمره بمراكش^(٤٢)، ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخبار حصن أمركو في المصادر التاريخية، حتى بداية القرن

هدمت بني تاودا في العهد الموحيدي لكنها لم تهدم في إطار الصراع الموحيدي المرابطي، ذلك أن المنطقة خضعت بسهولة للموحيدين، ولم تهدم إلا في فترة التمردات والثورات التي قامت على الموحيدين وتحديدًا ثورة مرزوغ الذي استفاد من خدمات الحصن وذلك سنة (٥٥٧ هـ ١١٦٣ م)، لكن الإدريسي الذي عاش إلى سنة ٥٤٨ هـ ذكر أنها "أول مدينة من مدن الغرب التي حل بها الفساد ونزل بها التغيير واستأصلها المصامدة وهدموا أسوارها... ولم يبق من هذه المدينة المنسوبة إلى بني تاودا إلا مكانها وقد تراجع إلى مكانها نحو مائة رجل فعمروها..."^(٥٠)، ما يعني أن المدينة هدمت قبل التاريخ المشار إليه لكنها استعادة نشاطها، هذا يعني أن الموحيدين هدموا المدينة عدة مرات كلما ثار بجبال غمارة نائيرضدهم.

اليوم اندثرت مدينة تاودا ولم يبق منها سوى الاسم الذي يتردد في صفحات من كتب عنها، وقد أورد مترجم كتاب وصف إفريقيا محمد حجي أن تاودا هي فاس البالي، وترتفع بقاياها بقبيلة فشتالة على الضفة اليسرى لوادي ورغة على بعد حوالي ٥٨ كلم شمال غرب مدينة فاس قيادة قلعة سلاس "مما يبرز أهمية هذه المدينة الأثرية كثرة بنياتها المعمارية من آجور مشوي وقرميد وأحجار منجورة وقطع خزفية تغطي مساحة يزيد محيطها عن خمس كيلومترات"^(٥١).

يتضح من خلال المكونات الأثرية أن هذا الموقع لعب دوراً عسكرياً هاماً، إذ ينتظم وراء سور من الحجارة المدكوكة يحاذي المنحدرات ويتبع سطح الهضبة ليسيج مساحة شاسعة يتوسطها مركب صغير محصن أو محرز قد يستعمل من طرف قائد القلعة أو ساكنتها في انتظار وصول الامدادات، ويصل علو بعض البقايا إلى خمس أمتار وتتخللها بعض الأبراج نصف دائرية مما يدفع اعتماداً على تصميمها وتقنيات بنائها إلى ربطها بأسوار كل من قلعة أمركو ومدينة البصرة الإدريسية وبالتالي افتراض تشييدها في القرون الأولى للدولة الإسلامية.^(٥٢)

نشاط الأسواق العامرة بتاودا هو مؤشر على حركة تجارية نشطة لبيع المنتجات من الحنطة والألبان والسمن والعسل، كما أن موقع المدينة في طريق القوافل الذاهبة إلى تلمسان من سجلماسة والتي تمر من فاس إلى تلمسان سيجعل من المدينة محطة للتزود بالمنتجات التي تحتاجها القوافل في رحلاتها ومن ثم خلق رواج أكبر في أسواقها وهذا إن دل على شيء فيدل على أن المدينة لم تكن مجرد مكان يتم فيه الإنتاج بل أيضاً مركز لتوزيع تجاري نشط، وأن وجود مدينة فاس القريبة منها لم ينل من دورها التجاري، وكذا دورها في مراقبة طرق التجارة الآتية من فاس، قصد الاستفادة من مداخيلها خصوصاً وأن قبائل أوربة المجاورة لهذه المدينة شكلت جانباً من العصبية المؤيدة لهذا التأثير.

تميزت ثورة مرزوغ بإقدام صاحبها بسك عملة باسمه كتب فيها "مرزوغ الغريب نصر الله قريب"^(٤٦)، ما يعطي انطباع أن الرجل لم يكن مجرد قائد قبلي متمرد بل كان يحمل مشروعاً سياسياً، للانفراد بالحكم، كما أن عملية ضرب السكة يحمل دلالات عدة أولها استقلال بلاد غمارة عن السلطة المركزية الموحدية، كما أنها تدل على انفراد مرزوغ بالسلطة، كما أن سك العملة تدل على أن الخليفة الموحيدي لم يعد هو المحتكر لها بمفرده، وأيضاً دليل على توفر الغماري على المعادن الثمينة أو التحكم في مصدرها واستغلالها للتمكن من توظيفها من أجل استقطاب الاتباع وضمهم إلى ثورته^(٤٧)، كما أن عملة الغماري لا تخلو من دلالات مذهبية إذ يعترف من خلالها على أن نصر الله قريب.

اختلفت المصادر حول نهاية مرزوغ الغماري، فابن أبي زرع يذكر أنه "قتل وحمل رأسه إلى مراکش"^(٤٨)، أما البيهقي فقد ذكر أن الخليفة يوسف بن عبد المومن أرسل إليه جيشاً بقيادة "يوسف بن سليمان وبدد شمله، ثم وحد وأجيز إلى بر الاندلس إلى قرطبة"^(٤٩)، لكن من المستبعد أن يكون الموحدون سلكوا مسلك العفو مع الغماري لما عرف عن الدولة الموحدية من شدة وقسوة مع أعدائها والخارجين عن طاعتها والراجح على الظن أن ما ذكره ابن أبي زرع هو الأقرب للصواب.

خاتمة

من خلال ما ورد في النصوص التاريخية والجغرافية حول مدينة تاودا يتضح أن هذه الأخيرة لم تكن مجرد منشأة عسكرية، بل تحولت إلى مركز ذا أهمية اقتصادية، فقد وفر لها موقعها القريب من نهر سبو، إلى جانب خصوبة أراضيها شروطاً طبيعية مكنتها من ازدهار فلاحي وتنوع وغزارة في الغلات، مما يعكس أهمية الإنتاج الزراعي في دعم واستقرار الساكنة وتأمين موارد العيش.

لا يمكن أن نفهم حيوية تاودا دون الوقوف عند علاقتها بمسالك التجارة والقوافل خاصة تلك التي تربط بين سجلماسة وتلمسان وفاس، فكونها محطة على هذه الطرق جعلها تعرف حركة تجارية نشيطة وأسواقاً عامرة. وفرة الموارد الطبيعية مع الموقع المتميز للمدينة جعلها تحمل كل المقومات الضرورية لاستمرارها، لكن رغم كل هذه المؤهلات توقف حضورها في المصادر والنصوص التاريخية لتصبح معالمها اليوم مطموسة.

الإحالات المرجعية:

- (١) محمد شفيق، **المعجم العربي المازيغي**، ج٣، منشورات الأكاديمية المغربية، الرباط، ١٩٩٦، ص ١٢٢.
- (٢) «Dictionnaire Général de la langue Amazighe», institut royal de la Culture, Amazighe, Rabat, 2017, P.604.
- (٣) عبد الله بن ادريس اللادريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق**، المجلد ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٢٠/١٤٦٦، ص ٢٤٨.
- (٤) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٨.
- (٥) محمد حجاج الطويل، **بنى تاودا**، ج٥، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والطبع، سلا ١٩٩٢-١٤١٣، ص ١٥١٦.
- (٦) مجهول، **الاستبصار في عجائب الامصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ١٩٠.
- (٧) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٨.
- (٨) علي ابن ابي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١٤١.
- (٩) الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، ص ٣٠٧.
- (١٠) مرمول كبريال، **افريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، ١٩٨٩م، ص ١٩٣.
- (١١) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٨.
- (١٢) نفسه.
- (١٣) نفسه.
- (١٤) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٨.
- (١٥) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٤٨.
- (١٦) Abdelatif KHARBACH, l'oued Sebou son historique et son rôle l'évaluation de Banasa, Rivage, Revue scientifique a comité de lecture. N° 3, 2019, p9
- (١٧) المقدسي البشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، علق عليه ووضع حواشيه، محمد امين الضناوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٢٠م/١٤٣٤هـ، ص ١٨٠.
- (١٨) ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م، ص ٨١-٨٢.
- (١٩) أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد المغرب**، مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٥٧، ص ١١١.
- (٢٠) مجهول، **الاستبصار في عجائب الامصار**، ص ١٨٤-١٨٥.
- (٢١) Abdelatif KHARBACH, l'oued Sebou son historique, p.9
- (٢٢) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٩.
- (٢٣) نفسه، ص ٢٤٨.
- (٢٤) اللادريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٤٨.
- (٢٥) محمد مزين، **فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي**، ج ١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ١، ١٩٨٦/١٤٠٦، الرباط، ص ١٠٧.
- (٢٦) مجهول، **الاستبصار**، ص ١٩٠.
- (٢٧) الفقيه اللادريسي، **لكانون، معلمة المغرب**، ج ٢، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، هـ ١٤١١/١٩٩١م ص ٦٧٢٨.

- (٢٨) الفقيه الإدريسي، لكانون، **معلمة المغرب**، ج ٢، ص ٦٧٢٨.
- (٢٩) مجهول، **الاستبصار**، ص ١٩٠.
- (٣٠) ابن خلدون، **العبر**، ج ٦، ص ٢٨١.
- (٣١) محمد العمراني، **غمارة، معلمة المغرب**، ج ١٩، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا ١٩٨٦، ص ٦٣٥٧-٦٣٥٨.
- (٣٢) مجهول، **الاستبصار**، ص ١٩٠.
- (٣٣) محمد مزين، **فاس وباديتها**، ص ٥٢.
- (٣٤) محمد حجاج الطويل، **بني تاودا**، معلمة المغرب، ج ٥، ص ١٥١٦.
- (٣٥) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ١٤١.
- (٣٦) نفسه، ص ١٤٢.
- (٣٧) يكتب كذلك سقوت أصله من قبيلة برغواطة اسر في الحرب بين غمارة برغواطة وانتهى امره ان صار عبدا للاحد شيوخ غمارة، ثم صار لعللي بن حمود الادريسي فولاه هذا الأخير على سبتة وطنجة واطاعته غمارة، هامش رقم ٨٢ من كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع، ص ١٤٠.
- (٣٨) نفسه، ص ١٤٢-١٤٣.
- (٣٩) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اختصار اخبار الاندلس والمغرب**، ج ٣، حققه وضبط نصه وحققه علق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط ١، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٠ م، ص ٤٨.
- (٤٠) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، المجلد ١، ص ٢٤٨.
- (٤١) محمد مزين، **فاس وباديتها**، ص ٥٧.
- (٤٢) عبد العزيز ثوري، **امركو، معلمة المغرب**، ج ٢، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة سالا، ١٤١٣/١٩٩٢، ص ٦٩٤.
- (٤٣) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص ٢٠٩.
- (٤٤) البيدق، **أخبار المهدي**، ص ٨٦.
- (٤٥) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٤٨.
- (٤٦) نفسه.
- (٤٧) محمد العمراني، **الثورات والانتفاضات بجلال المغرب الأقصى**، ص ١٢٢.
- (٤٨) نفسه، ص ٢١.
- (٤٩) البيدق، **أخبار المهدي**، ص ٨٦.
- (٥٠) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٤٩.
- (٥١) محمد الطاهري، **فاس البالي**، معلمة المغرب، ج ١٩، ص ٦٣٩٨.
- (٥٢) نفسه.

جدلية الديني والسياسي في المغرب المريني (١٢٦٩ – ١٤٦٥م)

د. محمد بالدوان

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في تاريخ الإسلام

جامعة محمد الأول – المملكة المغربية



ملخص

تتناول هذه الدراسة جدلية العلاقة بين الدين والسياسة في المغرب المريني (١٢٦٩-١٤٦٥م)، موضحة تأثير هذه العلاقة على مختلف مراحل حكم المرينيين. تبدأ الدراسة بمراجعة الإطار الفكري والتاريخي لجدلية الدين والسياسة، مستندة إلى نظرية ابن خلدون حول كيفية تأثير الدين على ممارسة السلطة. تركز الدراسة على ثلاث مراحل رئيسية في حكم المرينيين: انتقال السلطة، إدارة السلطة، وأفول الدولة. في مرحلة انتقال السلطة، تستعرض الدراسة كيف تعاملت الدولة المرينية مع قضايا سياسية ودينية معقدة، مع التركيز على الأساس الديني لمطالب المرينيين بالحكم، رغم تباين السرد التاريخي حول هذا الموضوع. في مرحلة إدارة السلطة، أظهرت الدولة المرينية مرونة أكبر في السياسة، بما في ذلك إدماج العلماء من مختلف المدارس الفكرية، وتوظيف أهل الذمة في المناصب، بالإضافة إلى تبني سياسات الاستيعاب بدل التصفية. أما في مرحلة أفول الدولة، فقد سادت التناقضات الداخلية والنزاعات على الحكم، مما أدى إلى ضعف الدولة وانهارها. تنتهي الدراسة إلى استنتاجات مهمة، أبرزها أن الممارسة السياسية في المغرب المريني كانت تتأثر بالإكراهات السياسية التي فرضتها الصراعات الداخلية والخارجية، مما جعل الدولة تتجاهل في بعض الأحيان المبادئ الدينية والأخلاقية، وبالتالي ساهم ذلك في سقوط الدولة. وتؤكد الدراسة على أهمية التوازن بين الدين والسياسة لضمان استدامة حكم عادل وفعال.

كلمات مفتاحية:

المرينيون؛ الدين؛ السياسة؛ الأندلس؛ تاريخ المغرب

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ سبتمبر ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.425792.1278

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بالدوان، "جدلية الديني والسياسي في المغرب المريني (١٢٦٩ – ١٤٦٥م)". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦، ص ٧١ – ٨٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: bouddiouan76@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC-ND 4.0) التي تسمح باستخدام، والتوزيع، وإعادة النسخ، والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية، بشرط أن تُعطي الائحة للمؤلف الأصلي (s) وتوفر رابطاً إلى رخصة المشاع الإبداعي، وتبين إذا كانت هناك تغييرات.

مُقَدِّمَةٌ

قد يبدو للقارئ أول وهلة أن المقالة اتبعت منهجاً استقرائياً بتعقب الفعل السياسي المريني من مرحلة انتقال السلطة إلى مرحلة إدارة السلطة وانتهاء بمرحلة أفول حكم بني مرين، وهذا متحقق ضمناً، لكن البنية العامة للمقالة وظفت المنهج الاستنباطي إذ مهَّدتْ بمدخل عام بمثابة قاعدة جاهزة أنتجها ابن خلدون عن علاقة الدين بالسياسة في مقدمته، ثم حلت باقي المحاور استدلالاً على هذه القاعدة العامة.

أولاً: تأطير فكري-تاريخي لجدلانية الديني والسياسي

يعرض هذا المحور فرشاة فكرية - تاريخية تركز على مقدمة ابن خلدون لكونها تمثل استقراء تاريخياً لمجمل التجربة الإسلامية في الحكم. تبدأ هذه الفرشة بتحديد الأصل في علاقة الدين بالسياسة، ثم تنتقل إلى الوقوف على الاضطراب الذي شاب هذه العلاقة، لتصل إلى رصد أسباب هذا الاضطراب، في ثلاث مراحل تحمل خصائص مختلفة.

يُحدد ابن خلدون أصل علاقة الدين بالسياسة، مؤكداً على اصطحاب «نور الله» ليرفع منسوب الأخلاق والعدل في ممارسة السلطة، وذلك بقوله: "جاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإعمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور"^(١).

وإنه ما كان من الالتزام المثالي بالشرع في عهد النبي (ﷺ)، والخضوع الكامل لتعاليمه في سياسة الحكم، وعدم نشوب الخلافات حوله، قد تم "كله بخوارق العادة من تأليف القلوب واستماتة الناس دونه، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرتهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة"^(٢). وعليه فإن إمارة النبي (ﷺ) كانت تسير طبقاً للوحي ومراقبة من الله، والحاكم فيها مختار من

لا تخلو مرحلة تاريخية من جدل التداخل بين الدين والسياسة، غير أن لكل مرحلة خصائصها ومفرداتها، كما لا تغيب إثارته في كل المجتمعات، غير أن لكل مجتمع قيمه وثقافته وتاريخه. ولا يخفى على الباحث في العلوم الإنسانية أهمية تفاعل الدين بالحياة السياسية، وتأثير السياسة في القضايا الدينية، وانعكاس ذلك على مسار التاريخ الإنساني سلباً وإيجاباً. استجابة لفضولي المعرفي عن الحقبة المرينية، خضت البحث في بعض أحداثها لاستجلاء جدلية الديني والسياسي. لا يوجد - على حد علمي - موضوع شامل عالج هذه الإشكالية خلال العصر المريني، لكنني طالعت أبحاثاً أثارت جزئياً جدلية الديني والسياسي من خلال رصد الحالة الدينية والاجتماعية بالمغرب المريني، حاولت قراءة بعض قرارات السلطة المرينية من الزاويتين الدينية والسياسية، وعلى رأسها أبحاث الأستاذ محمد القبلي وحسين مؤنس^(١)، وتليها من حيث الأهمية أعمال عبد الفتاح مقلد الغنيمي^(٢).

ليس من هدف البحث الاستغراق في تحديد مصطلح الدين أو السياسية، لكونه يراهن على الفهم التلقائي للمصطلحين في سياق شيوع هذه الاشكالية؛ أقصد بالدين هنا بعض القضايا الإسلامية (الجهاد في أندلس، إكرام أهل البيت، توظيف أهل الذمة ...) التي أطرت الحياة السياسية المرينية، وأعني بالسياسة ممارسة السلطة وتدبير تحدياتها وإكراهاتها في أبرز المحطات التي تجتازها الدولة. لن يجنح البحث إلى مسلمات أولية أو الانتصار لأحد التيارين المتنازعين بخصوص علاقة الدين بالسياسة؛ لا إلى من يرى بأن السياسة تسير بمقتضى الدين ولا إلى القائل بفصل ما هو ديني عما هو سياسي، وعليه سيثير الموضوع الإشكالية الآتية: ما موقع الدين في تجربة الحكم المريني؟ وهل تمثلت السلطة المرينية قيم الإسلام وأحكامه في مختلف مراحل نشاطها السياسي؟ أم أن إكراهات الواقع السياسي تغلبت على إرادتها الدينية؟ وكيف أثر كل ذلك على مسارها السياسي من النشأة إلى الأفول؟

ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط^(١٠)، بل هو قانون صيغ بعد استقرار مختلف التجارب السياسية شرقاً وغرباً، إذ "ليس من العدل والعلم في شيء أن يعالج ما واجهته دولة الإسلام (...) بمعزل عن السنن التي تحكم المجتمعات، فيصوّر ما يدخل في إطار الظاهرة العامة، الذي لا مفر من حدوثه، كأنه اختراع إسلامي، وإلقاء مسؤولية حدوثه على الإسلام وعلاقته بالسياسة والدولة"^(١١).

عطفاً على ذلك ستعنى المحاور التالية برصد أهم الأحداث الدالة على اتفاق الديني والسياسي أو الوقوف عند المواقف المعبرة عن احتمال تناقضهما في المغرب المريني، إذ يعسر تحديد ما إذا كانت خلفية حدث ما دينية أم سياسية، فمن "الصعوبة على الباحث أن يقيم عزلاً في العلاقة بين ما هو ديني وما هو سياسي"^(١٢). لذلك لم أجعل من أهداف هذه الدراسة الكشف المبرم عن دوافع قرارات السلطة، إنما حررتها إسهاماً في إغناء أدوات الفهم والتحليل للتحويلات التاريخية.

ثانياً: جدل الدين والسياسة في مرحلة انتقال السلطة إلى بني مرين

إذا ما استُثِنَت فترة الخلفاء الراشدين الأربعة، كان الحكم بالمشرك يؤخذ بالتغلب، حتى إن إدريس الأول هاجر بمشروعه السياسي إلى المغرب بعد انكسار شوخته في معركة فخ (قرب مكة) سنة ١٦٩هـ، ثم نال الحظوة في قبيلة أوربة ليعتلي الرئاسة بشكل سلمي، ويمكن اعتبارها أول تجربة انتقال سلمي وتأسيس جديد للسلطة بدون سيف، بعد زهاء قرن. إلا أن السائد عند انتقال السلطة، سواء في المشرق أو في المغرب، هو القهر والتغلب وما يرافقه من سفك للدماء.

رجوعاً إلى ابن خلدون^(١٣) (٧٣٢-٨٠٨هـ)، وهو يؤرخ لانتقال الحكم إلى بني مرين اكتفى بذكر التغلب والاستيلاء دون الحديث عن التمكين لمذهب ديني ما، وذلك في قوله: "واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك"^(١٤). بينما في حديثه عن ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية أكد بأن "أصل دعوته نفي التجسيم، الذي آل إليه المغرب باعتمادهم ترك

الله وليس للمحكومين حق الاعتراض على هذا الاختيار لأنه معصوم من أن يجنح إلى أخلاقيات السياسة الفاسدة وسلوكياتها المنحرفة. إنها إمارة من نوع خاص "لا توجد إلا حيثما يوجد نبي، ولا نبي بعد محمد (ﷺ)"^(٥).

وثمة شبه إجماع على أن الفترة التي تلت حكم الخلفاء الراشدين تميزت بضعف الوازع الديني، واستحكمت فيها الطبائع والعوائد إذ "ذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان، فاعتُبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد مُهمّاً من المهمات الأكيدة"^(٦). فبعد ارتفاع الخوارق وانقطاع الوحي، تنهض العادة والعصبية ويستحكم المنطق البشري في الممارسة السياسية.

يفسر ابن خلدون الركود إلى "العوائد" وابتعاد الحكم عن هداية الدين إلى قانون استنبطه من توالي العصبيات الحاكمة، والذي يبدأ بنزوع الحاكم إلى الاستفراد بالمجد، ولا يتم له ذلك إلا بإقصاء العصبيات فيدفعهم "عن مساهمته وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها"^(٧).

وتظهر علامات استحكام العادة أيضاً في تغيير صيغة الطالبين للملك من ضرورات العيش في مرحلة الدعوة إلى نوافله في مرحلة الملك إذ "يذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم"^(٨). فضلاً عن الترف، يكثر المتنافسون على الملك في العصبية الحاكمة، "فيحيط بهم هادمان، وهما الترف والقتل، ثم يصير القهر آخرّاً إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة"^(٩).

تجدر الإشارة إلى أن قانون الصراع على السلطة وتوسل العنف لتسوية الخلاف بين فرقائها ليس خاصاً بتاريخ الإسلام، أو متعلقاً بـ"حوار العنف الدائم حول

التأويل في المتشابه من الشريعة، وصرح بتكفير من أبي ذلك^(١٥).

فإذا كان الأساس الذي انطلقت من الدعوة الموحدية مذهب ديني يدعم تغلبها ويسهل استيلاءها، فإن الدعوة المرينية تجاوزت منطق المذهب الديني، حسب سياق كلام ابن خلدون، إذ واصل الحديث في نفس الصفحة عن تغلب قبائل زناتة (المرينيون) على الموحدين قائلاً: "وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذبال الغلب والقهر"^(١٦). لم يتكلف ابن خلدون ذكر المسوغ الديني لزحف بني مرين، لكونه أطر نظرياً موضوع انتقال السلطة بتواري البواعث الدينية واستحكام العادة والتحكم بعد فترة النبوة والخلافة الراشدة، على النحو الذي أسلفت في المحور السابق.

لكن ابن أبي زرع، وهو من مؤرخي الدولة المرينية، حاول تكييف هذه الإشكالية بتسويق خروج المرينيين، وذلك بتقويض رمزها وأساسها حين وصف ابن تومرت بأنه كان "مقدماً على الأمور العظام، سفاكاً للدماء غير متورع فيها، ولا متوقف عنها"، ثم أدرج في السياق نفسه مزايا السلطان أبي سعيد عثمان (٦٧٥-٧٢١هـ) الذي "كان شقيقاً رفيقاً جواداً كريماً متوقفاً في سفك الدماء"^(١٧)، إطرأ له بأوصاف افتقرت إليها رموز الدولة الموحدية البائدة.

حاولت المصادر المرينية، من زاوية أخرى، تبرير خروج المرينيين إلى قتال الموحدين والسعي إلى انتزاع الملك منهم بحال المغرب بعد غزوة العقاب (٦٠٩هـ) حيث "فنى خيله وحماته وأبطاله وقتلت قبائله وأقياله"^(١٨). كما لم تهمل الجانب الأخلاقي المتمثل في غياب العدل عند الموحدين إذ "ظهر الجور في أحكامهم وبلادهم والنقص في سلطانهم، فولت أيامهم (...) وبعث لفنائهم وذهاب ملكهم بني مرين، وأيدهم ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾"^(١٩) و﴿مكن لهم في الأرض جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين﴾"^(٢٠)(٢١).

تفيد هذه الاقتباسات ما درج عليه الفقهاء والكتّاب في مخاطبة القائم على الشأن السياسي بـ "إيماءات أو إشارات تفيد معنى المطابقة بين شخصه وبين النبي (ﷺ)، مما أدى إلى نتيجة وخيمة جداً، حين خلط العقل الإسلامي بين مقام النبوة ومنصب الخلافة"^(٢٢). وهذا

ما حاول ابن خلدون تفاديه حين أقر بأن شؤون الحكم بعد النبي آلت إلى العوائد. تُوصل المصادر المرينية كشف انحراف الموحدين عن قيم الحكم بتفننهم في قتل بعضهم بعضاً أو آخر أيامهم حين بايعوا عبد الله العادل سنة ٦٢١هـ "ثم نكثوا بيعته، فدخلوا قصره فخنقوه وجعلوا رأسه في خصة الماء حتى مات"^(٢٣).

تتسم أحداث مرحلة انتقال السلطة بتواتر أخبار تتعلق بالفساد الأخلاقي للفرقاء؛ أخبار ولدتها الخصومة وغابت فيها الموضوعية إذ اعترف بهذا المنحى ابن الأحمر في معرض حديثه عن أعداء بني مرين قائلاً: "وكنّت لأعدائنا بالمنع، ولم أك بالمنصف"^(٢٤)، ولم يجد غضاضة في الاعتراف بأنه يكتب التاريخ بما يرضي دولته في قوله: "فها أنا أشرع في التاريخ على ما يرضي الدولة المرينية، أولى الشهامة أسود الأجمات العرينية"^(٢٥). وبذلك دون التاريخ خطاباً أخلاقياً نشأ في سياق التنافس على السلطة، غالباً ما وظفته المعارضة للحشد في مرحلة الدعوة أو لاكتساب المشروع في مرحلة الدولة.

وثمة سمة أخرى ميزت الإسطغرافية المرينية لمرحلة انتقال السلطة، تمثلت في إثارة الجانب الديني العجائبي، الذي امتازت به الشخصيات المؤسسة للدولة. مثملاً جاء به صاحب الذخيرة السنية عن مؤسس الدولة عبد الحق بن محيو الذي كان "له بركة معروفة ودعاء مستجاب، قلنسوته وسراويله يتبرك بهما"^(٢٦) في جميع أحياء زناتة، تُحمل إلى الحوامل اللواتي صعب عليهن الوضع فتهون عليهن الولادة ببركته، وكان بقية مائه يحمله الناس تبركاً به، فينشرون به مرضاهم".

كما تتوغل المصادر التاريخية المرينية الرؤى^(٢٧) والأحلام للإحالة إلى القدر في اصطفاء العصبة التي سيؤول إليها الملك في المغرب، فهذه رؤية عبد الحق بن محيو التي "كانت له ولعقبه دليل الملك والأمانة، رأى في منامه كأن قبس نار خرج من قبله فعلاً في الهواء وارتفع، ثم تفرق واتسع، حتى احتوى على أقطار المغرب أجمع (...) فقصص إلى بعض الصالحين فقص عليه رؤياه فبشره بخيرها، ثم شرع له في تعبيرها، فقال له لا تخف منها فهي لك عز وتمكين ومُلك لك ولعقبك عن قريب يظهر ويستبين"^(٢٨). بل إن ولي العهد المنظر (يعقوب بن

الوارد في كتب الحديث^(٢٧)، إذ جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن يزيد الأنصاري قال: "نهى النبي (ﷺ) عن النهب والمُثْلَة"^(٢٨). وهذا من "مجاري العوائد" التي بيّنها ابن خلدون، إذ استحكمت بعد فترة النبوة فطغى الاعتبار السياسي المتمثل في ترهيب الخصم وترويع الطامعين في الحكم.

ولئن تطلبت بداية الحكم المرينية صرامة فائقة، فإن الأطوار الموالية شهدت مرونة كبيرة تجاه خصوم الدولة، إذ تميزت سياسة السلطان يوسف بن يعقوب (٦٨٥-٧٠٦هـ) بالعمل على إدماج عناصر موحدية في إدارة الدولة رغم المشكلات والدسائس التي كانت تحاك ضدهم والتي ذهب ضحيتها علي بن محمد كبير قبيلة هنتاتة (من قبائل الموحدين) وهو يدفع عن ابنه أمير مراكش اعتقال عساكر ابن الملياني صاحب المكيدة، وبعد اكتشاف السلطان مكيدة الأخير "ندم على ما فرط من أمره في إفلات ابن الملياني"^(٢٩).

لقد أثمر الندم على التفريط في حماية العناصر الموحدية حضوراً لافتاً للأخيرة في الحياة السياسية للدولة المرينية حيث استمات المصامدة (قبيلة موحدية) في الدفاع عن السلطان أبي الحسن الذي كان مهدداً من قبل ابنه أبي عنان حين احتشد "لحصارهم أشهراً، حتى مات السلطان أبو الحسن"، ولم يمنع تناقض المرينيين الجديد مع المصامدة أبا عنان من تعيينهم في بعض المناصب حيث "عقد لعامر سنة أربع وخمسين وسبعمائة على سائر المصامدة واستعمله لجبايتهم"^(٤٠).

كما ظهر النجاح السياسي لبني مرين بإدماج الموحدين في كونهم "صاروا يولون عليهم من زناتة تارة ومن رجالاتهم أخرى"^(٤١). قد يكون هذا السلوك نابغاً من الأخوة الإسلامية أو نبذاً للتعصب الطائفي، وربما أملته الحكمة السياسية، لكن في كل الأحوال يستوقف المتتبع بملاحظة التطور الحاصل في العلاقة بالعصبيات المنهزمة الذي انتقل مع المرينيين من التعقب والتصفية إلى الاستيعاب والاستعمال.

وقد فُسّر سرعة بناء الدولة من قبل المرينيين بكون "حركتهم كانت حركة سياسية بحتة، لم تكن ذات طابع ديني أو فكر إسلامي تدعو له كما فعل المرابطون والموحدون من قبل"^(٤٢). تواصل منطق الاستيعاب عند

عبد الحق) بشرت به أمه وهي بكر حين رأت "كأن القمر يخرج من قبلها فعلاً وصعد حتى استوى في السماء وأشرقت نوره على الأرض" فقال معبر رؤيتها: "إن صدقت هذه الجارية فإنها تلد ملكاً عظيماً مباركاً فاضلاً يعم المسلمين خيره وتشملهم بركته"^(٢٩).

قد تبدو مثل هذه الأخبار دارجة، لكن إذا وضعت في سياقها السياسي (انتقال السلطة)، وإذا علم أن مصادر أخرى (ابن خلدون مثلاً) لا تورد ما يشاكلها، يرجح أنها جاءت مخاطبة وجدان المغاربة لكسب مزيد من الثقة في الحكم المريني الناشئ. تَعَزَّز توجه توظيف المشروعية الدينية في ترسيخ المشروعية السياسية لبني مرين بادعائهم الانتماء إلى البيت النبوي^(٣٠)، فعبد الحق بن محيو "مؤسس الدولة، حاول الانتساب إلى الأصل العربي والنسب القرشي النبوي"^(٣١). كما اعتبر الأستاذ القبلي هذه الظاهرة "وسواس مشروع" للأسر البربرية المالكة بالمغرب الوسيط، حيث غالباً ما كانت توظف "أسطورة السلالة العربية المتميزة أو عائلة الرسول"^(٣٢).

أما ابن خلدون وإن كان من رجالات الدولة المرينية، فإن تأريخه يسلك منحى مغايراً لباقي المصادر^(٣٣)، إذ انتقد نسبة زناتة لما "أعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزية بتعدد الأنبياء ولا سيما نسب مضر"^(٣٤) "٣٥"، لكنه في الوقت نفسه لم يتحدث عن الداعي الخفي لهذا الإعجاب، والذي لا ينفك أن يكون بحثاً عن النسب الشريف الذي يكتسي أهمية بالغة في تثبيت أركان الدولة.

ثالثاً: جدل الدين والسياسة في مرحلة

إدارة السلطة

انتهى حكم الموحدين سنة ٦٦٨هـ، حسب ابن أبي زرع، بقتل أبي دبوس المرابط في مراكش، فلما جيء برأسه إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق "وضع الرأس بين يديه واسترجع ثلاثاً ثم حمد الله وأثنى عليه وخر لله ساجداً، ولم يزل شاكراً لله حامداً، ثم رفع رأسه وقال: هكذا يفعل الله بكل غادر ناكث، ومفسد كاذب حالف حانث، ثم أمر بالرأس فحمل إلى فاس ليعتبر برؤيته جميع الناس"^(٣٦). يثير هذا المتن مشكلة التمثيل بالقتلى التي تسربت إلى السلوك الحربي الإسلامي رغم النهي

أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس، وبنى لهم حضيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها ورفع أذاهم عن الناس^(٤٩) "٥٠".

أما في عهد أبي ثابت (٦٨٣-٧٠٨هـ) لم يكن التعامل مع الأجنبي في مراكش بالانضباط الذي طبع العاصمة فاس، إذ عمد قائدها إلى "قتل بعض نصارى مراكش واستولى على أموالهم". لكن ردة فعل السلطان جاء سريعا رادعا إذ "أمر بقتل القائد مع مئات من أتباعه الذين علقت رؤوسهم على أبواب مراكش"^(٥١). بقدر ما كان تصرف السلطان صارما، أثار مسألة قتل المسلم قصاصا للكافر^(٥٢)، فضلا عن منحه النصارى مكانة ونفوذاً. ويبدو أن السلطان أبو الحسن (٧٣١-٧٤٩هـ) عمل على تحجيم نفوذ الأجانب، إذ منعهم من امتيازات كثيرة اعتادوا عليها بفاس وتلمسان، أهمها "مرتبات النصارى الملازمين للخدمة، وهو مال طائل"، إذ قارب عدد النصارى "ثلاثة آلاف فارس، ورواتبهم كبيرة (...)", فرفعه رضي الله عنه ومحا أثره، ولم يبح لهم من الخمر إلا ما يسوغ لهم، ومن ظهر عليه أنه باعه لمسلم أو استظهر به، بولغ في عقابه وجعل عبرة للمعتبر^(٥٣).

رغم التوجس والتأرجح اللذين طبعوا تعامل السلطة المرينية مع أهل الذمة، فقد ظهر بأن سياساتها عموما جنحت إلى استيعابهم والإفادة من خدماتهم، وقد سلكت المسار ذاته قبل ذلك في التعامل مع فلول الموحدين. يعد السلوك السياسي للمرينيين ملفتا مقارنة بالعصبيات الحاكمة السابقة، إذ لم يشر مؤرخو الموحدين إلى مسألة الاستجاشة بالنصارى، فالمحايدون مثل "ابن الأثير وصاحب الحلل الموشية"^(٥٤) أشارا إلى هذه المساهمة، بينما سكت البيدق عنها^(٥٥)، وقد كان مؤرخاً للدولة الموحدية^(٥٦). وتعزز التحفظ عن إثارة حياة النصارى بالمغرب الموحدي بسكوت عبد الواحد المراكشي "عن بناء كنيسة لفائدة النصارى بمراكش علما بأنه كتب مؤلفه بعيداً عن حكام المغرب الموحدي وعن ضغوطات حكامه"^(٥٧). إذا بدت سمة التحفظ غالبية في كتابات الموحدين وأسلوب حكمهم، فإن خاصيتا الجرأة والغزارة طبعتا الكتابة التاريخية المرينية من حيث تدوين الأصوات المعارضة والأحداث الدينية المخرجة للسلطة.

المرينيين باحتضان "السلطين في مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم"^(٥٨)، إذ يشير ذلك إلى وجود علماء معارضين ومجالاً أرحب للتعبير مقارنة بالعهد الموحي، ولم تلجأ السلطة إلى معاقبتهم إلا بعد انتشار آراءهم في صفوف الطلبة وتوجههم إلى مخالفة السلطان "لكثرة عنادهم واستطالة ألسنتهم"، أمام هذا الوضع "أمر السلطان يعقوب بن عبد الحق بنفي الفقهاء، وفيهم إسحاق وأبو يعقوب المحاسني وأبو عبد الله بن عمران"، لكن سرعان ما تراجع "فأمر بردهم وصار السلطان بعد ذلك يعظمهم، ومعظما لفضله إسحاق"^(٥٩).

بلغت حرية معارضة الفقيه إسحاق بن مطهر ذروتها حين كان السلطان يعقوب بن عبد الحق "يريد لقاءه فيمتنع منه". كما واجه السلطان يعقوب إعراضاً من أبي إسحاق الوريغلي حين قام إليه بعد صلاة الجمعة فعانقه وحاووه قائلين: "أسألك عن ثلاث مسائل. فقال: لا فائدة من السؤال فإنك لا تعمل بالجواب. فألح عليه فأبى وقال له عد عن هذا فما أجيبك بشيء، فقال أدع لنا، فدعا له وانصرف"^(٦٠). أما التضييق فكان مصدره غالباً الفقهاء تجاه جديد الاجتهاد، وأبرزهم الفقيه أبو إسحاق الذي راسل السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني بشأن معاقبة "البخاري المفتي العايب"^(٦١) لكون الأخير تجراً "على العلم والعلماء، وعلى حديث رسول الله (ﷺ)، ودعواه الاجتهاد في دين الله (...). وصدقته الأغمار والأوغاد في ذلك (...). وأكد هذا مخالطة أولي الأمر من الحكام والقضاة تلبيساً منه على العامة أيضاً (...). وهذه قاصمة الظهر في الدين والدنيا ومفسدة عظيمة لا يحل لمن بسطت يده في الأرض الإبقاء عليها البتة"^(٦٢).

بقدر ما عبرت هذه الرسالة عن الالاحاح في فرض سلطة الفقيه، أواماً بنأي السلطة المرينية عن التشنجات ذات الصلة بالقضايا الدينية وجنوحها إلى الانفتاح، وقد أكد ذلك استجاشة المرينيين بالنصارى في سياق كان فيه "وجود المرتزقة بالدولة المغربية الوسيطية يحيل مباشرة إلى حضور المحرم بها"^(٦٣). كما كانت الإسطغرافية المرينية أكثر جرأة من غيرها في إيراد الحضور المسيحي في الجيش بشكل حذر، وبنبرة فيها نوع من الصرامة والتهميش. فأبو يوسف يعقوب "أخرج

القائمة بين أمراء الأندلس حيث التقى بأمير قشتالة^(٦٨)، في الجواز الثالث، الذي "رغب منه في إعانته على القائم عليه من أهل ملته"^(٦٩).

إن استحضار مختلف الحثيات، لا سيما تألف المرينيين وبني عبد الواد وتجاوز العداء التاريخي بينهما، يجعل المتتبع يطمئن إلى القول بأن الداعي الديني كان حافزاً للعبور ومواجهة العدو المشترك، أما دافع البحث عن شرعية الدولة كان ثانوياً. فالراجح إذن أن الجهاد المريني في الأندلس انطلق أساساً بدافع "معونة المسلمين والحفاظ على وجودهم"^(٧٠).

رابعاً: جدل الدين والسياسة في مرحلة اضمحلال السلطة (تفكك الدولة)

شكلت عدة تدابير (الشورى وحرية التعبير، إجلال العلماء، تكريم النسب الشريف، توظيف الأجنبي، التكتيل بالقتلى، ...) عنصر قوة إبان مرحلة انتقال السلطة ثم إدارتها، لكن استمرارها أو توارى بعض عناصرها أواخر عمر الدولة ظل يحيل إلى الضعف والتفكك. عُرِفَت أواخر الدولة المرينية بعصر قوة الوزراء "حيث ضعف السلاطين، وضعف تأثير أهل الحل والعقد على الوزراء، وانفرد الوزراء بترشيح السلاطين ولم يكن أحد يجزؤ على الاعتراض على ما أفسده المستبدون وقد أدى ذلك إلى ضعف الدولة"^(٧١).

وإذا كان القضاء مستقلاً في معظم الفترة المرينية، فإنه سيشهد تدخلات في شؤونه أواخر العهد، خاصة مع الوزير الوطاسي يحيى بن يحيى^(٧٢) حين اختلف "في أمور فقهية وقضائية مع قاضي قضاة فاس، الفقيه أبي عبد الله محمد بن عيسى المصمودي"، إذ لما عجز عن تطويعه لجأ إلى عزله "وجاء بقاضي من قبله ينصاع لما يريده الوزير الوطاسي وهو الفقيه يعقوب التسولي، وكان القاضي السابق المصمودي من الذين يُشهد لهم بالعدل والنزاهة والقوة في الحق"^(٧٣).

شكل تكريم النسب الشريف وأهل البيت دعماً للدولة في مرحلة التأسيس^(٧٤)، إلا أن هذه الاكراميات كانت تخفي خطراً على الدولة، إذ "كان لهذه السياسة المرينية إزاء الأشراف بالغ الأثر في انتحال الشرف من قبل غير المنتسبين له من أجل الاستفادة من جرايات المخزن

شهد مرحلة إدارة السلطة عبور المرينيين إلى الأندلس أربع مرات^(٥٨)، ولم تظهر مرونتهم المعهودة في ممارساتهم العسكرية، إذ بعد هزيمة ألحقوها بالنصارى قُطعت الرؤوس، "وكانت ثمانية عشر ألف رأس ونيف، وطلعت رؤوس الروم مثل الجبل العظيم، فصعد المؤذنون عليها فأذنوا لصلاة العصر"^(٥٩). مثلما أوردت سالفاً، صار التمثيل بالجثث من عوائد سياسة الحرب، لذلك ترددت في نوازل الونشريسي هذه المسألة، حيث نقل عن ابن حزم تحريم "سلخ جلد الانسان" بناء على "ما ثبت من النهي عن المثلة"، كما أورد فتوى تحريم "كسر عظم المسلم ميتاً" مستنداً إلى سُنَن أبي داود، واعتبرها ملزمة "في الكافر بالقياس عليه"^(٦٠).

يبدو أن الحماس المفرط للمرينيين كان نابعا من انقاذ الوجود الإسلامي بالأندلس والذي كانت تمثله إمارة بني الأحمر، إذ أن السبب في جواز أبي يوسف إلى الأندلس كما ذكره ابن أبي زرع هو "أن النصارى دمرهم الله قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالغارات والسبي فأبادوا أكثرها وأهلكوا قواعدها"^(٦١). لم يتفق دارسو الحقبة المرينية بخصوص جواز أبي يوسف يعقوب إلى الأندلس فمنهم من اعتبر أن ذلك جزء من شخصية هذا السلطان التي "تجلت فيها عمق العقيدة الإسلامية والغيرة على مصالح الإسلام والمسلمين"^(٦٢)، ولم يستبعد آخرون أن يكون جهاد المرينيين بالأندلس بهدف تمويه للمعارضين^(٦٣) لإنقاذ "هيبة وشرعية الدولة" ومن أجل "استغلال شعور التضامن الإسلامي" لأغراض سياسية^(٦٤).

غير أن المتتبع للجهاد المريني بالأندلس يقف على معطيات متقاطعة تجعله يميل إلى تفسير جوازاتهم بالدافع الديني، ذلك أن أبا يوسف يعقوب استحضر أثناء عبوره إلى الأندلس مجمل الحثيات المشوشة، حيث بنى مدينة لليهود والنصارى خارج مدينة فاس مخافة فتنتهم^(٦٥)، كما أحل الاستقرار بمراكش وفتح طنجة وانتزع سجلماسة من بني عبد الواد سنة ٦٧٣هـ "ولما رجع من فتح سجلماسة، سمت به همته العلية إلى الجهاد إذ لم يبق له منازع في البلاد"^(٦٦)، كما أبرم الصلح مع بني عبد الواد في تلمسان رغم احتدام الصراع بينهما^(٦٧)، فضلاً عن توظيفه التناقضات

٧٥٩هـ، وخلع يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٧٦٠ هـ، وقتل غرقاً في البحر، وله ١٠ سنين، وكانت دولته ٧ أشهر و ٢٠ يوماً". أما تاشفين بن أبي الحسن المخلوع والمتوفى سنة ٧٦٣هـ ف"كانت دولته ثلاثة أشهر ويومين" أما الواثق بالله (محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن) المتوفى سنة ٧٨٧هـ "كانت دولته ١٠ أشهر وجملة أيام" (٨٢). بل منهم من "كانت دولته ٤٣ يوماً" (٨٣). وكان إسماعيل ابن الأحمر يذكر الخلع ثم يتبعه الوفاة، ويذكر أحياناً سبب الوفاة ويتألم لها (٨٤) وأخرى يمسك، وربما كان سبب ذلك قربه من بعض الأمراء أو ربما كان يحاول إخفاء معضلة تقاقل الاخوة على الملك والتي أدامت حال عدم الاستقرار السياسي وعجلت بفناء الدولة.

أما بخصوص سياسة توظيف أهل الذمة في مهام إدارية أو عسكرية، فقد أثارت مشكلات على الدوام، خاصة في ظل تفشي الاستبداد والصراع على الحكم أواخر الدولة المرينية، إذ جنح السلطان عبد الحق بن أبي سعيد إزاء هذا الوضع إلى "إسناد الوزارة إلى اليهوديين هرون وشاويل انتقاماً من أهل فاس الذين تأكد انحرافهم عنه، فسأعت سيرة اليهوديين وكثر تعسفهما ومصادرتهم لأموال تجار المسلمين" (٨٥). وبعد انتهاك الوزير اليهودي حرمة أحد النسوة، أسرع كبار القوم بالذهاب إلى الفقيه عبد العزيز بن موسى الوريغلي، "وكانت له صلاية في الحق، وشرح له المجتمعون تحكيم اليهود في رقاب المسلمين، واتفق الجميع بعد أن تعاهدوا على كتاب الله مع الشيخ الوريكلي على التخلص من السلطان والفتك بالوزير اليهودي هارون" (٨٦).

ومن جانب العبور إلى الأندلس، نجح السلطان أبو يوسف يعقوب بإيقاف "زحف النصرى لأمد طويل"، أما أبو يعقوب يوسف "فقد سلم إلى بني الأحمر كل الأراضي التي كانت تحت حكم والده باستثناء رندة والجزيرة وطريف، وفي الواقع رد ملك غرناطة على هذا الجميل بأن تعاون مع القشتاليين على الاستيلاء على طريف سنة ٦٩١هـ" (٨٧)، مؤثراً مصلحة الاستفراد بالملك، ليؤذن ذلك بنهاية آصرة العقيدة واستحكام المصلحة الشخصية في التحالفات السياسية، وبداية

والحظوة لديه" (٧٥). سيكون لهذا المسلك تداعيات على عدة مستويات؛ أهمها استنزاف مقدرات دافعي الجبايات، وتغييب قيم الإنتاج والاستحقاق، وإثارة التناقض داخل المجتمع وتسرب الشعور بالتمييز وعدم الانصاف بين أفرادهم (٧٦).

وحين اقتضى السياق التراجعي للدولة نهج سياسة محكمة راجعت النظر في أعطيات الشرفاء (٧٧)، وُجد من يدافع عنها ويذكر بشرعيتها الدينية وبركبتها السياسية مؤكداً بأن من السلاطين والعمال "من رفع الله شأنه ومكن حصنه وأزال حزنه ببركة إكرامه لأحفاد سيد الخلق (ﷺ)، ومنهم من هدم الله أمره وبتر عمره وسلط عليه خصمه، عقاباً له وجزاء عليه بما اقترف في حق هؤلاء الأشراف" (٧٨).

علا صوت الخطاب المعارض أواخر الدولة منتقداً الحياة السياسية وربطها بتردي الأوضاع الدينية والاقتصادية، إذ لم يكتف ابن عباد الرندي (ت. ٧٩٢هـ) في مناهضته للوضع القائم بالدعوة إلى الإصلاح السياسي والجبائي، إنما ركز مشروعه على الإصلاح الديني إذ وجه انتقاداته إلى السلطة العلمية معبراً عن نهاية التوافق الذي طبع علاقة الفقهاء والمتصوفة (٧٩) طيلة مرحلة حكم السلاطين الأقوياء حتى عهد أبي عنان. وإذ عاصر الانحرافات العامة (٨٠) التي سمنت مرحلة أفول نجم المرينيين، لم يكف عن انتقاد مظاهر ابتعاد المجتمع عن المبادئ الدينية وقيم التضامن الاجتماعية، "وانتشار المظالم والمفاسد والآثام، وأكل القوي الضعيف، وشدة الرئيس على المرؤوس" (٨١).

وإذا كان التمثيل بالجنث من مجاري العادات التي استحكمت في أوائل الدولة، وقد بدا ذلك عامل قوة لكونه ضمن بشكل ما استقرار الحكم، فإن تواصلها مع آخر السلاطين، علاوة على تقاقل أبناء البيت الواحد تنافسا على الملك، استنزف الرصيد الأخلاقي للدولة وجعلها قريبة من الانهيار.

ويمكن اعتبار انقلاب أبي عنان (٧٢٩-٧٥٩هـ) على أبيه أبي الحسن (٦٩٧-٧٥٢هـ) نقطة تحول فاصلة إذ فشلت الانقلابات والاعتقالات في عقب الأخيرين. فمن سلاطين بني مرين المتأخرين من لم يحكم إلا أشهراً. فالسعيد بن أبي عنان بويغ في "ذي الحجة من عام

- الخروج الاسلامي من الأندلس الذي تم بسقوط غرناطة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م).
- يظهر أن ضياع الأندلس قد بدأ مبكراً مع استحكام آفة التنازع على الحكم، إذ انتقل بنو إدريس بن عبد الحق (أبناء عم السلطان أبو يوسف) إلى الأندلس، فراراً من بطش أبو يوسف يعقوب، وتساعد نفوذهم منذ عهد يوسف بن عبد الحق بتشجيع من أمراء بني الأحمر الذين أحالوا إليهم الزعامة في آخر العهد المريني (عبد الحق بن عثمان)، "وكانوا يتولونها بظهير يوقعه ابن الأحمر ويصادق عليه عادة سلطان المغرب"^(٨٨).
- وتلاحقت التطورات إلى أن توقف العبور إلى الأندلس بعد توجه بنو الأحمر إلى التحالف مع المسيحيين، فبات الوجود الاسلامي بالأندلس مهّداً رغم محاولات أبي الحسن المتتالية (٧٤١-٧٤٢هـ) لإنقاذه، إذ بدأت حروب الاسترداد المسيحي تحقق انتصارات، حتى وصلت إلى احتلال سبتة (٨١٨هـ/١٤١٥م).
- إن تصحيح اعتقاد تنزيه الدولة في تاريخ الإسلام والمغرب عن الوقوع في المحذور الشرعي، يكشف أنه مهما انطلقت الدولة الناشئة من شعارات دينية، فقد تُكره في سيرورتها على ضرورات السياسة. وقد سجل التاريخ خطابات أخلاقية نشأت في سياق التنافس على السلطة وسرعان ما فقدت مصداقيتها بعد توظيفها من قبل المعارضة للحشد في مرحلة الدعوة ولتثبيت الشرعية في مرحلة الدولة.
- إن ما كانت تعيبه المصادر المرينية على الموحدين بخصوص تقاتل أهل البيت الواحد ونقض بيعة بعضهم بعضاً هو ذات ما ألم بعصبيّة بني مرين، وإن ذكرت مصادرهم ذلك تعريضاً، الشيء الذي يؤكد صحة استقرار ابن خلدون القائل بمرور حركة التاريخ من مرحلة الدين والأخلاق إلى مرحلة الحكم الطبيعي الخاضع لسيرورة العوائد.
- كان لبعض القرارات السياسية (تكريم النسب الشريف، توظيف اليهود والنصارى) ذات الصبغة الدينية والحضارية أثر إيجابي في نشأة وتطور الدولة، لكنها أثارت جملة من التناقضات التي ساهمت في أفول نجم الدولة المرينية.
- لم يكن حضور أهل الذمة في وظائف الدولة يحيل إلى المحرم فحسب، إنما كان أيضاً مصدراً للفتن والمشكلات الاجتماعية والسياسية.
- تجلت حرية التعبير والشورى وإجلال العلماء والقضاة في مظاهر ساطعة إبان مرحلة قوة الدولة المرينية، غير أن غياب هذه المظاهر في مرحلة الضعف عجل بسقوطها.

خاتمة

عرضت هذه الدراسة نموذجاً لاختبار قدرة السلطة السياسية على تمثل المقتضيات الدينية في تاريخ المغرب وتاريخ الإسلام، انطلاقاً من استقرار تاريخي وعدة نظرية لرائد علم الاجتماع السياسي (ابن خلدون)، وتعريضاً على أهم المحطات والقضايا الحيوية التي شهدتها حكم المرينيين.

نتائج الدراسة

وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

- ضرورة التأطير النظري لجذلية الديني والسياسي، إذ أظهر استقرار التجارب التاريخية للحكم أن الالتزام المثالي بمقتضيات الوحي في المجال السياسي كان في خلافة الرسول (ﷺ) وعهد الخلافة الراشدة، أما باقي التجارب السياسية فالأرجح أنها خضعت لحكم العادة وما تمليه المقتضيات السياسية (التغلب، القتل، الترف...).

الإحالات المرجعية:

- بدا راجحاً أن العبور المريني إلى الأندلس، ومن خلال الحيشيات المحيطة به، لم يحركه أساساً دافع البحث عن الشرعية السياسية، إنما كان، بمنطق ذلك العصر والذي لا زالت ذهنيته حاضرة عند بعض النخب العربية، صراعاً حضارياً بأدوات محض عسكرية. ولم يغب ذات المنطق عن التحالف المسيحي إبان حروب الاسترداد.
- بدأ انحسار الوجود الإسلامي في الأندلس نتيجة سعي الأمراء إلى الاستفراد بالملك، وإيثارهم مصلحة العصبية، وتغيبهم آصرة العقيدة في التحالفات السياسية.
- مهما كانت مبررات بني مرين إزاء تقاتل أهل البيت الواحد في سبيل الحكم، والتمثيل بالقتلى لإظهار قوة الردع وضمان استقرار الحكم، فإن النتائج جاءت خلاف ذلك، إذ سرعان من آل حكمهم إلى الزوال، مثلما زال ملك من قبلهم، وبناءً على هذا الاطراد السنني ظهر أن القوة والاستقرار يكمنان استراتيجياً في السلوك السياسي المناقض لتلك العوائد المستحكمة.
- عطفاً على هذه النتائج، واعتماداً على استقراء ابن خلدون للتطورات التاريخية للدولة الإسلامية في المشرق والمغرب، يظهر أن ابتعاد الممارسة السياسية عن مقتضيات الدين والأخلاقية صار قدراً لا مفر منه بعد العصر الموسوم بالخلافة الراشدة، إلا أن مآلات الضعف التي خلصت إليها هذه الدراسة، يعزز الاعتقاد في أهمية الالتزام بالأبعاد الأخلاقية والدينية، علماً أن ذلك ليس بالمستحيل في الممارسة السياسية، إذ رغم إقرار ابن خلدون استحكام العوائد، لم يفته ذم الملك الذي لا يكون "محوطاً بنظر الشارع"^(٨٩).
- (1) Mohammed Kaby, variations islamites et identité du Maroc médiéval, maisonneuve et larose, ed Okad, 1989. Mohamed Kably, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin des moyens âges, maisonneuve et larose, Paris, 1986.
- حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المجلدان ٢ و٣، قسم المرينيين، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- (٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي (المجلد ٣)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤.
- (٣) عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، ط ٣، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٠٠، ص: ١٩٠.
- (٤) نفسه، ص: ٢١٣.
- (٥) محمد سعيد العشماوي، الإسلام السياسي، موفم للنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص: ٦.
- (٦) مقدمة العلامة ابن خلدون، م. س، ص: ٢١٣.
- (٧) مقدمة العلامة ابن خلدون، م. س، ص: ١٦٧.
- (٨) نفسه.
- (٩) نفسه، ص: ٢٩٥.
- (١٠) محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، ط ١، ١٩٨٧، ص: ٥٠.
- (١١) منير شفيق، بين النهوض والسقوط: رد على فرج فودة، الناشر للطباعة، ط ٢، ١٩٩٢، ص: ٦٢-٦٣.
- (١٢) عبد الله بلقزيز، منطق الخطاب الإصلاحي الحديث بالمغرب، مجلة منبر الحوار، ع ٣٨، بيروت، ١٩٩٩، ص: ١٣.
- (١٣) تقلد عدة مناصب في الدولة المرينية.
- (١٤) عبد الرحمان بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، المجلد ٦، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ص: ٣٨٢.
- (١٥) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، م. س، ص: ٣٥٩.
- (١٦) نفسه.
- (١٧) علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢، ص: ٢٦.
- (١٨) علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢، ص: ٣٩٦.
- (١٩) مقتبسة من سورة الصف، آية ١٤.
- (٢٠) مقتبسة من سورة القصص، الآية ٥.
- (٢١) الذخيرة السنية، م. س، ص: ٢٥. وفي مصدر آخر "اشتغلوا بالخمور والغواني" راجع الانيس المطرب، م. س، ص: ٢٨٨.
- (٢٢) محمد سعيد العشماوي، م. س، ص: ١٠-١١.
- (٢٣) الذخيرة السنية، م. س، ص: ٢٩.
- (٢٤) إسماعيل بن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط ٢، ١٩٩١، ص: ٥٤.
- (٢٥) نفسه، ص: ٥٤-٥٥.
- (٢٦) ذهب أكثر أهل العارفين بالشريعة إلى أن ذلك لا يجوز إلا للنبي (ﷺ).
- (٢٧) جاء في الأحاديث النبوية بأن الرؤى جزء من النبوة وتحققها حتمي.
- (٢٨) الذخيرة السنية، م. س، ص: ٣٠-٣٢.
- (٢٩) الذخيرة السنية، م. س، ص: ٨٥.

القادر زمامة، ط ١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص: ١٧٦-١٧٧.

(٥٠) علي بن أبي زرع، الذخيرة، م.س، ص: ٩١.

(51) Cénival Pierre, l'Eglise chretienne de Marrakech XIII siècle, p: 81.

نقلًا عن: مصطفى نشاط، م.س، ص: ٢٨.

(٥٢) صنف البخاري في الصحيح باب "لا يقتل المسلم بالكافر" مستدلا بما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عما ورد في السنة ولم يرد في القرآن، "أَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ". راجع محمد بن إسماعيل البخاري، (كتاب الديات حديث رقم ٦٩١٥)، م.س، ص: ٣٧.

(٥٣) محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومطاسن أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٨١، ص: ٢٨٢.

(٥٤) عاصر مؤلف الحلل الموشية (مجهول الاسم) القرن الثامن الهجري، وقد أشار إلى استجاشة الموحدين بالنصارى في سياق مواجهة الأمير أبي معرف محمد المبريني في أحواز فاس "بجيش كثيف من عشرين ألفاً من الموحدين والعرب وهسكورة وقواد الروم" والتي انجلت بقتل أبي معرف على يد "زعيم من الروم في المعتزك". راجع: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط ١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص: ١٧٣.

(٥٥) مصطفى نشاط، م.س، ص: ١١٩.

(٥٦) كان متعصباً للموحدين، لا يسمي ابن تومرت في كتابه إلا بـ "سيدنا المعصوم"، وكان من الرجال التي صنع انتصار الموحدين، كما وصف المرابطين بـ "المجسمون" راجع: أبو بكر بن علي الصنهاجي (البندق)، المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ص: ١١-١٢-١٦-٩.

(٥٧) مصطفى نشاط، م.س، ص: ١١٩.

(٥٨) لخص مراحلها صاحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، راجع م.س، ص: ١٧٦-١٧٧. كما عقد أبو يوسف سنة ٦٦١ هـ جوازا في مرحلة انتقال السلطة قبل حسمه في اخضاع مراكش "وهو أول جيش من بني مرين جاز إلى الأندلس". راجع: الأنيس المطرب، م.س، ص: ٣٠٣.

(٥٩) علي بن أبي زرع، الذخيرة، م.س، ص: ١٥٠.

(٦٠) المعيار المغربي، م.س، ج ١، ص: ٧٣-٧٤.

(٦١) علي بن أبي زرع، الذخيرة، م.س، ص: ٩٨.

(٦٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، ص: ٢٣٤.

(٦٣) ذهب إلى ذلك محسن مؤنس قائلا بأن توجه الدولة الناشئة إلى الجهاد في الأندلس كان بهدف جبر شرعية التغلب الناقصة والتي كانت تفتح "الباب للثائرين والمنافسين"، أما "إذا شاركت الدولة في الجهاد والدفاع عن دار الإسلام اكتسبت شرعية من تلقاء نفسها". ولو أن التغلب كما سلف ذكره مع ابن خلدون صار عادة متعارف عليها في تاريخ المغرب. راجع: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المجلدان ٣ و٢، قسم المبرنيين، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢، ص: ٢٤.

(64) Mohamed Kably, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin des moyens âges, maisonneuve et larose, Paris, p: 73-78.

(٣٠) أثار ابن الأحمر مؤرخ الدولة المرينية موضوع النسب بصيغة التمريض إذ قال: "وقد قيل إنهم شرفاء". راجع روضة النسر، م.س، ص: ٨.

(٣١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مديول، القاهرة، ١٩٩٤، المجلد ٣، ص: ٢٠.

(32) Mohammed Kaby, variations islamites et identité du Maroc médiéval, maisonneuve et larose, ed Okad, 1989, p: 59.

(٣٣) يُعَدُّ مؤلفه (تاريخ ابن خلدون) حافلاً بضبط الأنساب والتاريخ القبلي للمغرب والمغاربة.

(٣٤) جاء في أحد كتب السيرة النبوية "هذا كتاب سيرة رسول الله (ﷺ)، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (...) بن إلياس بن مضر ... راجع: عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق محمد سعيد اللحام، ط ٣، ١٩٩٨، ج ١، ص: ١٧-١٨.

(٣٥) عبد الرحمان بن خلدون، م.س، المجلد ٧، ص: ٦.

(٣٦) الذخيرة السنية، م.س، ص: ١١٧.

(٣٧) حديث "... اغزوا باسم الله في سبيل الله ... ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا..." راجع: أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، (كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ١٧٣١)، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩١، ص: ١٣٥٧.

(٣٨) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر، (كتاب المظالم حديث رقم ٢٤٧٤)، البشري، كراتشي، ٢٠١٦، ص: ١١٧٧.

(٣٩) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ج ٦، م.س، ص: ٣٦١.

(٤٠) نفسه، ص: ٣٦٢.

(٤١) نفسه، ص: ٣٥٩.

(٤٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، ص: ٢١٩.

(٤٣) نفسه، ص: ٢٧٤.

(٤٤) عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الرب، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢، ص: ١١١.

(٤٥) نفس المصدر، ص: ١١١.

(٤٦) هو الفقيه موسى بن يمويمن المصمودي الهسكوري، من كبار علماء فاس كان يحفظ صحيح البخاري وكتاب سيويو، اجتهد في قضايا جزئية تخص الزواج والطلاق وتعدد الزوجات وقد انتقده أيضاً الفقيه أبو الحسن الصغير لكنه لم يدع إلى رجمه كما فصل ذلك الونشريسي.

(٤٧) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغربي والجامع المغربي عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج ٤، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨١، ص: ٥٠٦.

(٤٨) مصطفى نشاط، "الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية"، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٥، ص: ١١٨.

(٤٩) تشير مصادر أخرى أن ذلك جاء في سياق محاولات السلطان أبو يوسف يعقوب العبور إلى الأندلس ابتداء من "سنة أربع وسبعين وستمائة (...)" وفي هذه السنة قتل اليهود بفاس. وفي شوال منها ابتداء بناء فاس الجديد، بخارج مدينة فاس، وهي المدينة البيضاء، وأتمها في ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة" قبل جوازه الثالث والرابع إلى الأندلس حيث حاصر إثره "مدينة شريش مدة من أربعة أشهر، وذلك في سنة خمس وثمانين وستمائة. راجع: مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد

شعبية المتصوفة لتساهم في الشأن السياسي بعد تفكك السلطة المرينية، "كما سيؤهل الزوايا في نهاية المطاف لإحداث منعطف في مسلسل قيام الدول في المغرب" راجع: محمد القبلي وآخرون، م.س، ص: ٣٦٠-٣٦١-٣٦٢.

(٧٧) **أبرزهم أبو سعيد عثمان** (٨٠٠-٨٢٣هـ) الذي تخلص عن الاحتفال بالمولد النبوي وأهمل إكرام أشراف فاس "بفعل الظرفية العامة التي أثرت في إمكانات الدولة بالدرجة الأولى، مما ترتب عنه تفتير في الجرايات والعطاءات في وقت صار فيه من الصعب على الأشراف التفریط في امتيازاتهم المادية وإعفاءاتهم الجبائية المكتسبة". راجع: محمد القبلي وآخرون، م.س، ص: ٣٦٠.

(٧٨) **ابن السكاك المكناسي، نصح ملوك الإسلام بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**، تحقيق نزيهة المروني العلمي اللادريسي، ط ١، دار الإمام المخلوفي، وجدة، ٢٠١٦، ص: ١٤٠.

(٧٩) يبدو أنه ساد إعراض عام عن التصوف في عصر ابن عباد، ربما أنكر الناس ما أجازه ابن عباد للأولياء من رؤية الملائكة "ورؤية الله تعالى على وجه الكرامة" (الرسائل الكبرى، الرسالة السابعة، ص: ٤٩). ولما راسله بعض المتصوفة منزعين من الموضوع، أوردتهم جواباً أكثر انزعاجاً بقوله: "انكم لا تخلون في هذه النازلة من التعريض بطريق التصوف، ومحاولة الدعاء إليه، والاشادة به بين الجهلة من العموم أصحاب الرسوم، لأن متبوعهم هو الذي يفهمون منه الإنكار والقدح في أهله فلا تقدر على الصبر عن الرد عليهم حسبما أعرفه منكم حين تنزعجون وتضيق أخلاقكم، ومن بيده جوهرة نفيسة أو درة خطيرة لا ينبغي أن تسمح نفسه بأن يلقيها للبالغ والحمير، أو أن يعلقها في أعناق الكلاب والخنازير". راجع: أبو عبد الله ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى (نزهة الناظر المتأمل وقيد السائر المستعجل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣، ص: ١٧٠.

(٨٠) تارة يخصص وأخرى يعمم كأن يقول "فإن الزمان قد بلغ الغاية في الفساد، وشملت الفتن جميع العباد إلا من عصم الله منهم، والله تعالى يعيذك من شر الأشرار وتسلب الفجار". انظر: ابن عباد الرندي، م.س، ص: ٣٦.

(٨١) **تاريخ المغرب**: تحيين وتركيب، م.س، ص: ٣٤٢.

(٨٢) روضة النسرین، م.س، ص: ٣٠-٣٧.

(٨٣) نفسه، ص: ٣٧.

(٨٤) مثلما تألم لموت المستعين بالله (إبراهيم بن أبي الحسن) الذي قتل سنة ٧٦٢هـ. راجع **روضة النسرین**، م.س، ص: ٣٠-٣١.

(٨٥) محمد حجي، **الحركة الفكرية في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ج ١، ١٩٧٦، ص: ٤٠.

(٨٦) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، (قسم الوطاسيين)، ص: ١٩.

(٨٧) راجع: **سياسة المغرب الخارجية في عهد بني مرين**، مجلة دعوة الحق، عدد ٦٩، النسخة الالكترونية على الرابط:

<https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/1528>

(٨٨) نفسه.

(٨٩) عبد الرحمان بن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، ط ٣، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٠٠، ص: ١٩٠.

(٦٥) تشير مصادر أخرى أن ذلك جاء في سياق محاولات السلطان أبو يوسف يعقوب العبور إلى الأندلس ابتداء من "سنة أربع وسبعين وستمائة (...)" وفي هذه السنة قتل اليهود بفاس. وفي شوال منها ابتداء بناء فاس الجديد، بخارج مدينة فاس، وهي المدينة البيضاء، وأنما في ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة" قبل جوازه الثالث والرابع إلى الأندلس حيث حاصر إثره "مدينة شريش مدة من أربعة أشهر، وذلك في سنة خمس وثمانين وستمائة. راجع: مؤلف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط ١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص: ١٧٦-١٧٧.

(٦٦) بعد سيطرة أبي يوسف على المغرب الأقصى توالى عليه رسل ابن الأحمر من الأندلس تقول له: "أنت ملك الزمان، والمنظور إليه في هذا الأوان، قد وجب عليك نصر المسلمين". انظر: **الأنيس المطرب**، م.س، ص: ٣١٢-٣١٣.

(٦٧) دعا الأمير أبو يوسف أمير تلمسان المدعو "يغمراسن بن زيان" إلى الصلح إثر توصله من بني الأحمر طلب النجدة في الأندلس فرفض يغمراسن بشدة ثم التقى الجيشان "بوادي إيسلي بمقربة وجدة، فالتحمت الحروب بينهما" فانتهت بانتصار المرينيين على بني عبد الوادي، وهدم أبو يوسف إثرها مدينة وجدة، و"كانت هذه الهزيمة في النصف من رجب سنة سبعين وستمئة (٧٠هـ)". راجع: **الأنيس المطرب، م.س، ص: ٣١**. وإذ لم يثب أبو يوسف حكم بني عبد الواد في تلمسان، طلبهم للصلح تأمينا للانتصارات التي راكمها في الأندلس فبعث "إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يطلبه في الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجوز إلى الأندلس آمن الروعة من بلاده، فأسعفه يغمراسن بمطلبه، فتم الصلح بفضل الله بينهما على المراد وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين ونفى عنهم التحاسد والتنافس والظلام". راجع: **ابن أبي زرع، الذخيرة، م.س، ص: ١٤٥**. وانظر: **الأنيس المطرب، م.س، ص: ٣١٤**.

(٦٨) لم يشر ابن أبي زرع إلى هذه الجزئية رغم تدوينه تفاصيل تفوق بكثير ما أورده صاحب الحلل الموشية بخصوص جواز المرينيين إلى الأندلس.

(٦٩) الحلل الموشية، م.س، ص: ١٧٦.

(٧٠) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، ص: ٢٣٤.

(٧١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، ص: ٣٣٢-٣٣٣.

(٧٢) كان وزيراً لأبي محمد عبد الحق آخر سلاطين بني مريني.

(٧٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م.س، (قسم الوطاسيين)، ص: ١٦.

(٧٤) استندت أغلب العصبية (المرابطون، الموحدون، المرينيون) "التي تداولت الحكم ببلاد المغرب في العصر الوسيط على القريشية أو على انتحال النسب الشريف أو على تزكية أشراف المشرق أو المغرب" راجع: محمد القبلي وآخرون، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١، ص: ٣٥٥.

(٧٥) محمد القبلي وآخرون، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١، ص: ٣٥٩.

(٧٦) عارض المتصوفة السياسة الجبائية للسلطين المرينيين حيث تحاشوا اللقاء بهم ووجدوا دعماً في ذلك من غالبية الرعية، فنشأ "تعارض واضح بين موقف بعض الخاصة والمتصوفة من جهة وموقف الأشراف من جهة ثانية من مال السلطان. وانعكس هذا التعارض على نظرة الناس لكل من الفئتين وأثر في مكانة كل فئة على حدة في أعينهم" ومن هنا ستمو

تطوان والنخبة المحلية سلطة العائلات النافذة

ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين آل المنظري، آل النقسييس، وآل الريفي نموذجاً

د. المهدي شدال

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في التاريخ الحديث

جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية



ملخص

يتناول المقال دور النخبة المحلية في مدينة تطوان ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين، من خلال دراسة ثلاث عائلات نافذة: آل المنظري، آل النقسييس، وآل الريفي. يهدف المقال إلى إبراز كيفية مساهمة هذه الأسر في تشكيل السلطة الحضرية، وفي بناء توازنات اجتماعية وسياسية داخل المدينة، انطلاقاً من تموقعها داخل شبكة من العلاقات المتشابكة مع المخزن والسلطة الحضرية. اعتمدت الدراسة على مقارنة تاريخية وسوسولوجية، أبرزت كيف تمكنت هذه العائلات من المزج بين النفوذ الرمزي، المتمثل في النسب الشريف والمكانة الدينية والعلمية، وبين السلطة الاقتصادية التي استمدت من التجارة، والملكيات العقارية، والمناصب المخزنية. هذا الجمع بين الرأسمال الرمزي والمادي منحها شرعية قوية داخل المجال الحضري، وجعلها فاعلاً أساسياً في ديناميات السلطة بتطوان. كما ركز المقال على طبيعة العلاقة التي ربطت هذه النخب بالمخزن من جهة، وبالسكان من جهة ثانية. فقد كانت العلاقة مع المخزن قائمة على التفاوض والمساومة أكثر من الخضوع التام، حيث لعبت الأسر النافذة أدوار الوسطة في جمع الضرائب وحفظ الأمن، في مقابل الحفاظ على امتيازاتها ومكانتها. أما مع الساكنة، فقد مارست هذه العائلات سلطة اجتماعية ودينية ساهمت في ضبط التوازن الداخلي للمدينة. خلص المقال إلى أن النخب التطوانية لم تكن مجرد امتداد للسلطة المركزية، بل شكلت سلطات محلية موازية لها، قادرة على تمثيل الساكنة والتأثير في القرار المخزني. وبهذا مثلت تطوان نموذجاً فريداً لمدينة شكّلت نخبها سلطتها من الداخل، وأسست نمطاً خاصاً من الحكم الحضري.

كلمات مفتاحية:

النخبة المحلية؛ العائلات النافذة؛ السلطة الحضرية؛ الوساطة الاجتماعية؛ التاريخ الاجتماعي؛ الشرعية الرمزية؛ السلطة المحلية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٧ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.424638.1276

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

المهدي شدال، "تطوان والنخبة المحلية، سلطة العائلات النافذة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين: آل المنظري، آل النقسييس، وآل الريفي نموذجاً"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة- العدد الخامس والسبعون، يناير ٢٠٢٦، ص ٨٣ - ٩٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive: https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: elmehdicheddal@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المبدع 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

عرفت مدينة تطوان ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين تحولات عميقة على المستويين السياسي والاجتماعي، جعلت منها فضاءً مميزاً لتمرکز سلطة محلية قائمة على شبكات النخبة العائلية. فقد ساهم موقع المدينة الجغرافي الاستراتيجي وانفتاحها على الضفة المتوسطية، إضافة إلى ضعف التحكم المركزي للدولة في بعض الفترات، في بروز عائلات نافذة مثل آل المنظري وآل النقسيس وآل الريفي، والتي لعبت أدواراً محورية في إدارة الشأن المحلي، أمنياً واقتصادياً وحتى دينياً.

إن دراسة هذه النخبة لا تتدرج فقط ضمن إعادة بناء تاريخ تطوان من زاوية محلية، بل تسمح بفهم ديناميات السلطة خارج الإطار المركزي، حيث تتقاطع الزعامة العائلية مع شبكات النفوذ التجاري والروحي، وتنتج نمطاً خاصاً من "الحكم المحلي" القائم على التوازن بين الولاء للدولة والتدبير الذاتي للمدينة. وفي هذا السياق، يطرح المقال الإشكالية التالية: كيف مارست العائلات النافذة في تطوان سلطتها ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين؟ وما هي آليات تشكل نفوذها واستمراريتها في ظل السياق السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، سنعمد خطة بحثية من خلال معالجة ثلاث محاور أساسية وهي: المحور الأول: السياق التاريخي لنشأة النخبة المحلية بتطوان ودور آل المنظري في ترسيخ سلطة العائلة الحاكمة. المحور الثاني: آل النقسيس: النخبة الدينية والاقتصادية كفاعل في توازنات السلطة داخل المدينة. المحور الثالث: آل الريفي: بين الوظائف المخزنية وشبكات التجارة المتوسطية.

أولاً: السياق التاريخي لنشأة النخبة المحلية بتطوان ودور آل المنظري في ترسيخ سلطة العائلة الحاكمة

شكلت أسرة آل المنظري النواة الأولى للنخبة الحاكمة في تطوان منذ إعادة تأسيس المدينة في أواخر القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، إذ كان

أبو الحسن علي المنظري الكبير، القائد الأندلسي، هو الذي أشرف على إعادة تعميرها بدعم من الدولة الوطاسية^(١). ومع بداية القرن السادس عشر، ورغم التحولات السياسية الكبرى التي شهدتها المغرب مع صعود السعديين، فقد استمرت ذرية المنظري في تمركزها بالمدينة، مرسخة نمطاً محلياً من الحكم استند إلى عدة ركائز: الأصل الأندلسي، والشرعية العسكرية، والانخراط في الوساطة بين السلطة المركزية والسكان.

١/١- التأسيس الأندلسي والشرعية الرمزية

لقد كان لتطوان، منذ إعادة تعميرها على يد القائد الأندلسي المنظري الكبير في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، طابع أندلسي طاغ، لا من حيث الطراز المعماري والعمراني فحسب، بل أيضاً على مستوى البنية الاجتماعية والثقافية للمدينة. وقد مثل آل المنظري الامتداد الحي لما اصطلح عليه في الأدبيات التاريخية بـ "النخبة الأندلسية المؤسسة"، وهي نخبة مهاجرة استقدمت معها رؤى سياسية وتنظيمية مستوحاة من تجربة الحكم في الأندلس.

وقد تمتع آل المنظري بشرعية رمزية مزدوجة: أولاً، من جهة الذاكرة الجهادية التي مثلتها مشاركتهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية بالأندلس خلال مراحل المدّ القشتالي، وهو ما منحهم صفة "أمراء الغربة" أو "قادة المستضعفين" في الخيال الجمعي للمهاجرين. وثانياً، من جهة الارتباط بالتراث النبوي والمخزني، حيث كان بعض أفراد الأسرة يُعرفون بانحدارهم من أصول شريفة، أو بصلاتهم المباشرة برجال الدولة الوطاسية والمرينية، ما ساعدهم على توطيد نفوذهم محلياً^(٢).

ومنذ استقرارهم في المدينة، حرص آل المنظري على فرض شكل من أشكال الشرعية السياسية على السكان، مستدين إلى تصور مفاده أنهم "أصحاب الأرض" و"مؤسسو النظام"، وهو ما جعل أسماءهم تتردد في الوثائق العدلية والسجلات الوقفية، ليس فقط كقادة عسكريين، بل كملاك، وفاعلين اجتماعيين، ووسطاء في النزاعات. كما حرصوا على حماية الهوية الأندلسية للمدينة من خلال تشجيع استقرار المهاجرين من طليطلة، وغرناطة، وإشبيلية، وإقحامهم في نسيج

الشؤون اليومية للمدينة دون تدخل مباشر من ممثلي المخزن. وقد تعزز هذا الوضع في عهد السلطان السعدي زيدان بن أحمد المنصور، الذي كان يعاني من اضطرابات داخلية في الجنوب، ما اضطره إلى إبرام اتفاقيات مع النخب المحلية في الشمال، مثل المنظرين، لضمان الاستقرار^(٦). وتُظهر بعض المراسلات بين السلطان زيدان ووجهاء تطوان نوعاً من الاعتراف بوضعهم الخاص، مقابل التزامهم بعدم التحالف مع الإسبان أو العثمانيين. هذا التوازن الهش جعل المنظرين يتحركون في "منطقة رمادية"، تجمع بين التبعية الشكلية والاستقلال الفعلي، وهي حالة شائعة في مدن الشمال المغربي خلال تلك المرحلة.

٤/١- من النخبة العسكرية إلى النخبة

الاقتصادية والاجتماعية

مع استقرار الوضع الأمني نسبياً خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، شرع آل المنظري في توسيع نفوذهم عبر آليات غير عسكرية، أهمها التملك العقاري والزواج التحالفي مع عائلات مرموقة مثل عائلة علي بن راشد مؤسس مدينة شفشاون^(٧)، إضافة إلى الانخراط في التجارة البحرية عبر وكلاء محليين. كما امتلكوا أراضي فلاحية في ضواحي تطوان (مثل واد لو، بني حسان، والزواية)، واستثمروا في الحقول، وشاركوا في تأسيس بعض "الوكالات الوقفية" التي تدير مصالحهم داخل المدينة. كما أصبح بعض أفراد العائلة يشغلون وظائف دينية مثل الإمامة والخطابة، ما عمّق شرعيتهم في أعين العامة^(٨). وهكذا، تحولت أسرة آل المنظري من "قوة عسكرية حامية" إلى "قوة ناعمة" تجمع بين المال، والجاه، والوجاهة الاجتماعية، وهو ما يفسر قدرتها على الاستمرار في سدة الحكم رغم تغير السياقات السياسية.

ثانياً: آل النقسيس النخبة الدينية والقضائية في تطوان خلال النصف الأول والربع الثاني من القرن السابع عشر- الميلادي

السلطة المحلية^(٩). ولعل هذا الرأسمال الرمزي هو ما ميّز آل المنظري عن باقي العائلات التطوانية، إذ لم يظهر منافس جدي لهم في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، مما مكّنهم من احتكار الفضاء السياسي للمدينة، وإن لم يكن ذلك بصفة رسمية أو عبر مناصب مخزنية معلنة.

٢/١- السلطة العسكرية والتنظيم الدفاعي

من أبرز وجوه قوة آل المنظري في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، اعتمادهم على تنظيم دفاعي محلي مستقل عن المخزن، استند إلى تعبئة الموارد البشرية والعسكرية داخل المدينة ومحيطها. وقد تمكّنوا، عبر هذا الجهاز، من صد عدة تهديدات خارجية. خاصةً تلك التي مثلتها القوى البحرية الأوروبية (الإسبان والبرتغاليون)^(١٠)، والتي كانت تنظر إلى تطوان باعتبارها ثغراً مهدداً لمصالحها البحرية في سبتة وطنجة.

قام آل المنظري بإعادة بناء أسوار المدينة وتعزيزها، لا سيما على مستوى الأبواب الرئيسية (باب العقلة، باب المقابر، باب الرموز)، كما نظموا عناصر مسلحة من أهالي المدينة، وغالباً من المهاجرين الأندلسيين، في شكل فرق حراسة ليلية، وهو ما يشبه التنظيمات المدنية شبه العسكرية. وتشير بعض الوثائق العدلية إلى تخصيص عائدات أوقاف معينة لصالح الإنفاق على هذه الحراسات والأسوار^(١١). لقد وفّر هذا التنظيم الأمني للمنظرين سلطة فعلية داخل المدينة، لكونهم احتكروا أداة العنف الشرعي، واستثمروا الخوف من الغزوات الأجنبية لبسط هيمنتهم، دون الحاجة إلى شرعية مخزنية رسمية. كما ساعدهم ذلك على كسب دعم التجار والحرفيين الذين كانوا بحاجة إلى الحماية لاستمرار نشاطهم.

٣/١- العلاقة بالدولة المخزنية: الولاء

المشروط

رغم استقلالهم النسبي، لم يسعَ آل المنظري إلى القطيعة مع المخزن، بل فضلوا تبني صيغة الولاء المشروط: فهم يعترفون بسيادة السلطان، ويرفعون الدعاء له فوق المنابر، لكنهم يحتفظون بحق إدارة

وقت كانت فيه الأمية منتشرة . وهذا الموقع جعلهم الفاعلين الأساسيين في نقل المعرفة الدينية، وضبط السلوك العام، بل والمشاركة في توجيه الحياة اليومية للناس.

٣/٢- التموقع داخل توازنات السلطة المحلية

لم تكن علاقة آل النقسييس بالسلطة العسكرية المحلية علاقة صراع مباشر، بل علاقة تكامل دقيق، بحيث تولّى المنظريون أو الريفيون الجانب الأمني والسياسي، فيما احتكر آل النقسييس المرجعية الدينية والشرعية القضائية. وقد نشأت بين هذه الأسر "شراكات ضمنية" تقوم على المصالح المتبادلة: حماية الفقيه من طرف القائد، وشرعنة سلطته من طرف الفقيه.

كما استفاد آل النقسييس من وضعهم لتوسيع نفوذهم الاقتصادي تدريجياً، عبر الاستثمار في العقار (شراء الدور والأراضي)، والارتباط بالوقف، حيث تولّى بعضهم نظارة أوقاف المساجد والزوايا^(١٢). وقد منحتهم هذه الوظائف حضوراً إدارياً يجعلهم قريبيين من دوائر القرار، دون أن يظهروا بمظهر "الساسة"، بل كرجال علم زاهدين في السلطة، وهو ما عمّق مكانتهم في الضمير الجمعي التطواني.

وقد تولت هذه الأسرة حكم تطوان في ظل الظروف الصعبة التي كانت تعيشها المدينة بسبب إغارة القبائل المجاورة عليها بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي سنة ١٦٠٣م، وهذا ما ذكره عبد السلام بن أحمد السكيرج حينما قال: «وتولّى بعد من ذكر القائد محمد النقسييس، عام خمسين وألف، وسبب ولايته على ما ذكر أنه لما كانت الأربعين سنة الواقعة فيها الفترة لم يحكم فيها السلطان، وكان جيران البلدة بنو حزم وغيرهم يؤذونهم أشد الإذابة (...) وكان محمد النقسييس من بني حزم طالباً يقرأ في مدرسة كانت قرب الجامع الأعظم، فلما عاين ظلم من ذكر (...) قال لأهل البلدة: إعملوني قائداً عليكم أنا أرد عنكم هذا الظلم»^(١٣).

وقد استمر حضور آل النقسييس طوال النصف الأول والربع الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، حيث ظلّ منهم من يتولى مناصب القضاء والفتوى، ويُذكر في هذا

إذا كانت عائلة المنظري قد بسطت نفوذها على تطوان من خلال السيطرة العسكرية والأمنية، فإن أسرة النقسييس فرضت وجودها كجزء من النخبة الدينية والقضائية التي مثّلت سلطة رمزية وروحية لا تقل تأثيراً عن السلطة السياسية. وبرز أفراد هذه العائلة خلال النصف الأول والربع الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، كقضاة، فقهاء، ما جعلهم يحتكرون الحقل الديني، ويشكّلون حلقة وصل حيوية بين السلطة المركزية والسكان المحليين.

١/٢- أصول الأسرة وبنية حضورها داخل المدينة

ترجع أصول آل النقسييس إلى سلالة أندلسية نزحت إلى تطوان عقب سقوط غرناطة^(٩)، وقد تميزوا منذ استقرارهم بالمدينة بتوجههم نحو العلوم الشرعية، حيث تلقّى أغلب أبنائهم تكوينهم في الزوايا والمدارس العلمية المحلية، خاصة الزاوية الريسونية، وزاوية سيدي علي بركة، ثم انتقل بعضهم إلى فاس للدراسة بجامع القرويين^(١٠). وخلال القرن السابع عشر الميلادي، تولّى أحد أفراد الأسرة، وهو القاضي أحمد بن علي النقسييس، منصب القضاء بتطوان، وكان له دور بارز في تأطير النزاعات، وكتابة الوثائق العدلية، والوساطة بين التجار وأهل السلطة، ما جعل اسمه يتردد كثيراً في السجلات الوقفية والعدلية. وقد أصبحت أسرته، منذ ذلك الحين، من العائلات المرتبطة رمزياً بـ"العدول والقضاء"، وهي وظائف تعززت مع الزمن، خاصة مع تكرار شغلهم لها في أجيال متعاقبة.

٢/٢- سلطة العلم والدين في مواجهة

السلطة السياسية

كان موقع آل النقسييس متميزاً من حيث إنهم لم يعتمدوا على القوة أو الثروة، بل على الشرعية الدينية والعلمية التي منحها لهم المجتمع المحلي والمخزن معاً. فقد مثّلوا سلطة تُحترم وتُرجع إليها في حالات النزاع، وكانت فتاواهم تؤخذ بعين الاعتبار من طرف القادة العسكريين ووجهاء المدينة. وفي بعض الأحيان، لعبوا دور "المكابح الاجتماعية" التي تحدّ من تعسف السلطة أو تنبّهها إلى التجاوزات^(١١). لقد مثّلت المساجد والزوايا فضاءهم الطبيعي، حيث درّسوا، وأصدروا الأحكام، في

ثالثاً: آل الريفي النخبة التجارية-الإدارية بين خدمة المخزن والمصالح المحلية خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر- الميلادي والنصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي

برزت أسرة آل الريفي في تطوان منذ الربع الأخير من القرن (١١هـ/١٧م) إلى حدود النصف الأول من القرن (١٢هـ/١٨م)، كواحدة من أهم الأسر ذات الطابع المزدوج: إداري-تجاري. بخلاف آل المنظري الذين صعدوا من خلال الزعامة العسكرية، وآل النقسييس الذين تميزوا بالحضور الديني والقضائي. مثل آل الريفي نموذجاً للنخبة الحضرية الصاعدة، التي جمعت بين خدمة الدولة المخزنية والانخراط النشط في شبكات التجارة المتوسطية.

١/٣-أصول الأسرة وتنوع أدوارها

تنحدر أسرة آل الريفي من منطقة الريف، وبدأت استقرارها في تطوان ضمن موجة من انتقال بعض النخب القبلية إلى المدن الساحلية بحثاً عن فرص إدارية وتجارية. وقد برز اسم الأسرة في عهد السلطان مولاي إسماعيل (١٦٧٢م - ١٧٢٧م)، حين تولّى أحد أبنائها، أحمد بن علي الريفي، منصب باشا تطوان^(١٧)، وأصبح يمثل المخزن في شمال البلاد، مكلفاً بحماية السواحل ومراقبة الأنشطة التجارية^(١٨). وقد تميز هذا التموقع بالجمع بين الولاء للمخزن والحفاظ على شبكة من المصالح المحلية، خصوصاً في أوساط التجار، والوساطة مع الأوروبيين، والقياد المحليين.

٢/٣-الريفيون وخدمة الدولة المخزنية

تميزت أسرة آل الريفي عن بقية نخب تطوان في الربع الأخير من القرن (١١هـ/١٧م) إلى حدود النصف الأول من القرن (١٢هـ/١٨م)، بعلاقتها القوية والعضوية مع السلطة المركزية، لا من موقع التبعية، بل من موقع الشراكة المشروطة. وقد برز هذا الدور بشكل واضح مع تعيين أحمد بن علي الريفي من طرف السلطان مولاي إسماعيل كباشا على تطوان ونواحيها، في إطار إعادة تنظيم المخزن لمراقبة المناطق الساحلية الشمالية، التي

السياق الفقيه محمد بن عبد السلام النقسييس، الذي لعب دوراً بارزاً في إصلاح بعض المناهج التعليمية بتطوان في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وأسس حلقات علمية بمسجد الجامع الكبير، ما جعل منزل أسرته يتحول إلى قبلة للطلبة والعلماء^(١٤). كما تحالف مع القوى السياسية والجهادية الفاعلة في شمال المغرب كالمجاهد العياشي والخضر غيلان.

ولما علا كعب مولاي الرشيد العلوي بالمغرب وتمكن من القضاء على خصومه السياسيين ومن أبرزهم الدلائيين وتخريب زاويتهم عام (١٠٧٩هـ/١٦٦٨م)، عطف السلطان الرشيد على تطوان ودخلها وخلع حاكمها أحمد بن عبد الكريم النقسييس حليف الخضر غيلان وأرسله سجيناً مع جماعة من حزبه إلى مدينة فاس عام (١٠٧٨هـ/١٦٦٧م)^(١٥)، كما استصفى أموالهم وأملاكهم لبيت المال. بوفاة السلطان مولاي الرشيد عام (١٠٨٢هـ/١٦٧١م)، سيرتد حكمها إلى أولاد النقسييس لمدة قصيرة تحت قيادة مفضل النقسييس الذي تحالف مع صهره الخضر غيلان، إلا أن السلطان الجديد مولاي إسماعيل العلوي انتصر عليه وقتله عام (١٠٨٤هـ/١٦٧٣م)، وفر جماعة أولاد النقسييس إلى سبتة، وفي السنة نفسها أمر السلطان مولاي إسماعيل بإرجاعهم من سبتة وقتلهم، وعن الكيفية التي أخرج بها أولاد النقسييس من سبتة يقول مؤرخ تطوان محمد داود: «ووجدت في تقييد قديم بخط أحد قضاة تطوان في أوائل القرن الثالث عشر، أن أولاد النقسييس فروا إلى نصارى سبتة فقدم بعض خدام السلطان وتحت يده أمرا بأخذهم وقتلهم ولكنه أظهر لهم الأمان حيلة منهم، وخذع الفقيه الولي الصالح سيدي الحاج علي بركة وأخذه معه إلى سبتة فاغتر أولاد النقسييس وعادوا إلى تطوان صحبة الخديم المذكور مع سيدي علي بركة فلما دخلوا باب المقابر وهي الباب المقابلة لسبتة، ألقى القبض عليهم ثم سيقوا إلى باب القاعة بالغرسة الكبيرة وقتلوا هناك وكانوا سبعة ومعه عبد لهم فلما رأى العبد المذكور ما وقع لأسياده، واجه خادم السلطان بأنه غادر فألحقوه بأسياده»^(١٦). لتنتهي بذلك صفحة تاريخ أولاد النقسييس بتطوان.

خاتمة

إن تحليل نماذج النخب المحلية في تطوان ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين يُبرز بشكل جليّ كيف شكلت العائلات الكبرى - مثل آل المنطري، وآل النقسيس، وآل الريفي - فاعلاً مركزياً في رسم ملامح السلطة داخل الفضاء الحضري التطواني. فقد برهنت هذه الأسر على قدرة لافتة في التكيف مع المتغيرات السياسية والمخزنية، واستثمرت رأسمالها الرمزي والاجتماعي (الشرعية الأندلسية، العلم الشرعي، العلاقات المخزنية، التجارة المتوسطية) لبناء سلطة محلية فعّالة.

تميّزت النخبة التطوانية بخصوصية مزدوجة: فمن جهة، مثّلت استمراراً للنخبة الأندلسية التي أعادت تأسيس المدينة وفق نمط عمراني واجتماعي خاص، ومن جهة أخرى، عكست دينامية داخلية عنوانها التفاوض الدائم مع الدولة المركزية من أجل الحفاظ على الامتيازات دون الاصطدام المباشر مع المخزن. وهنا تتجلى وظيفة "الوسيط المحلي" التي أدتها هذه العائلات، سواء عبر تسلّم مناصب رسمية (قضاء، قيادة، الباشوية...)، أو من خلال أدوارها الاقتصادية والدينية والثقافية.

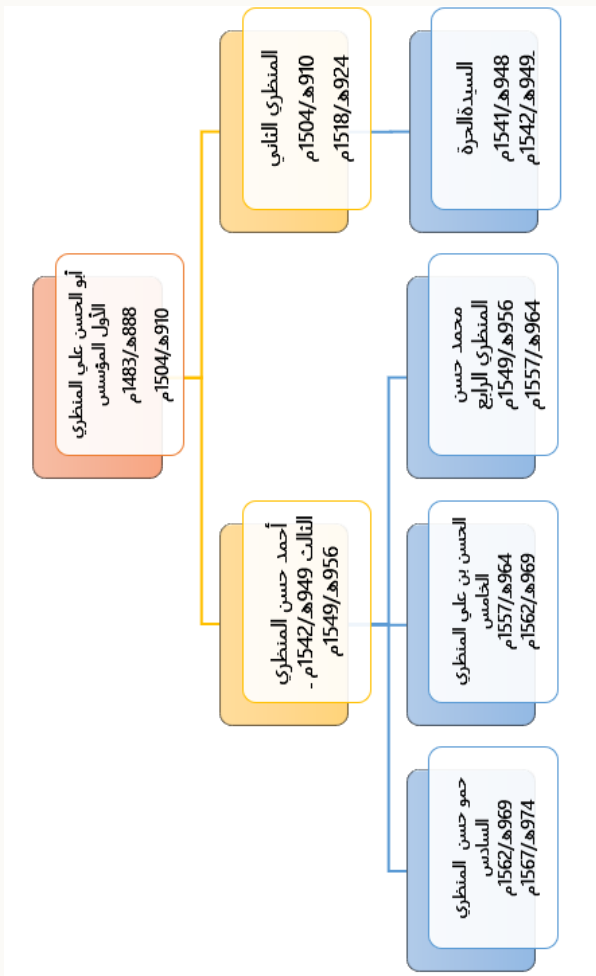
ولعلّ الطابع التراكمي للنفوذ العائلي، المرتبط بوحدة المجال التطواني، واستدامة الموروث، يفسّر كيف حافظت هذه الأسر على حضورها في قلب التحولات، ساهمت في صياغة نسق السلطة المحلية بما يشبه "أرستقراطية حضرية" ذات جذور أندلسية وروح مغربية. إن دراسة هذه النخبة تفتح المجال أمام قراءة جديدة لوضعيات السلطة خارج المخزن، وتعيد النظر في ثنائية المركز/الهامش، لتُظهر أن الهامش ذاته قد يكون مركزاً من نوع خاص، حين تمتلك نخبه مفاتيح التوازن والضبط الاجتماعي والسياسي.

كانت تتعرض باستمرار للغزو الأوروبي والقرصنة، وتشهد نشاطاً تجارياً كثيفاً غير منظم^(١٩). وكان الباشا المخزني بمثابة ممثل مباشر للسلطان، يتمتع بصلاحيات واسعة تشمل الأمن، تحصيل الضرائب، إدارة النزاعات الكبرى، والتفاوض مع القوى الأجنبية. وباعتبار أحمد بن علي الريفي أحد رجالات السلطان، فقد أسندت له مهمة ضبط "الواجهة البحرية الشمالية"، انطلاقاً من تطوان إلى طنجة، مروراً بالمضيق، وهو ما جعله يحظى بثقة البلاط العلوي، كما ورد في بعض رسائل السلطان إلى أهل فاس^(٢٠).

ومن أبرز مهام آل الريفي في هذا السياق، قيادة الحملات العسكرية ضد القبائل "التمردة" أو الخارجية عن الطاعة، خاصة في جبال ومنطقة الريف، وتنظيم الحاميات لحماية الطرق التجارية، والموانئ. كما تولّى أحمد بن علي الريفي تنسيق الجهود الدفاعية ضد الهجمات الإسبانية، وكان يشرف على تحصين ساحل تطوان وتأمين المدينة من الداخل، وهو ما يعكس ثقة السلطان فيه وتفويضه الفعلي بتدبير المجال الشمالي^(٢١). برغم هذا الولاء المخزني، لم تكن سلطة آل الريفي خاضعة بالكامل للسلطان. بل إنهم، مستفيدين من بعد تطوان عن العاصمة ومن أهمية دورهم في المنطقة، فرضوا أنفسهم كقوة تفاوض محلية ذات وزن. فكانوا يرفعون التقارير للسلطان، لكنهم يتخذون قرارات مستقلة، خصوصاً فيما يتعلق بالإجراءات الأمنية والتجارية. بل يحكى أن بعض قراراتهم كانت تُنفذ قبل أن تصدر الأوامر السلطانية، وهو ما جعل بعض المؤرخين يرون في أحمد بن علي الريفي "سلطاناً صغيراً على الشمال"^(٢٢).

الملحق رقم (٢)

شجرة آل المنظري التي حكمت تطوان وأحوازها
خلال النصف الأول من القرن (١٠هـ/١٦م)



الملاحق

الملحق رقم (١)

صورة لمنظر مدينة تطوان من الحوز



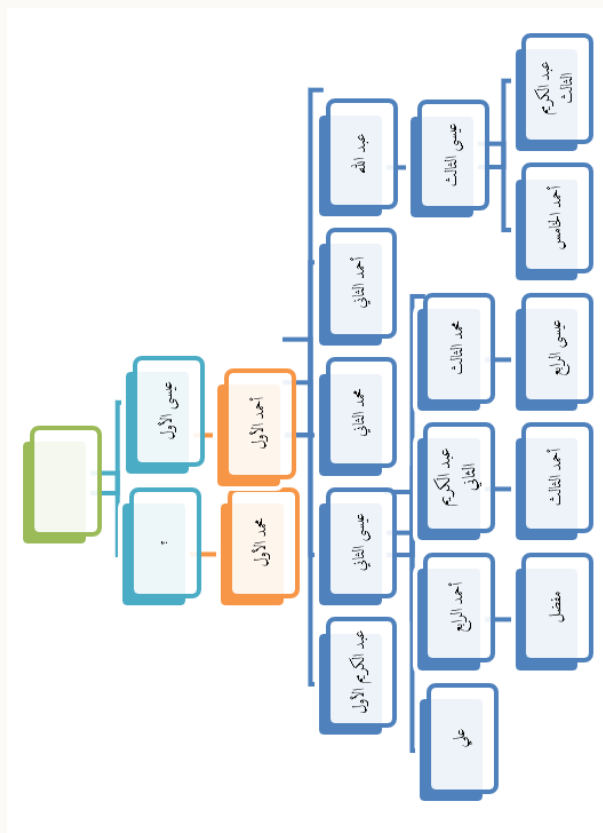
المصدر: تصوير شخصي ٢٠٢٤/٠٤/١٣

المصدر: إنتاج شخصي

ملاحظة: المنظري المؤسس هو عم المنظري الثاني وأب
المنظري الثالث، كما يعد جدّ المنظري الرابع والمنظري
الخامس والسادس.

الملحق رقم (٣)

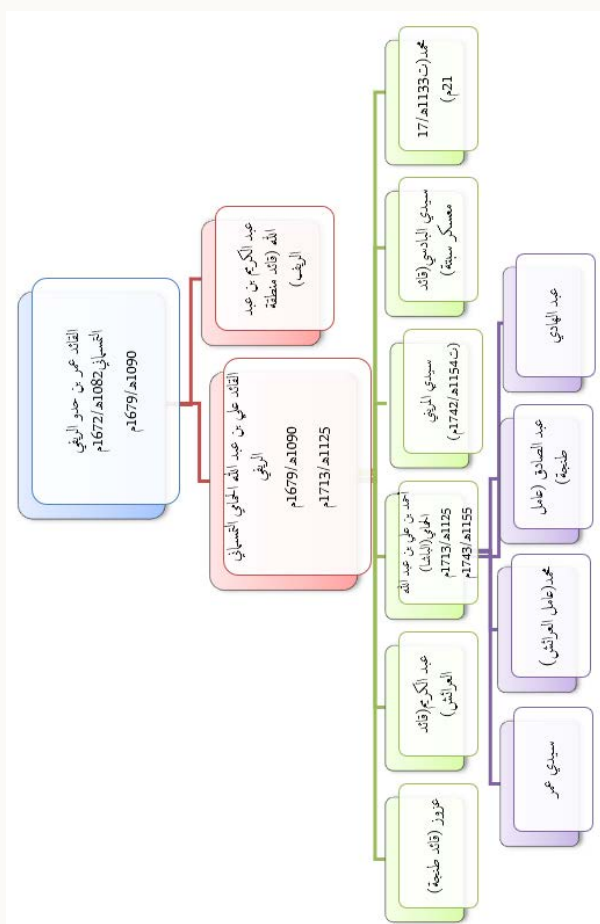
شجرة عائلة آل النقيس التي حكمت تطوان وأحوازها في النصف الأول والرابع الثاني من القرن (١١هـ/١٧م).



المصدر: إنتاج شخصي

الملحق رقم (٤)

شجرة عائلة الحمامي الريفي التي حكمت تطوان
وشمال المغرب خلال الربع الأخير من القرن
(١١هـ/١٧م) إلى حدود النصف الأول من القرن
(١٢هـ/١٨م).



المصدر: إنتاج شخصي

الإحالات المرجعية:

(٧) بعد وفاة أبي الحسن علي المنظري المؤسس في حدود عام (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، انتقل حكم المدينة إلى ابن أخيه المنظري الثاني، الذي ربطته علاقة مصاهرة مع حاكم شفشاون علي بن راشد، حيث تزوج ابنته السيدة الحرة عام (٩١٦هـ/١٥١٠م)، فكان هذا الزواج تدعيمًا لتحالف القائم أساسًا بين إمارة شفشاون وقيادة تطوان من أجل تقوية جبهة الدفاع المشتركة ضد الوجود الإيبيري بثغور شمال المغرب. بخصوص عقد زواج السلطان أحمد بن محمد الوطاسي بالسيدة الحرة انظر: عبد الوهاب بن منصور، «عقد زواج السلطان أحمد بن محمد الوطاسي بالشريفة للا الحرة بنت علي بن الراشد العلمي»، الوثيقة ١١٥، مجلة الوثائق، العدد ١، الرباط، (١٣٩٥هـ/١٩٧٦م)، محمد بن عزوز حكيم، الست الحرة حاكمة تطوان، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، تطوان، الرباط، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص: ٣٣-٤٠.

(٨) المريني، مصطفى. "الريفيون في تطوان بين التجارة والوظيفة المخزنية"، ضمن أبحاث في تاريخ تطوان، إشراف: محمد داود، تطوان: دار النشر المغربية، ٢٠١٢، ص: ٨٦.

(٩) لقد أثار أصل آل النقسيس هل هم أندلسيون أم جباله اختلافًا بين الدارسين دون الوصول إلى نتيجة قطعية عن هذا الموضوع انظر في ذلك:

Abderrahman Yebburoidi, El gobierno de tetuan por la familia AL naqsis (1597-1673), Tetuan, 1954, p: 10.
Busto Guillermo Gozalbes, los Moriscos en Marruecos, Granada, 1992, p: 177

(١٠) داود، تاريخ تطوان، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص: ٦٥.

(١١) الكراوي، النخبة الدينية في المغرب...، مرجع سابق، ٢٠٠٣م ص: ١١٢-١١٤.

(١٢) المريني، الريفيون في تطوان...، مرجع سابق، ٢٠١٢م، ص: ٩٤.

(١٣) عبد السلام إسكيج، نزهة الإخوان وسلوة الأحرار في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم أو تقرر فيها من الأعيان، تقديم وتحقيق يوسف إحنانة، تطوان، مطبعة الخليج العربي، طه ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص: ٥٠.

(١٤) داود، تاريخ تطوان، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص: ٢١١.

(١٥) أبو القاسم الزياني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص: ١١٩.

(١٦) نجد أن عددًا من علماء تطوان وعلى رأسهم العلامة أبو الحسن علي محمد بركة قد أبانوا عن سخطهم لعدم احترام السلطان لتعهداته بمنح الأمان للعائدين من أولاد النقسيس، مما جعل السلطان يبعث لهم برسالة تضم فتوى العلماء وموافقة أعيان المدينة باستغراق ذمهم وبيع أملاكهم قبل فرارهم إلى سبتة عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م. انظر: محمد داود، تاريخ تطوان... م. س، الجزء الأول، ص: ٢٣٨-٢٧٤.

(١٧) من المعروف في الأدبيات التاريخية أن لقب العامل أو القائد يطلق على الممثل المحلي للسلطة المركزية، إلا أن خصوصيات التنظيم السلطوي المحلي في شمال المغرب الأقصى زمن مولاي إسماعيل، جعلت الكتابات التاريخية تنعت القائد المخزني المحلي

(١) تشير الكتابات التاريخية إلى أن تجديد بناء تطوان كان على يد قائد المهاجرين الأندلسيين أبي الحسن علي المنظري الكبير، إلا أن إعادة بناء هذه الحاضرة يطرح إشكالية سنة تأسيسها، إذ نجد تضاربًا في الروايات التاريخية فيما يخص ذلك: فالرواية الأولى لعبد السلام سكيجر وهو من أهل تطوان، إذ ذكر أن بناءها كان عام (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) أما الرواية الثانية فهي التي ذكرها الحسن الوزان ومنويل كاسطيانوس حيث ذكرا أن إعادة التأسيس جاءت بعد طرد الأندلسيين من غرناطة، والمعلوم أن هذا الحدث كان في ربيع الأول ٨٩٨هـ/ الثاني من يناير ١٤٩٢م وبالرغم من الاختلاف بين الروايتين من حيث تاريخ إعادة التأسيس، والتي تقدر بنحو تسع سنوات، حاول المؤرخ محمد داود التوفيق بين الطرحين، إذ أشار إلى أن المهاجرين الذين توافدوا على تطاوين عام (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) كانوا من الكثرة ما أنسى عدد المهاجرين الذين سبقوهم عام (٨٨٨هـ/١٤٨٣م). فنسب البناء إلى اللاحقين بدل السابقين، نظرًا لأعدادهم الكثيرة وما بنوه من دور وأبرزوا فيها من مظاهر الحضارة.

(٢) داود، محمد، تاريخ تطوان، الجزء الأول، مطبعة الأمانة، تطوان، ١٩٦٤م، ص: ١٠٥.

(٣) الشريكي، محمد، تطوان: المجال والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٥م، ص: ٣٨.

(٤) استطاع أبو الحسن علي المنظري الكبير أن يحكم مدينة تطوان بعد تجديد بنائها واتخذها قاعدة لحركته الجهادية ضد القوى الإيبيرية التي تمكنت من احتلال جل الثغور المغربية الساحلية. وقد ذكر الحسن الوزان في هذا الصدد: «وكانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين، وكثيرا ما ضيق الخناق على سبتة والقصر الصغير وطنجة، وكان معه دائما ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي؛ لبسين جميعا سترات من الصوف، ينامون ليلا مقيدون بالأصفاد، قعر سراديب تحت الأرض..» الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميد، مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص: ٣٢١. كما ذكر مارمول كربخال أن أبا الحسن علي المنظري الكبير: «كان يخرج على رأس ٤٠٠ فارس أتى بهم من الأندلس مع من ينضم إليهم من المغاربة لمهاجمة حدود سبتة والقصر الصغير وطنجة، وأنه كان يهاجم الشواطئ الإسبانية لأنه كان يملك بعض السفن الصغيرة السريعة الحركة، حتى اجتمع لديه نحو ٣ آلاف من الأرقاء كان يجبرهم على العمل طوال النهار في بناء الأسوار ويسجنون ليلا في مطامير كبيرة مقيدون في أصفاد». مارمول كربخال، إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص: ٢٢٢.

(٥) داود، تاريخ تطوان، مرجع سابق، الجزء الأول، ص: ١٢٢، ١٢١.

(٦) الكراوي، عبد الرحمان. النخبة الدينية في المغرب الوسيط والحديث، فاس: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٣، ص: ٩١.

بتطوان بلقب الباشا، ويرجع ذلك إلى أن هذا اللقب كان خلال العهد الإسماعيلي من نصيب أسرة الريفي الحماامي دون غيرها، وكان الباشا هو الذي يختار قواده ويعينهم بعد موافقة السلطان. ففي عهد الباشا أحمد بن علي الحماامي الريفي جعل إخوته قوادا بالمنطقة الخاضعة لسلطته فعين عبد الواحد قائدا على تطوان، وعزوز قائدا على طنجة، وعبد الكريم بالعرائش. كما أن مهماته الواسعة والمتعددة في الإقليم جعلته الممثل الفعلي للسلطة المركزية، ومن ثم المعبر الحقيقي عن الاختيارات الكبرى للدولة الإسماعيلية في علاقاتها بهذه الجهة. لكون مدينة تطوان خلال هذه الفترة الزمنية هي الوحيدة في الشمال المغرب التي استطاعت أن تحافظ على حكمها الإسلامي المغربي بعد احتلال الإيبيري لكل من سبته وطنجة والعرائش، فأُمسيت بحكم موقعها المجاور للمحتلين الأجانب ثغرا يربط فيه المجاهدون ومركزا وسط قبائل عديدة تشمل جميع أقسام الشمال المغربي. انظر: عبد العزيز سعود، **تطوان في القرن ١٨م: السلطة-المجتمع-الدين**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، السنة الجامعية: ٢٠٠٥م-٢٠٠٦م، ص: ٧١. (مرقونة).

(18) Cornet, Anne-Marie. **Tétouan au XVIIIe siècle: une ville du Nord marocain face à l'Europe**. Rabat: CERJ, 1982, p. 243.

(١٩) داود، تاريخ تطوان، الجزء الثالث، مرجع سابق، ١٩٦٧، ص: ١٩٠.
(٢٠) شكل الجهاز المخزني المحلي بقيادة آل الريفي، الأداة الإسماعيلية التي جسدت حضوره في المنطقة، ودعم استمراريته هناك عبر توجيهاته السياسية المؤطرة بفلسفة مولاي إسماعيل في الحكم التي ترجمتها رسالة مولاي إسماعيل إلى ممثله بمدينة تطوان وإقليم التابع لها في الريف وجباله، الباشا علي بن عبد الله الريفي، التي حددت الحساسية التاريخية للمنطقة وعلاقاتها بدولة مولاي إسماعيل الناشئة، وطبيعة التعامل مع أهلها، قوامها القوة والسطوة ليضمن استقرار الحكم بها تجنباً لعصيانهم في المستقبل. ومما جاء فيها: «إن حصول الخوف في قلوب الرعية هو المطلوب. أما المودة فلا تكون إلا في خواص خواصهم، الذين يثقنوا سببه. فالحذر الحذر من أهل تطوان والجبل، فإن الفتنة إنما يوقدها منهم نفر قليل، ولا يستطيع النفر الكثير إطفاءها.. فأحزم واحتزم، واعرف لكل ذي حق حقه، ونزل الناس على قدر منازلهم، وفرق بين أهل الفتنة وغيرهم، لئلا يؤاخذ البريء، بما فعل الجاني، والسلام». ورد نص الرسالة عند: محمد بن عبد العزيز الثعالبي الجزائري، **تنبيه الألباب ليحذروا من تدليس لو كس الكذاب**، مخ.خ.ح. رقم: ٥٣٤٨، ص: ٣٥-٣٧، عبد الله المرابط الترغي، «تطوان في بداية دولة العلويين محاولة عرض ودراسة لرسالة إسماعيلية دفينية»، **تطوان خلال القرنين ١٦ و١٧م**، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عبد المالك السعدي، تطوان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٦١٨٧.

(21) Cornet, Anne-Marie **ouvrage cité**, p246

(٢٢) المريني، الريفيون في تطوان مرجع سابق، ٢٠١٢م، ص: ٩٠.

ابن عابد الوكيل ورحلته جوانب من سيرته وتاريخ شرق المغرب الأقصى في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي

د. رابحي رضوان

دكتوراه في تخصص التاريخ الوسيط
أستاذ الثانوي التأهيلي
وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي – المملكة المغربية



مُلخَص

تزرع منطقة المغرب الشرقي بالعديد من "العلماء" الذين أسهموا في نهضتها العلمية، غير أن أسماء بعضهم طُمست، وطواها النسيان. من بين هذه القامات العلمية التي لم تحظ بها تستحقه من اهتمام علمي، يبرز الفقيه المتصوف الرحالة يوسف بن عابد الوكيل الأنكادي، الذي يمثل نموذجاً للعلماء الذين جمعوا بين شغف البحث عن العلم والمعرفة، وحب الترحال والسياسة الصوفية، من خلال رحلته من المغرب إلى حضر موت. من هذا المنطلق، تروم هذه الدراسة التعريف بشخصية يوسف بن عابد، ومؤلفاته، ورحلته داخل المغرب وخارجه، نهاية القرن السادس عشر الميلادي، وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مع إبراز الإمكانيات التي يتيحها مؤلفه "رحلة ابن عابد" فيما يتعلق بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديني لمنطقة شرق المغرب. كما تهدف إلى تحليل موضوعات وقضايا مختارة من مؤلفه، من خلال الوقوف عند ما يقدمه من معطيات مهمة حول تاريخ التصوف وأعلامه، والكرامات الصوفية، ودور المرأة الصوفية بالمغرب. وتسعى هذه الدراسة، فضلاً عن التعريف بشخصية ابن عابد ورحلته، إلى إبراز القيمة العلمية لمؤلفه في إعادة تركيب ملامح الحياة الفكرية والروحية بالمغرب الأقصى في فترة دقيقة من تاريخه. كما تُظهر كيف يمكن لنص رحلي أن يتحول إلى مصدر أساسي لفهم قضايا اجتماعية واقتصادية كبرى، مثل تأثير الأوبئة والمجاعات، أو أنماط العيش والترحال في شرق المغرب. ومن خلال تحليل إشارات إلى أعلام التصوف، ودور المرأة، والمعاناة المرتبطة بالسفر والتنقل، يقدم البحث قراءة تركيبية تساهم في إغناء الدراسات التاريخية، وتفتح المجال لمقاربات جديدة تستثمر أدب الرحلة في كتابة تاريخ الهامش والمجتمع المحلي.

كلمات مفتاحية:

النخبة المحلية؛ العائلات النافذة؛ السلطة الحضرية؛ الوساطة الاجتماعية؛
التاريخ الاجتماعي؛ السيرة الرمزية؛ السلطة المحلية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.415864.1263

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رابحي رضوان، "ابن عابد الوكيل ورحلته: جوانب من سيرته وتاريخ شرق المغرب الأقصى في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦. ص ٩٣ - ١٠٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: nadinadi1980nadi@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

يشكّل أدب الرحلة أحد أهم المصادر التي تُسهم في الكشف عن التاريخ الاجتماعي والثقافي والديني للمغرب خلال الفترات الوسيطة والحديثة المبكرة. وإذا كانت رحلات أعلام كبار من أمثال ابن بطوطة أو الحسن الوزان قد حظيت باهتمام واسع، فإن هناك نصوصاً رحلية مغمورة لم تزل نصيبها من الدراسة والتحليل، رغم قيمتها الوثائقية البارزة. ومن بين هذه النصوص تبرز "رحلة يوسف بن عابد الوكيل الأنكادي" (ت. ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)، التي تجمع بين السيرة الذاتية والرحلة الصوفية، وتوفر مادة ثرية لفهم ملامح الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في شرق المغرب الأقصى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

تتبع أهمية دراسة ابن عابد ورحلته من كونها تمثل شهادة مباشرة عن تجربة عالم وفقه وصوفي رحّالة، ارتحل بين أهم الحواضر المغربية والمشرقية، ودوّن مشاهداته حول التصوف والكرامات، وأوضاع المجتمعات المحلية، وظواهر الأوبئة والمجاعات، فضلاً عن إشارات الدقيقة إلى الموارد الطبيعية وأنماط العيش في موطنه الأصلي. وهو ما يجعل هذا النص الرحلي مصدراً مركباً يمكن توظيفه في كتابة التاريخ من زوايا متعددة: تاريخ التصوف والزوايا، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، والتاريخ المحلي لشرق المغرب.

تسعى هذه الدراسة إلى التعريف بشخصية يوسف بن عابد الوكيل، وتبسيط الضوء على أبرز ملامح سيرته العلمية والرحلية، وتحليل أهم القضايا والموضوعات التي عالجها في رحلته، مع إبراز قيمتها في توثيق جوانب من التاريخ المغربي خلال المرحلة المدروسة. ولتحقيق ذلك، اعتمدت الدراسة منهج تحليل النص الرحلي ومقارنته بالمصادر التاريخية المتاحة، قصد الوقوف على خصوصياته ومكامن فرادته. تتوزع هذه الدراسة على محورين أساسيين: أولهما تقديم ترجمة موجزة لابن عابد ومؤلفاته ورحلاته، وثانيهما تحليل موضوعات مختارة من رحلته، تتعلق بالتجربة الصوفية، حضور المرأة في المجال الديني، تحديات السفر والتنقل،

وجوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بشرق المغرب.

أولاً: ترجمة ابن عابد

١/١- اسمه، نسبه، مولده ونشأته، تعليمه

وشيوخه

تجدر الإشارة في البداية إلى أننا أمام "علم مغمور" لم ترد عنه أي معلومات في المصادر، باستثناء ما كتبه هو عن نفسه^(١)، كما أنه لم يأخذ حيزاً كافياً في الدراسات التاريخية^(٢). إنه الفقيه والمتصوف يوسف بن عابد الحسني الوكيل الأنكادي الفاسي؛ يعود نسبه إلى الشرفاء الحسنيين، وينتمي إلى قبيلة بني وكيل تحديداً^(٣)، ويتضح من خلال الإشارات الطوبونيمية المتعلقة بمسقط رأسه أن الأمر يتعلق بمجموعة بني وكيل ضاحية العيون سيدي ملوك، ففي معرض حديثه عن أسرته ونشأته، يشير ابن عابد إلى نقل رفات والده من مقبرة في "متليلي" غرب عيون سيدي ملوك، إلى مقبرة حول منطقة "يقور" شرقها^(٤). يُعرف أيضاً بلقب "الأنكادي" نسبة إلى مسقط رأسه "أنكاد" شرق المغرب الأقصى، التي وُلِدَ بها في منطقة الفيضة سنة (٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م) أو (٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م). أما سبب شهرته بلقب "الفاسي" أكثر من غيره من الألقاب، فيوضحه ابن عابد نفسه بقوله: "غلب علي اسم الفاسي لأجل الإقامة في مدينة فاس، ولأنها دار آبائنا الأدارسة"^(٥).

نشأ ابن عابد في بيئة دينية كان لها أثر بالغ في تكوينه العلمي والديني، فقد تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه بأنكاد، في كنف أسرة اشتهرت بالصلاح والتقوى، وكانت لها مكانة رمزية واجتماعية بفضل نسبها الشريف. وقد تتلمذ على يد والده في البداية، إلى أن توفي الوالد، ويوسف لم يتجاوز العاشرة من عمره^(٦). بعد ذلك، واصل دراسته بمدينة وجدة، حيث أخذ العلم عن العالم والفقيه موسى الوجدي الذي درّس بوجوده قبل أن ينتقل إلى التدريس بالمدرسة المصباحية في فاس^(٧).

سرعان ما رحل ابن عابد عن مسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته باحثاً عن العلم، حيث انتقل سنة (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م) إلى فاس، التي كانت آنذاك مركزاً للعلم، باحتضانها لعدد من المدارس العريقة. ارتاد ابن

٢/١- مؤلفات ابن عابد

(٢/١) ١- مؤلفه: رحلة ابن عابد

يُعدّ كتاب "رحلة ابن عابد من المغرب إلى حضر موت" ^(١٣)، أبرز مؤلفات يوسف بن عابد وأكثرها شهرة، يغطي مضمونه والأحداث التي يقدمها حوالي نصف قرن، من سنة (٩٨٣هـ / ١٥٧٦م) إلى سنة (١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م) ^(١٤). وهو عبارة عن كتاب يجمع بين السيرة الذاتية والرحلة، وقد "ظل مجهولاً، كمؤلفه، في المغرب، وربما في المشرق" ^(١٥)، إلى أن عثر على مخطوطه "في مكتبة الجامع الكبير ببلدة تريم بأعلى وادي حضر موت" ^(١٦). يكتسي الكتاب أهمية خاصة، بحكم "أنه لم يكرر ما عني معاصروه بذكره في مؤلفاتهم من أخبار البلاط ورجاله وسياسة الدولة" ^(١٧)، بل قدم فيه ابن عابد معطيات جديدة تتعلق بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديني للمناطق التي زارها أو استقر بها، تخللت عرضه لسيرته الذاتية وتوثيقه لرحلته الصوفية. إذا كانت رحلة ابن عابد خرجت من رفوف المخطوطات إلى المطبوعات، فأصبحت متاحة بالنسبة للباحثين والقراء، فإن هناك مؤلفات أخرى لا تزال مفقودة ولم تُنشر بعد، مما يجعلها في عداد التراث المفقود الذي يصعب الوصول إليه.

(٢/١) ٢- مؤلفاته "في عداد المفقود"

يذكر ابن عابد أن له مؤلفين آخرين، إلى جانب "الرحلة"، وهما:

"الدرة الفاخرة في ذكر من لقيته من رجال الآخرة"، ذكره ابن عابد في كتابه "الرحلة" ^(١٨)، ويشير أمين الطيبي محقق طبعة سنة ١٩٨٨ من الكتاب إلى توفره على نسخة مصورة من المخطوط. كما أورد محققاً طبعة سنة ١٩٩٣م من الكتاب فقرات منه في مقدمة التحقيق.

"لبس الخرقه"، أشار إليه ابن عابد في معرض حديثه عن كرامات الشيخ محمد أبو الشتاء ^(١٩)، عن أخطار الطريق بين مكناس وتافيلالت، ويظهر أنه كتاب أفرد للكرامات ولبس الخرقه الذي يُعد طقساً من طقوس العبور الواسعة الانتشار في الممارسة الصوفية، وترمز إلى الولاية الصوفية ^(٢٠).

عابد جامع القرويين، إضافة إلى جامع الأندلس والمدرسة المصباحية. في هذه المدارس، بدأ ابن عابد بحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى دراسة المتون الدينية واللغوية المعروفة في عصره ^(٨). من بين الكتب التي درسها: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهو من أهم كتب الفقه المالكي في بلاد المغرب، والأجرومية لابن آجروم، وشرح المكوذي لألفية ابن مالك. كما تلقى رسالة ابن أبي زيد القيرواني على يد الشيخ ابن عبد المنعم الزموري، ودرس شرح بردة البوصيري ^(٩).

علاوة على اهتمامه بالعلوم الشرعية واللغوية، كان لابن عابد انشغال بعلم الحساب وعلم المواقيت وعلم النجوم، حيث خصص جزءاً من وقته لدراستها. وقد تبين ذلك من دراسته لكتاب "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار" لمؤلفه عبد الرحمن الجاديري المتوفى سنة (٨١٨هـ / ١٤١٥م)، مما يبين حرصه على اكتساب مختلف العلوم والمعارف. بالنظر إلى الموقف السلبي للفقهاء من هذه العلوم، وتحذيرهم منها، فقد كان ابن عابد مضطراً لتبرير اهتمامه بها، بحاجته الملحة إليها في معرفة الوقت وتحديد اتجاه القبلة ^(١٠).

إلى جانب مدينة فاس، شكّلت مكناس محطة علمية بارزة في المسار التعليمي لابن عابد، حيث تلقى دروسه على يد الشيخ أحمد القناوي إمام جامع النجارين. وكان دأب ابن عابد أن يختم كل مرحلة من مراحل تحصيله العلمي بالحصول على إجازة من شيوخه ^(١١). ولم تقتصر رحلته إلى المشرق على طلب العلم فحسب، بل كانت أيضاً رحلة بحث عن الصلاح والتزكية الروحية، إذ كانت الفضاءات التي حلّ بها، محطات للعلم، واللقاءات مع شيوخ التصوف، "يتشوف" من خلالها للقاء الشيخ الذي يرشده ويأخذ بيده، في طريق التصوف. لا شك أن ملازمة ابن عابد لمجالس العلم في المغرب، واشتغاله بالمتون اللغوية والفقهية قراءة ودراسةً في أبرز الحواضر العلمية آنذاك، قد مكنته من تحصيل علمي واسع. ويشهد على ذلك تعدد شيوخه، وكثرة إجازاته العلمية التي حازها. وهو ما يجعل الحكم الذي أصدره في حقه محقق كتابه، أمين الطيبي ^(١٢)، حكماً متسرعاً، لا يأخذ في الحسبان تنوع تكوين ابن عابد ومثاقفه.

٣/١-محطات رحلة ابن عابد

(٣/١) ١-رحلته في المغرب الأقصى

شكل المغرب، منذ العصر الوسيط، مجالاً مفتوحاً لاستقبال العلماء والفقهاء والمتصوفة، الذين ارتادوا مدنه ومراكزه العلمية، طلباً للعلم، أو سعياً إلى نشره، أو رغبة في التواصل مع الزوايا الصوفية. وقد ارتبطت هذه الدينامية العلمية والروحية، بظاهرة الرحلة الصوفية التي عرفت منذ العصر المريني ازدهاراً كبيراً في ظل "هيمنة روح التصوف وسيادتها على مختلف المستويات"^(٢١)، الشيء الذي شجع المتصوفة على التنقل بين الحواضر والبوادي، قصد التلمذة والأخذ عن الشيوخ، وزيارة الأولياء والأضرحة. في هذا السياق، تندرج رحلة ابن عابد الذي انطلق من منطقة أنكاد شرق المغرب، مروراً عبر عدة مدن مثل وفاس، مكناس، سلا، ومراكش، التي كانت مراكز علمية وصوفية بارزة خلال الفترة المدروسة. لم تقتصر رحلته على هذه المدن فحسب، بل شملت أيضاً مناطق الجنوب مثل درعة وسوس والساقية الحمراء، إضافة إلى واحات الجنوب الشرقي، خاصة تافيلالت وفكيك^(٢٢).

كان لهذه الرحلة أثر بالغ في إثراء معارف ابن عابد، إذ أتاح له تنقله بين الحواضر العلمية والزوايا الصوفية فرصة حضور مجالس الدرس والمناظرة، واللقاء بكبار الفقهاء والشيوخ الذين عاصروهم، وقد تركت هذه اللقاءات أثراً في نفسه، فأسهمت في تكوين شخصيته التي تأثرت بتيارات وأفكار عصره، خاصة الطريقة الشاذلية.

(٣/١) ٢-رحلاته خارج المغرب الأقصى

بعد فترة من السياحة الصوفية في عدد من مناطق المغرب، عزم ابن عابد على التوجه إلى المشرق، استمراراً لمسيرته في طلب العلم. وقد عبر عن دوافع خروجه من بلاده بقوله: "ما خرجت من بلاد أبي وبلاد آبائي إلا للفتقه في الدين، وأخذ القرآن العظيم، والتماس مجالس العلماء والأولياء"^(٢٣)، وهو تصريح يكشف عن دافع علمي - روحي، يجمع بين طلب المعرفة الشرعية، والاغتراف من معين أهل الصلاح.

من فكيك عبر ابن عابد الصحراء^(٢٤) إلى خارج المغرب الأقصى من خلال المحطات الآتية: - قابس - جربة - طرابلس الغرب - مصراتة - القاهرة - المدينة المنورة - مكة المكرمة (أدى فريضة الحج للمرة الأولى عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م) - جدة - جازان - عينات - تريم - حضرموت - مريمة. على غرار تنقلاته السابقة داخل المغرب، كانت رحلة ابن عابد إلى المشرق خطوة مهمة مكنته من الارتواء من مجالس العلم، والسير على خطى الصالحين، فقد التقى بعدد من شيوخ التصوف في البلدان التي زارها^(٢٥) في طريقه إلى حضرموت في اليمن، حيث التقى بشيخه ومربيه المتصوف الحضرمي البارز أبو بكر بن سالم (توفي سنة ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤م)، الذي ترك أثراً بالغاً في مسيرته الروحية والعلمية.

(٣/١) ٣-استقرار ابن عابد في حضر موت،

وفاته

توجّه ابن عابد إلى حضرموت قاصداً زيارة الشيخ "أبو بكر بن سالم"، الذي توفي بعد سنة واحدة من وصول ابن عابد إليه^(٢٦). وبعد وفاة الشيخ، خلفه ابن عابد في التدريس، وكان أبو بكر، قيد حياته، يقول: "اقرأوا علم التوحيد على يوسف، لأن أرض حضرموت خالية من علم التوحيد"^(٢٧). بعد حياة حافلة بالرحلات جاب خلالها ابن عابد مناطق واسعة من العالم الإسلامي، استقر به المقام في قرية مريمة في حضرموت، حيث اشتغل بالتدريس وتزوج وأنجب. وفيها أتم سيرة وأخبار رحلته سنة (١٠٣٦ هـ/١٦٢٧م)^(٢٨). وبعد وفاته سنة (١٠٤٨ هـ/١٦٣٨م) في القرية المذكورة، تم بناء قبة على ضريحه، الذي يحتضن، إلى اليوم، أنشطة وفعاليات صوفية تكريماً له ولإرثه العلمي والديني.

ثانياً: تحليل موضوعات وقضايا مختارة من

مؤلفه "رحلة ابن عابد"

١/٢-ملامح التجربة الصوفية في نص ابن

عابد

يُعدُّ كتاب "رحلة ابن عابد" من المصادر المهمة التي تعكس جوانب من واقع التصوف بين الربع الأخير من

كرامة طي المسافات: ينسب إلى الشيخ محمد البكري في مصر قدرة خارقة على اختصار المسافات^(٣٩)، وهي كرامة ترتبط بالإسراء والمعراج. كما تحمل بعداً رمزياً يتجلى في التحرر من قيود الزمان والمكان. وفيها أيضاً نوع من التحدي الرمزي للصعوبات التي كان الصوفيون وعامة الناس يواجهونها في تنقلاتهم.

كرامة الاستسقاء: ينقل عن عبد الله بن أحمد^(٤٠) قدرته على الاستسقاء عند لقاء السلطان، حيث استطاع جلب المطر ببركته^(٤١). ويظهر أن المتصوف محمد أبو الشتاء حمل هذا اللقب لأنه كان "متخصصاً" في هذه الكرامة^(٤٢). يمكن تفسير "الحاجة" إلى هذه الكرامة باتساع رقعة الجفاف واشتداد القحط.

كرامة الحمل: يورد ابن عابد رواية يصف فيها تدخله لمساعدة امرأة عاقر، على الحمل، رغم مرور عشر سنوات على زواجها دون إنجاب. وقد صرّح قائلاً: "فضربتُ على ظهرها ثلاث ضربات بنية الحمل، فحملت بإذن الله تعالى، فجاءت بولدين وبنت"^(٤٣). تعكس الرواية إيماناً شعبياً بكرامات الأولياء في مسائل الإنجاب والخصوبة.

رؤية الخضر وإلياس والأولياء الموتى: يسجل المؤلف كرامات مرتبطة بالخضر عليه السلام، كما يناقش مسألة حياته أو موته، وهو موضوع شغل العديد من الصوفية^(٤٤). يقدم ابن عابد يظهر كل من الخضر والنبي إلياس وروح الشيخ الجزولي^(٤٥) في زيارة للشيخ يوسف الدادسي في معتكفه قرب مكناس بحضور ابن عابد^(٤٦). رؤية الخضر غير ممكنة بالنسبة للبشر العاديين، لذلك، فهي تعد علامة على الولاية الصوفية^(٤٧). وهي تقترن في كثير من الأحياء برؤية النبي إلياس وأنبياء آخرين. أما رؤية "روح الجزولي" فتدل على مكانة هذا المتصوف والانتشار الواسع الذي لاقتته "الجزولية" حتى بعد مقتل الجزولي. من بين خصوصيات العمل الصوفي الواردة في الكتاب القول بنيل بركة الخضر عن طريق الأخذ باليد أو المصافحة، يقول ابن عابد: "أخذت اليد من الشيخ أحمد السياح نزيل فاس، وهو أخذ عن شيخه الشيخ سعيد بن أبي

القرن السادس عشر الميلادي، والربع الأول من القرن السابع عشر الميلادي. يتناول الكتاب تجارب السفر والمشاهدات التي سجلها ابن عابد خلال رحلاته، مما يجعله وثيقة تاريخية تتيح استكشاف عوالم التصوف في المجتمع المغربي والعربي خلال الفترة المذكورة. في هذا الإطار، يكتسي الكتاب أهمية قصوى بالنسبة إلى التأريخ لأحد رجالات التصوف في الساقية الحمراء بالصحراء المغربية، فهو "أقدم مصدر تاريخي يذكر الشيخ أحمد العروسي"^(٢٩). يشير ابن عابد في روايته إلى أنه قرر زيارة الشيخ العروسي بعد تردد. ثم بدأ رحلته التي واجه خلالها صعوبات كبيرة في اتجاه وادي الساقية الحمراء^(٣٠)، وجاوره لمدة خمسة عشر يوماً^(٣١). وبالمثل، يستعرض ابن عابد في مؤلفه شروط التعبد عند المتصوفة، و"كيفية الاستعداد من لباس ومكان ومن الروائح الطيبة اللائقة"^(٣٢)، فاللباس يجب أن يكون بسيطاً مصنوعاً من "كساء الصوف لأنه لباس الصوفية وأقل ثمناً"^(٣٣) يدل على الزهد والتجرد من ملذات الحياة الدنيا، والمكان يجب أن يكون "خالياً من العماثر لأجل الخلوات للذكر"^(٣٤) لما في ذلك من استجلاب للخشوع والسكينة. إلى جانب الروائح الطيبة و"الدعاء اللائق باسم الجلالة"^(٣٥). من أجل تحقيق الشروط المذكورة، يأتي ابن عابد على ذكر ما كان يعتمد المتصوفة من أدوات، كالْعُكَّاز أو العصا، والمسبحة التي يستعان بها على دوام الذكر، فضلاً عن الكوفية (غطاء الرأس)^(٣٦)، والبرنوس^(٣٧)، وهي من علامات أهل الصوفية، ودلالات الفقر والتجرد من زخارف الدنيا.

في معرض سرده لرحلته الصوفية، يخصص ابن عابد جزءاً كبيراً من رحلته لنقل أخبار الكرامات الصوفية التي "شهدها" أو سمع بها، والتي تحاكي في كثير من الأحيان معجزات الأنبياء. ومن بين أبرز هذه الكراما، نذكر:

كرامة النجاة من النار: يروي عن يوسف الدادسي قصة إلقائه في النار وخروجه منها سالماً^(٣٨)، وهو ما يحاكي معجزة النبي إبراهيم عليه السلام. وتحمل هذه الكرامة في دلالاتها الصوفية معان تتعلق بحسن مصير الولي المذكور ونجاته من النار.

الشخصية، قد يكون مرتبطاً بتغير ظروف حياته من التنقل إلى الاستقرار.

كما يشير المؤلف إلى امرأتين من الولايات التقاهما بالمغرب الأقصى: الأولى تدعى عائشة الهبطية، وتنتمي إلى بلاد الهبط بالشمال الغربي، ويذكر أنه "أخذ عنها"^(٥٦) أي تعلم منها. أما الثانية فلم يفصح عن اسمها، واكتفى بوصفها بأنها امرأة صالحة "عجوز"، صادفها في الجنوب الشرقي، وجرى بينهما تبادل للدعاء^(٥٧). وفي سياق مشابه، يروي لقاءه بامرأة داخل مسجد في ساحل سوس، حيث يبدي حرصاً أخلاقياً واضحاً، إذ يتجنب البقاء معها على انفراد داخل المسجد^(٥٨)، وهو يكشف عن وعيه بأداب التعامل في "الأماكن المقدسة"، واحترامه للمرأة.

وبالمثل، يذكر ابن عابد أنه التقى جارية في مكناس كانت تتولى تنظيم دخول الزوار إلى الشيخ موسى بن علي، وقد أدخلته بنفسها^(٥٩)، وهو ما يدل على مشاركة النساء، في مهام مرتبطة بالوسط الصوفي، ويُلح في الآن ذاته إلى استمرار وجود الجواري في المجتمع المغربي خلال الفترة المدروسة.^(٦٠) ويُسجل أيضاً واقعة تتعلق بامرأة عاقر نالت، حسب الرواية، بركة يوسف بن عابد نفسه^(٦١)، وهو ما يُحيل على حصول المؤلف على الولاية من جهة، وعلى الاعتقاد بدور الكرامة في علاج مشكلة العقم، في ظل محدودية الوسائل الطبية وغلبة الطب التقليدي.

يتضح من هذه الإشارات أن حضور المرأة، وإن لم يكن محورياً في نص ابن عابد، فإنه حضور مكثف في دلالاته، متنوع في سياقاته، ويتجسد في إطار تقليدي وديني. فهي تظهر في أدوار عائلية ودينية، حيث تبرز في علاقاتها الأسرية كأم وزوجة وقريبة، فضلاً عن حضورها في الوسط الصوفي بوصفها ولية صالحة، أو بأدائها لأدوار محددة.

٣/٢- المعاناة أثناء السفر والتحديات الجغرافية

يتطرق ابن عابد إلى الدور المهم الذي كانت تؤديه المطايا والدواب^(٦٢) كالخيل والإبل والحمير في هذه الرحلات، فقد ظلت الوسيلة الأساس التي كانت "تشتغل

بكر، وهو أخذ عن هذا الشيخ أحمد بن موسى المذكور، والشيخ أحمد بن موسى أخذ عن الخضر"^(٤٨).

التنافس على احتضان رفات "الصلحاء" من الأموات: يعرض رواية بشأن صراع القبائل على قبر جده عيسى أبي الوكيل، حيث تم نبشه ثلاث مرات، وادعت كل قبيلة أنها وجدت جسده في القبر الذي نُقل إليه^(٤٩). ويظهر هذا التسابق نحو احتضان عظام الأولياء الموتى إيماناً عميقاً ببركاتهم وقدراتهم على التأثير في الأحياء ومساعدتهم في حياتهم اليومية، حتى بعد مماتهم^(٥٠).

يتبين من خلال كتاب "رحلة ابن عابد" أن مؤلفه يوسف بن عابد كان ملماً بالطرق الصوفية، وبأعلامها، وبالممارسات الروحية السائدة في عصره. وبعد رحلته في المغرب ولقاءاته المتعددة مع شيوخ التصوف في مختلف المناطق، خلص إلى أن الطريقة الجزولية الشاذلية^(٥١) كانت الغالبة في البلاد، حيث عبر عن ذلك بقوله: "فأكثر الفقراء اليوم في زماننا هذا في المغرب تغلب عليهم طريقة الشاذلية"^(٥٢).

٢/٢- المرأة في المجال الصوفي من خلال رحلة ابن عابد

تحضر المرأة في المتن الرحلي لابن عابد من خلال إشارات متفرقة ونادرة، لكنها ذات دلالات تاريخية، واجتماعية، وروحية مهمة، تعكس مكانة المرأة في الحياة اليومية والدينية بالمغرب خلال الفترة موضوع الدراسة. ويبيدي المؤلف اهتماماً خاصاً بالروابط العائلية من جهة الأم، حيث يورد أسماء وقبائل عدد من قريباته. كما يورد زيارته لقبر والدته^(٥٣)، وهي لحظة وجدانية خاصة تعبر عن الوفاء والبر. وفي جانب من سيرته الذاتية، يكشف ابن عابد عن رفضه الزواج في بداية مقامه بحضر موت، بسبب عدم قدرته على توفير الحقوق التي يوجبها الشرع للزوجة على زوجها^(٥٤)، وهو موقف يعكس وعياً دينياً من جهة، وتقديراً اجتماعياً للمرأة بوصفها شريكة ذات حقوق من جهة أخرى. لكن ابن عابد يذكر لاحقاً قوله: "وكان الذي تزوجت بحضر موت جماعة من النساء، نحو سبع"^(٥٥)، مما يُظهر تحولاً في اختياراته

بالاختصار، فقد اكتفى بإشارات عامة مقتضبة. ومن أهم ما سجله في رحلته، نذكر:

الحروب بين القبائل: يقدم الكتاب معطيات فريدة عن إحدى الحروب التي صادفها في ضواحي فكيك^(٧١)، كما يروي الكتاب تفاصيل النزاع بين أولاد طلحة بن يعقوب وأولاد موسى بن طلحة، وكذلك الصراعات بين أولاد عيسى وأولاد زين^(٧٢)، مما يعكس استمرار التوترات في المنطقة حتى بعد نهاية الصراع بين بني زيان في تلمسان وبني مرين في فاس المريني من أجل السيطرة على مجالات النفوذ.

الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها: يعرض المؤلف معطيات تبين تأثير الأوبئة على الجوانب الديموغرافية، من خلال إسهامها في نزوح السكان. وفي هذا السياق، يقدم شهادة حيّة عن وباء مدمر اجتاحت منطقة أنكاد في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكان من ضحايا هذا الوباء أفراد من عائلته، إذ تسببت في وفاة والدته وإخوته وأكثر من عشرين شخصا من أقاربه^(٧٣)، كما يؤثّق مجاعة كبرى وقعت في الفترة ذاتها، نجمت عن رياح عاتية^(٧٤) وهو تسبب في معاناة شديدة للسكان، وإلى نزوح جماعي نحو فاس وضواحيها.

معطيات اقتصادية فريدة: ينفرد ابن عابد بعرض معطيات اقتصادية تاريخية مهمة حول شرق المغرب الأقصى، حيث يشير إلى مواطن بعض الثروات المعدنية كما هو الشأن بالنسبة إلى معدن الحديد في بطيوة شمال شرق المغرب^(٧٥). ويبرز جوانب من أنماط العيش التقليدية مثل الرعي والترحال الذي كان منتشرا في أنكاد، موضحا ذلك، بقوله: "كل شيخ يحمل على إبله قوت قبيلته... وينجعون إلى جهات في أيام وأشهر معلومة عندهم في السنة."^(٧٦) كما يقدم وصفا دقيقا لأهمية النشاط الفلاحي في المنطقة، مؤكدا على دور الزراعة البورية وتربية الحيوانات كالخيل والأبل والغنم في أنكاد^(٧٧)، إلى جانب الزراعة المسقية التي تعتمد على مياه العيون والأنهار، وهو ما يوضحه الجدول الآتي:

بالأسفار^(٧٨) وقطع المسافات الطويلة رغم ما كان يعتري استخدامهما من عناء ومشقة وخوف من التعرض للأذى، أو التيه في الصحراء، لذلك كانت تتم الاستعانة أحيانا بدليل أو مرافق^(٧٩) يرشد المسافرين إلى وجهاتهم. إلى جانب النقل البري، وظفت المراكب في بعض الرحلات، كما هو الشأن بالنسبة إلى التنقل من وإلى جربة^(٨٠)، وإلى الرحلة بين سواحل إفريقية وبرقة، رغم ما كانت تتطوي عليه من خطر الغرق، الذي يوازي في شدته ما يواجهه المسافر من أخطار في الطريق البري، مما جعل كل اختيار لسبيل أو طريق معين أمرا صعبا. يوظف ابن عابد في وصفه لهذا الموقف مثلاً شعبياً مغاربياً يقول: طريق برقة، يا إما غرقه إن سرت في البحر، وإلا برقة إن سرت في البر^(٨١)، أي أن المسافر يكون أمام خيارين أحلاهما مر.

تكشف رحلة ابن عابد عن شدة ما كان يعانيه المسافرون بالمغرب خلال الفترة المدروسة من صعاب وعقبات جمّة، إذ يسجل في كتابه وصفا دقيقا للمعوقات الطبيعية والجغرافية التي اعترضت سبيله أثناء تنقله. وقد أشار إلى ما لاقاه من مشقة في عبور الأودية لوعورتها، وما كابده من برد شديد في فصل الشتاء^(٨٢)، إلى جانب ما عاناه من عطش في أيام القَيْظ^(٨٣)، لا سيما في وادي درعة، حيث اشتد به الجوع بعد نفاذ الزاد، حتى اضطر هو ورفاقه إلى أكل اليرابيع والضبوب والورر^(٨٤) للبقاء على قيد الحياة. علاوة على ما ذكره ابن عابد من صعاب الطريق ومشاق السفر، برا وبحرا، لم يغفل الإشارة إلى الحيوانات المفترسة، خاصة "الأسود الضواري التي تفرس الأدمي إذا وجدته"^(٨٥)، التي أشار إلى وجودها في معرض حديثه عن رحلته بين مكناس وتافيلالت، وما تشكله من تهديد مباشر حيث كانت تتربص بالقوافل وتفترس الأدميين إذا سنحت لها الفرصة.

٤/٢- جوانب من الحياة الاجتماعية

والاقتصادية والعلمية في شرق المغرب

يحرص ابن عابد على تدوين تفاصيل دقيقة في رحلته داخل المغرب الأقصى وخارجه، بيد أن ما يقدمه من معطيات حول شرق المغرب الأقصى يتسم

أسماء الأودية والأنهار والعيون	الجميل التي وظفها ابن عابد	الدلالات
عين الدفلة عيون ملوك	تسمى عين الدفلة والأخرى عين الحجر تسمى عيون ملوك...وما دريت السبب في هذه المياه التي في وطأ الأرض في جبل عيون تتفجر من الأرض... ^(٨٣) .	في مكان واحد ووفرة المياه في هذه العيون

أعلام فقهية وصوفية من شرق المغرب في نص ابن عابد: يُبرز ابن عابد في مؤلفه الحضور العلمي والديني المتميز لمنطقة شرق المغرب الأقصى خلال الفترة المدروسة، من خلال إشاراته المتعددة إلى أعلام فقهية بارزة نشأت أو عاشت في هذه المنطقة. ويعد هذا التوثيق من ابن عابد دليلاً على ازدهار الحياة العلمية فيها. ومن بين هؤلاء نجد الفقيه موسى الوجدي^(٨٤)، وهو أحد الشيوخ الذين تتلمذ ابن عابد على أيديهم كما سبقت الإشارة. كما يشير إلى الشيخ عبد الرحمان الفكيكي^(٨٥)، هذا الصوفي الذي وصفه بعبارة: "شيخ شيوخ" وزار قبره ضواحي فكيك^(٨٦). ويضاف إلى ذلك اسم الشيخ عبد القادر الحمياني شرق فكيك^(٨٧)، والشيخ عمر البطوي من بطيوة^(٨٨) في الشمال الشرقي. على الرغم من كون الإشارات التي يقدمها ابن عابد حول الحركة العلمية بشرق المغرب مقتضبة، فإنها تكتسي أهمية بالغة، لأنها تدل على وجود نخبة من العلماء والفهاء والمتصوفة، كان لها أثرها في توجيه الحياة الدينية والاجتماعية، وتُسهم في رسم صورة أولية عن المشهد العلمي المنطقة.

أسماء الأودية والأنهار والعيون	الجميل التي وظفها ابن عابد	الدلالات
وادي مطروح	"مكان مزارع...وهو العمدة في أودية الفيضة" ^(٧٨) (مسقط رأس المؤلف)	يعبر عن الخصوبة والأهمية الزراعية
وادي زا	"فيه عمائر كثيرة" ^(٧٩)	يدل على التمدن والعمران، مما يعكس الاستقرار البشري على ضفافه
وادي إيسلي	"والماء الذي يشربون منه غيل يسمى إيسلي" ^(٨٠)	يشير إلى جريان مياه الوادي التي يعتمد عليها السكان للشرب
نهر ملوية	"نهر كبير...عليه قرى وعمائر ومزارع" ^(٨١)	يرمز إلى الاتساع والخصوبة، ودوره الحيوي في نشوء التجمعات السكانية والزراعة في المنطقة
وادي فكيك	"وادي نخيل...كثير" ^(٨٢)	يدل على وفرة النخيل وانتشار نمط الإنتاج الواحي.
عين تامة عين الحجر	"مكان يسمى عين تامة وهي عين	يدل على تعدد عيون المياه

خاتمة

في ختام هذا العمل، يتضح أن ابن عابد الأنكادي لم يكن مجرد رحالة عابر، بل كان من الأعلام البارزين من أبناء المنطقة الشرقية الذين جمعوا بين الرحلة، والبحث عن العلم والصلاح في الآن نفسه، وتركوا أثراً داخل المغرب وخارجه. تشهد على ذلك إسهاماته في التعريف بالحركة الصوفية وروادها، وبمسقط رأسه وبلده من خلال مؤلفاته، خاصة رحلته.

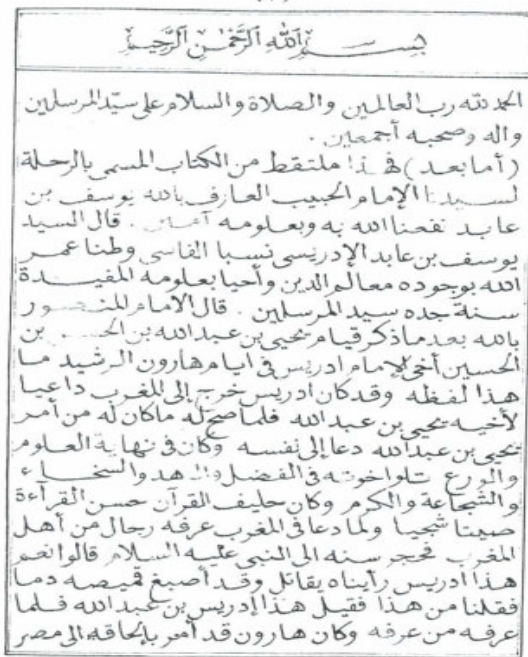
يتبين أن كتاب "رحلة ابن عابد من المغرب إلى حضرموت" يمثل مصدراً تاريخياً لا غنى عنه في فهم تطور التصوف في المغرب، وفي البلدان التي زارها، خلال نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. ويتميز الكتاب بتقديمه لمعطيات ثمينة عن المحطات المختلفة التي مر بها خلال رحلته الطويلة، وبتوثيقه للعديد من الأعلام والكرامات الصوفية، مقدماً معطيات تاريخية فريدة تتعلق بعضها بالمغرب الشرقي.

إن ما أنجز من أعمال تعريفية بأعلام المنطقة مثل يوسف بن عابد، وبتاريخها، خاصة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي يظل محدوداً إذا ما قورن بالإنتاج في مجالات جغرافية مغربية أخرى، خاصة في الفترة السابقة للقرن التاسع عشر الميلادي. وعليه، فإن تسليط الضوء على هذا المتصوف وإسهاماته يمكن أن يشكل خطوة أولى تفتح آفاقاً جديدة للبحث في تاريخ المنطقة الشرقية والتعريف بأعلامها.

الملاحق

صفحات من مخطوط "رحلة السيد يوسف بن عابد الحسني" في ملكية "وقفية الأمير غازي للفكر القرآني"، من ١٢٤ صفحة، كُتب في آخرها: في سلخ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ،

الصفحة الأولى من المخطوط



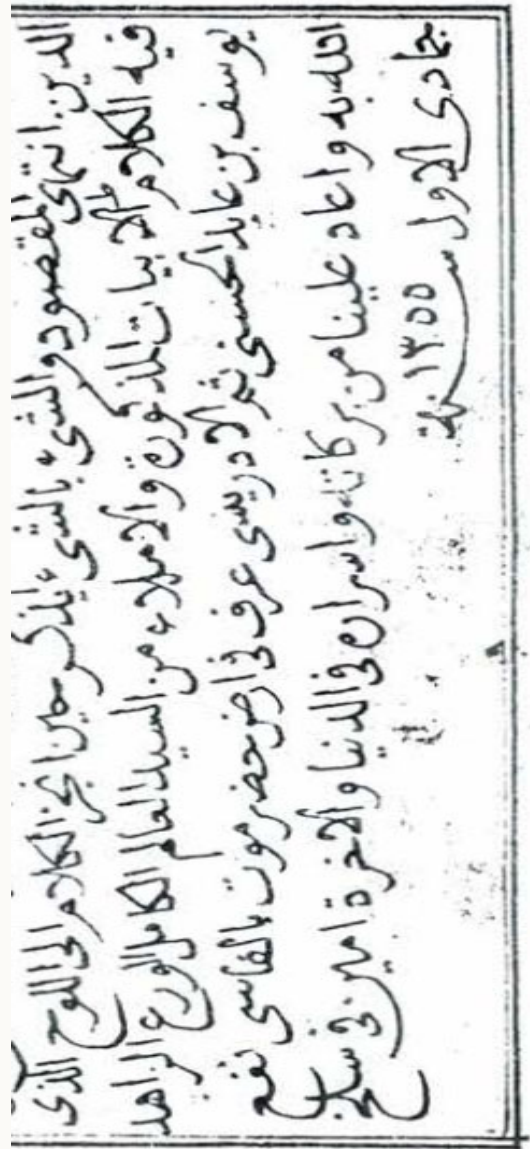
الصفحة ١٧ من المخطوط حول مسقط رأس ابن عابد



الإحالات المرجعية:

الفقرة الأخيرة من الصفحة الأخيرة من المخطوط، وفيها إشارة إلى

تقريباً ١٣٥٥ هجرية باعتبارها تقريبا إعادة كتابة المخطوط



(١) تستند المعلومات المتاحة عن ابن عابد حصرا إلى ما ذكره في مؤلفاته، خاصة رحلته التي صدرت لها طبعتان: إحداهما سنة ١٩٨٨، تحت عنوان: "ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضر موت"، من تحقيق وتقديم وتعليق، توفيق أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، والأخرى سنة ١٩٩٣، تحت عنوان: "رحلة ابن عابد الفاسي، من المغرب إلى حضر موت"، من تحقيق وتقديم، ابراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي، ط. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ونميز بين الطبعتين في هوامش هذا العمل، بتدوين الكلمتين الأوليين من عنوان الكتاب: ملتقط الرحلة (١٩٨٨) أو رحلة ابن عابد (١٩٩٣). ورغم القيمة العلمية للطبعتين، إلا أن القاسم المشترك بينهما هو وجود الأخطاء في كتابة أسماء الأماكن والأعلام. بعد العودة إلى نسخة مصورة من المخطوط الأصلي، المحفوظ ضمن وقفية الأمير غازي للفكر القرآني، والمكونة من 134 صفحة. كُتب في خاتمتها: ففي سلخ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ. تبين أن هذه الأخطاء موجودة في المخطوط نفسه، مما اقتضى التحري والتثبت بالعودة إلى مصادر أخرى، مع توظيف المعرفة الطبوغرافية، لتصحيح التسميات. من أمثلة هذه الأخطاء: جبال رباتة، ص. ١٠. (والصحيح: جبال زناتة). وحدة، ص. ٤٤ (والصحيح: وحدة). ابن عبد النعيم الزموري، ص. ٤٥ (والصحيح: ابن عبد المنعم الزموري)، الشيخ الحادي، ص. ٤٧، (والصحيح: الشيخ الحادي).

(٢) نذكر من هذه الدراسات: أمين الطيبي، "واقع المغرب في القرن ١٦م"، في مجلة العربي، العدد ٢٧٩، منشورات وزارة الإعلام، الكويت، فبراير ١٩٨٢، ص. ١٨١-١٨٢. ومحمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٣، ج. ١، ص. ١٥٥، ١٥٦. ومحمد حجي، "ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضر موت"، في مجلة أبعاد فكرية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ع. ١، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٣٩. ٤. وأعاد الكاتب نشر المقال في: كتابه، جولات تاريخية، دار الغرب الإسلامي، ط. ١، بيروت، ١٩٩٥، ج. ٢، ص. ٥٤٢-٥٤٤. وعبد الهادي التازي، "رحلة مغربي إلى حضر موت"، في مجلة المورد، العدد ١، بغداد، أبريل ١٩٩٣، ص. ١٩، ص. ١٩-٤٠. وعبد القادر زمامة، "رحلة غربية لشخص غريب"، في مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، ع ٣٣٤، ذو الحجة ١٤١٨هـ/أبريل ١٩٩٨م، ص. ٤. وبدر المقري، خطط المغرب الشرقي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة إيت، سلا، ٢٠٠٦، ص. ٢٦-٢٧.

(٣) لوي فوانو، وجدة والعمالة، مونوغرافية وجدة وقبائل شرق المغرب، تعريب محمد لغرايب، منشورات الرباط، ٢٠١٤، ج. ١، ص. ٢٢٠، ٢٢١. الشباني الإدريسي، الشرفاء الوكيلون أو البوكيليون، مصابيح البشرية في أبناء خير البرية، مطبعة النجاح الجديدة، ط. ١، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص. ١٨٢-١٨٥.

(٤) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ٢٦، ٢٨.

(٥) ابن عابد، م. ن، ص. ٣٤.

(٦) ابن عابد، م. ن، ص. ١.

(٧) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص ٥٩. ومارية دادي، مادة: موسى الوجدي، ضمن، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ٢٠٠٥، ج. ٢٢، ص ٧٥٦٣.

(٨) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ص. ٥٩. ٦٠.

(٩) ابن عابد، م. ن، ص ٦٠.

(١٠) ابن عابد، م. ن، ص. ص. ٦٠-٦١.

(١١) ابن عابد، م. ن، ص ٨٠، ص ٧.

(١٢) خرج أمين الطيبي بانطباع عام من خلال تحقيقه للمؤلف، مفادة أن ابن عابد لم يكن فقيهاً أو صوفياً من الطبقة الأولى، واستخلص، انطلاقاً من دراسته للغة التي كُتِب بها مؤلفه، إلى أنه لم يكن متمكناً من اللغة العربية، ابن عابد، ملتقط الرحلة (١٩٨٨)، م. س، ص ١٥. ويرى محمد حجي أن ضعف لغة ملتقط الرحلة من "جهل كُتِب الملتقط لا من قصور المؤلف، إذ أنه أملى رحلته ولم يكتبها بيده، محمد حجي، "صورة المجتمع المغربي في كتاب ملتقط الرحلة"، في، **جولت تاريخية**، م. س، ج. ٢، ص. ٥٤٤.

(١٣) سبقت الإشارة إلى أن الرحلة صدرت في طبعتين، سنتي ١٩٨٨ و١٩٩٣.

(١٤) أمين الطيبي، "واقع المغرب في القرن ١٦م"، م. س، ص. ١٨١.

(١٥) حجي، **جولت تاريخية**، م. س، ج. ٢، ص. ٥٤٢.

(١٦) ابن عابد، **ملتقط الرحلة** (١٩٨٨)، م. س، ص. ٣.

(١٧) محمد حجي، **جولت تاريخية**، م. س، ج. ٢، ص. ٥٤٤.

(١٨) أشار ابن عابد عدة مرات إلى العنوان الكامل لكتاب الدرّة الفاخرة، ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س، ص. ص. ٦١ و٩١.

(١٩) ابن عابد، م. ن، ص ٥٢.

(20) Yassir BENHIMA, "Le vêtement des soufis au Maroc médiéval d'après les sources hagiographiques", in **Al-Andalus Magreb**, N, 13, 2006, p. 12.

(٢١) الحسن الشاهدي، **أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني**، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٠، ج. ٢، ص. ٣١٧.

(٢٢) وفقاً لما أورده كل من إبراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي محققاً طبعة ١٩٩٣ من كتاب الرحلة، أفقد زار ابن عابد مدينة سبتة حيث التقى جماعة من العلماء يذكر منهم طاهر بن علي بن عبد الله السبتي الذي درسه عدة متون فقهية مثل متن السنوسية، ورسالة أبي زيد القيرواني، ومتن ميارة، ابن عابد، **رحلة ابن عابد** (١٩٩٣)، م. س، ص. ٧. وهي معلومة لم يتسن لنا التأكد منها.

(٢٣) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ٢٩.

(٢٤) رغم طول المسافة بين فكيك وقابس، إلا أن المؤلف لا يذكر المحطات التي اجتازها في الطريق بين المدينتين، مكتفياً بالقول: "في هذه الطريق ما بين بلاد الحمياني وقابس جهات معمورة فيها قرى وأوقاف الحجاج". ابن عابد، م. ن، ص. ٨٦.

(٢٥) ابن عابد، م. ن، ص. ٨٩-٩٥.

(٢٦) ابن عابد، م. ن، ص. ٤٠.

(٢٧) ابن عابد، م. ن، ص. ٦٠.

(٢٨) مارية دادي، مادة: الوكيل يوسف بن عابد، في، **معلمة المغرب**، م. س، ج. ٢٢، ص. ٧٦١٢.

(٢٩) محمد دحمان، "العروسيين: من الجد الجامع إلى المجموعة الاجتماعية"، ضمن، **تاريخ الشرفاء العروسيين كمظهر من مظاهر**

الوحدة الوطنية، أعمال الندوة العلمية التي أقيمت بالرباط أيام ١ و٢ غشت ٢٠٠٢، إصدارات مركز الشيخ سيدي أحمد العروسي للدراسات والأبحاث، ط. ١، الرباط، ٢٠٠٤، ص. ٢١.

(٣٠) أحمد الوارث، "سيدي أحمد العروسي الشريف المتصوف"، ضمن، **تاريخ الشرفاء العروسيين**، م. س، ص. ١٨.

(٣١) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س، ص. ٦٩.

(٣٢) ابن عابد، م. ن، ص. ٦١.

(٣٣) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ٩٠.

(٣٤) ابن عابد، م. ن، ص. ٦١.

(٣٥) ابن عابد، م. ن، ص. ٦١.

(٣٦) ابن عابد، م. ن، ص. ٨٦.

(٣٧) محمد رابطة الدين، مادة البرنس، في، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٩٩١، ج. ٤، ص. ١١٩٧.

(٣٨) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ٣٩.

(٣٩) ابن عابد، م. ن، ص. ٦٦.

(٤٠) لعلة الولي عبد الله بن حمد المتوفى سنة ٨٣٣ هـ/١٤٣٠م، أي أنه معاصر للدولة المرينية. تنظر ترجمته عمد: رقية بلعمدم، مادة ابن حمد عبد الله، ضمن، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ٢٠٠٠، ج. ١١، ص. ٣٥٧٩-٣٥٨٠.

(٤١) ابن عابد، رحلة ابن عابد، م. س، ص. ٤١.

(٤٢) ابن عابد، م. ن، ص. ٧٨.

(٤٣) ابن عابد، م. ن، ص. ١١٠.

(٤٤) ابن عابد، م. ن، ص. ٧٠-٧٢.

(٤٥) هو محمد بن سليمان المعروف بالشيخ أو الإمام الجزولي يرجح أن تكون سنة وفاته مقتولاً ٨٧٠ هـ/١٤٦٦م. محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وماله من التباع**، تحقيق مراد عبد الكريم، عبد الحي العمراوي، مطبعة محمد الخامس، ط. ١، فاس، ١٩٨٩م، ص. ١١.

(٤٦) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س، ص. ٤٤.

(47) FERHAT Halima, "Réflexions sur al_Khadir au Maghreb médiéval: ses apparitions et ses fonctions", in **Le Maghreb aux XII eme et XIII eme siècles: les siècles de la foi**, Wallada, Casablanca, 1993, p. 48. p.p. 41- 53

(٤٨) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س، ص. ٧٠.

(٤٩) ابن عابد، م. ن، ص. ٤٦-٤٧.

(٥٠) رابحي رضوان، **الموت والصلوات الرمزية بين الأحياء والموتى بالمغرب والأندلس إبان العصر الوسيط**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢٣، ص. ٢٥٦.

(٥١) الشاذلية: طريقة صوفية سنية ظهرت في القرن (٧هـ/١٣م)، سُميت بهذا الاسم نسبة إلى الحسن الشاذلي (٥٩٣هـ/١١٩٦م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م) المولود بغمارة في المغرب، قبل انتقاله إلى تونس ثم إلى مصر. تتلمذ على يد عبد السلام بن مشيش، وأثرت حركته على المجال الصوفي في كل الشمال الإفريقي، ابن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس المنسوب لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط**، تحقيق

(٨٧) هو عبد القادر الحمياني المدعو سيدي الشيخ مؤسس الطائفة الشيخية حوالي سنة (٩٥١هـ/١٥٤٤م)، عبد الله نجمي، مادة الشيخية، ضمن، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ٢٠٠٢، ج. ١٦، ص. ٥٤٥

(٨٨) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س. ص. ٥. يحصر البادسي مجال قبيلة بطيوة من وادي ملوية شرقاً إلى المزمة غرباً، اسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق، سعيد أعراب، ط. ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ص ٥١.

زهرة النظام، ط. ١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٧م، ص. ٨٢ و ٢٧١ و ٢٧٢. ويرى "جلاب" أن الجزولية امتداد للشاذلية وتطور لها، حسن جلاب، **الحركة الصوفية بمراكش، ظاهرة سبعة رجال**، المطبعة والوراقة الوطنية، ط. ١، مراكش، ١٩٩٤ م، ص. ١١٣.

(٥٢) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س. ص. ٦٥

(٥٣) ابن عابد، م. ن. ص. ٧٦

(٥٤) ابن عابد، م. ن. ص. ٩. ١

(٥٥) ابن عابد، م. ن. ص. ١١

(٥٦) ابن عابد، م. ن. ص. ٥٢

(٥٧) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٣

(٥٨) ابن عابد، م. ن. ص. ٧٣

(٥٩) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٠

(٦٠) في السياق ذاته، يقدم المؤلف إشارة إلى وجود العبيد من الذكور في الوسط الصوفي، ابن عابد، م. ن. ص. ٧٣

(٦١) ابن عابد، م. ن. ص. ١١

(٦٢) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٦ و ٤٨ و ٨٤

(٦٣) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٤

(٦٤) ابن عابد، م. ن. ص. ٦٤

(٦٥) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٩

(٦٦) ابن عابد، م. ن. ص. ٩١. يتداول المثل المذكور بين العامة بصيغ كثيرة ومتقاربة أبرزها: "عرقه ولا برقة" أي أن البحر أهون من البر في ساحل برقة. الطاهر أحمد الزاوي، **معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، ط. ١، طرابلس (ليبيا)، ١٩٦٨، ص. ١٦**

(٦٧) ابن عابد، م. ن. ص. ٤٠

(٦٨) ابن عابد، م. ن. ص. ٦٦

(٦٩) ابن عابد، م. ن. ص. ٦٧

(٧٠) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٤

(٧١) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٤

(٧٢) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٦ و ٣٠

(٧٣) ابن عابد، م. ن. ص. ٥٥

(٧٤) ابن عابد، م. ن. ص. ٥٣. ٥٤

(٧٥) ابن عابد، م. ن. ص. ٧٦

(٧٦) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٩

(٧٧) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س. ص. ٢٦

(٧٨) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٢

(٧٩) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٥

(٨٠) ابن عابد، م. ن. ص. ٥٨

(٨١) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٩

(٨٢) ابن عابد، م. ن. ص. ٨٣

(٨٣) ابن عابد، م. ن. ص. ٢٨. ٢٩

(٨٤) ابن عابد، م. ن. ص. ٥٩

(٨٥) لم نصادف علما بهذا الاسم غير الفكيكي عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر السكوني، المتوفي حوالي ٩٨٠ هـ/١٥٧٢م، تراجع ترجمته عند، العربي هلال، مادة: الفكيكي عبد الرحمان، ضمن، **معلمة**

المغرب، ج. ١٩، م. س. ص. ٦٤٩٦

(٨٦) ابن عابد، **رحلة ابن عابد**، م. س. ص. ٨٤

السفير جون هاريسون

عين بريطانية على مغرب القرن السابع عشر

د. محسن بوشن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



ملخص

انعكس تواتر الأزمات منذ مطلع القرن السابع عشر على علاقة المغرب بمحيطه الإقليمي، ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى العلاقات الهامة بين المغرب وإنجلترا التي بلغت مستوى التحالف بين البلدين، وحقت أرقاماً غير مسبوقة في المبادلات التجارية بينهما. لكن التحول الذي عرفه المغرب بعد وفاة المنصور، ترك أثره السلبي على مستوى العلاقات الثنائية بين البلدين. سنتبع في هذا السياق مسار المبعوث البريطاني جون هاريسون خلال رحلاته إلى المغرب، واحتكاكه بالقوى المتعددة التي أصبحت تقسم السلطة في البلاد، ومدى تحقيقه للأهداف التي كلف بها من طرف حكومته، سعياً للوصول إلى نظرة مختلفة عن الرواية المحلية للأحداث التي عايشها بالمغرب السعدي خلال القرن السابع عشر، معتمدين على منهج استقرائي مبني على ما حملته مختلف الوثائق والمصادر التي تعود لتلك الفترة الهامة في تاريخ البلدين، وذلك لمقاربة العلاقات المغربية - البريطانية من خلال المهام المختلفة التي اضطلع بها جون هاريسون ومدى تأثير الأدوار التي لعبتها هذه الشخصية على مسارها، سواء في اتصالاته بالسلطان السعديين أو بقية القوى التي احتك بها في مراحل مختلفة من مهامه الرسمية في المغرب.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

هاريسون؛ سفارات؛ تاريخ المغرب الحديث؛ بريطانيا؛ إسبانيا

تاريخ استلام البحث: ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.426576.1280

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محسن بوشن، "السفير جون هاريسون: عين بريطانية على مغرب القرن السابع عشر". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون، يناير ٢٠٢٦، ص ١٠٥ - ١٢٠.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: mohsine.juba2015@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 تحت شروط الترخيص المشاع بلاتسبيل (CC BY-NC-ND/4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0)، التي تسمح باستخدام، التوزيع، والتكرار في أي وسيط، شريطة أن نعطي الائحة المناسبة للمؤلف(ين) الأصليين. لا يجوز تعديل، توزيع، أو بيع النسخة المعدلة، أو استخدامها لأغراض تجارية أو ربحية. والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

المغرب وإنجلترا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهي علاقات بلغت مستوى التحالف بين البلدين، وحقت أرقاماً غير مسبوقة في المبادلات التجارية بينهما. لكن التحول الذي عرفه المغرب بعد وفاة المنصور، والذي تزامن مع وفاة الملكة إليزابيث الأولى وتولي ملك جديد (جيمس الأول) الذي يملك نظرة مختلفة عن سلفه للسياسة الخارجية، ترك أثره السلبي على مستوى العلاقات الثنائية بين البلدين.

كانت المواضيع التجارية إحدى الأمور التي عمل المولى زيدان على النظر في شأنها عندما استقر له الحكم في مراكش، وكانت سبباً في تجديد الاتصال بين الشرفاء السعوديين وملوك إنجلترا، في شخص الملك جيمس الأول، وقد جاء ذلك عندما حصل تجار إنجليز على كميات من السكر بالمغرب، لكن الإسبان قاموا بالاستيلاء عليها بدعوى أن الحصول عليها تم بطريقة غير شرعية^(١)، لذلك كتب المولى زيدان سنة ١٦٠٩م، بطلب من التجار الإنجليز المتضررين، إلى الملك جيمس الأول طالباً منه العمل على استعادتهم لبضاعتهم واسترجاع حقوقهم^(٢).

جاء الدور على الملك جيمس الأول سنة ١٦١٠م، تدفعه إلى ذلك بالأساس رغبته في حل مشاكل رعاياه من التجار الإنجليز بالمغرب. ولم يكتفِ ملك إنجلترا في هذا الصدد ببعث رسالة مماثلة إلى المولى زيدان، الذي أصبح يحكم مملكة مراكش دون منازع من إخوته، بل قرر إرسال سفير عنه للتباحث حول تلك المواضيع، ووقع اختياره لهذه المهمة على جون هاريسون^(٣).

كان هاريسون رجلاً من النبلاء عندما تم تعيينه في أولى مهماته بالمغرب، وقد كلف بتسليم رسالة من الملك الإنجليزي جيمس الأول إلى المولى زيدان، والعمل على إعادة بناء علاقة الصداقة بين البلدين، مع طلب الاستجابة لعدة شكايات من الإنجليز، ومن أهمها نزاع بخصوص مبلغ كبير من المال، استولى عليه خازن المولى زيدان، اليهودي أبراهيم بن ويس، من تجار إنجليز، بذريعة أنهم كانوا ينوون تهريبه ضداً على أوامر الشريف^(٤)، فانطلق هاريسون من إنجلترا في ٢٤ ماي ١٦١٠م، ليصل إلى أسفي شهر يونيو. واضطر إلى الانتظار هناك مدة طويلة بسبب الاضطرابات التي كانت

يلعب الدبلوماسيون أدواراً محورية في بلورة السياسة الخارجية لبلدانهم، وهو ما يعكس الأهمية الكبيرة للسفراء والمبعوثين الذين يعتبرون فاعلين ومحركين في مجال العلاقات الدولية، خاصةً إبان الأزمات، وفي هذا الإطار تأتي دراستنا للأدوار التي لعبها السفير البريطاني جون هاريسون، في فترة احتاجت فيها العلاقات بين المغرب وبريطانيا لشخصية متفانية تسعى لإحياء ما ضاع من الروابط بين البلدين، وهو ما قام به في رحلاته المتتالية نحو المغرب مبعوثاً عن بلاده، في مهام انصب أغلبها حول الدفاع عن مصالح بريطانيا التجارية ومحاولة الاستفادة من أوضاعه وصراعات أطرافه لتحقيق المكاسب الممكنة. لذا سنتتبع مسار جون هاريسون خلال رحلاته إلى المغرب، متتبعين تفاعله مع مختلف الأحداث التي عاشها، واحتكاكه بالقوى المتعددة التي أصبحت تقتسم السلطة في البلاد، ومدى تحقيقه للأهداف التي كلف بها من طرف حكومته، وهو ما سيعطينا نظرة مختلفة عن الرواية المحلية للأحداث التي عايشها بالمغرب السعودي خلال القرن السابع عشر، معتمدين في ذلك على منهج استقرائي مبني على ما حملته مختلف الوثائق والمصادر التي تعود لتلك الفترة الهامة في تاريخ البلدين، وذلك لمقاربة العلاقات المغربية-البريطانية من خلال المهام المختلفة التي اضطلع بها جون هاريسون ومدى تأثير الأدوار التي لعبتها هذه الشخصية على مسارها.

أولاً: الرحلة الأولى لجون هاريسون^(١) John

Harrison إلى المغرب

شكلت بداية القرن السابع عشر نقطة تحول كبرى في مسار المغرب على مختلف الأصعدة، وذلك نتيجة للطريقة التي انتهى بها عهد السلطان أحمد المنصور، في ظروف داخلية يعمها الوباء والاضطراب، زادت من حدتها الحروب الدامية التي دخلها أبناء المنصور فيما بينهم للحصول على العرش السعودي، مع ما خلفه ذلك من تدمير للمقددرات الاقتصادية للبلاد. انعكس تواتر تلك الأزمات على علاقة المغرب بمحيطه الإقليمي، ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى العلاقات الهامة بين

فمن جهة، المولى زيدان رفض الوفاء بالتزاماته، ومن جهة أخرى، تمت معاملة ناجين من حادث غرق سفينة إنجليزية بالساحل المغربي معاملة سيئة وسيقوا إلى العبودية^(٩). اضطربت الأحوال بالمغرب من جديد، وعاش المولى زيدان فترات عصيبة على حكمه، بعدما ثار ابن أبي محلي على المولى زيدان وهزمه في عدة معارك، قبل أن يتمكن من طرده من مراكش في ٢٠ ماي ١٦١٢م، التي فر منها الشريف لاجئاً إلى أسفي^(١٠). حصل المولى زيدان على دعم الولي أبي زكريا الحاحي، الذي وافق على مقاتلة ابن أبي محلي، لتتم هزيمة هذا الأخير وقتله في معركة بتاريخ ٣٠ نونبر ١٦١٣م^(١١)، ويتمكن المولى زيدان من العودة إلى مراكش بعد شهر من الإقامة بمعسكره نواحي أسفي^(١٢).

ثانياً: موقف هاريسون والهولنديين من احتلال الإسبان للمعمورة

في خضم تلك الأحداث، تم تعيين جون هاريسون مبعوثاً للمرة الثانية سنة ١٦١٣م ليحمل رسائل من الملك جيمس الأول إلى المولى زيدان، وقد اضطر لانتظار مرافقة صامويل بلاش في لاهاي لسبعة أو ثمانية أشهر، ولم يغادر نحو المغرب منفرداً سوى في ١٤ أبريل ١٦١٤، ليصل إلى أسفي في شهر ماي^(١٣).

وجد هاريسون أسطولاً هولندياً بقيادة إيفرستون Everston يرابط، بطلب من المولى زيدان، أمام المعمورة، بمصب نهر سبو، حيث اتخذ قراصنة أوريبيون، أغلبهم من الإنجليز، المكان وكرا لهم^(١٤). كانت خطة المولى زيدان هي الاستيلاء على ذلك المركز وتحصينه بمساعدة الهولنديين، لكن صامويل بلاش أوحى للهولنديين بأن الشريف سيسلمهم إياه. بما أنه كان يلزم إفراغه أولاً من القراصنة، استغل إيفرستون وجود سفير إنجليزي بأسفي للتواصل معهم وإقناعهم بمغادرة المكان وإيجاد ملجأ آخر لهم^(١٥). كتب هاريسون إلى مواطنيه في المعمورة بتاريخ ٢٥ يوليوز ١٦١٤م، يطلب منهم تسليم المعمورة إلى الأسطول الهولندي، مع الحفاظ على سلامتهم وبشروط مشرفة: "...أدعوكم لعدم القيام بمعارضة أو مقاومة أي من مشاريعهم، بل تسليم المكان بالشروط الجيدة والمشرقة التي سيقدمها لكم هؤلاء

تعرفها البلاد، قبل توصله بالتصريح من مراكش من أجل التوجه إليها. لا توجد معلومات دقيقة عن هذه المهمة الأولى، والتي يبدو أن نتائجها انحصرت في الوعود الفضفاضة التي أعطاهها المولى زيدان للمبعوث الإنجليزي بإعادة المبلغ المصادر، والتأكيد على منح الامتيازات التي تمتع بها التجار الإنجليز في الماضي بالمغرب على عهد المولى أحمد المنصور والملكة إليزابيث^(١٦).

غادر هاريسون إلى أسفي في ٢٨ أبريل ١٦١١م، وكان بصحبته سفير من طرف الشريف-لم نجد معلومات عن هويته-، حمل رسالة من المولى زيدان إلى الملك جيمس الأول، بالإضافة إلى يهودي-مغربي يدعى صامويل بلاش، ممثل السلطان بهولندا، وكان الهدف من تلك الرسالة تأكيد الوعود وتوضيح ملابسات حجز ذلك المبلغ من المال من التجار الإنجليز المشتكين لديه، بالإضافة إلى إبراز رغبته في إرضاء ملك إنجلترا^(١٧).

تبرز هذه الرسالة من المولى زيدان عدة معطيات ذات دلالات متعددة، فهناك رغبة واضحة لدى الشريف في إعادة العلاقات المغربية-الإنجليزية إلى السكة الصحيحة التي كانت عليها من قبل، لكنه لا يعترف بأي ظلم وقع على التجار الإنجليز في بلاده، بل يؤكد أن هؤلاء ارتكبوا جرماً كبيراً استحقوا عليه العقوبة التي سلطت عليهم، وسبقت الإشارة إلى هذا الأمر عند الحديث عن ممارسة بعض التجار الإنجليز لتهريب الذهب المحظور إخراجهم من المغرب منذ عهد المولى المنصور، لكن المولى زيدان أبدى مع ذلك استعداداً لتلبية طلب الملك جيمس الأول، إذا أصر على ذلك "من ماله الخاص"، فقط إظهاراً منه لمكانة الملك الإنجليزي لديه، كما استغل الشريف تلك الفرصة لتقديم طلب إلى الملك من أجل السماح بإرسال صناعات مدافع إليه ليتمكن من صناعة المدافع التي يحتاجها في حروبه^(١٨)؛ من الواضح أن الحاجة إلى مثل هؤلاء كانت كبيرة في بلاد عاشت منذ سنوات على وقع حروب ومعارك، لا تتوقف فترة قصيرة إلا لكي تتطلق بشكل أشد من جديد.

عاد هاريسون بعد تلك المهمة ليشغل وظيفته بجانب نجل الملك الإنجليزي إلى حين وفاته سنة ١٦١٢م. في تلك الأثناء، تصاعدت حدة التوتر بين المغرب وإنجلترا،

لويس الثالث عشر، ثم ينطلق بعدها عائداً إلى المغرب في يونيو من نفس السنة^(٢٣).

ثالثاً: رحلتا جون هاريسون الثالثة والرابعة (توالي النتائج المخيبة ولقاء آل النقسيس)

يبدو أن نتائج هذه الرحلة جاءت أسوء من اللتين سبقتها، فقد بلغ إلى علم هاريسون عند وصوله بأن المولى زيدان انسحب إلى نواحي أسفي هرباً من الولي أبي زكريا الحاحي الذي ثار عليه وطرده من مراكش مرة أخرى^(٢٤)، وقد جلب خبر وصول المبعوث الإنجليزي، الحامل لرسائل من إنجلترا وهولندا وفرنسا، الارتياح للمولى زيدان، الذي كان يمر بفترة عصيبة، فقام بإشاعة أخبار عن كون ملوك تلك البلدان يعرضون مساعدتهم عليه، وحصل جون هاريسون على استقبال كبير من الشريف. حدث تغير مفاجئ في الأوضاع، بحيث تمكن المولى زيدان من العودة إلى مراكش بعد انسحاب منافسه، وعندما استقر له الوضع لم يعد يرغب في سماع شيء عن الوعود التي قطعها من قبل للبريطانيين، بل أكثر من ذلك، أرسل إلى هاريسون الموجود بأسفي أمره له بالرحيل^(٢٥).

قام هاريسون على وقع هذه الإهانة بمغادرة المغرب، متأثراً بشكل كبير مما اعتبره خداعاً من طرف المولى زيدان، رغم كل ما قام به لصالحه من مهمات في إنجلترا، فرنسا وهولندا، ليعود إلى بلاده مرة أخرى دون استعادة المبلغ المصادر، الذي تعهد المولى زيدان بإعادته من قبل، ودون إعادة أي أسير إنجليزي بالمغرب معه إلى إنجلترا^(٢٦). فور عودة هاريسون إلى إنجلترا، طلب من حكومته تحرير رسالة شديدة اللهجة من طرف الملك جيمس الأول موجهة للشريف، من أجل دفعه إلى الوفاء بالتزاماته السابقة مع الإنجليز، واتجه حاملاً تلك الرسالة إلى المغرب للمرة الرابعة أواخر سنة ١٦١٦م^(٢٧). كتب هاريسون إلى المولى زيدان عند وصوله إلى أسفي من على متن السفينة التي أقلته من إنجلترا، ورأى أنه من الأفضل عدم النزول إلى اليابسة، بسبب عدم توصله بتصريح من الشريف أو بأي جواب منه، والذي يبدو أنه أحجم عن إرسال التصريح للمبعوث الإنجليزي

القباطنة والقائد، تماشياً مع تعليمات الحكومة، سواء فيما يخصكم أو ما يخص القراصنة الآخرين^(٢٨). بعد قبول القراصنة الإنجليز بالمغادرة، لم يكن إيفرستون ينتظر سوى أوامر المولى زيدان للاستيلاء على المعمورة، لكنه تفاجأ في ٦ غشت بظهور أسطول إسباني مكون من مئة سفينة، والذي قام بالاستيلاء على الموقع أمام أنظاره دون الحاجة لإطلاق أي عيار ناري^(٢٩)!

انطلق هاريسون من أسفي نحو معسكر المولى زيدان المقام قرب مراكش على ضفاف نهر تانسيفت، نظراً لمواجهة لثورة يحيى بن عبد الله عليه، وهو ما دفعه للتراجع من مراكش بسبب ضغط قوات خصمه، وقد وصل إليه في نونبر ١٦١٤م، حيث أقام له الشريف استقبالا لافتاً، عبر خلاله المولى زيدان عن احتفائه بمديح الملك جيمس، والتزم مرة أخرى بإعادة المبلغ المالي موضوع الشكاية السابقة وإطلاق سراح الأسرى الإنجليز لديه، كما سلم هاريسون رسالة اعتماد منه إلى جيمس الأول^(٣٠)، لإبلاغ هذا الأخير رسالة شفوية متعلقة بمشروع اتحاد إنجلترا وهولندا، الذي يهدف إلى القيام بعملية مشتركة يتوقع أن توجه ضد إسبانيا، من أجل انتزاع ثغر موغادور من أيديها^(٣١).

عندما كان جون هاريسون في أسفي يستعد للرحيل، تم تسليمه رسالتين جديدتين من الشريف، الأولى بتاريخ ١٤ يناير ١٦١٥ موجهة إلى الحكومات المتحدة لهولندا، يطلب فيها المولى زيدان من الهولنديين التدخل لدى ملك فرنسا لإعادة مكتبته. كانت مكتبة المولى زيدان محملة في سفينة فرنسية مستأجرة من طرف الشريف في يونيو ١٦١٢م بهدف التوجه إلى ميناء سانتا كروز، وقد تم القبض عليها في البحر من طرف الإسبان الذين استولوا على تلك المكتبة وتم نقلها إلى إسبانيا، وكانت هذه القضية من أكبر اهتمامات المولى زيدان، الذي سعى جاهداً لاستعادة مكتبته، وقد قامت الحكومات المتحدة في السابق في غشت ١٦١٢م، بطلب منه، بمسعى مماثل لدى ملك فرنسا^(٣٢). كانت الرسالة الثانية المسلمة لهاريسون موجهة إلى ملك فرنسا لويس الثالث عشر لتسلم له يدا بيد^(٣٣). وصل هاريسون إلى إنجلترا في ١٦ مارس ١٦١٥م^(٣٤)، ولم يقض فيها سوى فترة قصيرة قبل أن ينتقل إلى فرنسا لإتمام مهمته لدى الملك

زياراته السابقة للمغرب، كما تحدث عن وضعية هؤلاء المورييسكيين الذين تملؤهم الكراهية لإسبانيا، مما يطرح وجود إمكانية لاستخدامهم كقوات داعمة في العمليات ضد قادس^(٣٢).

لم يكن لاستقرار هذه الجالية بالمغرب لينهي علاقتها بإسبانيا، بل دخلوا معها في حرب ضروس، انتقاماً مما اقترفت في حقهم، فانطلقوا في عمليات بحرية مكثفة ضد السفن الأسبانية وغيرها من السفن الأوروبية، وفي إطار خلق توازن استراتيجي بالمنطقة، ربط المورييسكيون علاقات خاصة مع بريطانيا لمواجهة الإسبان، وذلك في إطار استغلال الصراع الدائر آنذاك بين المعسكر الكاثوليكي الذي تتزعمه إسبانيا، والمعسكر البروتستانتي الذي تتزعمه بريطانيا، وقد كانت المصالح متبادلة بين الطرفين^(٣٣).

حظي مقترح هاريسون بالموافقة للفائدة الكبيرة التي يمنحها استخدام المورييسكيين، الكثيرون العدد والحاقدون بشدة على الإسبان، في تلك الحملة، وقد عرض حشد عشرة آلاف رجل منهم لذلك، فتم إرساله إلى تطوان بشكل مستعجل قبل انطلاق الأسطول، في مهمة تهدف إلى معرفة موقف المورييسكيين والمغاربة كذلك من المشاركة في تلك العملية، وكذا تجميع الأقوات والمؤن من أجل الأسطول الإنجليزي^(٣٤). حمل هاريسون رسائل من الملك شارل الأول إلى المولى زيدان، إذا دعت الضرورة إلى استخدامها، وذكر الملك شارل فيها مخاطبه بالعلاقة الوطيدة بين إنجلترا والمغرب، وأكد تعيين جون هاريسون كممثل له، ورغبته في استعادة العلاقات القوية التي كانت بين البلدين في الماضي؛ ومن أجل تسريع الأمور مع المولى زيدان، أمر مبعوثه بأخذ ثمانية أسرى مغاربة، وإعادتهم معه إلى بلادهم^(٣٥).

وصل هاريسون إلى تطوان في ١٣ يونيو ١٦٢٥م، وكان المقدم أحمد النقسييس قد توفي منذ مدة قصيرة، وخلفه أبنائه الأربعة في حكم المدينة، والذين وافقوا على مقترحاته، الذين كانوا يطمحون دائماً إلى إخراج الإسبان من مدينة سبتة، وجرى مباحثات طويلة بين آل النقسييس وهاريسون، أطلق فيها هذا الأخير العنان لطبيعة الواعظ الديني التي تسكنه، مبينا صحة العقيدة البروتستانتية مقابل الكاثوليكية^(٣٦). مسلحاً بالرسالة

لمعرفته بسبب مجيئه، لكن هذا الأخير قرر مع ذلك الانتظار قريباً من الساحل المغربي، مراقباً تطور الأحداث، ومستغلاً السفن الإنجليزية التي تتوقف في ميناء أسفي، منتقلاً بينها من سفينة إلى أخرى، ليدوم انتظاره حوالي ستة عشر شهراً. بعد قضاء شتاتين طويلين في الترقب والانتظار (١٦١٦-١٦١٧ و ١٦١٧-١٦١٨م)، يئس هاريسون من وصول إذن من المولى زيدان بالنزول إلى اليابسة، فاستغل وصول سفينة تركية إلى ميناء أسفي للاستيلاء عليها باعتبارها سفينة قراصنة، بعد توصله بأخبار عن دعم المولى زيدان لتلك السفينة من أجل مهاجمة السفينة الإنجليزية التي تقله، وبعد نجاح تلك العملية، اتجه هاريسون عائداً إلى إنجلترا^(٣٨). توقفت السفينة في تطوان للاستراحة، فاستغل الأمر للدخول في علاقة مع المقدم أحمد النقسييس، حاكم المدينة، الذي حمّله رسالة إلى المولى زيدان يعلن فيها ولاءه له، وقد أثارت انتباه المبعوث الإنجليزي وضعية المورييسكيين، الذين جاؤوا لاجئين إلى تطوان بأعداد كبيرة منذ عملية الطرد التي تعرضوا لها من إسبانيا، حيث وجدوا استقبلاً جيداً^(٣٩). أدت الخيبات المتتالية للمهمات التي قادها جون هاريسون إلى دفعه للتخلي عن حياة الترحال، ليتفرغ مدة من الزمن لدراسة اللاهوت، ثم انتقل بعدها من مهمة إلى أخرى، إلى أن وصل إلى أمريكا في سعي منه لتحقيق الثراء^(٤٠).

رابعاً: عودة هاريسون بحثاً عن الدعم المغربي ضد إسبانيا

أعادت أحداث جديدة هاريسون إلى التفكير في المغرب، ففي سنة ١٦٢٥م اندلعت الحرب بين إنجلترا وإسبانيا بعد فشل الزواج الأسباني لشارل الأول، وكانت هناك حملة في طور الإعداد بهدف مهاجمة قادس واحتلالها وكذلك الاستيلاء على السفن الأسبانية المحملة بالذهب القادم من العالم الجديد، وكان على رأس تلك الحملة العسكرية السير إدوارد سيسل Sir Edward Cecil^(٤١)، ورأى جون هاريسون فرصة سانحة له للعب دور فيها. وجه هاريسون في هذا السياق تقريراً إلى الوزير السير ألبيرتوس مورتون Sir Albertus Morton، يخبره بسابق علاقته بمورييسكيي تطوان منذ

لإمكانية احتلال مواقع في المنطقة، فبعد اطلاعه على طريقة عمل الإسبان والبرتغال، أصبح يعتقد أن السياسة البريطانية يجب أن تسير في نفس الاتجاه، أي الاستيلاء على الأراضي كطريقة لتأمين التجارة^(٤٠).

ما شجع المبعوث الإنجليزي على ذلك التوجه هو الساكنة التي التقاها بتطوان وفي جهات أخرى في المنطقة؛ فقد كان غالبية الموريسكيين الذين التقاهم من الذين تم تهجيرهم من إسبانيا ما بين ١٦٠٩ و١٦١٤م، وعند وصولهم إلى شمال إفريقيا لم يجدوا الترحيب الذي كانوا يرجون، لأن الساكنة المحلية كانت تخشاهم وتعتبرهم نصارى دخلوا الإسلام. نتيجة لذلك، عزل الموريسكيون أنفسهم اجتماعياً وثقافياً داخل مقاطعات خاصة بهم، ولم يطل الأمر قبل أن يبدووا بالتفكير في الانفصال سياسياً كذلك. كان الموريسكيون كذلك شديدي العداء للكاثوليك، كما كان الأمر بالنسبة لهاريسون نفسه، ولم يعترضوا على توحيد الجهود مع أي قوة مسيحية تعادي الإسبان وتعددهم بالدعم ضد مضطهديهم. لقد كان هاريسون واثقاً من أنهم راغبون في التعاون مع الملك البروتستانتي شارل، وقد أشار إلى أنهم "كانوا متحمسين لقراءة كالفن وكتب أخرى من ديانتنا" وكانوا على العموم "ميالين إلى بلادنا وحتى إلى الديانة المسيحية"^(٤١).

توسل هاريسون بكل حماس لقائد الحملة الإنجليزية لغزو سبتة، مبرراً أنه ميناء مهم للتجار الإنجليزي في البحر المتوسط، وتكفي حامية صغيرة للحفاظ عليه، وحث كذلك على الاستيلاء على جبل طارق والمعمورة، وهو ما سيدفع أعداء إنجلترا عندئذ، سواء كانوا إسباناً، برتغاليين أو آخرين، للهرب بعيداً^(٤٢). لقد كان هاريسون يقترح توجهاً جديداً للأسطول البريطاني في المتوسط، مبنياً على التحكم وتأمين وسائل النقل، وهو ما يحتم امتلاك موانئ مختارة؛ لقد كان يعلم أن الثروة في بلدان المتوسط، حيث الساكنة عدائية وقوية، تأتي مع التجارة وليس مع الغزو^(٤٣).

لم تسر الأمور كما كان يشتهي الإنجليزي والمغاربة، وفشلت حملة الأسطول الإنجليزي ضد ميناء قادس، بعد إنزال كارثي على الساحل الإسباني في ٦ نوفمبر ١٦٢٥م، ليجعل كل تلك النيات والاستعدادات التي تمت من طرف

التي يحملها إلى المولى زيدان، وجه هاريسون رسالة عامة إلى المغاربة يعبر فيها عن أمله ألا يتم أخذ الإنجليزي أسرى كأعداء بعد الآن: "...راجيا أن يكون لها تأثير في ذلك، وألا يتم أخذ الإنجليزي أسرى كأعداء بعد الآن، خلافاً للامتيازات التي كانت لهم في الماضي، بل يتم إطلاق سراحهم وتحريرهم مع باقي المسيحيين من نفس الديانة (البروتستانت)، ليساهموا في الحروب ضد أعداء البلدين (إسبانيا)"، وقد شملت دعوته تلك اليهود الموجودين بالمغرب كذلك^(٣٧).

يظهر الطابع الديني الوعظي في الخطاب الذي يستعمله هاريسون، وذلك في استعماله لاستشهادات من الإنجيل، والربط الدائم للتحالف بما هو ديني، والتأكيد على العداوة المشتركة للإسلام والبروتستانتية مع الكاثوليكية. بعث جون هاريسون رسالة إلى المولى زيدان من تطوان، يتأسف فيها لفشل مهماته السابقة التي كلفه بها الملك الإنجليزي الراحل لدى المولى زيدان، ويبلغه بأن نيته كانت الانتقال إلى سلا برا ومنها نحو أسفي بحرا، لكن مقدم تطوان حذره من الأخطار الكبيرة للتنقل براً بالمغرب^(٣٨).

انخرط الموريسكيون من جهتهم في فكرة المشاركة في الحرب ضد إسبانيا بحماس كبير، وعرضوا على هاريسون القتال على نفقتهم الخاصة، كما يبدو أن الرسالة التي وجهها المبعوث الإنجليزي كان لها التأثير المطلوب، ففي ٣٠ يوليوز ١٦٢٥م، بعث هاريسون رسالة إلى قائد الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط يشير فيها إلى أنه تم إصدار إعلان من طرف مقدم تطوان، بأنه "لن يتم بيع أو شراء أي إنجليزي كرقيق بعد الآن، كما كان الأمر من قبل، من طرف الأتراك، أو يتم أسره، بل يسمح لهم بالتجارة بحرية".

كان كل شيء يسير بشكل جيد كما أراده المبعوث الإنجليزي، وكان هناك فرح في تطوان بسبب أخبار الاستعدادات بإنجلترا الموجهة ضد إسبانيا، لكن المقدمين أعلموه بأن حالة الفوضى في البلاد لا تسمح بذهابه براً إلى مولاي زيدان كما كان يريد، كما صرحوا بأنهم يطالبون بالاستقلال التام لدولتهم، ويؤكدون على إخلاصهم لملك إنجلترا ودعمهم له ضد إسبانيا^(٣٩). كان هاريسون متحمساً لتطوير التجارة الإنجليزية، وكذا

في مباحثات مباشرة معه، وأعلنوا التزامهم بإطلاق سراح الأسرى الإنجليز الموجودين بحوزتهم، مقابل الحصول على أربعة عشر قطعة مدفعية والذخيرة من إنجلترا، من أجل الدفاع عن أنفسهم أمام الإسبان وغيرهم، مع الالتزام بالولاء لملك إنجلترا وحده. لقد كان قواد القسبة يحملون أحياناً لقب قيم الميناء، ويفرضون أنفسهم كرؤساء دولة حرة مستقلة عن السعديين، وبهذه الصفة راسلوا ملك إنجلترا، خاصة شارل الأول^(٤٩). بدت تلك المقترحات إيجابية بالنسبة لهاريسون، بشكل جعله يغادر بسرعة نحو إنجلترا لإيصالها إلى حكومته بلندن، حيث وصل إلى فالموث في ٢٤ ماي ١٦٢٦م^(٥٠).

لم تكن المقترحات التي جاء بها هاريسون لتأتي في وقت أصعب من ذلك، فقد شهدت سنتا ١٦٢٥ و١٦٢٦م موجة كبيرة من الهجومات التي نفذها السلاويون على السفن والسواحل الإنجليزية، محدثين رعباً لدى سكان المناطق الساحلية، وحاملين معهم أعداداً مهمة من الأسرى للحصول على الفدية لإطلاق سراحهم، أو بيعهم كعبيد في أسواق المدينة، وتتعدد الوثائق المؤرخة في تلك الفترة، المتعلقة بأنشطة من كانوا يسمونهم بالقراصنة السلاويين، ففي يونيو ١٦٢٥ أسر ثلاثة عشر رجلاً إنجليزياً من طرف سفينة "قراصنة" من سلا، قبطانها يدعى آرثر دريك من بليموث، يعيش بين المغاربة كرجل حر، كما استولت السفينة على العديد من المراكب وسلبت حمولتها وأسرت طاقمها، سواء كانت تجارية أو مراكب صيد، وقد تواجه هؤلاء "القراصنة" مع سفن هولندية، وهي التي قامت بتحرير الأسرى المسيحيين^(٥١). كما شهد شهر غشت ١٦٢٥م استمرار العمليات من الأتراك والسلاويين على السواحل الإنجليزية (حوالي عشرين سفينة)، وساعد الهولنديون أولئك "القراصنة" من خلال توفير المؤونة والذخيرة لهم، وشراء بضائعهم^(٥٢).

عندما تم عرض المقترحات التي جاء بها هاريسون، لم يكن المجلس الخاص متحمساً لفكرة التفاوض مع "القراصنة"، لكن الحجج التي قدمها هاريسون كانت الغالبة في النهاية، فقد أكد أن إطلاق سراح الأسرى الإنجليز بالمغرب، وأغلبيتهم بأيدي الموريسكيين، لا يمكن الوصول إليه بطريقة أخرى، واعتمد كذلك على سابقة

هاريسون والموريسكيين بتطوان غير ذات جدوى، وهو ما أصاب المبعوث الإنجليزي بخيبة أمل كبيرة، كما أنه وجد نفسه منسياً في المغرب من طرف حكومته، بدون تعليمات أو توفير وسيلة نقل تعيده إلى بلاده^(٤٤). على الرغم من ذلك الإخفاق، فقد ساهمت تلك العلاقات مع الموريسكيين في تحديد مسار مستقبل جون هاريسون في علاقته بالمغرب، إذ أصبح منذ ذلك الحين ممثلاً وناطقاً باسم أولئك المقيمين الجدد على أرض المغرب.

خامساً: المجاهد العياشي^(٤٥) والسلاويون (أطراف جديدة في العلاقات المغربية-الإنجليزية)

خلال تلك الفترة التي كان جون هاريسون يتحسر فيها على ضياع جهوده، اقترح عليه السلاويون الانتقال إلى مدينتهم، عارضين عليه الثورة على المولى زيدان والدخول تحت حماية ملك إنجلترا، وقد كان هاريسون يفتقر إلى الأخبار والتعليمات من حكومته، بالإضافة إلى إحساسه بالخيبة من الفشل الذي منيت به مجهوداته، فقرر القيام بتلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

غادر المبعوث الإنجليزي تطوان في بداية ١٦٢٦م، حافي القدمين، مرتدياً ثياب الحجاج، متجهاً إلى سلا عبر طرق ملتوية، لأن الإسبان وضعوا جائزة لمن يقتله عندما علموا بمساعيه لدى الموريسكيين. مر هاريسون في طريقه بالعديد من القبائل التي عرضت عليه دعمها لأي مبادرة إنجليزية لمهاجمة الثغور التي تحتلها إسبانيا، خاصة القبائل المجاورة لسبتة وطنجة والعرائش، كما مر جون هاريسون بمعسكر العياشي، قائد الجهاد ضد الإسبان^(٤٦)، وقد عرض عليه هذا الأخير تسخير كل موارد مملكة فاس التي يسيطر عليها، إذا قرر الإنجليز مهاجمة ثغر المعمورة وطرد الإسبان منها^(٤٧). اغتنى الموريسكيون السلاويون من الجهاد البحري، فأصبحوا لا يطبقون الصبر على ابتزازات المخزن الشريف، وقد دفعوا المولى زيدان لعزل القايد الزرهوني، ليعوضه بأحد رجاله، القايد عجيب^(٤٨).

وصل جون هاريسون إلى سلا الجديدة (الرباط) بعد أن توقف لعدة أيام بسلا القديمة، فدخل الموريسكيون الموجودون بالقصبة، الطامحين بشدة لتحقيق استقلالهم

ميناء سلا والتجارة فيه، وبالمقابل سيصبح بإمكان السفن السلاوية الدخول إلى الموانئ الإنجليزية، التجارة فيها والتزود بالموثون ٣٠- لا يمكن أن ينتزع من السلاويين الأسرى المسيحيون من غير الإنجليز أو العلوج الموجودين في سفنهم ٤٠- يمكن للسفن الحربية السلاوية التي تلاقي سفنا إنجليزية تنقل بضائع للأعداء أن تحتجزها، بشرط إعادة السفن إلى أصحابها ودفع ثمن استئجارها ٥٠- لا يجب على السفن الإنجليزية والسلاوية التي تلتقي في البحر أن تخلق أي مشكل لبعضها البعض أو أن يصعد طاقم إحداها إلى السفينة الأخرى؛ كل من يخالف هذا البند ستم معاقبته بشدة في موانئ الطرفين ٦٠- يعرض السلاويون خدماتهم على الملك ضد أعدائه، كما يجب أن يلتزم هذا الأخير من جانبه بمساعدتهم وتحرير جميع الأندلسيين والمغاربة والعلوج الذين أسروا في سفن سلاوية وحملوا إلى إنجلترا^(٥٩).

جاء في رسالة حكام سلا إلى المجلس الخاص أنهم يكلفون هاريسون بأن يوضح لأعضاء المجلس حسن النية الذي جعلهم يقبلون بنود السلام وإطلاق سراح الأسرى، ورغبتهم أيضاً في إعادة بناء العلاقات القديمة للمغرب مع إنجلترا، ويعرضون خدماتهم مرة أخرى على الملك، راجين من المجلس إرسال المبعوثين بالجواب فوراً^(٦٠). كانت هذه المعاهدة التي تضع سلا تحت الحماية الإنجليزية إنجازاً هاماً في حد ذاته، لكن علاوة على ذلك، رأى هاريسون وجود إمكانية احتلال المعمورة، بسبب عودة قائد الجهاد العياشي لتكليفه بتجديد اقتراحه على الملك من أجل انتزاع ذلك الثغر من أيدي إسبانيا^(٦١)، وقد حمّله رسالة إلى شارل الأول يذكر فيها بالخدمات التي أسداها لجون هاريسون خلال رحلته السابقة من تطوان إلى سلا، وهي ليست سوى دليل بسيط على إخلاصه لملك إنجلترا، كما عبر عن سعادته بالسلام الذي عقده شارل الأول مع موريسكيي الرباط^(٦٢).

طلب المبعوثان السلاويان من ملك إنجلترا التصديق على الاتفاقية المعقودة مع هاريسون وعرضا عليه، حسب ما لديهما من تعليمات، تحالفاً موجهاً ضد إسبانيا^(٦٣)، لكن الأمور لم تكن بالسهولة التي توقعها جون هاريسون،

مماثلة في الاتفاق الذي أبرمته إنجلترا مع "قراصنة" الجزائر. تسلم جون هاريسون في ١٥ دجنبر ١٦٢٦ رسالة اعتماد من الملك شارل الأول يعينه فيها ممثلاً له بالمغرب من أجل تحرير رعاياه الأسرى وإعادة بناء العلاقات مع هذا البلد، وفي هذا الصدد، يسمح له بأن يحمل معه المغاربة الأسرى في إنجلترا، ونقل ستة قطع مدفعية ومائة وخمسين رمحا كمقابل لتحرير الأسرى، وكذلك إظهاراً لحسن النية في التعامل مع المغاربة^(٥٣).

سادساً: رحلة هاريسون السادسة ومشروع الاتفاقية مع السلاويين

انطلق هاريسون في رحلته السادسة نحو المغرب من دارتموث في ٢١ يناير ١٦٢٧م، ووصل إلى ميناء أسفي في ١ فبراير، قبل أن يتوجه في ٤ مارس نحو مدينة سلا، حيث أنزل المدافع والذخيرة التي جلبها للموريسكيين، واعتبر الموريسكيون أنفسهم بذلك في حماية ملك إنجلترا، ورفضوا تسليم السفير الإنجليزي للشريف بعد مطالبته بذلك، بل قاموا بطرد القائد عجيب الذي قتل في طريقه نحو مراكش من طرف أعراب القبائل المجاورة^(٥٤)، وأعلنوا استقلالهم عن حكم المولى زيدان^(٥٥)، ثم وقع حكام سلا في ٨ أبريل معاهدة مع المبعوث الإنجليزي هاريسون، يلتزمون فيها بخدمة ملك إنجلترا بأنفسهم وبسفنهم في جميع الظروف، كما قاموا بالفعل بإطلاق سراح الأسرى الذين وعدوا بهم من قبل^(٥٦).

اصطحب هاريسون معه في رحلة العودة إلى إنجلترا اثنين من السفراء الموريسكيين، حاملين نص المعاهدة، وهما محمد بن سعيد وأحمد بن حسين نارفايز^(٥٧)، كما اصطحب معه أيضاً الأسرى الإنجليز المحررين، وانطلق في ٢٠ ماي ١٦٢٧م على متن سفينة هولندية، ليصل إلى إنجلترا في يونيو الموالي^(٥٨).

تضمنت المعاهدة التي وقعها السلاويون مع جون هاريسون في ١٠ ماي ١٦٢٧م على بنود ذات أهمية كبيرة، فقد جاء فيها: ١- أن السلاويين قد سلموا إلى جون هاريسون جميع الإنجليز المسجونين في مدينتهم، ويتعهدون بتحرير كل أولئك الذين غيروا دينهم بالإكراه. ٢- سيكون بإمكان السفن والتجار الإنجليز الدخول إلى

تضمنت رسالة الملك شارل إلى سيدي العياشي شكره على مساعدته لجون هاريسون، والدعم الذي قدمه للأندلسيين، الذين استطاعوا طرد القياد المعادين للإنجليز من الرباط، وقبل عرض الصداقة الذي قدمه سيدي العياشي، معلنا رغبته في الدخول في علاقات معه ومع باقي الزعماء المنضمين إليه^(٦٨)، وقد كان ذلك أقل مما طالب به المجاهد العياشي، لكن فشل مشروعه لم يكن يعني توقف استفادة العياشي من علاقاته مع إنجلترا، فقد حصل على بعض ما كان يرغب فيه: السلاح، وبذلك استعد لتنظيم أول حملة قوية ضد المعمورة^(٦٩).

نظراً لكل ذلك، ومع عدم دخول أي اتفاق حيز التنفيذ، استمر الإنجليز في هجوماتهم في البحار ضد السلاويين، فبعث الموريسكيون مفوضين عنهم في مناسبتين يحملون شكايات في هذا الشأن إلى ملك إنجلترا، وقد تم تكليف هاريسون بشكل رسمي باستقبالهم؛ ففي ١ يوليو ١٦٢٨م كتب محمد بن أحمد مبعوث السلاويين إلى الملك شارل رسالة يخبره فيها بمرتكبي أعمال القرصنة من رعاياه الإنجليز ضد السفن السلاوية، كما عبر عن رغبة السلاويين في إسناد الملك لمهمة تمثيله من أجل استكمال والمصادقة على الاتفاقية لجون هاريسون^(٧٠).

لم تتوقف الاعتداءات والهجمات الإنجليزية ضد السفن السلاوية، رغم التزام هؤلاء بمضمون الاتفاقية الموقعة مع هاريسون، رغبة منهم في بناء علاقة سلمية مع الملك شارل الأول والحصول على دعمه في مواجهة باقي أعدائهم في الداخل والخارج، لكن القرصنة الإنجليز لم يتورعوا عن استغلال أية فرصة للسطو على السفن السلاوية وأسر ركابها والاستيلاء على حمولتها، متسببين بذلك في موجة غضب عارم لدى السلاويين، الذين أصبحوا ينظرون للأمر على أنه خدعة طالتهم من الملك الإنجليزي ورعاياه^(٧١). نتيجة لتلك العمليات العدائية التي اقترفها القرصنة الإنجليز، أصدر الملك شارل إعلاناً يدين فيه الأضرار التي سببها بعض الإنجليز ضد سكان الجزائر وتونس وسلا وتطوان، وانطلاقاً من المصالح التجارية التي يجب أن تكون معها،

فقد رفض الملك شارل التصديق على المعاهدة التي أبرمها ممثله معتبراً أن التفاوض مع ثوار وقرصنة أمر غير مشرف له^(٦٤)، وهو ما شكل ضربة قوية لمجهودات المبعوث الإنجليزي الحثيثة لبناء علاقات ودية مع السلاويين، خاصة بعد التزامهم بكل وعودهم، خاصة إطلاق سراح جميع الأسرى الإنجليز بمدينتهم. أخذ هاريسون في تحميس الملك عبر كتابة تقرير عن الموارد الطبيعية ووفرة المنتجات بشمال إفريقيا، كما حاول استغلال تدين الملك، بالإشارة إلى إمكانية نشر الديانة المسيحية هناك، متناسياً الضعف الذي لحق الأسطول البحري لبلاده وفراغ الخزانة الملكية^(٦٥).

لقد حدثت تحولات عديدة، حسب هاريسون، في إمارة سلا شبه-المستقلة، التي يقطنها الموريسكيون، فهؤلاء السلاويين انفصلوا عن السلطة المركزية في مراكش، وهم يبحثون عن الدعم العسكري لتسريع زمن عودتهم إلى إسبانيا، وقد أخبروا هاريسون بأنهم سيسعون أنفسهم بالكامل تحت حماية الملك الإنجليزي وسيساعدون الإنجليز في الاستيلاء على موانئ معمورة والعرائش (الموجودة بيد الإسبان)، كما عبروا عن رغبتهم في الدخول في الديانة البروتستانتية، بعد توصلهم بالأسلحة والذخيرة من الملك، وبالتالي رفض الديانة الوثنية الرومانية (الكاثوليكية) والدين المحمدي الذي يتبعونه؛ حث هاريسون الملك بشدة على تبني قضيتهم، ليس فقط لأن السلاويين سيدعمون التجارة الإنجليزية ويبعدوا المنافسين الإسبان والأوروبيين عموماً، بل أيضاً "لأن هؤلاء الاندلسيين مسيحيون في أعماقهم"^(٦٦).

لم تأت مجهودات جون هاريسون بالنتائج التي كان يرجوها، فبعد تحقيقه لهدفه الرئيسي المتمثل في تحرير رعاياه الأسرى، اكتفى الملك شارل بالتعبير عن نواياه الطيبة تجاه السلاويين، دون الالتزام بشيء مما طلبوه، وتجاهل الإشارة إلى المعاهدة التي وقعها معهم مبعوثه الخاص، وبالتالي عدم التصديق عليها، وقام ببعث رسالة إلى حكام سلا (الرباط) ٢٢ أكتوبر ١٦٢٧م يعبر فيها عن سروره لإطلاقهم سراح رعاياه وطرد القياد المسؤولين عن الأعمال المعادية لإنجلترا، كما تمنى أن تستعيد سلا ازدهارها، وعبر عن سعادته بالاستقبال الذي سيحظى به الإنجليز مستقبلاً في مينائها^(٦٧).

ست قطع مدفعية وذخيرة، من أجل القيام بعملية تبادل مع من سيراه مناسباً^(٧٧).

كان الهدف من تعيين هاريسون هو استغلال الخبرة التي حصل عليها من تجاربه السابقة، فتم تعيينه لحمل رسائل من شارل الأول إلى ديوان سلا وإلى الشريف المولى عبد الملك، وأيضاً إلى أبي حسون علي بن موسى السملالي. كان على هاريسون الذهاب إلى المغرب للمرة السابعة، لكنه وجد صعوبة في تمويل رحلته وهو ما جعله يتأخر في السفر، إلى أن وجد تاجراً سبق أن ساهم في تحرير من الأسر، والذي وعده بنقله إلى المغرب وتقديم خدمات عديدة لصالحه ولصالح الملك شارل.

جعلت الوضعية الغير مستقرة للمغرب التفاوض حول تحرير التجارة واقتداء الأسرى بشكل كلي أمراً صعباً جداً، فإذا كان العدد الأكبر من أولئك الأسرى بأيدي الموريسكيين المستقلين، فإن آخرين منهم كانوا موجودين في سجون الشريف، كما كان البعض الآخر في "إليغ"، عاصمة الإمارة التي أنشأها أبو حسون السملالي في جنوب المغرب^(٧٨)، فخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، كان الحكم المركزي يتمتع باحتكار للسلاح الناري ويملك تفوقاً واضحاً على القبائل، لكن في القرن السابع عشر، خلق تهريب السلاح الممارس من طرف التجار المغامرين من أوروبا الغربية نوعاً من التوازن بين السلطة المركزية وقوات القبائل^(٧٩).

عند وصول هاريسون إلى سلا في ٨ أبريل ١٦٣٠م، كانت هناك مواجهات عنيفة بين الهورناشيين الموجودين في القصب، والأندلسيين في سلا الجديدة (الرباط)، حيث كان الأندلسيون يطالبون سكان القصب بتقاسم السلطة معهم، وهو ما أدى إلى اشتباكات متواصلة بين الطرفين. أبدى الطرفان سرورهما بوصول المبعوث الانجليزي، وتم استقباله بحفاوة في الديوان بالقصب، حيث قام بتلاوة رسائل الملك شارل الأول إلى السلاويين الذين أبدوا احتفاءهم بها. وتم التوصل في الأيام الموالية إلى اتفاق بين الطرفين المتنازعين بعد وساطة من أحد الأولياء ومن هاريسون كذلك، تضمن تشاركا بينهما للسلطة على المدينة^(٨٠).

فقد قرر أن يمنح رعاياه من القيام بأعمال عدائية تجاههم^(٧٢).

سابعاً: هاريسون ومواجهة المنافسة الفرنسية والهولندية في المغرب (١٦٣٠م)

على الرغم من عدم قيام الملك شارل الأول بأية محاولة لتنفيذ خطط الغزو للمغرب، فقد انتبه القادة البحريون إلى الحاجة للاستيلاء على قواعد في البحر المتوسط، كما جاء في مقترح هاريسون من قبل. لقد كانوا متخوفين من المحاولات الفرنسية لاحتلال المغرب، وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا في ذلك، فإن مخططاته بقيت تشكل خطراً لا يمكن للبريطانيين تجاهله، خاصة بعد أن وعد الفرنسيون السلطان المغربي بالسماح له بشراء السفن والذخيرة التي يمكن أن تقوي قدراته البحرية وتهدد السفن البريطانية^(٧٣). كما بنى الهولنديون من جهتهم علاقات ودية مع المولى زيدان، وباعوا له سفناً وأنشأوا مصانع في الساحل الأطلسي للبلاد، لذلك كان على البريطانيين التحرك بسرعة لبناء روابط عسكرية وتجارية مع المنطقة، وإلا ستقوم القوى الأوروبية الأخرى بقطع الطريق عليهم عن أسواق مربحة؛ ومع حرب الثلاثين عاما التي دمرت القارة وقلصت من الرواج التجاري، لم يكن بإمكانهم خسارة سوق أخرى لمنتجاتهم^(٧٤).

أصبح المولى عبد الملك بن زيدان سلطاناً في مراكش بعد وفاة والده سنة ١٦٢٧م (١٠٣٧هـ)^(٧٥)، أرسل السلطان الجديد سنة ١٦٢٨م إلى الملك شارل الأول يخبره بأنه بعث الباشا أحمد بن علي بن عبد الله والسيد أحمد بوعلي سفيرين لديه للنظر في الأمور التي تهم البلدين، ويخبره في هذه الرسالة بقرار اعتمادهما لديه "حتى يستقبلا بما يستقبل به السفراء"، وذكرهما بما يحظى به الإنجليز في المغرب من رعاية وعطف^(٧٦). قام الملك شارل باعتماد جون هاريسون من أجل مهمة جديدة بالمغرب، للتفاوض من أجل تحرير الأسرى وبناء العلاقات التجارية مع هذا البلد، كما رخص له باصطحاب السجناء المغاربة بإنجلترا، بالإضافة إلى

فقد جاءت الأخبار بحدوث هجوم إنجليزي جديد، فقد استولت سفينتان إنجليزيتان على غنيمة من الرايس السلاوي جعفر، مكونة من الأثواب وعدة أسرى إسبان وعلوج، ورغم إرسال مبعوثين إلى إنجلترا لم يتم استرجاع المحجوزات، نتيجة لذلك طالب ممولو السفن بحجز بضائع التجار الإنجليز الموجودين في سلا (الرباط). منح السلاويون هاريسون مهلة أربعة أشهر للعودة من إنجلترا بأجوبة شافية على ما حدث، وهو ما كان يعني بالنسبة لهم إعادة ما سلب منهم ومعاقة مرتكب ذلك الهجوم، كل ذلك تحت طائلة حجز ممتلكات التجار الإنجليز بمدينة سلا كتعويض عن الخسائر^(٨٦).

غادر المبعوث الإنجليزي سلا في الأول من غشت، متوجهاً جنوباً نحو سانتا كروز، وعمل عند وصوله على بعث رسائل الملك شارل الأول مع بعض الإنجليز إلى أبي حسون السملالي حاكم ماسة^(٨٧)، مع رسالة شكر على إطلاقه سراح الأسرى الإنجليز لديه؛ فنظراً لإحساسه المتواصل بالتهديد من قوة إسبانيا القريبة، كان أبو حسون يبحث عن الدعم الإنجليزي عسكرياً وتجاريًا، وكان مستعداً لفتح أسواقه أمام التجارة الإنجليزية وإعادة جميع الأسرى الإنجليز، إذا وعد الملك شارل بالقيام بالمثل، وطرد قراصنته من البحر، والأكثر أهمية من ذلك، أنه كان يأمل أن يقوم الإنجليز بمساعدة الأسرى المسلمين الهاربين من الأسر الكاثوليكي للعودة إلى بلادهم، وهو ما عبرت عنه رسالته بتاريخ ١٦ شتبر ١٦٣٠م إلى الملك شارل بعد إطلاقه سراح الأسرى الإنجليز: "...فقد وقع منا ذلك رعاية لمصلحة الاسلام، ليلا يبقى في جميع عملكم أسير مسلم إلا وأخرجتموه لبلاد الاسلام سواء كان من أهل قطرنا أو من غيره من أقطار الاسلام، و كذا من كان خارجا عن حكمكم و وجدتم إلى استخلاصه سبيلا، فإن وفيتم بذلك فقد أمناكم في أموالكم ودمائكم على نحو العهد الواقع بين بعض من تقدم من أمراء الاسلام و بينكم، فقد جددنا لكم العهد على ذلك، فلا يبقى لدينا من قبائل انكلز أسير ما دتم باقين على الوفاء بالعهد باذلين في ذلك الجهد..."^(٨٨).

نفى المبعوث الإنجليزي أي مسؤولية للملك عن اعتداءات القراصنة الانجليز، التي تتم دون علمه وضدا على إرادته، وأبلغهم أنه للحد من تلك الأعمال في المستقبل، قام الملك بإصدار إعلان يحظر أية أعمال عدائية ضدهم من طرف الإنجليز، وقام هاريسون بعرض نص ذلك الاعلان أمام الحاضرين بالديوان. وتلقى السلاويون تلك التوضيحات بشكل جيد، أملين في توقف تلك الاعتداءات، وتم منح امتيازات لصالح للتجار الإنجليز^(٨٩)، واعدن بالتدخل لدى سلطان مراكش لصالح الأسرى الإنجليز، كما سيجد التجار الإنجليز نفس الاستقبال الذي يجدونه في لندن^(٩٠). تلقى هاريسون رسالة من المجاهد العياشي خلال مقامه في سلا تعيد طرح مقترحه السابق، ملحاً على قيام الإنجليز بعملية ضد المعمورة التي يحتلها الإسبان؛ وكلفه بحمل نفس المشروع إلى الحكومات المتحدة لهولندا^(٩١).

غادر المبعوث الإنجليزي سلا في ٢٤ ماي ١٦٣٠م متجهاً نحو أسفي، حيث تم تحذيره من غضب المولى عبد الملك منه ومن السلاويين على إطلاق سراح الأسرى الإنجليز في السابق، وهو ما كان يخالف رغبة أبيه المولى زيدان ورغبته هو أيضاً، إضافة إلى وصول أخبار عن قيام تمرد جديد على السلطان السعدي^(٩٢). دفع كل ذلك هاريسون إلى الإعراض عن فكرة التوجه إلى مراكش، وقام بإرسال رسائل الملك شارل إلى قائد مدينة أسفي، موصياً إياه بإيصالها إلى المولى عبد الملك، واعد بالعودة للحصول على جواب السلطان عندما تسنح له الفرصة لذلك^(٩٣). أما فيما يخص الرحلة نحو ماسة، فقد كان مرغماً على التخلي عن الفكرة بسبب رفض القبطان الإنجليزي للسفينة التي كان على متنها التوجه جنوباً، وبعد التوقف بسانتا-كروز، تينيريفي وماديرا، وصل هاريسون إلى سلا في ٣ يوليوز ١٦٣٠م.

وصل أسطول فرنسي إلى ميناء المدينة بعد مرور عشرة أيام، بقيادة القائد دو رازيلي ونائبه دي شالار، في مهمة لافتداء حوالي مئتين من الأسرى الفرنسيين في المدينة. قدم هاريسون خدماته لهؤلاء، وتوصل إلى الحصول على تخفيض لصالحهم في ثمن افتداء الأسرى الفرنسيين، حيث تم إطلاق سراح مئتين منهم، وهو ما دفع رازيلي للتعبير عن امتنانه الكبير لجون هاريسون.

ثامناً: محاولة هاريسون الأخيرة لإنقاذ العلاقات المغربية-الإنجليزية

لم يستطع هاريسون الوفاء بوعده للسلاويين بالعودة إليهم بعد أربعة أشهر بسبب استبقاءه بإنجلترا من طرف الملك، رغم طلباته المتكررة من أجل السماح له بالسفر، ولم يتمكن من المغادرة إلا في ٢ من شتبر ١٦٣١م، وكان الهدف من مهمته هذه المرة هو حل الخلافات المتعلقة بالفنائم البحرية، والتوصل إلى تحرير الأسرى الإنجليز، كما أنه في ذلك العام قتل السلطان عبد المالك بن زيدان^(٩٥)، وخلفه بمراكش وأحوازا أخوه المولى الوليد^(٩٦)، فكان على هاريسون التوجه كذلك إلى مراكش لتحية السلطان الجديد، ومحاولة توطيد العلاقات التجارية معه، بالإضافة إلى التفاوض معه من أجل افتداء الأسرى الإنجليز الموجودين بحوزته^(٩٧).

انطلق جون هاريسون في رحلته الثامنة نحو المغرب من ميناء دونز يحذوه التفاؤل في نجاح مهمته، خاصة مع وصول المولى الوليد إلى الحكم بالمغرب، نظرا لشخصيته المتزنة مقارنة بسابقيه، لكنه كان "مكنوس الراية مهزوم الجيش، وبسبب ذلك لم يصن له مما كان بيد أبيه وإخوته إلا مراكش وبعض أعمالها"^(٩٨).

وصل المبعوث إلى سلا في ٢٥ شتبر ١٦٣١م، لكنه وجد الموريسكيين مهتاجين بشكل كبير بسبب عملية سلب جديدة طالتهم من طرف الإنجليز. عندما كان هاريسون يتفاوض مع المغاربة من أجل سلامة التجار البريطانيين، وجد أن السلامة التي يجب أن يتفاوض من أجلها ليست فقط الخاصة بالإنجليز بل أيضاً بالمغاربة، ففي رسالة بتاريخ ٩ أكتوبر ١٦٣١م، اشتكى من قيام سفينة إنجليزية بالقبض على سفينة سلاوية وبيع بحارتها إلى الإسبان، مثل هذا الخرق للاتفاق لم يكن محرراً فقط كما أشار، بل خطيراً جداً بالنسبة إليه وللتجار الإنجليز المقيمين بالمغرب^(٩٩).

لم يتأخر رد فعل السلاويين، وفور وصول الخبر إليهم تم إلقاء القبض على التجار الإنجليز بالمدينة ومصادرة ممتلكاتهم، رافضين أي تبرير من هاريسون لما حدث، بل تم كذلك إعطاء الأوامر للسفن السلاوية بالقبض على أية سفينة إنجليزية يصادفونها في البحر،

بعد وصوله إلى إنجلترا في 20 شتبر ١٦٣٠م، قدم هاريسون تقريراً إلى الملك شارل الأول عن مقترحات سيدي العياشي التي تهم دعوته الإنجليز للقيام بالاستيلاء على المعمورة، لكن المباحثات التي كانت تجري حينذاك مع إسبانيا للوصول إلى سلام بين البلدين منعت الملك من الاهتمام بذلك المشروع، وتبعا لتعليمات سيدي العياشي، أبلغ هاريسون تلك المقترحات للحكومات المتحدة لهولندا في ٢٦ مارس ١٦٣١م، وقد قرر هؤلاء تأجيل هذه المسألة إلى ظرفية أكثر ملاءمة^(٩٩).

بعث محمد بن عبد القادر سيرونا قائد السلاويين رسالة إلى جون هاريسون بتاريخ ١٤ يوليوز ١٦٣١م يخبره باستياء السلاويين من عدم توصلهم بالتعويض عن الأضرار التي سببها لهم الإنجليز، على الرغم من انتهاء مهلة الأربعة أشهر التي أعطيت له منذ مدة طويلة، فمنذ ذلك الحين، انتزع منه الإنجليز ثلاثة من العبيد آخرين، وذكر بالجهود الكبيرة التي قام بها لبناء السلام، وطلب بتحقيق العدالة^(٩٠).

كان القراصنة الإنجليز يجدون في القرصنة والاسترقاق مشروعاً مربحاً يعوض التراجع الاقتصادي في بلادهم، وخسارة الأسواق في أوروبا التي مزقتها حرب الثلاثين عاما، وكانت أفعالهم تقوض سمعة التجار وملكهم، فقد كانوا يعطون للمغاربة المبرر لمهاجمة السفن الإنجليزية والاسكتلندية، وتهديد القناة الإنجليزية، بقولهم أن المسيحيين سباقون دائماً لخرق عهودهم، وقد اعترف هاريسون صراحة بأن القراصنة المغاربة يقبضهم على أسرى بريطانيين، لم يكونوا يتصرفون انطلاقاً من وحشية قاسية، بل يرسلون انتقاماً محسوباً ضد أولئك الذين نكثوا الاتفاقيات التجارية لصالح القرصنة^(٩١). كما لم يكن كل الأسرى البريطانيين من الرعايا المسالمين، بل كان بعضهم قراصنة وسفاحين، يشيعون النهب والصوصية في أعالي البحار^(٩٢).

على صعيد آخر، تأزمت الحالة في عام ١٦٢٩م بين الملك شارل الأول والبرلمان، وهنا حل الملك البرلمان؛ وبدأ عهداً من الحكم الشخصي امتد ما يزيد على إحدى عشر سنة^(٩٣)، وانتهز شارل الأول ووزارؤه فرصة حل المجلس لجباية الضرائب بوسائل مختلفة^(٩٤).

سلم هاريسون رسالة ملكه إلى السلطان الجديد، وقد تضمنت طلبه بإحياء العلاقات الطيبة بين البلدين وتحرير الأسرى الإنجليز بالمغرب، لكن الشريف لم يخف في رسالته الجوابية أن السبب الرئيسي لاحتجاز هؤلاء الأسرى بممالكه هو العلاقات التجارية التي يربطها التجار الإنجليز مع الثوار، وأبرزهم أبو حسون السملالي، الذي يزودونه بالأسلحة والمدافع والذخيرة الحربية التي تستعمل ضد جيشه، لذلك وجب على شارل الأول بداية العمل على إيقاف تلك التجارة غير المشروعة مع الثوار، من أجل تحقيق رغبته في إطلاق سراح الأسرى الإنجليز^(١٠٦). كما طالب بتحرير جميع الأسرى ليعودوا إلى بلاد المسلمين، سواء كانوا مغاربة أو من بلاد إسلامية أخرى^(١٠٧). وقد أجل الشريف البت في جميع تلك المسائل العالقة إلى ما بعد التوقيع على اتفاقية كلف المبعوث الإنجليزي بحمل مشروعها إلى الملك شارل الأول، وقد تضمن مشروع تلك الاتفاقية بنوداً عديدة تصب أغلبها في صالح الإنجليز.

تضمنت البنود السبعة عشر لمشروع هذه الاتفاقية تركيزاً على حرية الشعائر الدينية المسيحية، مما يبرز الخلفية الدينية لهاريسون، كما تفتح عدة بنود المجال للإنجليز للتجارة والتنقل بحرية داخل المغرب، بينما ركزت أغلب البنود على إعطاء الضمانات للتجار الإنجليز سواء في حمايتهم أو سلامة ممتلكاتهم، مع الإحالة عدة مرات على الامتيازات التي تتمتع بها الإنجليز على عهد المولى أحمد المنصور، إضافة إلى المطالبة بمعاملة المغاربة بالمثل في إنجلترا^(١٠٨). عاد جون هاريسون إلى إنجلترا، وقدم رسائل المولى الوليد إلى الملك شارل الأول في ١٤ ماي ١٦٣٢م، ومعها استعطاف من الأسرى الإنجليز بمراكش إليه، للقيام بما يلزم لإنقاذهم من أسر طال بعضهم لمدد تصل إلى عشرين سنة^(١٠٩).

على الرغم من إلحاحه المتكرر، لم يستطع هاريسون اقناع الملك شارل بالتصديق على الاتفاقية التي اقترحها الشريف بين البلدين^(١١٠)، وقد أبلغ هاريسون الملك بالغضب الذي يشعر به المولى الوليد بسبب عدم تلقيه جواباً عن رسائله أو على مشروع تلك الاتفاقية، وهو ما بدأت نتائجه تنعكس بصورة سيئة على الأسرى والتجار

وهو ما شهد عليه المبعوث الإنجليزي منذ الأيام الأولى لوجوده في ميناء سلا، بإحضار سفينة سلاوية لسفينة إنجليزية قبضت عليها مع ثمانية من الأسرى الإنجليز على متنها^(١١١).

نتيجة للتوتر الكبير ناشد هاريسون الملك ليكتب إلى ملك إسبانيا من أجل تحرير الأسرى ووضع مرتكبي ذلك الفعل في السجن لآزدرائهم لبلاغات الملك^(١١٢). لقد كان قلقاً لدرجة أنه كتب رسالة أخرى في الأسبوع الموالي (١٥ أكتوبر)، يلوم فيها مواطنيه على المشاكل التي كانوا يسببونها له وللتجار الآخرين، ويدعو التجار لتحمل مسؤوليتهم في الأخطار التي سيتعرضون لها بعد الآن، نتيجة رفضهم السابق لتعيين قنصل إنجليزي بالمغرب، خصوصاً بعد مبايعة السلاويين للمولى الوليد، المنحدر من أم موريسكية مثلهم^(١١٣). كما دعا الإنجليز، في حالة عدم إعادة الأسرى ومعاقبة المعتدين من القراصنة الإنجليز، إلى الاستعداد بشكل أفضل لمحاربة السلاويين الذين لم تعد لهم ثقة في إنجلترا، وسيسعون بشكل حثيث لإلحاق أكبر الأضرار بها من خلال مهاجمة سفنها أو سواحلها^(١١٤)، خاصة بعد أن تم سلب سفينة أخرى من طرف قرصان إنجليزي^(١١٥).

قرر هاريسون عدم النزول إلى اليابسة في سلا خوفاً من الساكنة الغاضبة، وبقي على متن السفينة في الميناء إلى غاية ١٥ أكتوبر، تاريخ انطلاقه نحو أسفي، وقد قام بتغيير السفينة التي كانت تقله، خوفاً من استيلاء السفن الحربية الفرنسية التي حملت سفراء من الملك الفرنسي لويس الثالث عشر إلى المغرب، على حمولة السفينة الإنجليزية من المدافع وغيرها من البضائع، تبعا للاتفاقية التي وقعها معهم المولى الوليد، والتي تنص على أن يمنع الفرنسيون السفن الإنجليزية من التجارة أو تسليح المناطق النائية على سلطته^(١١٦). وصل المبعوث الإنجليزي إلى أسفي، وبعد إرساله لخبر وصوله إلى مراكش طلباً لإذن السلطان السعدي بالمثل أمامه، دفعته رياح معاكسة نحو السواحل الإسبانية، فلم يعد إلى أسفي سوى في ١٥ نونبر، لينطلق يومين بعد ذلك نحو مدينة مراكش، حيث تم استقباله من طرف المولى الوليد.

خاتمة

من أجل إصدار حكم موضوعي حول مسار جون هاريسون الدبلوماسي بالمغرب، ومدى فعالية الدور الذي قام به لاستعادة قوة العلاقات المغربية-الإنجليزية من خلال رحلاته المتتالية، يجب الأخذ بعين الاعتبار هشاشة الأوضاع في المغرب في تلك الفترة، والتي تميزت بالانقسامات والحروب الداخلية وانعدام الأمن، وكذلك غياب سلطة مركزية تتفرد بالقرار، فقد كانت النجاحات التي حققها هاريسون في مهامه ظرفية ومحدودة الأثر على العلاقات بين البلدين، ويرجع ذلك أيضاً إلى عدم قدرة ملوك إنجلترا على السيطرة على رعاياهم في البحر، بل لم يقوموا بمجهود يذكر في هذا المجال، وسعى شارل الأول على الخصوص إلى تحقيق مكاسب فورية دون تقييد بلاده بأية التزامات تجاه الأطراف المغربية، نتيجة تراجع الأهمية الاستراتيجية للمغرب في السياسة الخارجية والاقتصادية لبريطانيا، التي أخذت تتحول إلى امبراطورية ممتدة على عدة قارات، متجاوزة حاجتها للحليف المغربي كما كان عليه الأمر في القرن السادس عشر. لكن كل تلك الظروف لم تقلل من أهمية الأدوار التواصلية والدبلوماسية لواحد من أكثر المبعوثين الانجليز حيوية ومبادرة، مسخراً في ذلك كل امكانياته التفاوضية والعلاقات المتشعبة التي استطاع بناءها مع مختلف الأطراف بالمغرب، رغم عدم تقدير ذلك بالشكل الكافي من طرف حكومة بلاده، سواء مادياً أو معنوياً.

الإنجليز بالمغرب^(١١١). لا يوجد تفسير لتقاعس الملك شارل عن تحرير رعاياه بالمغرب من الأسر، خاصة بعدما تم تنظيم حملة في وقت سابق لجمع الأموال لتحرير هؤلاء الأسرى، سوى التأكيد على ما سبق ذكره عن مآل تلك الأموال إلى خزائن الملك وباقي الوسطاء في تلك العملية.

استمرت محاولات جون هاريسون للحصول على جواب من الملك، وكذلك لتمكينه من التعويضات على المهام التي قام بها لصالحه بالمغرب إلى غاية ١٦٣٤م دون جدوى، وكانت تلك خاتمة لمساره المهني كمبعوث ملكي، فلم يتم استخدام هاريسون بعدها في المغرب، وعلى العموم، لم تحض مهماته العديدة بالمغرب بنتائج تستحق التقدير بالنسبة لإنجلترا، ولم تحقق له شخصياً سوى القليل من التكريم وأرباحا تكاد تكون منعدمة، لذلك نجده لا زال يطالب القيادة البحرية سنة ١٦٣٨م بتسديد جزء من المتأخرات المستحقة له^(١١٢).

الإحالات المرجعية:

(32) Ibid, p. 284, n. 3.

(٣٣) رزوق محمد، **ملاحظات حول علاقة موريسكيي المغرب ببريطانيا**، حركة البشر والأفكار بين بريطانيا والمغرب العربي، إشراف عبد الجليل التميمي ومحمد صالح العمري، مؤسسة التميمي، تونس، ٢٠٠٣، ص. ٢٥.

(34) SIHM, Pays-Bas, T4, Ibid, p. 284.

(35) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 565

(36) Ibid, p. 573.

(37) SIHM, ANG, T٢, op.cit, p. 567.

(38) Ibid, p. 572.

(39) SIHM, ANG, T٢, op.cit, p. 573.

(40) Ibid, p. 580.

(41) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 579.

(42) Ibid, p. 580.

(43) Matar Nabil, **Britain and Barbary 1589-1689**, University press of Florida, Florida, USA, 2005, p. ٤٣.

(44) SIHM, Pays-Bas, T4, op.cit, p. 285,

(٤٥) **العايشي محمد بن أحمد** المجاهد السلواي، ولد سنة ١٥٧٣م، بدأ الجهاد من أزموور ضد البرتغال المحتلين للجديدة، فنمت شهرته إلى أن ولاه المولى زيدان السعدي ثغر أزموور، قبل أن ينتقل إلى سلا هربا من الدسائس التي كانت تحاك ضده لدى السلطان. بعد ثورة أهل سلا على سلطة المولى زيدان وانتشار الفوضى طلب منه بعض أهلها وشيوخ منطقة الغرب القيام بوظيفة الجهاد، فغدا أميرا للجهاد في السهول الأطلسية من طنجة إلى أزموور. عمل على ضبط القبائل وضيق على الإسبان والبرتغال في الثغور المحتلة بشكل كبير، وكان يهدف إلى تحرير المراكز التي يحتلها الأجانب. بايعه أهل فاس سنة ١٦٣١م، وربط علاقات مع بعض الدول الأوروبية كإنجلترا وهولندا. أدت الصراعات التي نشبت بينه وبين الدلائيين إلى انهزامه ولجؤه إلى قبائل الخلط الذين قاموا باغتياله في ٢١ أبريل ١٦٤١م. **عبد اللطيف الشاذلي، معلمة المغرب**، ص. ٦٢٦-٦٢٦١.

(٤٦) "بدأ المجاهد العياشي جهاده ضد المسيحيين بالجديدة، فولاه المولى زيدان ثغر أزموور، قبل أن يفر نحو سلا بعد عزم زيدان على التخلص منه لذووع صيته". الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق د. جعفر الناصري، ذ. محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧، ص. ٣٨٩.

(47) SIHM, Pays-Bas, T4, op.cit, p. 288.

(٤٨) الشاذلي عبد اللطيف، **الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن ١٧**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٢، ص. ١٠٢.

(٤٩) رزوق محمد، **ملاحظات حول موريسكيي....** مرجع سابق، ص. ٢٩.

(50) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 33.

(51) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 569.

(52) Ibid, p. 583.

(53) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 10.

(٥٤) ذكر الأفراني أن القايد عجيب قتل من طرف السلوايين الأفراني.م، مصدر سابق، ص. ٢٦٥.

(١) جون هاريسون John Harrison، أحد النبلاء التابعين لأمير بلاد الغال، تم اختياره لأسباب غير معروفة لحمل رسالة الملك جيمس الأول إلى المولى زيدان بالمغرب سنة ١٦١٠م، فيقوم بثمان رحلات إلى المغرب ما بين سنتي ١٦١٠ و١٦٣٢م، عمل من خلالها على بناء علاقات قوية بين البلدين وحل مشاكلهما العالقة، خاصة مسألة افتداء الأسرى الانجليز بالمغرب.

(2) De Castries Henry, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc**, 1(ere) série, bibliothèque d'Angleterre, Tome 2, Paris, France, 1918-1925, p. 420. (SIHM)

(3) Ibid, p. 421.

(4) SIHM, ANG, T3, p. 64.

(5) Ibidem.

(6) SIHM, ANG, T3, op.cit., p. 65.

(7) Ibid, p. 610.

(8) Ibidem.

(9) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 441.

(١٠) الإفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨، ص. ٢٠٣.

(١١) الفشتالي أبي فارس عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق: د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، المغرب، ١٩٧٢، ص. ٢٠٨.

(12) SIHM, ANG, T3, Ibid, p. 66.

(13) SIHM, Pays-Bas, T2, op.cit, p. 32٧.

(14) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 438, n. 2.

(15) Ibid, p. 442.

(16) SIHM, Pays-bas, T2, Ibid, p. 32١.

(١٧) القادري محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الاتفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص. ٦٧.

(18) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 479.

(19) Ibid, p. 506.

(20) SIHM, Pays-Bas, T2, op.cit, p. 106-138.

(21) SIHM, ANG, T2, Ibid, p. 442.

(22) SIHM, Pays-Bas, T2, op.cit, p. 506.

(23) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 63.

(24) Ibid, p. 66.

(25) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 68.

(26) Ibidem.

(27) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 68.

(28) Ibid, p. 6٩.

(29) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 573.

(30) Ibid, p. 444.

(31) SIHM, Pays-Bas, T4, p. 284, n. 3

- (٩٣) فيشر هيربرت، **أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية**، ترجمة عصمت راشد زينب ومصطفى أحمد عبد الرحيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١، ص. ٢٨١.
- (٩٤) نوار عبد العزيز، جمال الدين محمود محمد، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية**، دار الفكر العربي، مدينة نصر، مصر، ١٩٩٩، ص. ٢٠٨.
- (٩٥) القادري، محمد بن الطيب، **نشر المئاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطلاب، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، ص. ٢٩٠.
- (٩٦) **الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور الذهبي**، أحد سلاطين الدولة السعدية، حاول القيام ضد أخيه عبد الملك وفشل في ذلك، فلجأ إلى سلا، حيث استضافه المجاهد محمد العياشي، ونشأت بين الرجلين صلات حين بويغ الوليد، حيث كان العياشي يكتبه وينصحه بتقوى الله والعدل بين الرعية ويدعوه للجهاد. تولى الملك بعد مقتل أخيه يوم ١٦ شعبان ١٠٤٠هـ (٢٠ مارس ١٦٣١)، ولم يصف له إلا حوز مراكش، وقد سعى إلى استرجاع بعض أمجاد الدولة السعدية وقرب إليه عددا من العلماء، أمثال القاضي بن عيسى بن عبد الرحمان السكتاني الذي ألف له شرح صغرى السنوسي، والطبيب علي بن ابراهيم الأندلسي الذي ألف له منظومة في الفواكه الصيفية والخريفية. توفي قتيلا يوم ١٤ رمضان ١٠٤٠هـ (٢١ فبراير ١٦٣٦م). عبد اللطيف الشاذلي، **معلمة المغرب**، الجزء العاشر، ص. ٧٦٢.
- (٩٧) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 151.
- (٩٨) الناصري، مصدر سابق، ص. ٤٣٤.
- (٩٩) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 160.
- (100) Ibid, p. 162.
- (101) Ibid, p. 161.
- (102) Ibid, p. 162.
- (103) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 164.
- (104) Ibid, p. 167.
- (105) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 167, n. 1.
- (106) Ibid, p. 170.
- (107) Matar. N, op.cit, p. 122.
- (108) SIHM, ANG, T3, ibid, p. 174: ٥١٣، مرجع سابق، ص.
- (109) Ibid, p. 179.
- (١١٠) إخوان ز، مرجع سابق، ص. ٥١٣.
- (111) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 186.
- (112) SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 448.

- (55) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 40.
- (56) Ibid, p. 14.
- (٥٧) إخوان زمرة، **العلاقات المغربية الأوربية في القرن الحادي عشر الهجري (٥١٧هـ)**، ج٢، أطروحة دولة مرقونة، إشراف محمد حجي، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص. ١٦٠.
- (58) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 15.
- (59) Ibid, p. 16.
- (60) Ibid, p. 21.
- (٦١) الشاذلي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص. ١٠٨.
- (62) SIHM, ANG, T3, op.cit, ibid, p. 23.
- (63) Ibid, p. 25.
- (64) SIHM, ANG, T3, op.cit, pp. 10, n. 2 et 59, n. 3.
- (65) Ibid, p. 51.
- (66) Ibid, p. 5٢.
- (67) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 58.
- (68) Ibid, p. 60.
- (٦٩) الشاذلي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص. ١٠٨.
- (70) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 73
- (71) Ibid, p. 75
- (72) Ibid, p. 80
- (73) Matar. N, Britain..., op.cit, p. 43.
- (74) Ibid, p. 44.
- (٧٥) الأفراني، مصدر سابق، ص. ٢٤٣.
- (٧٦) إخوان ز، مرجع سابق، ص. ١٦١.
- (77) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 82.
- (٧٨) الزباني أبو القاسم، **البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، القسم الأول، دراسة وتحقيق، رشيد الزاوية، ط ١، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1992، ص. ٣٨.
- (79) Rivet Daniel, **Histoire du Maroc de Moulay Idris à Mohammed VI**, Fayard, France, 2012, p. 210.
- (80) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 107.
- (81) Ibid, p. 111.
- (82) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 89.
- (83) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 112.
- (84) Ibid, p. 115.
- (85) Ibid, p. 116.
- (86) Ibid, p. 120
- (٨٧) ذكر المختار السوسي في كتابه إيليغ عن نفوذ سيدي علي (أبو حسون): "فقد صفا ما بين تخوم درعة إلى ساحل البحر المحيط السوسي لبودميعة". السوسي محمد المختار، **إيليغ قديماً وحديثاً**، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ١٩٦٦، ص. ٥٨.
- (88) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 93.
- (89) SIHM, Pays-Bas, T4, op.cit, p. 289.
- (90) SIHM, ANG, T3, ibid, p. 135.
- (91) SIHM, ANG, T3, op.cit, p. 165.
- (92) Matar. N, op.cit, p. 124.

الاقتصاد الرعوي في قبيلة بني يزناسن وأثره في تشكيل المجال الحدودي الشرقي للمغرب قبل الاستعمار

د. بويكارن هشام

دكتوراه في التاريخ الحديث

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين

لجهة بني ملال خنيفرة – المملكة المغربية



ملخص

يهتم هذا المقال بالبحث في جوانب من النشاط الرعوي لقبيلة بني يزناسن قبل الاستعمار، منطلقين من أهمية هذه القبيلة وخصائصها الطبيعية والسكانية والتي ساهمت في جعل الرعي جزءاً من موارد القبيلة الأساسية، ثم إبراز المقومات التي كانت تنظم عليها الحياة الرعوية فيها وكيفية تدبيرها لهذا النشاط للاستفادة من إمكانياته، بالإضافة إلى العلاقات الرعوية وكيفية استغلال المراعي طيلة السنة مع الإشارة إلى بعض القوانين المنظمة لها خاصة العرفية منها، وبعض العوامل التي كانت تؤثر على الرعي والرعاة في قبيلة بني يزناسن. يهدف هذا الموضوع إلى الكشف عن أهمية الرعي في حياة القبائل المغربية، وكيفية مساهمته في الدينامية التاريخية التي عرفتها خصوصاً بني يزناسن التي هي موضوع المقال، حيث إن هذا النشاط شكل محورا لعلاقاتها مع الجيران سواء مع القبائل المغربية أو الجزائرية الموجودة في الحدود، مما كان له دور مهم في التأثير حتى على علاقات الجوار مع الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على الجزائر منذ القرن السادس عشر الميلادي. خُصص المقال في الأخير إلى أن الرعي كان نشاطاً رئيساً للقبيلة، وقد ساهم في تطوراتها التاريخية في عدة مراحل، متأثراً بالظروف المحيطة ببني يزناسن على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والتي كانت بدورها تتحكم في سيرورة الحياة الرعوية في المنطقة بسمياتها الخاصة التي تختلف بها عن باقي قبائل المغرب.

كلمات مفتاحية:

بني يزناسن؛ النشاط الرعوي؛ القبيلة؛ المراعي؛ التاريخ الحديث والمعاصر

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.427154.1281

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بويكارن هشام، "الاقتصاد الرعوي في قبيلة بني يزناسن وأثره في تشكيل المجال الحدودي الشرقي للمغرب قبل الاستعمار"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة- العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦، ص ١٢١ - ١٢٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: hicham.bouizgarne@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

يُنشر هذا المقال في دُورية كان 4.0 Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. تُنشر هذه المقالة في دُورية كان 4.0 Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

يشكل النشاط الرعوي أبرز الأنشطة التي كانت تشكل مورداً مهماً للقبائل المغربية قبل الحماية إلى جانب النشاط الزراعي؛ فالرعي كان مكملًا للزراعة عند البعض ونشاط رئيس عند البعض الآخر، تبعاً لموقع القبيلة والظروف المحيطة بها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

تعتبر قبيلة بني يزناسن المتواجدة في الشمال الشرقي للمغرب من بين هذه القبائل التي مارست الرعي والانتجاع لعقود طويلة؛ حيث هيمن هذا النشاط على حياة القبيلة في مجموعة من المجالات، وذلك نتيجة مجموعة من العوامل التي أثرت على حياتها بشكل عام من طبيعة تضاريس المنطقة والمناخ، اللذين كان عاملين بارزين في الاهتمام بالرعي وتربية الماشية.

والرعي وملكية المراعي من قبل القبيلة وتديرها كان يخضع لتنظيم محكم تتزاوج فيه الأعراف القبلية مع الشرائع الإسلامية في تنظيم الحياة الرعوية وتوفير موارد العيش، كما كان الانتجاع جزءاً من النشاط الرعوي الذي كان يستهدف توفير الكلاً للماشية في مجالات توفر ذلك سواء داخل مجال القبيلة أو خارجها. يهدف هذا المقال إلى الكشف عن دور النشاط الرعوي في حياة قبيلة بني يزناسن كمورد اقتصادي ومساهمته في تحديد نمط عيش السكان، وإبراز دوره في تاريخ المنطقة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي قبل الاستعمار. وذلك كله من خلال الإجابة على مجموعة من الأسئلة أبرزها:

- ما أهم الامكانيات الطبيعية والبشرية للنشاط الرعوي بقبيلة بني يزناسن؟
- كيف كان يتم تدبير ملكية المراعي داخل القبيلة؟
- أين تتجلى أهمية الانتجاع عند قبيلة بني يزناسن؟
- ما طبيعة العلاقات الرعوية بين بني يزناسن والقبائل المجاورة؟

سيعتمد مقالنا في إنجازنا على المنهج التاريخي، منطلقين من تتبع وضع قبيلة بني يزناسن في مجموعة من المصادر والدراسات المختلفة، ومركزين على الكشف عن طبيعة الأنشطة الاقتصادية في القبيلة وأهم التحولات التي عرفتتها، وذلك لإبراز خصوصياتها مقارنة مع باقي القبائل المغربية في الفترة نفسها.

أولاً: تعريف قبيلة بني يزناسن

١/١- مجال قبيلة بين يزناسن

تقع قبيلة بني يزناسن في الشمال الشرقي من المغرب في منطقة قريبة من المناطق الحدودية الشرقية، جغرافياً تمتد من الأحواض الداخلية لبركان إلى نهر ملوية من الجهة الغربية وصولاً إلى الحدود مع الجزائر شرقاً، ويحدها من الشمال سهل تريفة الذي يمتد حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب سهل أنكاد^(١).

يتميز مجال قبيلة بني يزناسن بسيادة المناخ الجاف وشبه الجاف؛ مع تباين في توزيعه بين المناطق الشمالية والجنوبية وبين الغربية والشرقية، ويساهم تواجد جبال الريف والأطلس في الجهة الغربية في منع مرور الكتل الهوائية الباردة إلى المنطقة التي تعطي التساقطات^(٢)، هذا عكس التأثير بالكتل الساخنة القادمة من الجنوب والشرق والتي تؤدي إلى جفاف المناخ، وتعرف المنطقة عموماً فصلين واضحين أحدهما مطير يمتد من أكتوبر إلى ماي والآخر جاف يمتد في باقي شهور السنة^(٣)، ومعدلات التساقطات تختلف من سنة إلى أخرى ولا تتعدى في السنوات المطيرة ٦٠٠ مم كأعلى نسبة في جبال بني يزناسن مع تواجد مناطق تقل فيها بشكل بارز خاصة في الجهة الشرقية^(٤)؛ حيث تتناقص كلما ابتعدنا عن البحر الأبيض المتوسط في اتجاه الجنوب.

تتركز القبيلة في المنطقة الجبلية المسماة على اسم قبيلة بني يزناسن (جبال بني يزناسن)، هذه الجبال لعبت دوراً مهماً في حياتها، وساعدتها في كثير من الأحيان على تجاوز مجموعة من المحن والاضطرابات التي عاشتها بفعل تواجدتها في هذا الموقع، كما أن توفرها على موارد طبيعية مهمة من الغطاء النباتي والغابوي المتنوع، وكذلك توفر فرشة مائية متنوعة ومهمة ساهم في تنوع الأنشطة الاقتصادية بها والتي تركزت

المكونة لها من العادات التي دأب عليها السكان كما أشار إلى ذلك صاحب الحلل البهية في مجال وجدة^(٩). وتنقسم حسب ما وصل إلينا إلى أربع فروع أو فخذات قبلية كبرى هي كالتالي:

بني وريمش: تعتبر من أكبر الفروع داخل بني يزناسن، من ناحية عدد السكان، وأراضيها تقع في مجال يتميز بالجفاف والقحولة، بالإضافة إلى قلة الموارد المائية^(١٠)؛ حيث يضطرون بسبب ذلك إلى جلب الماء من المناطق المجاورة، وكانت توجد لهم أراضي بسيط أنجاد، وكانوا يجاورون قبائل كبدانة والريف من عيون سيدي ملوك جنوباً إلى أولاد بوخريص على حدود ملوية شمالاً^(١١)؛ ساعدتهم كثرة السكان في جعلهم من أكبر القبائل في الشمال الشرقي.

بني خالد: تقع هذه القبيلة في الحدود مع الجزائر يحدهم شمالاً أراضي عرب تريفية وجنوباً الضريبة، يتميز مجالها بالتباين في موارده وفي أنشطته، التي تتركز أيضاً على الفلاحة في المناطق القريبة رغم أن المياه قليلة؛ حيث يعتمد بشكل كبير على مياه الآبار، أما المجال المحاذي لربوة الكريوس على حدود تريفية فهو غني بالعيون المائية التي ساعدت على انتشار في ضواحيها حدائق وبساتين مخضرة^(١٢).

بني عتيق: تتواجد بني عتيق في المنطقة الممتدة بين بني منقوش شرقاً وبني وريمش غرباً، ويحدها من الجنوب سهل أنجاد ومن الشمال سهل تريفية، يتميز مجالها بمناخ رطب إلى شبه جاف^(١٣)، وأراضيها خصبة، وتعتبر الأجمل ضمن بني يزناسن، وتستفيد من مرور عدة أودية منها كواد شراعة وزكزل، وكذلك امتلاكها لأراضي سهول تريفية والذي ساعدها استغلالها في تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية مقارنة مع باقي بني يزناسن، تركز اهتمام القبيلة بالنشاط الزراعي؛ حيث كان لها عدة بساتين وحدائق متنوعة^(١٤).

بني منقوش أو منكوش: هذه القبيلة يعتبرها الورطاسي من القبائل الصنهاجية، وكانوا يستقرون في سجلماصة ومن بعد تغلبوا على المغرب الأوسط قبل أن يستقروا في منطقتهم التي يعرفون بها^(١٥)؛ وجعلها موليراس ضمن قبائل تريفية^(١٦)، تمتد حدود بني منقوش من أراضي الأبصار الواقعة على حدود قبيلة

على الفلاحة والرعي إلى جانب التجارة خاصة مع المجالات والقبائل المجاورة^(١٧). وبالنسبة للارتفاعات فهي متباينة في المنطقة ولا تتعدى أكبر قمة ارتفاع ١٥٣٢م بأفوغال^(١٨). وإلى جانب جبال بني يزناسن تمتد القبيلة في مجموعة من السهول والمنخفضات الداخلية كسهل تريفية وأنكاد ومنخفض تاوريرت؛ حيث كانت مجالا تستغله القبيلة في الرعي والزراعة بأشكال مختلفة مستفيدة من امتدادها، وحاولت تطوير الاستغلال الزراعي فيها عبر التقنيات والخبرات التي اكتسبها السكان مع احتكاكهم بالمجال، وتبديير يجمع بين الفردي والجماعي على حسب طبيعة الملكية التي تحدد شكل الاستغلال للأرض.

وبني يزناسن تعتبر أيضاً من عمالة وجدة حسب عبد العزيز بن عبد الله ويشمل مجال نفوذها جماعات كثيرة منها «أحفير وبركان والسعيدية وعين الركادة وعين الصفا وأكليم وأغبال وبني أدرار ومداغ ومولاي محمد وتافوغالت وزكزل»^(١٩).

٢/١- سكان قبيلة بني يزناسن

يظهر تتبع أصول قبيلة بني يزناسن وزمن استقرارها بالشمال الشرقي للمغرب أن هناك اختلاف بين الباحثين في هذه الأصول وتحديد بدقة كما هو شأن مجموعة من القبائل المغربية، التي نجد حولها تأويلات متعددة بشأن جذورها وفروعها ومراحل تطورها التاريخي وكذلك مجال استقرارها في بعض الأحيان، وهذا نفس ما يسجل على بني يزناسن وذلك نظراً لطبيعة المعلومات المصدرية التي وصلتنا وتأثر القبيلة بمحيطها وتعاقب على المنطقة مجموعة من الهجرات^(٢٠)؛ حيث استقر في المنطقة إلى جانب السكان الأصليين جماعات أخرى اندمجت فيها وأصبحت عنصراً منها حتى اختلفت الأنساب واختلطت بين العرب والبربر، وهو ما ساهم في تنوع عناصر القبيلة طيلة تاريخها.

أسهم الاحتكاك الطويل بين هؤلاء الفروع السكانية في بناء هوية بني يزناسن الذين نجد فيهم عدة فروع قبلية مختلفة، جعلت البعض يسميها باتحادية بني يزناسن نظراً لقوتها وامتدادها وكذلك للعلاقات التي كانت تربط بينها، حيث كان تأسيس اللفوف بين القبائل

نجد سهل تافراطة الذي كان يتوفر إلى حدود القرن العشرين على أكثر من ٦٥ ألف هكتار من المراعي واستقبل في سنة ١٩٢٠ أزيد من ٢٢٠٠٠٠ رأس من الأغنام^(٢١).

كانت ملكية المراعي ملكية مشتركة بين الأسر داخل القبيلة ويتم تسييرها بشكل جماعي كما هو الشأن بالنسبة لمجموعة من القبائل المغربية، وذلك وفق الأعراف المتفق عليها بين أفراد المجموعة الواحدة، وللقبيلة جماعة تشرف على حياة الرعي والانتجاع تتولى مهمة تدبير المراعي الجماعية واستغلالها؛ حيث يتم تحديد وقت الاستغلال وشروطه، وكذلك توفير جميع المستلزمات لذلك، خاصة فيما يخص الحماية التي اهتمت بها بني يزناسن بشكل كبير، وهذا يظهر في تجنيد القبيلة بفخدااتها عدد كبير من الأفراد لمواجهة المشاكل التي كانت تقع فيها بالمنطقة الحدودية؛ إذ كانت مجالا للصراع طيلة العصر الحديث وقبلة وهذا ما أثر بشكل كبير على الرعي الترحالي بالمنطقة خصوصا مع الضغط العثماني منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي ومحاولة سيطرته على المغرب سواء خلال العصر السعدي أو العلوي، الشيء الذي كان يجعل السلاطين يتحركون لضمان ولاء هذه القبيلة بجميع الوسائل ولو كانت لضمان أمن المنطقة، وهذا رأيناه في تمهيد مولاي إسماعيل بني يزناسن^(٢٢) وتأسيس عدة قصبات منها قصبة سلوان وقصبة العيون وملوية وتازة لحماية المنطقة وضبطها^(٢٣).

كان السلاح في حياة القبيلة ضرورياً بالنسبة لها لحماية أمنها ومواردها من المراعي^(٢٤)، وقد بقي الوضع على ذلك الشأن حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وهذا يظهر في تتبع عدد الجنود التي جاء بها موليراس عند حديثه عن المنطقة، ففي بني خالد وحدها وصل عدد قواتها إلى ١٢٠٠٠ جندي^(٢٥).

وجدت بني يزناسن في سهل أنكاد وطريفة الشاسعة مجالا رحبا لمواشيها وبالتالي كانت أشد الحرص على امتلاك أراضي فيها؛ حيث كانت هذه السهول تزدهر في فصل الربيع خصوصا إذا كانت السنة جيدة من حيث التساقطات، وقد سجل شارل دوفوكو أفراح هذه القبيلة عند الانتجاع إليها بقطعانها التي تجد ما تتغذى عليه

المهابة جنوبا إلى غاية حدود أراضي سهل طريفة وقبيلة العثمانة شمالا^(١٧).

ثانياً: الحياة الرعوية بقبيلة بني يزناسن

يعتبر مجال بني يزناسن من المناطق التي عرفت حياة الرعي منذ القديم؛ حيث ساعدت طبيعة المنطقة الجغرافية وخصائصها المناخية في جعلها منطقة للنشاط الرعوي خاصة في جبال بني يزناسن إلى جانب الزراعة والتجارة المعتمدة بشكل رئيسي على تجارة المواد الفلاحية مع الجيران.

تأثرت المنطقة والنشاط الرعوي بشكل كبير بطبيعة القبيلة والهجرات التي عرفت، خصوصا وأن القبائل الزناتية ومنها بني يزناسن اشتهرت بحياة الترحال والبادية والعيش على الرعي كما تشير إلى ذلك مجموعة من المصادر المهتمة بتحركات هذه القبائل سواء قبل استقرارها بالمغرب أو بعده رغم اتجاهها أكثر نحو الاستقرار^(١٨)، بالإضافة إلى أن مجال بني يزناسن كان أيضاً محط بعض قبائل الجنوب المهتمة بالترحال مثل القبائل الصنهاجية وبني مرين التي استطاعت الوصول إلى هذه المنطقة في إطار توسعاتها قبل أن تصل إلى الحكم وتستوطن بعضها المجالات الشرقية للمغرب في إطار بحثها عن مراعي جديدة لماشيتها^(١٩). وهذا ساهم بدوره في جعل اقتصاد القبيلة في بعض الأحيان مشابهها مع قبائل أخرى، تهيمن عليه الفلاحة والرعي بنسب مختلفة، وفي هذا يشير عبد الرحمان المودن نقلاً عن إميل لاوست إلى أنه «ليس هناك اختلاف بين اقتصاد البرابرة الزناتيين، والذي هو اقتصاد قروي يمزج بين الفلاحة والرعي، واقتصاد آيت سادن الصنهاجيين الذي يشابه بدوره في كل شيء مثيله عند القبائل العربية المجاورة بني يازغة والحيانية...»^(٢٠).

اشتغل سكان قبيلة بني يزناسن بالرعي وكانوا يمارسونه بشكل واسع وبأنماط مختلفة تجمع بين تربية الماشية المحدودة والرعي والانتجاع في المجالات القريبة لاستقرارها، وكانت تحركات فخدات القبيلة ومجالات رعيها تختلف حسب مجال انتشار مراعيها خاصة في جبال بني يزناسن والسهول المحيطة بها مثل أنكاد وطريفة، ومن بين السهول الكبيرة في الجهة الشرقية

الفخدات القبلية المكونة لها، ويمكن التمييز فيها عموماً بين تنقلات ضعيفة، وهي تنحصر في المناطق القريبة لمجال سكن القبيلة أو الدوار، وغالباً ما تستغل فيها الأراضي الزراعية والغابات المحيطة بها في رعي الماشية حتى لا يضطر السكان إلى التنقل من منازلهم وتركز هذا التنقل في جبال بني يزناسن بشكل كبير. ثم تنقلات متوسطة وهي التي كانت تتم في اتجاه السهول والمناطق المنخفضة؛ حيث كان السكان يذهبون إلى المراعي الجماعية المشتركة مع قرب فصل الربيع؛ إذ ينزلون من المناطق الجبلية إليها في وقت محدد من قبل جماعة القبيلة للاستفادة من كلاءها وغالباً ما تكون هذه الأراضي عبارة عن أكدال أو مرعى جماعي. بالإضافة إلى هذا نجد تنقلات طويلة المدى وتقوم بها بني يزناسن نحو المناطق الصحراوية في الجهة الشرقية؛ مستفيدة من ربط علاقات مع قبائل الجوار في إطار تبادل المصالح بينهما، وقد كان ذوي عبيد الله «من عادتهم أن يرحلوا إلى نواحي تلمسان في فصل الصيف»^(٣٢). وعموماً «فخصوبة بعض أراضي المنطقة، ووجود سهول ونجود جذبة، أفرزت نمط حياة يقوم على ثنائية الاستقرار لبعض الزراعات المعاشية إلى جانب حياة الترحال»^(٣٤).

ثالثاً: العلاقات الرعوية وتدبير المراعي

نشير في بداية هذا المحور إلى أن الحديث عن العلاقات بين القبائل وبين الفخدات حول تنظيم الرعي والانتجاع سواء في أوقاته أو باقي التفاصيل الخاصة بالحياة الرعوية، لم يصل إلينا عنه الكثير في المصادر التي كتبت عن العصر الوسيط والحديث، باستثناء بعض الإشارات التي تتحدث عن ترحال بعض القبائل في بعض السهول وعلى ضفاف بعض الأنهار مثل أم الربيع وملوية وغيرها، وأغلب الإشارات حول هذا الموضوع وصلت من الرواية الشفوية والتقاليد الرعوية التي تعارف عليها السكان المغاربة، نظراً لارتباطهم الوثيق بالنشاط الرعوي والترحال باعتباره مصدر أساسي في نمط عيشهم.

وقبيلة بني يزناسن كغيرها من القبائل المغربية لا تفصل حياتها الرعوية عن ما كان يجري في أغلبها،

نظراً لوفرة العشب فيها^(٣٦)، وتبقى فيه إلى غاية نهاية فصل الصيف الذي يبدأ فيه العشب يقل، وتعود إلى مجالاتها في انتظار فصل آخر.

وكانت بعض قبائل بني يزناسن القريبة من الحدود تصل إلى الظهرة بالجزائر^(٣٧)؛ حيث كانت تستفيد أيضاً من مراعيها في إطار الترحال الرعوي الذي كانت قبائل الحدود تتبادل فيه المصالح بينها رغم الصعوبات الأمنية التي تطرح أمامها في بعض الأحيان نتيجة الصراعات السياسية وقد استمرت هذه العلاقات الرعوية حتى احتلال فرنسا للجزائر ومن بعدها المغرب، مما أثر على الحياة الرعوية وأحدث فيها عدة اختلالات نتيجة ذلك.

واعتمد في إطار امتلاك المراعي والأرض، إلى جانب الحصول على جزء من الأراضي الجماعية داخل القبيلة على كراء الأرض لضمان أراضي الرعي والزراعة^(٣٨)، خاصة بسهل تريفية وأنجاد بالنسبة للأسر التي لا تتوفر على أراضي كبيرة المساحة وكانت ماشيتها كثيرة. وأغلب هذه المواشي ضمت الأغنام والماعز والحياد، بالإضافة إلى الأبقار، ويختلف عددها من فخذة إلى أخرى وعلى حسب الأسر، وثروتها منها كانت من بين المحددات الأساسية لعدد القطعان داخل القبيلة الواحدة، وتذكر المصادر الوسيطية أن مدينة وجدة كانت تنتشر فيها تربية الأبقار والخيول والثيران والأغنام مستفيدة من مروجها الخضراء الصالحة للرعي وخاصة الأغنام، التي تميزت بجودتها؛ حيث كان يوجد في الشاة الواحدة من شياه الرعاة مائتا أوقية من الشحم ويصنعون من صوفها أكسية ليس لها نظير^(٣٩).

وكانت الزراعة نشاطاً رئيساً عند سكان بني يزناسن إلى جانب هيمنة نشاط تربية الماشية؛ حيث عرفوا بأنهم فلاحون بالفطرة وأراضيهم تنتج مواد كثيرة من الحبوب والشعير والقمح والأشجار المثمرة كالتين والبرتقال والخروب واللوز والجوز والرمان^(٤٠)، وبني يزناسن حسب قدور الورطاسي «قد ضربوا الرقم القياسي في الحيوية والنشاط في الميدان الزراعي، كما تلاحظ نفس الحيوية في الميدان التجاري»^(٤١).

وتختلف التنقلات الرعوية^(٤٢) على حسب الأسر والقبائل وتتأثر بالظروف الطبيعية والمناخية لمجال بني يزناسن وكذلك الثروة الحيوانية التي تتوفر عليها

وتقاسم الاستغلال أو في الحماية التي كانت عصب هذه الاتفاقات المختلفة، ورغم أنه كانت هذه التعاقدات تتم بالأعراف التي يتم الاتفاق حولها بين شيوخ القبائل فإنه كانت لها صبغة إلزامية للسكان، ويتم السهر على تطبيقها بجميع الوسائل الممكنة لضمان استمراريتها، حتى باستعمال القوة في بعض الأحيان.

ولا يجب أن ننسى أن الأعراف لم تكن وحدها هي القانون الذي كان ينظم المراعي وتنظيم الأرض، وإنما كانت أيضاً الشرائع الإسلامية تطبق في تدبير الحياة اليومية للرعاة، ساعد في ذلك وجود مجموعة من الأولياء والزوايا داخل بني يزناسن، الذين دعموا هذا التوجه بتدخلاتهم في حل بعض المشاكل والقضايا المرتبطة بالترحال والانتجاع؛ فالقبيلة تعتبر من أهم القبائل التي تعرف انتشار كبير لهم، ساعد على ذلك ما كان يقدمه لهم السكان من هبات واحترام وتقدير لهؤلاء؛ فقد كانوا مندمجين في الحياة اليومية لهم، وكانت هبتهم وعلمهم وإيمانهم يعطي لقرارتهم صفة القداسة والاحترام من قبل القبيلة.

كان يواكب انطلاق موسم الانتجاع في بني يزناسن مجموعة من الطقوس المختلفة، التي تتركز بشكل كبير على الاحتفال ببداية الانتجاع خاصة في المواسم المزدهرة، وكذلك حماية الرعاة ومواشيهم؛ فقد كانت هناك عادات كثيرة مرتبطة بطقوس الحماية أثناء الترحال الرعوي تستمر حتى نهاية موسم الرعي والعودة إلى الموطن الأصلي، يسهر عليها أفراد متخصصين داخل الأسرة، غالباً ما يكون الراعي ومساعديه المكلفين بالرعي؛ حيث ينتقل هؤلاء في أكواخ أو خيم معدة لغرض متابعة الماشية وحمايتها، ويضطرون إلى التجمع مع أسر أخرى منتمية إلى نفس الجماعة قصد دعم جهود الحماية من اللصوص وكل الأخطار التي يمكن أن تهدد المرعى والمواشي، خاصة القطعان في فصل الصيف تبقى في مساحات مفتوحة^(٤١).

لم تكن تتأسس العلاقات بين بني يزناسن والقبائل الأخرى الموجودة في الشرق سواء في الجزائر أو في المناطق الصحراوية بالجنوب على الرعي وتدبير المراعي فقط، ولكن كانت تشمل أيضاً باقي المصالح الاقتصادية الأخرى مثل تبادل المواد التجارية التي تحتاجها القبائل،

باستثناء بعض الخصوصيات المرتبطة بطبيعة السكان والمجال الذي كان يؤثر في النشاط الرعوي وتنظيمه، فشمول تنقلاتها لمحاور مختلفة وفي اتجاهات متعددة داخل المجال الجبلي الذي تستوطنه وخارجها، جعلها تربط علاقات متعددة مع السكان في مناطق الانتجاع وخاصةً على طول نهر ملوية الذي يذكر مارمول أنه كان في الصيف مجالا لانتقال جماعات من الأعراب والبرابر «الذين يملكون كمية من الخيل والإبل، وعدد كثير من الماشية الصغيرة والكبيرة»^(٣٥).

كانت التنقلات للبحث عن المراعي تتم في مرحلتين خلال السنة أو ما يسمى برحلة الشتاء والصيف؛ فإذا كان البعض من بني يزناسن يتجه نحو ضفاف الأنهار والسهول خاصة تريفية وأنجاد في فصل الصيف، فإن البعض الآخر كان يتجه نحو الصحراء في الشتاء للبحث عن المرعى^(٣٦)، قبل العودة إلى الجبل الذي كان له دور أساسي في حياة القبيلة، فهو الموطن الأصلي ومنه تتم كل التحركات. وقد نتج عن الانتجاع الصيفي والشتوي علاقات بين الجبل والسهل فيما يخص استغلال الأرض؛ حيث تضطر القبائل الجبلية إلى النزول إلى السهول للاستفادة من الكلاً والظروف الملائمة، في حين أن قبائل السهول تنتقل إلى الجبل لنفس الاعتبارات^(٣٧).

وامتلاك المرعى والتنقلات القبلية للانتجاع غالباً ما تطرح نزاعات بين القبائل؛ فالأعراب في ملوية كانوا في نزاع مستمر مع البربر حولها^(٣٨)، هذه الصراعات تؤدي إلى حروب بين القبائل لا تنتهي إلا بانتصار قبيلة على أخرى أو تدخل المخزن، أو في بعض الأحيان يتم اللجوء إلى الاتفاقات الودية والأعراف لحلها، ويذهب موسى كرزازي إلى أن النزاع بين العرب وبني يزناسن هو الذي ساهم في استقرار هؤلاء في الجبل واهتمامهم بالزراعة بشكل كبير^(٣٩)، خاصة بعد اقتحام القبائل العربية للريف الشرقي بين أنجاد وبلاد الواحات؛ حيث ساهم هذا نهاية العصر الوسيط في عودة الإغارة على الزروع والخصوبة للمجال الزراعي^(٤٠).

كما أن تردد عادة اللفوف والميعاد التي كانت تعرف بها قبائل بني يزناسن وباقي القبائل في الشمال الشرقي تؤكد وعي القبيلة بضرورة تنظيم المجال والمرعى للحفاظ على الموارد الاقتصادية، سواء في التدبير

بسبب الحدود وأخرى بين السلط الحاكمة في المغرب^(٤٧)، مما كان يؤثر على السير العادي للنشاط الرعوي، وهذه الحروب وغياب الاستقرار هو الذي جعل القبيلة من أهم القبائل المسلحة في المغرب وذلك للحفاظ على مصالحها الاقتصادية.

خاتمة

يمكن من خلال ما سبق الخروج بعدة استنتاجات وخلاصات أهمها:

أهمية النشاط الرعوي عند قبيلة بني يزناسن كنشاط رئيس مهم إلى جانب الزراعة، حيث سعى السكان إلى الاستفادة من إمكانيات المجال لتطويره والاستفادة من موارده عبر حسن التنظيم والتدبير بمجموعة من التشريعات تزواج بين الأعراف المحلية والتشريعات الإسلامية.

شح المادة المصدرة المساعدة للباحث على تتبع تطور الحياة الرعوية وأهم تحولاتها في تاريخ المغرب، يمكن تعويضه في بعض الأحيان بدراسة واقع القبيلة ومجالها وطبيعة الأنشطة وتحولاتها قبل الاستعمار في مجالات أخرى في إطار المنهج المقارن. وذلك من أجل فهم أهمية هذا النشاط في مجال له خصوصيات طبيعية مختلفة ساهمت في مزاوله بني يزناسن للرعي.

ممارسة النشاط الرعوي يرتبط فهمه بشكل جلي بربطه بواقع القبيلة وأعرافها وتأثرها بالتطورات السياسية وباقي العلاقات مع القبائل الأخرى خاصة بالنسبة لقبيلة بني يزناسن التي تتواجد بمحيط يفرض عليها هذه العلاقات المختلفة.

الاعتماد على الزراعة من قبل السكان في جبال بني يزناسن وتطويرها مستفيدين من التجارب التي راكموها من التعامل مع الأرض، خاصة في جانب التقنيات والري. يظهر أنها كانت نشاطاً مكملًا للرعي في عدة مناطق وتغطي عليه في مجالات أخرى داخل القبيلة.

إما عن طريق المقايضة أو البيع والشراء، فقد كانت القبائل تتجمع في أسواق معروفة بينها تكون مخصصة لهذا الغرض، وهناك أخرى أنشأت مخازن متعددة في الصحراء كما فعلت القبائل المرينية، تستغلها في السكن وفي خزن الحبوب^(٤٨)، وهذه المخازن الجماعية انتشرت في جميع القبائل، وتدبر بشكل جماعي عن طريق الأعراف، ويخصص لها حراس يسكنون فيها مثل سكان كرسيف الذين كانوا يتكلفون بهذه المهمة وقد ذكر الوزان بعض هذه المخازن^(٤٩)، كما عرفت القبيلة بالمراسي المشتركة التي تحفر في الأرض وقد كانت حاضرة في المنطقة حتى الدخول الفرنسي^(٥٠).

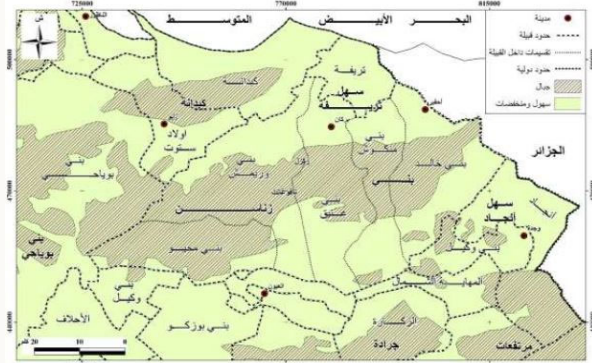
وكانت تتعدى التحالفات التي تضمن العلاقات الرعوية بين فروع بني يزناسن القبيلة لتشمل القبائل المجاورة كما هو شأن لف بني يزناسن ولف أنجاد؛ وذلك لمواجهة بعض المشاكل التي تطرح بين الفينة والأخرى خاصة أثناء سنوات الجفاف، حيث كانت بعض القبائل مثل المهاية تقاوم توسعات اليزناسيين عند هجرتهم إلى الهضاب العليا نحو سهل أنجاد بسبب الجفاف^(٥١).

وتدبير المراعي عند القبيلة كان يخضع إلى جانب ما سبق إلى مجموعة من الشروط والظروف التي كانت تتحكم فيه، وتغيرها يجعل هذا التدبير يتغير معها، أهمها الظروف الطبيعية للمنطقة ومدى توفر العشب للمراعي خصوصا في سنوات الجفاف التي يعرف فيها تراجعاً مما يجعل القبيلة تتحكم في تحركاتها نحو المراعي التي تكون تحت الحراسة طيلة السنة من قبل حراس يسهرون على حراستها إلى غاية فتحها، وكذلك توفر الموارد المائية الضرورية للحيوانات كان يرهن هو أيضاً القبيلة في اختيارها للمرعى، لأنه لا يمكن ترك الحيوانات والناس مدة طويلة بدون ماء، ورغم اشتها المنطقة بتوفرها على موارد مائية متنوعة^(٥٢)، فإنه هناك مناطق في بني يزناسن تعاني من الندرة التي تزداد أثناء الجفاف بسبب قلة الأمطار. ويظل الاستقرار السياسي وتوفير الأمن عاملاً أساسياً يتحكم في النشاط الرعوي في بني يزناسن، وذلك نظراً لموقع القبيلة الذي كان محورياً مهماً للصراعات السياسية وللتحكم في حكم المغرب منذ المرينيين ومن بعدهم السعديين ثم العلويين؛ حيث شهدت المنطقة حروب مع الجيران العثمانيين

الملاحق

الخريطة رقم (١)

مجال امتداد قبيلة بني يزناسن



المصدر: زروالي، عدنان، التحولات المجالية والاجتماعية بكتلة بني يزناسن: أسبابها ونتائجها، مجلة الدراسات الاستراتيجية والعسكرية، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، برلين، العدد: ١٨، السنة: مارس ٢٠٢٣، ص: ١١

الإحالات المرجعية:

- (١) العماري، أحمد، **بني يزناسن**، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، الرباط، السنة: ١٩٨٩، ج: ٥، ص: ١٥٠٦.
- (٢) العوينة، عبد الله، **تقديم طبيعي عن منطقة المغرب الشمالي الشرقي**، ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر (١٩٨٦)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٨، ص: ٢١، ٢٢.
- (٣) الحراجي، عبد الرحمان، **ملاحظات حول البيئة الجغرافية لمنطقة دبدو**، ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر (١٩٨٦)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٨، ص: ٣١.
- (٤) العوينة، **تقديم طبيعي عن منطقة المغرب الشمالي الشرقي**، م.س، ص: ٢٦.
- (٥) الحراجي، **ملاحظات حول البيئة الجغرافية لمنطقة دبدو**، ص: ٣٢، ٣٣.
- (٦) العوينة، عبد الله، **جبال بني يزناسن**، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، الرباط، السنة: ١٩٨٩، ج: ٥، ص: ١٥٠٣.
- (٧) ابن عبد الله، عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، السنة: ١٩٧٥، ج: ٤، ص: ٢٦٨.
- (٨) ترجع أصول بني يزناسن عموماً إلى قبيلة زناتة التي تعتبر من أقدم القبائل التي استقرت بالمنطقة. رغم الاختلاف بين الباحثين في هذه الأصول بالنظر إلى المعلومات المصدرة التي وصلتنا عنها، خاصة

- (٣٩) كرزاري، **الفلاح والأرض بتريفة**، ص: ١٦٦.
- (٤٠) تيتاو، حميد، **المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط"**: متغيرات ظرفية وتبدلات بنوية. مقال ضمن الفلاحية في تاريخ المغرب: أعمال ندوة وطنية تكريماً للأستاذ الدكتور أحمد أمزيان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرار - فاس، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، الطبعة: ١، السنة: ١٤٤٤/٢٠١٩م، ص: ١٠٣، ١٠٦.
- (٤١) موييط، الأسير، **رحلة الأسير موييط**، ترجمه إلى العربية: محمد حجي، محمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، دار المناهل للطباعة، وزارة الأوقاف المغربية، السنة: ١٩٩٠، ص: ١٣٤.
- (٤٢) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج: ١، ص: ٣٥٠.
- (٤٣) نفسه، ج: ٢، ص: ١٢٨.
- (٤٤) مهلة، ناجم، **نظام التحالف التقليدي وظهور الزعامات الفردية في المغرب الشرقي (١٨٤٢-١٨٧٦)**، ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر (١٩٨٦)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٨، ص: ٤٧٨.
- (٤٥) نفسه، ص: ٤٧٨، ٤٨١.
- (٤٦) كانت الموارد المائية متنوعة وتشمل مجموعة من الأنهار والعيون المتفرقة على طول مجال القبيلة، يختلف توزيعها على حسب التضاريس أهمها نهر ملوية الذي يعتبر شرياناً أساسياً في الشمال الشرقي ثم نهر القصب وزكزل ونهر كيس على الحدود، أما العيون فهي كثيرة إلى درجة أنه يصعب حصرها وتختلف من حيث صبيبها بين العيون الصغيرة والكبيرة، وتمثل مورداً أساسياً للسكان في النشاط الزراعي وكذلك في مياه الشرب للإنسان والحيوان، وقد كانت مجالات امتداد الماء مجالاً لاستقرار السكان وتركزهم، وقد اعتبرت بني يزناسن من القبائل المغربية التي تمكنت من تطوير أساليب السقي وتقنياته بشكل كبير، مستفيدة من الخبرة في التعامل مع تنوع المصادر المائية وحاجة استغلالها، خاصة في النشاط الزراعي؛ حيث كانت عدة مناطق تشتهر بالزراعة المسقية. العوينة، **جبال بني يزناسن**، ص: ١٥٠٤. الحافظ، إدريس، **الأعراف المرتبطة بتدبير واستعمال الماء بجبال بني يزناسن (المغرب الشرقي)**، ضمن كتاب التراث المائي والتنمية بالمغرب، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٥١، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، السنة: ٢٠١٨، ص: ٢٤٩.
- الأحمدي، نور الدين، **لمحة عن الطبيعة والإنسان في جبال بني يزناسن من خلال الماء واستعماله**. ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر (١٩٨٦)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٨، ص: ٨٢، ٤٢.
- (٤٧) اشتهرت المنطقة في العصر الحديث بالصراع بين مولاي رشيد ومولاي محمد، ومقتل هذا الأخير في أحد المعارك بينهما في أرض القبيلة سنة ١٦٦٤، حيث حسم الصراع بينهما. العمراني، محمد، **المغرب زمن العلويين الأوائل**، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة: ١، السنة: ١٤٣٥/٢٠١٣م، ص: ٣٨.
- العلوم الإنسانية والاجتماعية لأكاديمية المملكة المغربية، المجلد: ١، العدد: ١، السنة: ٢٠٢٢، ص: ٣٤٥.
- (٢٢) «وفي سنة إحدى وتسعين وألف خرج بالعساكر لبني يزناسن حين تمادوا على العصيان، فدخل جبلهم، وهتك حرمتهم، ونسف نعمتهم، وخرّب قراهم وحرقها، وقتل رجالهم، وسبى أولادهم، فطلبوا الأمان، فأمنهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح، فدفعوا ذلك وقاموا بدعوتهم. ثم نزل بسيط أنجاد ومعه قبائل الأتلاف وسفونة، فأخذ خيلهم وسلاحهم، وكلف أشياخهم أن يجمعوا ما بقي منها في حلتهم، ففعلوا». المشرفي، **الحلل البهية**، ص: ١٩٣.
- (٢٣) المشرفي، **الحلل البهية**، ص: ٣٢٠.
- (٢٤) مزواضي، عمر، **قبيلة زناتة (إزنانسن/إزنانتن).. القبائل الأمازيغية التي ادعت النسب العربي**، اطلع عليه في ١٥ أبريل ٢٠٢٤، الموقع: <https://ma3lama.com/> قبيلة-زناتة-إزنانسن-إزنانتن-القبائل/
- (٢٥) موليراس، **المغرب المجهول**، ص: ٢٠٣.
- (٢٦) دوفوكو، شارل، **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤**، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٩٨، ج: ١، ص: ٣٤٢.
- (٢٧) دوفوكو، **التعرف على المغرب**، ص: ٣٤٢.
- (٢٨) موليراس، **المغرب المجهول**، ص: ١٩٩.
- (٢٩) المراكشي (ق٥)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٥، ص: ١٧٧.
- (٣٠) موليراس، **المغرب المجهول**، ص: ١٩٢، ١٩٩.
- (٣١) الورطاسي، **بنو يزناسن**، ص: ٤٢.
- (٣٢) مهدي، محمد، **رعاة الأطلس: الإنتاج الرعوي، القانون والطقوس**، ترجمة: عياد أوبلال وإدريس المحمدي، المركز المغربي للعلوم الاجتماعية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة: ١، السنة: ٢٠١٣، ص: ٧٩-٨٤.
- (٣٣) الوزان، الحسن بن محمد، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، الطبعة: ٢، السنة: ١٩٨٣، ج: ١، ص: ٥٦.
- (٣٤) القادري بوتشيش، إبراهيم، **لماذا غيب الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط؟ (تساؤلات وتطبيقات)**، ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر (١٩٨٦)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة: ١٩٨٨، ص: ٣١٢.
- (٣٥) كاريخال، مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار النشر المعارف، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، السنة: ١٩٨٩، ج: ٢، ص: ٢٥٨.
- (٣٦) مارمول، **إفريقيا**، ج: ٣، ص: ١٤٦.
- (٣٧) المالكي، الملكي، **أنماط العيش بالمجتمع القبلي: نموذج تادلة والأطلس المتوسط**، ضمن ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب، أيام ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ أكتوبر ١٩٩٥، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مجلة أمل، العدد: ١٨، السنة: ١٩٩٩، ج: ١، ص: ١٠٢.
- (٣٨) مارمول، **إفريقيا**، ج: ٢، ٢٦٨.

تحوّلات نظام المواريث في تونس من المرجعية الفقهية إلى التّعديل التشريعيّ (١٨٨١ - ٢٠١٨)

د. سلمان العبدليّ

باحث في الحضارة العربيّة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تونس - الجمهورية التونسية



ملخص

يتناول هذا البحث مسار تحوّلات نظام المواريث في تونس من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ٢٠١٨، بوصفه مجالاً تتقاطع فيه المرجعيات الفقهية والقانونية والاجتماعية. فقد ظلّ الميراث، قبل الاستعمار، قائماً على الفقه المالكي والقضاء الشرعي، مؤطّراً بعادات اجتماعية كرّست في كثير من الأحيان تهميش النساء. ومع دخول الحماية الفرنسية سنة ١٨٨١، بدأت المرجعية الفقهية تفقد سلطتها أمام إصلاحات عدلية وقوانين وضعية، مما أحدث ازدواجية قانونية وتوتراً بين التقليد والتحديث. وقد حسم الاستقلال سنة ١٩٥٦ هذا التنازع عبر إصدار مجلة الأحوال الشخصية، التي لم تمسّ أنصبة الإرث، لكنها نقلت المرجعية من الفقهاء إلى القضاء المدني، فاتحة المجال لاجتهادات قضائية جديدة. بين ١٩٨١ و٢٠١٨، تعمّق النقاش حول العدالة الإرثية مع تنامي الخطاب الحقوقي والنسوي، ليتحوّل الإرث من شأن فقهي إلى قضية حقوقية وسياسية تهمّ الدولة والمجتمع المدني. وقد بلغت هذه التحوّلات ذروتها مع مبادرة المساواة في الإرث التي أعلنها الرئيس الباجي قائد السبسي سنة ٢٠١٨، والتي فجّرت جدلاً واسعاً حول العلاقة بين الشريعة والدستور، وبين الهوية والحداثة. يخلص البحث إلى أنّ نظام المواريث في تونس لم يعرف قطيعة فجئية، بل مساراً تراكمياً يعكس توازناً هشاً بين المرجعية الدينية ومقتضيات العدالة الاجتماعية.

كلمات مفتاحية:

الميراث؛ الفقه؛ القانون؛ التشريع؛ السلطة الدينية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٧ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.420983.1273

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سلمان العبدليّ، "تحوّلات نظام المواريث في تونس من المرجعية الفقهية إلى التّعديل التشريعيّ (١٨٨١ - ٢٠١٨)". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون؛ يناير ٢٠٢٦. ص ١٣٠ - ١٤٥.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: Salmen.abdelli@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 Attribution under the terms of the Creative Commons International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يشغل نظام المواريث موقعاً مركزياً في البناء الفقهي والاجتماعي للدولة الإسلامية، وقد حظي بعناية دقيقة في النصّ القرآني، قلّ نظيرها في غيره من أبواب المعاملات. فالآيات المفصلة في سورة النساء، والضوابط الصارمة التي وضعها الفقهاء لتقسيم التركات، تدلّ على الأهمية التي أُسندت إلى هذا المجال من التشريع، ليس فقط باعتباره وسيلة لضبط انتقال المال، بل باعتباره أداة لتنظيم الأسرة والمجتمع، وتحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات. لقد مثّل الميراث في المخيال الإسلامي نموذجاً للعدالة الإلهية المتعالية على الأهواء، وركيزة من ركائز النظام الأسري الذي يقوم على العصبية والقرباة وسلطة الأب.

في السياق التونسي، حافظ نظام المواريث طيلة القرون السابقة على قداسة مرجعيته الفقهية المالكية، وكان القضاء الشرعيّ هو الجهة الوحيدة المخوّلة بتصريف النزاعات المتصلة بالتركات، اعتماداً على منظومة علمية دقيقة من الفتاوى والأحكام الفقهية، وبالرجوع إلى مؤلفات كبار علماء المالكية. وكانت وثائق "تحرير الحصاص" شاهدة على هذه المنهجية الدقيقة في توزيع الإرث وفق أحكام الشرع، مستندة إلى قواعد "التعصيب" و"الفرض" و"الرد"، مع ما رافقها من مراعاة للأعراف الاجتماعية والمكانة الرمزية للأسرة الممتدة.

لكنّ دخول الحماية الفرنسية⁽¹⁾ سنة ١٨٨١ كان إيذاناً بتحوّلات كبرى مسّت مختلف مناحي الحياة، وفتح المجال أمام منظومة قانونية مغايرة، تستمدّ مرجعيتها من النموذج الغربي الحديث. فمع إصلاحات العدلية، وظهور محاكم جديدة، وتكوين قضاة عصريين، بدأت المرجعية الفقهية تفقد بعضاً من سلطتها، ودخلت في منافسة مع المرجعية القانونية الوضعية. لم يقع إلغاء الفقه الإسلامي، ولكن جرى "تحجيمه" ووضعه في زوايا مخصوصة من القضاء، في حين أُوكِلت الجوانب المالية والعقارية إلى محاكم جديدة لا تستند إلى الأحكام الشرعية التقليدية. وفي هذا المسار، بدأت بعض الثغرات تتسلل إلى نظام المواريث، لا بوصفها تلاعباً

بالأحكام، بل كنتيجة لتعدد المرجعيات القانونية وازدواجية القضاء.

ومع حصول تونس على استقلالها سنة ١٩٥٦، تمكّن المشروع البورقيبي من حسم هذا التنازع، عبر إصدار مجلة الأحوال الشخصية، التي نقلت المرجعية من الفقه إلى الدولة، ومن النصّ إلى المشرّع. وقد اعتُبرت المجلة علامة فارقة في تاريخ التشريع العربي والإسلامي، إذ ألغت تعدّد الزوجات، وقيدت الطلاق، ورفعت سن الزواج، ولكنها لم تمسّ أحكام الميراث، مما دلّ على استمرار الهيبة الرمزية للنصّ القرآني في هذا الباب. ومع ذلك، فقد مهّدت المجلة، بفلسفتها التحديثية، لانزياح بطيء في تمثّل العدالة الإراثية، من العدالة الفقهية إلى العدالة الحقوقية، ومن الشرعية الدينية إلى الشرعية الدستورية.

لم يكن هذا الانزياح مساراً مستقيماً، بل عرف تجاذبات وتوترات، تصاعدت بشكل ملحوظ خلال العقود الأخيرة، خاصة مع بروز خطاب حقوقي نسويّ، يتبنّى خطاب المساواة ويراهن على تأويل جديد للنصوص الدينية. وقد بلغ هذا المسار ذروته مع مبادرة رئيس الجمهورية الراحل الباجي قائد السبسي (١٩٢٦-٢٠١٩)، حين تقدّم بمشروع قانون يدعو إلى المساواة في الميراث بين الجنسين، مستنداً إلى الدستور، وإلى التحولات الاجتماعية، لا إلى النصوص الفقهية. وقد فجّر هذا المشروع جدلاً واسعاً بين المتمسّكين بمرجعية الشريعة، والداعين إلى مواكبة روح العصر، بين من يرى في المساواة انتصاراً للعدالة، ومن يراها خرقاً لثوابت الإسلام.

ينطلق هذا المقال من هذه اللحظة الجدلية الحديثة ليعيد النظر في المسار التاريخي الطويل الذي عرفته تونس في تعاملها مع نظام الميراث، من عهد البايات إلى الجمهورية الثانية. وهو يسعى إلى فهم طبيعة التحولات التي طرأت على المرجعية التشريعية للميراث، في ضوء تطوّر المؤسسات، وتبدّل السياقات، وتفاعل النخب الفكرية والدينية والقانونية. كما يحاول أن يبيّن كيف انتقل نظام المواريث من حيّز الفقه إلى حيّز الدولة، ومن سلطة النصّ إلى سلطة التأويل، ومن معيار التعصيب إلى معيار المساواة.

يقول الشيخ محمد بن الخوجة (١٨٦٩-١٩٤٣): "كان أول قاض حنفي تولّى القضاء بها (أي تونس) باختيار الباي هو الفقيه الشيخ أحمد الطرودي سنة ١٧٤٤ ثم ألحق به قاض على المذهب المالكي الزكي ولم يكن قبل ذلك للجماعة المالكية سوى نائب قاض يُنفذ عنه أحكامه القاضي الحنفي.

وأول من تولّى نيابة القضاء المالكي على عهد حكومة الأتراك هو الشيخ ساسي نوبة واسترسلت مباشرته لهذه النيابة في الدولة المرادية. وممن تولّاها بعده في العصر الحسيني الشيخ أحمد الرصاص وابنه الشيخ قاسم وحفيده الشيخ حمودة. وباشر بعدهم الشيخ حمودة الريكلي، وأول من تولّى القضاء المالكي بالاستقلال هو الشيخ محمد سعادة^(٣). لكن في العصر الحديث اتخذ المذهب المالكي بعداً سياسياً؛ إذ دعم الحكام شرعيتهم من خلال الاقتران بالفقه المالكي، وبمؤسسة جامع الزيتونة التي اضطلعت بدور حاسم في تكوين القضاة وإنتاج الفتاوى. وبذلك أضحت أحكام الميراث جزءاً من منظومة فقهية مغلقة نسبياً، تتكرّس فيها قواعد الفرض والتعصيب والوصايا، ضمن نسق ديني متماسك، يضع العدالة في طاعة النصوص لا في تحقيق الإنصاف بالمعنى الحديث، في هذا الإطار يقول الأستاذ عبد الباسط قوادر أستاذ فقه الوصايا والموارِيث بجامعة الزيتونة: "مع مرحلة التقنين والاختصار والاقتصار ظهرت لائحة الشيخ جعيط ثم مجلّة الأحوال الشخصية وبالرجوع إلى هذه المجلّة تبين لاحقاً أنّ المصدر الأساسي لهذه المجلّة هو لائحة الأحكام الشرعية المنسوبة لشيخ الإسلام المالكي عبد العزيز جعيط"^(٤).

لقد اتسم المجتمع الحسيني ببنية اجتماعية مركّبة، تضم فئات مترتبة تتمايز على أساس النسب، والمكانة، والملكية، واللون. وكانت قضايا الميراث تُمارَس ضمن هذه البنية، بما تحمله من علاقات سلطة ضمنية ومعلنة^(٥). فالفئة الحاكمة كانت تتحكّم في الأوقاف الكبرى، وفي الأرض الخصبة، في حين احتفظت العائلات الفقهية والعلمية بمكانة اعتبارية، مكّنتها من التأثير في القضاء والتعليم الديني. وبين هؤلاء، تبرز فئة من التجّار والحرفيين والموظفين ومالكي الأراضي الصغار، فيما

ومن هذا المنطلق، تُطرح الأسئلة التالية:

- كيف حافظ نظام الموارِيث في تونس على مرجعيته الفقهية التقليدية رغم التحولات السياسية والتشريعية منذ القرن التاسع عشر؟
- ما الدور الذي لعبته النخب التونسية الحديثة في دفع النظام الإرثي نحو التعديل والتأويل؟
- وهل شكّل مشروع المساواة في الإرث سنة ٢٠١٨ نقطة تحوّل حقيقية أم مجرد امتداد لمسار قديم من التوتر بين الشريعة والقانون؟

أولاً: المرجعية الفقهية التقليدية لنظام الموارِيث قبل الاستعمار

شكّل نظام الموارِيث في تونس ما قبل الاستعمار أحد الأعمدة المركزية التي ارتكزت عليها العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع، فقد تجاوزت وظيفة هذا النظام مجرد تنظيم الانتقال المادي للثروة من جيل إلى آخر، لتلامس أبعاداً رمزية وثقافية عميقة. فقد ارتبط الميراث بالمفاهيم الأساسية للعدالة الشرعية، واستُخدم في ضبط توازنات السلطة داخل العائلة والقبيلة، وكان في كثير من الأحيان أداة للحفاظ على السلم الأهلي والانتماء الطبقي^(٦).

عرفت البنية الفقهية في تونس خلال العهدين المرادي والحسيني ازدواجية لافتة بين الطابع الرسمي العثماني والمرجعية الفعلية المحلية. فمن جهة، كان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة باعتباره مذهب الخلافة العثمانية، وقد مثّله بعض القضاة والإجراءات الإدارية الرمزية. ومن جهة أخرى، ظلّ الفقه المالكي يشكّل المرجعية الفعلية والسائدة في القضاء والأحوال الشخصية والفتوى والتعليم الزيتوني، متجذراً في العادات الاجتماعية والتقاليد الفقهية لإفريقية. وقد تجسّدت هذه الازدواجية في مجالس القضاء الشرعي، التي ضمت أحياناً قضاة من المذهبين، ولكن الغلبة في التطبيق والممارسة كانت للمالكية، خاصة في مسائل الميراث والزواج والعقار. وتعرّز هذا التمازج في خصوصاً في العهد الحسيني، ليصبح بمثابة المذهب التشريعي العملي للدولة، حتى وإن لم يُعلن ذلك رسمياً،

تشكّل القاعدة الشعبية من الفلاحين والعمال الأجراء، إضافة إلى شريحة العبيد والمعتوقين^(٦).

كانت الممارسة الميراثية في العهد الحسيني محكومة بثنائية دقيقة: الفقه المكتوب والعرف الممارس. فبينما نصّ الفقه المالكي على تقسيم الثروة حسب فروض محددة تستند إلى الآيات القرآنية، كشفت الممارسة الاجتماعية عن نزوع قوي إلى اعتماد أعراف محلية تراعي مصالح العائلة ومكانة الذكور داخلها. وتعدّ مسألة "تجنّب" النساء من أهمّ الظواهر في هذا السياق؛ إذ جرى، في كثير من البيئات الريفية والحضرية، تهميش النساء في قسمة الإرث العقاري، خاصّة الأراضي الفلاحية، حفاظاً على "وحدة العرش" أو "الحوزة العائلية"، وتفادياً لانتقال الملكية إلى أزواج النساء. وفي هذا الإطار، تكشف حادثة أمّ الأمراء آمنة بنت الأمير علي باي (١٧٥٩-١٨٢٢) عن وعي مبكر بمخاطر هذا المنحى الاجتماعي في وسط النخبة الحسينية نفسها؛ فقد جمعت أفراد الأسرة الحاكمة ونبّهتهم إلى أضرار تزويج شباب العائلة من قريباتهم، محدّرة من ضعف النسل وانعكاساته، وهو ما التزموه لسنوات قبل أن يتراجعوا عنه^(٧). ورغم أن دافع الأميرة كان صحيحاً واجتماعياً بالأساس، فإن سياق الحادثة يشي بأن ظاهرة الزواج الداخلي كانت مرتبطة، في العمق، برغبة النخب في حصر الثروة والنفوذ داخل دائرة القرابة، على نحو يلتقي مع منطق "تجنّب" النساء ويحافظ على الملكية من الانتقال إلى الغرباء.

ورغم تعارض مسألة حرمان المرأة من الإرث مع الأحكام الصريحة للشرع، إلا أنّه غالباً ما تمّ "تحسينه" فقهيًا من خلال توثيق "تنازلات" ممهورة بتواقيع النساء، ما جعل القضاء يتعامل مع الرضا الظاهري بوصفه قرينة كافية. ففي سنة ١٨٥٦، كتب أحمد بن أبي الضياف (١٨٠٤-١٨٧٤) رسالة من ٢٣ نقطة، يرجّح أنها وُجّهت إلى القنصل الفرنسي ليون روش، تفاعلاً مع تساؤلاته حول بعض مظاهر التفاوت في الشريعة الإسلامية، ومنها مسألة توريث الذكر ضعف الأنثى. وفي جوابه عن السؤال ١٢، قدّم ابن أبي الضياف تبريراً دينياً واجتماعياً لهذه القاعدة، مبرزاً كيف تُمارَس فعلياً داخل المجتمع التونسي، خصوصاً في الأوساط الريفية،

حيث تميل النساء إلى التنازل عن حقوقهنّ الإرثية لأشقائهنّ بدافع الثقة والحنان، فقال: "... وأيضاً فإنّ الأخ يقوم مقام أبيه في الذبّ والحنان على أخواته ويزداد شفقة لما يرى أنّها أخذت من مُخلف والديها نصف سهمه، فالنفوس الكريمة تتجذب بمثل هذا الحنان والشفقة والوصلة المُرغب فيها. ولهذا تُسلم البنت ميراثها لأخيها في البوادي، ولسان حالها يقول: "أنت الآن إليّ وكأنّ أبي لم يمت بسبب وجودك، فلا إرث لي". ويوجد ذلك بقلة في الحواضر لاستغنائهم عن حامية الأقارب بوازع الحاكم"^(٨). تعكس هذه القولة بوضوح كيف تداخل الفقه والعرف في المجتمع الحسيني، وكيف جرى تبرير التنازل عن حقّ النساء في الإرث باسم الحنان الأسري والمصلحة العائلية، خاصة في غياب سلطة الدولة الضابطة في البوادي.

كان القضاء الشرعي يشكّل الإطار الرسمي الذي تُحال عليه النزاعات، أو يُعتمد لتثبيت القسمة عند الطلب. وقد ارتبطت هذه السلطة القضائية ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسة الدينية، فالقاضي يتخرّج من الزيتونة، ويتسلّح بفهم عميق لمصادر المذهب المالكي، من مختصر خليل وشروحه، إلى المدونة الكبرى وأمّهات كتب الفرائض^(٩). وقد كانت عملية توزيع الإرث تمرّ عبر مسار دقيق، يُعرف بـ"تحرير الحصص"، يتمّ فيه احتساب أنصبة الورثة وفقاً للشرع، وتُدوّن في وثيقة رسمية تتضمّن أسماء الورثة، وصلاتهم بالهالك، ونوع المال الموروث. وكان يُشرف على هذه العملية قاضي الفريضة، وهو قاض مالكي مختص في مسائل المواريث وتقدير الأنصبة^(١٠).

وتبرز هشاشة موقع المرأة في النظام الميراثي التقليدي من خلال ملاحظة حضورها في الوثائق. فغالباً ما تظهر المرأة بوصفها طرفاً صامتاً، توقّع على وثائق تنازل أو قسمة أنجزت مسبقاً، دون أن تحضر شخصياً، أو تُبدي رأياً، كما سبقت الإشارة، ورغم وجود نصوص شرعية واضحة تكفل لها حقها، إلا أن النفوذ الاجتماعي والسلطة الذكورية السائدة كانت تحدّ من قدرتها على التمسك بحقوقها، بل وتدفعها أحياناً إلى التنازل "طوعاً" خوفاً من التهميش أو العقوق. ومن اللّافت أن هذه الظاهرة لم تقتصر على النساء، بل طالت

وبالنسبة لمسائل المواريث، فقد ازدهرت كتب متخصصة، منها "الرحبية" في علم الفرائض، و"القلوصية"، و"نظم الفارضية"، التي تدرّس علمياً ورياضياً كيفية القسمة حسب حالات متعددة. وقد كانت هذه الكتب جزءاً من "الحصيلة الزيتونية" التي يتمتّع بها القضاة، وتُستحضر عند كل قسمة، خاصة حين تتعقّد الحالات، أو يظهر التنازع بين الورثة.

إن هذه المرجعية الفقهية، بما فيها من دقّة وتعقيد، كانت تعبّر عن عقلية تقليدية ترى في الشرع نظاماً ثابتاً لا يُمسّ، وتعتبر العدالة مرادفة للالتزام بالنصوص، لا لإعادة النظر في بنيات التوزيع أو تصحيح مظالم الواقع. وقد كتب الشيخ المصلح المالكي محمد بن عثمان السنوسي رسالة معنونة بـ"تفتق الأكمّام"^(١٤)، وهي رسالة في موضوع المرأة، جاءت رداً على أسئلة وجهها له بعض الشخصيات الفرنجية حول حقوق المرأة في الإسلام. حاول السنوسي من خلال هذه الرسالة أن يقدم رؤية إصلاحية متوازنة، إلا أنه ظلّ متمسكاً بالتيار المحافظ السائد في عصره. ويعلّق الأستاذ نور الدين الجريبي على منهج السنوسي في هذا الصدد قائلاً: "إنّ نزعة السنوسي في قضية المرأة تنزل تفكيره ضمن التيار المحافظ الذي تراوح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين التزمّت المطلق والسلفية المعتدلة، ولئن تميّزت مواقف المؤلف بشيء من الاعتدال والمرونة فإنّه يلتقي بالاتجاه المحافظ في نقطة جوهرية وهي غلبة المعالجة الفقهية لقضية المرأة على المعالجة الاجتماعية، وكان جوابه جواب فقيه ملّمّ بأحكام الدين ومصادر التشريع من قرآن وسنة وحديث، لا جواب مفكّر اجتماعي"^(١٥).

ومن هذا المنطلق، فإن فقه المواريث، رغم صلابته المنهجية، ظل عاجزاً عن مواكبة التحوّلات الاجتماعية التي بدأت تظهر في نهاية القرن التاسع عشر، مع بداية التدخّل الفرنسي، ودخول مفاهيم جديدة للملكية، والعائلة، والمساواة، مما فتح الباب لاحقاً أمام أسئلة الإصلاح والتقنين، وأثّر مباشرة في مسار التعديل التشريعي الذي عرفه نظام المواريث في تونس في العقود الموالية.

فئات أخرى مثل المعتوقين وذوي الأرحام، الذين كانوا يعانون من موقعهم الهامشي في منظومة الإرث، حيث لا يُورث العبد إلا إذا أُعتق، ما يجعل حظوظهم شبه معدومة في أغلب الأحيان يذكر المؤرخ "إسماعيل موسى مونتانا" في كتابه "إلغاء الرق في تونس العثمانية" أنّ منتصف القرن التاسع عشر شهد حالات نادرة لمعتوقين - بعد تحريرهم - سَعَوْا للمطالبة بحقوق مالية من أقارب أحرار، خاصة في قضايا الميراث. غير أنّ المحاكم الشرعية في العهد الحسيني، المعتمدة على الفقه المالكي، لم تكن تعترف بهذه المطالب إلا إذا ثبت عتق الشخص قبل وفاة المورث، وإلا سقط حقه في الإرث وانتقل المال إلى أصحاب الفروض والعصبات. ويكشف "مونتانا" من خلال هذه الأمثلة التناقض بين المراسيم الإصلاحية التي أصدرها أحمد باي (١٨٠٦-١٨٥٥) لإلغاء الرق وبين الواقع القضائي الذي ظلّ متمسكاً بالأحكام التقليدية، مما أبقى المعتوقين في موقع هش، وجعل حصولهم على ميراث أمراً مشروطاً بإجراءات إثبات معقدة كثيراً ما كانت تحول دون تمتعهم بحقوقهم الكاملة^(١٦). ويشير الأستاذ عبد المجيد البوزيدي إلى أنّ المماليك والخصيان في البلاط الحسيني كانوا أحياناً يحصلون على عطايا أو وصايا من الباي أو من سيدهم، لكنها ليست ميراثاً شرعياً، بل منحاً مؤقتة تعتمد على رضا الحاكم أو الظروف الشخصية، وتنتهي بوفاته أو بسحبها، ما يعكس هشاشة وضعهم المالي والاجتماعي رغم قربهم من السلطة^(١٧).

أمّا من حيث المصادر المعرفية التي بُني عليها هذا النظام، فقد شكّلت الكتب الفقهية الكبرى المرجع الأول. يأتي في طليعتها مختصر خليل بن إسحاق الجندي، الذي اختزل فقه المذهب المالكي في صياغة موجزة مكثفة، صارت معياراً للحفظ والدرس. وقد ألزم الشيوخ الطلبة بحفظه كاملاً قبل التوسّع في شروحه، وعلى رأسها "شرح الدردير" و"حاشية الدسوقي" و"الزرقاني"، وكلها اجتهدت في تفسير عبارات خليل وتفصيل أقوال المالكية. كما ألّف بعض علماء الزيتونة، مثل الشيخ المالكي محمد بن عثمان السنوسي (١٨٥٥-١٩٠٠)، كتباً ورسائل في شرح المختصر وبيان مسأله، مما عزّز حضور هذا المتن في التعليم الفقهي الحسيني^(١٨).

ثانياً: تأثير الاستعمار الفرنسي وإصلاحات العدلية (١٨٨١ - ١٩٥٦)

أدّى توقيع معاهدة الحماية سنة ١٨٨١ إلى بداية حقبة جديدة في تاريخ تونس، عنوانها التداخل بين الإرادة الاستعمارية والواقع المحلي. وقد تجلّى هذا التداخل في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لكنّه كان أكثر تعقيداً في المجال القانوني، لاسيما في ميدان الأحوال الشخصية والمواريث. فقد أرادت سلطة الحماية، باسم "الإصلاح"، إعادة تشكيل المشهد القانوني على مقاس النموذج الفرنسي، دون أن تُظهر عداءً صريحاً للشرع الإسلامي، وذلك حفاظاً على توازن دقيق بين الهيمنة والاستمرارية الرمزية للمؤسسات الدينية^(١٦).

كانت البداية بإصلاح المنظومة العقارية عبر تأسيس المحكمة العقارية سنة ١٨٨٥، والتي عُهد إليها بالفصل في نزاعات الأراضي وتنظيم الملكيات، مستتدة إلى مبدأ التسجيل والتوثيق العصري بدل الشهادة الشرعية والعرف المحلي. هذا التحول لم يكن تقنياً فحسب، بل مثّل قطيعة مع الطريقة الإسلامية التقليدية في إثبات الملكية، والتي كانت تستند إلى مبدأ الحيّزة وشهادة العدول والقضاء المالكي. وأدّى ذلك إلى سحب جزء كبير من اختصاصات القاضي الشرعي، خاصة فيما يتعلق بتصنيف التركات ذات الصبغة العقارية، فصار من الممكن تقسيم الميراث دون المرور وجوباً بالمحكمة الشرعية^(١٧).

وفي هذا المناخ، بدأ يظهر نوعان من المرجعية القانونية: الأولى دينية فقهية، تركز على مختصر خليل وشروح المدوّنة وغيرها من مصادر الفقه المالكي، والثانية وضعية، مستوحاة من القانون المدني الفرنسي، الذي بدوره متأثر بالقانون الروماني^(١٨)، ويؤسّس لفكرة "حرية التصرف في التركة"، مما منح الوصية سلطة أكبر مما يُجيزها الفقه الإسلامي التقليدي. إذ يسمح القانون التونسي بإعفاء الديون أو التصرف في الممتلكات ضمن حدود معينة، مع الحفاظ على حقوق الورثة الشرعيين. كما يدمج القانون التونسي القيد الشرعي الإسلامي المتمثل في "ثلث التركة" ضمن مفهوم الإعفاء من الدين والحمايات المصممة للحفاظ على سلامة أحكام الميراث

الإسلامي، مع منح مرونة أكبر في تنظيم التركة والوصية، بما يجعل النظام القانوني التونسي يوازن بين المرجعية الدينية والمرجعية الوضعية، ويتيح للورثة والمسؤولين عن التركة أدوات عملية لإدارة الممتلكات المعقدة والأوقاف والعقارات المسجلة باسم العائلات الكبرى^(١٩).

هذا التغيير لم يكن معزولاً عن تحوّل بنية القضاء ككل، إذ سعت الحماية إلى إعادة تنظيم المحاكم، عبر خلق قضاء "عدلي" يبتّ في القضايا المدنية والتجارية والعقارية وفق قوانين مدنية مكتوبة، إلى جانب قضاء "شرعي" يبقى اختصاصه منحصراً في الأحوال الشخصية. ورغم هذا الفصل الظاهري، فإن الواقع كان مختلفاً؛ فمعظم قضايا الإرث كانت تُمزج فيها الأحكام الشرعية بالإجراءات العدلية، مما جعل كثيراً من الورثة يفضلون المسار العدلي لسرعته ووضوحه وضمانه للتوثيق الحديث. يُشير عبد العزيز بن عاشور في مقاله "العدالة التونسية قبل ١٩٥٦" إلى إنشاء محكمة عقارية مختلطة في عام ١٨٨٦، تألفت من قضاة فرنسيين وآخرين تونسيين متخصصين في الشريعة الإسلامية، وكانت مختصة بالنظر في القضايا المتعلقة بالأراضي الوقفية، مما يعكس اهتمام النظام الاستعماري بتنظيم قضايا الميراث والملكية العقارية وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية^(٢٠).

وقد برزت هنا إرادة سلطات الحماية في تقليص سلطة الشرع الإسلامي دون إعلان الحرب عليه مباشرة. فقد كانت تحرص على الظهور بمظهر "المحايد"، مكتفية بدفع النخب التونسية نفسها إلى التساؤل حول مدى صلاحية الفقه التقليدي لحاجيات الزمن الحديث. فظهرت طروحات إصلاحية جديدة تدعو إلى تجديد طرق الإثبات وتوحيد القوانين، وكانت مجلة "الحاضرة" ومنبر "جريدة الزهرة" والمنتديات الإصلاحية في الجامع الزيتوني ساحة لهذا النقاش المتجدد^(٢١). في المقابل، قاومت النخبة الدينية التقليدية هذه الإصلاحات، معتبرة إياها تهديداً مباشراً للهوية الإسلامية. وقد كان القضاء الشرعيون والعدول وبعض الشيوخ يرون في القضاء المالكي حصناً للمجتمع، لا سيما في حفظ الحقوق العائلية والعدالة الوراثية.

التخلّص من هذا النّصيب المفروض بتحبيس التّركة على الذّكور. وهذه عادة سائغة منتشرة في البلاد، ولا حرج فيها من جانب الشّريعة ما دامت تقوم لنا برهاناً لتقدّم الرّجل على المرأة. أفبَعَدَ هذا يُقال إنّ المرأة يمكن اعتبارها يوماً إنساناً يساوي الرّجل في الحقوق كما على كلّ منهما واجب؟^(٢٥).

ولم يكن الطاهر الحدّاد صوتاً منعزلاً، بل سبقته أصوات من داخل النخبة الإصلاحية، مثل خير الدين التونسي (١٨٢٢-١٨٩٠) الذي دعا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى إصلاح أجهزة الدولة والقانون، منطلقاً من فهم عقلاني للشريعة، وعبد العزيز الثعالبي (١٨٧٦-١٩٤٤) الذي نشر في أوائل القرن العشرين مقاربات إصلاحية متعددة تناولت حقوق المرأة والحديث عن تحديث المجتمع الإسلامي وفق مبادئ عقلانية مستمدة من القرآن.^(٢٦) ومع ذلك، ظلت مواقف الحدّاد تُثير جدلاً واسعاً، خاصة في الأوساط الزيتونية، وتمت محاصرته فكرياً، رغم أن ملاحظاته ستعود بقوة في لحظة ما بعد الاستقلال، عندما سيُطرح مشروع قانوني جذري لتحديث الأحوال الشخصية.

يمكن القول إذن إنّ فترة الحماية كانت زمن التحوّل البطيء، ولكن الحاسم في بنية النظام الوراثي في تونس. فبينما ظلت النصوص الفقهية على حالها، كانت الوقائع القضائية والممارسات الإدارية والتغيرات الاجتماعية تتسج، في الخفاء، خريطة جديدة للميراث. وقد أفضت هذه التفاعلات في نهاية المطاف إلى القبول الاجتماعي لفكرة الإصلاح القانوني، حتى وإن تمّ لاحقاً تحت راية الدولة الوطنية المستقلة. وهكذا، فإنّ لحظة الاستقلال لم تكن لحظة القطيعة، بل تتويجاً لمسار طويل من الإصلاحات القانونية والإدارية والجدل الفكري والاجتماعي، مهّدت جميعها لإعادة رسم علاقة التونسي بالميراث، في ضوء الحداثة القانونية، دون أن تنقطع خيوط الاتصال مع المرجعية الفقهية التي شكّلت أساساً رمزياً لهوية البلاد لقرون طويلة.

وكانت أبرز المخاوف تتعلق بتجميع حدود الإرث، وتكريس الغبن في حق النساء، والتلاعب بالوصايا تحت غطاء القانون الحديث. ويشير جاك بيرك إلى أنّ هذه المقاومة لم تكن مجرد تشبّث بالقديم، بل كانت تعبيراً عن خشية حقيقية من فقدان "الوظيفة الاجتماعية" للفقه الإسلامي، إذ كان الفضاء الشرعي يُوفّر شبكة توازنات دقيقة تتظّم العلاقات داخل الأسرة والمجتمع. فإضعافه - في نظرهم - كان يعني فتح الباب أمام تغريب القيم وإخضاع البنى التقليدية لهيمنة القانون الوضعي المستوحى من التجربة الأوروبية^(٢٧).

لكن في عمق المشهد، كانت تظهر تغييرات في العقليّات والممارسات الاجتماعية، لا سيما في المدن الكبرى مثل تونس وصفاقس وسوسة. فهناك بدأ يتراجع النفوذ الاجتماعي للمؤسسات التقليدية مثل "مجلس العلماء"، أمام صعود نخبة قانونية جديدة تلقت تعليمها في المدارس الحديثة، وأصبح لها صوت في النقاش العمومي. هذه النخبة، التي جمعت بين المعرفة بالفقه الإسلامي والاطلاع على القانون الفرنسي^(٢٨)، وبدأت تُطرح أسئلة جديدة: هل يمكن إصلاح نظام الإرث دون المساس بالشريعة؟ هل الشريعة قابلة للتكييف مع العصر؟ هل يمكن حماية حقوق النساء داخل الفقه المالكي دون اللجوء إلى تشريع وضعي؟

لقد أضرّ الانتقال المزدوج من الفقه إلى القانون، ومن الجماعة إلى الفرد، بالنساء، فقد ظلّت هذه الفئة الأكثر تضرراً. فرغم ما كان يُقال عن تعزيز الحماية الفرنسية لحقوق المرأة، ظلّ الواقع القضائي يرسّخ في كثير من الأحيان أنماطاً من التهميش، سواء من خلال إعفاء الأخ من الالتزامات الشرعية، أو عبر التحايل القانوني في تقسيم التركات، لا سيما بين الإخوة والأخوات^(٢٩). وكان أبرز من خاض هذا النقاش لاحقاً هو الطاهر الحدّاد (١٨٩٩-١٩٣٥)، الذي دافع في كتابيه الشهيرين "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" و"الجمود والتّجديد في قوتها" عن ضرورة مراجعة الأحكام الفقهية ذات الصلة بالمرأة، معتبراً أنّ الفقهاء لم ينقلوا روح الإسلام، بل قيّدوها بسلطة العرف والتقليد، يقول الطاهر الحدّاد ساخراً من التقليديين: "لقد قالوا إنّ للمرأة في شرعة الإسلام نصيباً مفروضاً في الميراث، وما درّوا كيف يمكنكم من

ثالثاً: مجلة الأحوال الشخصية وتحول المرجعية (١٩٥٦ - ١٩٨١)

شكل إصدار مجلة الأحوال الشخصية في ١٣ أوت ١٩٥٦ نقطة تحول فارقة في التشريع التونسي الحديث، حيث جاءت بعد استقلال تونس بفترة قصيرة، تعبيراً عن إرادة الدولة الوطنية الجديدة في إعادة بناء منظومة قانونية حديثة تنظم الحياة الأسرية بما يتماشى مع قيم الحداثة والتنمية، وبعيداً عن هيمنة الفقه التقليدي وممارسات الأعراف التي كانت تحكم المجتمع لعقود طويلة.

جاءت المجلة في سياق سياسي محموم كان يتسم بسعي الحبيب بورقيبة (١٩٥٢-٢٠٠٠) وقيادات الحركة الوطنية إلى تكريس سلطة الدولة على المجتمع، وفرض مشروع تحديث شامل يبدأ بالأسرة باعتبارها الخلية الأساسية للمجتمع. لقد أراد المشرع التونسي أن يستبدل نموذج الأسرة التقليدية التي تُحكم بأعراف وعادات وفهم ديني محلي، بأسرة مؤطرة بقانون مدني واضح، يعترف بالحقوق الفردية، ويحد من التفاوتات المبنية على عوامل غير دستورية^(٢٧). ورغم هذه الطموحات، كانت طبيعة المجتمع التونسي في تلك الفترة تفرض حدوداً واقعية على تطبيق الإصلاحات، إذ لم يكن جاهزاً لتقبل كل التغييرات الجديدة دفعة واحدة. وهذا ما يؤكد أن إصلاحات المشروع البورقيبي لم يكن من السهل تطبيقها، لأن المجتمع التونسي كان في تلك الفترة لا يزال يعتز بتراته الديني والفقيهي، وتظل المراجع الفقهية كالزيتونة والقضاء الشرعي تملك ثقلاً ثقافياً واجتماعياً قوياً. يذكر الأستاذ الطاهر بلخوجة أن "بورقيبة لم يتمكن في مجلة الأحوال الشخصية من إدخال جميع الإصلاحات التي أرادها وفكر في فرض المساواة بين الرجال والنساء في الإرث إلّا أنه جاءه من ذكره أن النصّ القرآني الكريم لا يحتمل التأويل في هذا الموضوع كما كانت الحال بالنسبة لتعدد الزوجات"^(٢٨)، مما يعكس التوازن الدقيق بين مشروع التحديث والمرجعية الدينية في صياغة القانون.

من أجل ذلك حرص المشرع على عدم المساس المباشر بأحكام الميراث الواردة في الشريعة، واحتفظ في المجلة بالنصوص التي تنظم نظام التوارث على أساس فقه المالكية، حتى لا يثير صداماً عنيفاً مع القوى الدينية والمؤسسات التقليدية. وفي هذا السياق، يؤكد الأستاذ محمد الشرفي (١٩٣٦-٢٠٠٨) أن "في مجال العدالة جرى إصدار مجلة الأحوال الشخصية لمحتواها الذي لم تعد ثورتها تغيب على أحد، وقد لاقت في البداية تقبلاً سيئاً من طرف القضاة ذوي التكوين التقليدي، غير أنهم لم يضعوا أنفسهم خارج القانون، بل انصاعوا لأحكامها... وأما الأحكام الأخرى الواردة بالمجلة والتي تتعلّق بالطلاق والحضانة والإرث فقد كانت فرصة سانحة للعودة إلى الفقه الإسلامي"^(٢٩)، مما يعكس الحرص على الجمع بين روح الإصلاح والمرجعية الفقهية التقليدية.

هذا الحذر تجلّى بوضوح في نصوص المجلة، حيث استمرت قاعدة أن "لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ"^(٣٠) سارية دون تغيير، واحتفظت بتوزيع الأنصبة بين الفروض والعصبات كما جاء في الفقه الإسلامي. إلا أن التجديد جاء من خلال نقل المرجعية القانونية من الفقهاء والقضاء الشرعي إلى القضاء المدني، وهو ما أدى إلى إحداث فارق عميق في كيفية فهم وتطبيق أحكام الموارث. ففي حين كان القضاء الشرعي يعتمد على الفقه المالكي نصاً وروحاً، ويستمد سلطته من علماء الدين ومفتيي الزيتونة، أصبحت السلطة في تفسير النصوص وتحديد الحقوق مسؤولية القضاء المدني الذي يستخدم قانوناً مكتوباً يُطبق بواسطة القضاة الحاملين لشهادات القانون، ممن يُنظر إليهم كموظفين مدنيين ينفذون القانون لا يفتون على الناس.

إضافة إلى ذلك، فإن مجلة الأحوال الشخصية أرست مبدأ الأحكام القانونية المسبقة والموثقة التي تفرض التوثيق الرسمي لجميع عمليات تقسيم التركة، وتحظر أي قسمة عرفية أو شفوية، وهو ما ساهم في حماية حقوق الورثة، وخاصة النساء، من التلاعب والتهميش الذي كان يحدث في ظل الأعراف العائلية التقليدية. بل إن القسمة بالمرضاة، التي قد تتم بين الورثة بالاتفاق الودي، لا يُعتدّ بها قانوناً إلا إذا أفرغت

المحكمة بتاريخ ٦ يناير ٢٠٠٤، ليظهر كيف أن الاجتهاد القضائي قادر على تعديل التطبيقات التقليدية للنصوص بما يتوافق مع المبادئ الحديثة للعدالة والمساواة^(٣٢).

إذن يُمكن القول أنّ القضاء المدني مثّل فضاءً جديداً للتفاعل بين النص القانوني والتطبيق الاجتماعي، حيث بدأ القضاة يستندون إلى روح النص ومقاصد الشريعة (المصالح والعدالة) بدل التمسك الحرفي بالقواعد الفقهية، وهو ما ساهم في بلورة فقه قضائي جديد يحاول التوفيق بين الشريعة الدينية ومتطلبات الدولة الحديثة، لذلك فإن مجلة الأحوال الشخصية لم تكن مجرد نص قانوني جامد، بل مشروعاً حضارياً يعيد تشكيل المرجعية القانونية والاجتماعية، ويحمل في طياته بذور نقاش طويل الأمد حول الميراث والعدالة بين الجنسين، يستمر حتى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن نصوص المجلة لم تجرِ تعديلات جوهرية على أنصبة الإرث كما سبقت الإشارة، فقد تغيرت المرجعية القانونية التي تُفسر بها هذه النصوص بشكل جذري، إذ انتقلت السلطة في فض النزاعات وتطبيق الأحكام من القضاء الشرعي الذي كان يهيمن عليه علماء الدين، إلى القضاء المدني الذي شكّل مؤسسات حديثة تستند إلى قانون مكتوب وقضاة مدربين على أسس قانونية مدنية وعلمية. هذا الانتقال لم يغير فقط من يقرر، بل أفسح المجال لاجتهادات قضائية جديدة تتعامل مع النصوص في سياقها الاجتماعي والإنساني، وليس فقط وفق قواعد فقهية جامدة.

أما على الصعيد العملي، فقد شهدت المحاكم التونسية في تلك المرحلة قضايا إرثية معقدة، تحولت إلى محطات مهمة في بلورة فقه مدني تونسي خاص، فكان من بينها قضايا رفض وصايا مجحفة، أو تصحيح توزيعات إرثية ظالمة، وقضايا نزاعات على الأراضي والعقارات العائلية، حيث مارس القضاء دوراً فعلياً في ضبط النزاعات وفرض قواعد عادلة ومستقرة، بعيداً عن العرف والتقاليد التي كانت تحكم سابقاً. ولمزيد توضيح هذا التحول، نضع الجدول التالي:

في كتاب رسمي يحرّره عدل إلهاد أو موثق، ضمناً لجديتها وشرعيتها، وحمايةً للأطراف من أي نزاع لاحق. جاء في قرار تعقيبي مدني عدد ٣٤٣٣٧ مؤرخ في (٠٧-٠٢-١٩٩٥) أنّه "من الثابت قانوناً أن القسمة بالمرضاة لا تثبت إلا بكتب على معنى الفصل ١١٦ من مجلة الحقوق العينية وقد اقتضى الفصل ٤٢٣ من المجلة المدنية أنه إذا عين القانون صورة لإثبات كان بها ضرورة أن الكتابة هي شرط لصحة وإثبات القسمة"^(٣١). تأتي هذه الضوابط ضمن رؤية الدولة الحديثة التي رأت أن القانون يجب أن يكون أداة لتحقيق العدالة الاجتماعية، ومنع استغلال النفوذ والسلطة في الأسرة أو المجتمع، وفرض حماية خاصة للنساء والأطفال، وإعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية على أسس المساواة والحقوق.

رغم ذلك، فقد بقيت العلاقة بين الشريعة والقانون مدخلاً معقداً للنقاش، حيث ربط المشرع تطبيق قواعد الإرث بـ"الشريعة الإسلامية" مع إدخال قيد "النظام العام" في المجلة، مما منح المحكمة هامشاً لتفسير النصوص بما يتماشى مع المصلحة الاجتماعية والعدالة، وهو ما أحدث تدريجياً تحولاً في فقه المواريث تطور عبر الاجتهاد القضائي، وفتح المجال لتحولات قانونية لاحقة، يقدم أستاذ القانون الدولي الخاص سامي بوسطنجي بعض الأمثلة عن الاجتهادات القضائية اللاحقة منها الحكم الصادر بتاريخ ١٤ جوان ٢٠٠٢، جاء في مبدأ قضائي أن إقرار اختلاف المذهب كمانع من موانع الإرث يتعارض مع مبدأ حرية الضمير المكفول بالمادة ٥ من الدستور. فربط اكتساب الحق المالي بدين الوارث المسلم ينطوي، وفقاً للمحكمة، على خطر المساس بمبدأ حرية اختيار الدين، إذ قد يُغري الوارث المحتمل بالتحول الظاهري إلى الإسلام حفاظاً على حصته من الإرث، ما يفرض ضغطاً مالياً على الشخص المعني في شأن يُفترض أن يخص الضمير الفردي وحده. وقد دعمت محكمة الاستئناف موقفها بالإشارة إلى أن الاعتراف باختلاف المذهب كمانع إرثي يؤدي إلى انتهاك مبدأ المساواة بين المواطنين، من خلال خلق فئتين من التونسيين: الأولى تتمتع بكامل حقوقها الإرثية، والثانية محرومة من الميراث لمجرد ممارستها الحرة لاختيار دينها. وتكرر هذا التعليل في حكم صدر عن نفس

تفسير الوصايا وحدودها	التعامل مع الديون والحقوق العينية	التحاييل على أحكام الميراث	الاجتهاد في النزاعات العقارية الكبرى	قضايا التّركات الدوليّة
المحاكم التونسية كثيراً ما تدخلت لتحديد مدى صحة الوصية إذا تجاوزت حدود الثلث أو ألحقت ضرراً جسيماً بالورثة.	في قضايا الإرث العقاري، اجتهدت المحاكم في ترتيب الديون والحقوق العينية (مثل الرهن أو الشفعة) قبل تقسيم التركة. وهذا ما ساهم في بلورة فقه مدني خاص بالأراضي والعقارات الموروثة، خصوصاً مع النزاعات العائلية.	برزت قضايا حاول فيها بعض الورثة التحايل عبر عقود بيع أو هبات صورية لحرمان بقية الورثة.	خاصة بين ستينات وسبعينات القرن العشرين، حين تدخلت مسائل الإرث مع إصلاحات الملكية الزراعية.	مع توسع الهجرة، ظهرت قضايا تخص تركّات في الخارج (فرنسا، إيطاليا، ألمانيا...)، فاضطر القضاء التونسي لاجتهاد في مسائل القانون الدولي الخاص وتحديد الاختصاص وتطبيق القوانين الأجنبية أو التونسية.
هناك قضايا قضت فيها المحاكم بطلان وصايا اعتُبرت "مجحفة"، تأكيداً لقاعدة حماية الورثة.		المحاكم اعتبرت ذلك في عدة أحكام "تحايلاً" على النظام العام للميراث "وأبطلت العقود.	اجتهدت المحاكم لفصل بين الملكية العائلية الخاصة وبين الأراضي الخاضعة للقوانين الزراعية.	

حد سواء. فقد طرأت على هذا المفهوم تغييرات فكرية وسياسية واجتماعية، أسهمت في إعادة صياغة العدالة الإرثية باعتبارها جزءاً من مشروع تحديثي أوسع يشمل بنية الأسرة والدولة.

في بداية هذه المرحلة، ورثت السلطة الجديدة بقيادة زين العابدين بن علي (١٩٣٦-٢٠١٩) تركة مزدوجة: من جهة منظومة قانونية ذات مرجعية دينية لكن موجهة من الدولة الحديثة، ومن جهة أخرى مجتمعاً يشهد تنامياً للمطالب الحقوقية وتوتراً بين النخب المحافظة والحدائية^(٣٣). فقد مثّل الخطاب الرسمي الذي يزاوج بين احترام "هوية الشعب" والانفتاح على "قيم العصر" أرضية مزدوجة يمكن من خلالها تأويل النصوص بطرق متباينة^(٣٤).

في ظلّ هذا المناخ، نشطت الجمعيات النسوية والمؤسسات الحقوقية في إثارة قضية المساواة في الإرث،

شكّلت مجلة الأحوال الشخصية بين ١٩٥٦ و ١٩٨١، عبر هذه النصوص وتطبيقاتها، نقطة تحول كبيرة في نظام المواريث بتونس، إذ ساعدت في تأسيس مرجعية قانونية حديثة، تطورت في إطار اجتهاد قضائي متزايد، يحاول التوفيق بين المبادئ الدينية ومتطلبات العدالة الاجتماعية، كما أرسّت قواعد توازن هش بين الحداثة والمحافظة، ووضعت الأساس للنقاشات المستمرة حول حقوق المرأة وإصلاح قوانين الإرث في تونس المعاصرة.

رابعاً: نحو إعادة صياغة مفهوم العدالة الإرثية (١٩٨١ - ٢٠١٨)

شهدت الفترة الممتدة بين ١٩٨١ و ٢٠١٨ تحولات عميقة في خطاب العدالة الاجتماعية في تونس، انعكست بشكل خاص على قضية المواريث، التي لم تعد مجرد شأن فقهي أو عائلي، بل تحولت تدريجياً إلى مسألة حقوقية تهم المرأة والدولة والمجتمع المدني على

طلباً للمساواة وأخذاً بتطوّر سنن الحياة وشروطها واعتباراً لارتفاع حصّة مساهمة النساء في تكوين ثروة الأسرة وقوامتها^(٣٥). وقد شكل هذا الخطاب نقطة تحول مفصلية، إذ لم يعد النقاش حول الإرث مجرد صراع بين فقهاء ومصلحين، بل أصبح جزءاً من المشروع التشريعي للدولة نفسها.

في أعقاب هذا الإعلان، تمّ تشكيل "لجنة الحريات الفردية والمساواة" في فيفري ٢٠١٨، برئاسة بشرى بلحاج حميدة، وهي لجنة قانونية وفكرية تولّت إعداد تقرير مفصّل يقترح جملة من الإصلاحات القانونية في مجال الحريات الفردية، وعلى رأسها التوصية بتعديل قانون المواريث نحو المساواة التامة بين الجنسين. وقد استند التقرير إلى مقولات تأويلية حديثة للقرآن، معتبراً أن أحكام المواريث ليست من قبيل القطعيات في دلائها، بل تدخل ضمن منظومة اجتهادية قابلة للتطوير وفق تطور المجتمع، جاء في التقرير: "إنّ الوضع الجديد للمرأة التونسية يقتضي الاجتهاد في تفسير الأحكام القرآنية في اتجاه صيغ أكثر ملاءمة مع الوضع الحالي للمرأة وإلّا وقع عليها ظلم وحيف كبيران. فالقانون التونسي يجبر النساء على المشاركة في تحمل أعباء أسرهنّ في حين أنّهنّ معفيّات من هذا الواجب في الفقه، ولهذا السبب يمكن تعديل قواعد الإرث لتحقيق المقصد القرآني للعدل والمساواة. وفي هذا السياق يصبح تطوير الأحكام وتحيينها من الواقع المتغيّر وفاء لروح الدين ودفاعاً عن مقاصده وليس تقليصاً له أو نقضاً لأصوله"^(٣٦). كما تمّ الاستناد أيضاً إلى الفصل الثاني من الدستور التونسي لسنة ٢٠١٤ الذي ينصّ على مدينة الدولة: "تونس دولة مدنية، تقوم على المواطنة، وإرادة الشعب، وعلوية القانون"^(٣٧)، وإلى الفصل ٢١ الذي يقرّ بالمساواة التامة بين الجنسين: "المواطنون والمواطنات متساوون في الحقوق والواجبات، وهم سواء أمام القانون دون تمييز"^(٣٨).

وقد فجّر التقرير جدلاً واسعاً في المجتمع التونسي، بين من رأى فيه تأكيداً لروح الثورة التونسية التي قامت على الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، وبين من اعتبره اعتداءً على النصوص القطعية وعلى هوية الأمة الإسلامية. وكان لافتاً أن هذا الجدل تجاوز النخبة

مركّزة على الممارسات الظالمة التي تعاني منها النساء في المجتمع، لا بسبب النص الديني فقط، بل نتيجة العادات والتقاليد والمجتمع الأبوي الذي يضغط على النساء للتنازل عن حقوقهنّ لفائدة الذكور. وبدأ يظهر تدريجياً وعي قانوني جديد لدى قطاعات واسعة من النساء اللواتي رفضنّ التنازل الطوعي أو الإقصاء العرفي، وبدأنّ يلجأن إلى القضاء المدني لاسترجاع حقوقهنّ، مما أدى إلى تراكم قضائي ذي دلالة رمزية كبرى.

في المقابل، ظلّ الفقه الإسلامي الكلاسيكي يُستدعى كمرجعية رسمية في تحديد الأنصبة، رغم أن القضاة المدنيين استمروا في تأويل بعض الإجراءات بما يسمح بتوسيع دائرة العدالة، مثل التشديد على حرية الإرادة في التنازل، وضرورة إثبات الرضا الكامل للوراثات. كما ساهمت التشريعات الأخرى المكملّة، مثل مجلة الحقوق العينية والقانون العقاري، في تأمين حماية نسبية للنساء، خاصة فيما يخصّ الملكية العقارية الناتجة عن الإرث، وهو ما مثّل تحولاً وظيفياً في مضمون العدالة الإرثية، حتى وإن لم يغيّر شكلها.

ولعل أبرز معلم في هذه المرحلة تمثل في الخطاب الرسمي الذي أطلقه الرئيس الباجي قائد السبسي في ١٢ أوت ٢٠١٧، بمناسبة العيد الوطني للمرأة، حين أعلن صراحة ضرورة فتح النقاش في مسألة المساواة في الإرث، باعتبارها مسألة حقوقية لا تتعارض مع روح الإسلام قائلاً: "لقد لاحظنا بارتياح بروز توجه جديد في العائلات التونسية للأخذ بمبدأ المساواة في تقسيم الأملاك بالاعتماد على الهبة في قائم حياة الوالدين وعلينا التفاعل مع هذا التوجّه وتشجيعه وفقاً للمنهج المقاصدي الحاثّ على الاجتهاد. وقد برز منهج اجتهادي يؤكّد على أنّ قاعدة للذكر مثل حظّ الأنثيين هي إذا ما تجنّبنا إقفال قلوبنا وعقولنا وقرأناها وفق المقاصد الحكيمة وتاريخية النزول إنّما ترمي إلى تحديد السقف الذي لا يمكن النزول عنه في واقع قبلي كان يتميز وقتئذ بإقصاء النساء من الميراث باعتباره مقتصرًا على الرجال بغرض الحفاظ على ملكيّة الأرض للقبيلة وعدم تشتيتها بتوريث النساء. ونفس هذا التوجّه الاجتهادي المحمود يدفعنا نحو القبول بالمساواة على اعتبار أنّ تحديد السقف الأدنى لا يمنع من المضيّ إلى الحدّ الذي يليه

تاريخ الفقه التونسي المعاصر، ساهمت فيها نضالات النساء، وتحوّلات الفكر السياسي، وتغير بنية الدولة ذاتها، من دولة الراعي إلى دولة الحقوق. إن هذه المرحلة (١٩٨١ - ٢٠١٨) لم تُتَهِ الجدل، لكنها رسمت خارطة جديدة للمطالبة بالعدالة الإرثية، خارطة تتجاوز الشعارات لتطرح الأسئلة العميقة: هل يمكن تحقيق المساواة دون أن نراجع أنظمتها المواريث؟ وهل العدالة تقاس بالأرقام أم بالنتائج؟ وهل يمكن للدولة المدنية أن تحكّم إلى معايير دينية في مسائل الحقوق؟ تلك هي الأسئلة التي ما تزال معلقة في أفق الإصلاح القادم.

إنّ من الملفت خلال هذه المرحلة أنّ أغلب الأصوات الراضية لمشروع المساواة في الإرث لم تكن من رجال الدين فحسب، بل ضمّت طيفاً واسعاً من المواطنين العاديين الذين خشي بعضهم أن تمثّل المساواة تهديداً لبنية العائلة التقليدية أو طعنًا في المرجعية الإسلامية، وهو ما يعكس عمق التصاق الفقه الإرثي بالخيال الجماعي. وقد أشار أستاذ السوسولوجيا ساري حفي وعزّام طعمة إلى أنّ هذا الجدل كشف عن تمايز بين نوعين من الأكاديميين: فمن جهة هناك من ظلّ في تواصل دائم مع الجمعيات النسوية وساند مشروع المساواة، ومن جهة أخرى برز أكاديميون آخرون دافعوا عن قانون الميراث الإسلامي وبدوا أكثر التصاقاً بالجماهير عبر اعتمادهم على التعبئة الحزبية وبعض منظمات المجتمع المدني ذات التوجّه الإسلامي. ولعلّ هذا ما يفسّر أنّ المظاهرات المساندة لمقترح الباجي قائد السبسي (قانون لجنة الحريات) غالباً ما حضرها ناشطون محدّدون من الدوائر النسوية والحقوقية، في حين كانت مظاهرات المعارضين أوسع حضوراً وأكثر تنوعاً، حيث اتهم هؤلاء السبسي بالسير على خطى بورقيبة، أي بانتهاج "علمنة صامتة" من أعلى إلى أسفل^(٤١). إذن يُمكن القول أنّ الجدل حول الميراث في تونس كشف عن تعقّد الحقل الديني والاجتماعي، بما يتجاوز التصنيفات الاختزالية التي طالما وُضعت في ثنائية "الدين في مقابل العلمانية". فالتجاذب لم يعد يقوم على تقابل صارم بين مرجعية دينية تُصوّر على أنّها مرادف للتخلّف واللاعقلانية، ومرجعية علمانية تُختزل في العقلانية والتحرّر، بل أتاح هذا النقاش إمكان

الفكرية والدينية، ليشمل شرائح واسعة من المواطنين، ويتحول إلى نقاش عمومي يثير أسئلة جوهرية حول العلاقة بين الدين والدولة، والثابت والمتغير، والحق والواجب.

على المستوى القانوني، لم يفض هذا التقرير إلى تغيير تشريعي فوري، لكن مجلس الوزراء صادق في نوفمبر ٢٠١٨ على مشروع قانون يتعلق بالمساواة في الإرث، مع التخصيص على إمكانية "الاختيار" بالنسبة إلى العائلات التي تفضّل تطبيق الشريعة، فقد جاء في المقترح الثالث الذي صاغته لجنة الحريات الفردية والمساواة ما يلي: "يضمن القانون المساواة لمن أرادتها، فيكون نصيب الأنثى بيدها بتمكينها إنّ أرادت من مناب مساوٍ لمناب الذكر. مثلاً إذا ترك المتوفّى ابناً وبناتاً فلها القرار إنّ شاءت تتحصّل على النصف وإن شاءت تأخذ نصيباً مثل نصيب شقيقها وتكمن ميزة هذا الحلّ هي ضمان انتقال سلس من المساواة الممنوعة إلى المساواة الممكنة"^(٤٢). وهو ما اعتبره البعض تسوية وسطى بين المطالب الحداثي والحساسيات الدينية. ورغم أنّ المشروع لم يُعرض على البرلمان في عهده تلك بسبب المعارضة السياسية والدينية الشديدة، إلا أنّه أطلق دينامية جديدة في فهم العدالة الإرثية.

لقد بات واضحاً أنّ العدالة في الإرث لم تعد تعني فقط التطبيق الحرفي للأنصبة، بل صارت ترتبط بعدة مفاهيم متداخلة، من بينها الإنصاف، والاستقلال المالي للمرأة، والحماية من التمييز، وحق الجميع في المساواة أمام القانون. كما أصبح النقاش الإرثي منصباً على آثار التمييز لا على جذوره الفقهية فقط، وعلى حق المرأة في الملكية الكاملة والمساهمة في الاقتصاد الوطني، خصوصاً بعد أن أظهرت الإحصاءات أنّ النساء في تونس يتحملن جزءاً كبيراً من الأعباء المالية للأسرة، دون أن يحصلن على نصيب عادل من الثروة العائلية: "ورغم أنّ مساهمة المرأة في مراكمة الثروة، فالإحصائيات تُبيّن أنّ نسبتهنّ كصاحبات أعمال وكُمستقلات لا تتجاوز ٩,٤ بالمائة"^(٤٣).

وفي هذا السياق، يمكن القول إنّ الميراث بات يُطرح اليوم كحق مدني لا كامتياز ديني، ويُنظر إليه في ضوء مقاصد الشريعة لا حرفية النص، وهي نقلة نوعية في

تفكيك هذه الثنائية وإعادة النظر فيها، خصوصاً حين يتعلّق الأمر بقضايا الجندر^(٤٢).

وقد أسهمت وسائل الإعلام ومنصات التواصل الاجتماعي في تعميق هذا الجدل، إذ تحوّلت بعض الصفحات والمواقع إلى ساحات لتجاذبات حادة بين من يرى في المساواة نصراً للمرأة وفي تحديث المواريث علامة على "الإسلام المدني"، وبين من يعتبر الأمر خضوعاً لإملاءات أجنبية وتغريباً للمجتمع. وزاد من حدة هذا الانقسام اتهام البعض للرئيس الباجي قائد السبسي بالوقوف وراء رفع تحفّظات تونس على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)، وهي معاهدة دولية اعتمدها الأمم المتحدة سنة ١٩٧٩ صادقت عليها تونس مع إبقاء تحفّظات تخصّ بنوداً اعتُبرت متعارضة مع مبادئ الإسلام، وفي مقدّمتها مسألة المساواة في الإرث، غير أنّ حكومة المهدي جمعة هي التي قامت رسمياً برفع تلك التحفّظات سنة ٢٠١٤^(٤٣). وفي المقابل، رأى آخرون أنّ مبادرة السبسي مثّلت لحظة فارقة في تاريخ الإصلاحات التشريعية، إذ انسجمت مع روح دستور ٢٠١٤ ومع التزامات تونس الدولية، وهو ما تؤكّده الباحثة التونسية في علم الاجتماع منيرة شرّاد التي اعتبرت أنّ رفع التحفّظات على سيداو شكّل حافزاً إضافياً لمطلب مساواة المرأة في جميع المجالات، بما في ذلك الميراث^(٤٤).

في السياق ذاته، ساهمت بعض مبادرات المجتمع المدني في إحداث وعي جديد، مثل حملات "المساواة في الميراث حقّ وليس مزيّة" التي نظمتها جمعيات نسوية وشبابية في مدن تونس الكبرى، وأسفرت عن مرافقة قانونية لمئات النساء لاسترجاع حقوقهن في الإرث. كما تكثف الاشتغال الأكاديمي والبحثي في الجامعات ومراكز الدراسات حول العدالة الجندرية أسهمت كلّها في إنتاج زخم متواصل من المؤلفات والدراسات التي تناولت القضايا المتعلقة بالمرأة والعدالة الاجتماعية. من بين هذه الجهود، أشرفت الأستاذة آمال قرامي، المتخصصة في قضايا الجندر، على مؤلف جماعي بعنوان "المساواة في الإرث بين سلطة التّراث ومحدوديّة الاجتهاد: رؤى ومقاربات" أنجزه باحثون من تونس، كما أشرفت أستاذة الحضارة بالجامعة التونسية نائلة

السليّني على مؤلف جماعي آخر بعنوان "ميراث النساء ووهم قطعية الدّلالة". إضافة إلى ذلك، أشرفت الأستاذة زينب توجاني على مؤلف جماعي بعنوان "النساء والعدالة وإشكاليّاتها في تونس: منظورات تقاطعية"^(٤٥) هذه الأمثلة تعبّر عن استمرار الاهتمام الأكاديمي بقضايا الميراث والعدالة الجنسانية، وتكشف عن تنوّع المقاربات بين النظرية والاجتهاد الفقهي والتحليل الاجتماعي.

لقد أصبح واضحاً، مع نهاية هذه المرحلة، أنّ العدالة الإرثية لم تعد مجرد ورقة تشريعية، بل تحوّلت إلى رهان سياسي ومجتمعي، تختبر من خلاله الدولة التونسية مدى قدرتها على المواءمة بين المرجعية الإسلامية والدستور المدني، بين الواقع الاجتماعي المتحوّل والثوابت القانونية الموروثة. وهذه الصيغة التوفيقية التي ظهرت في مشروع قانون ٢٠١٨ من خلال إتاحة حرية الاختيار تكشف عن الطبيعة الانتقالية لهذه المرحلة، التي لم تحسم المعركة، ولكنها مهّدت لها قانونياً ورمزياً. وربما يكون من المجدي هنا أن نتوقف عند المفارقة التي طبعت هذا التحول: فبينما أظهر جزء من الشعب تمسكاً بالنظام التقليدي للإرث بدعوى الانتماء الديني، كانت ممارساتهم الواقعية في بعض الحالات تسير عكس ذلك تماماً، إذ شاعت عقود الهبة والمناقلات التي تقصي بعض الورثة، وراجت ترتيبات قانونية أو عرفية تضمن ما يشبه "المساواة" لكنها تتمّ خارج القانون المدوّن^(٤٥)، وهو ما يطرح السؤال: هل النظام الفقهي أقرب إلى النص أم إلى الممارسة؟ وهل الدولة تحمي حقّ المرأة فعلاً حين تصمت عن ممارسات تقصّيها باسم العرف أو الإجماع العائلي؟

ومن هذا المنطلق، يتضح أنّ مفهوم العدالة الإرثية بين ١٩٨١ و٢٠١٨ كان يعيش بين نظامين متوازيين: نظام قانوني معلن، قائم على أحكام الشريعة كما وردت في مجلة الأحوال الشخصية دون تعديل منذ ١٩٥٦، ونظام اجتماعي متحوّل، تفرضه تطورات الحياة الاقتصادية والتعليمية وتحولات الوعي النسوي، ما يجعل النقاش حول المساواة في الإرث جزءاً من نقاش أوسع حول العدالة الاجتماعية والتمكين الاقتصادي والثقافي للمرأة. والجدل حول المساواة سيبقى متواصلاً ولن يقع

مع دخول الحماية الفرنسية سنة ١٨٨١، بدأت المرجعية الفقهية التقليدية تتآكل تدريجياً، أمام موجة من الإصلاحات القانونية والمؤسسية التي أحدثت قطيعة تدريجية مع القضاء الشرعي، خاصة مع تأسيس المحكمة العقارية ومحاكم الأحوال الشخصية ذات الصبغة الفرنسية. وقد استُخدمت هذه الإصلاحات كأدوات لضبط المجتمع وفق تصور استعماري للحدّاث، لكنّها خلقت في الآن ذاته جدلاً واسعاً بين النخب التقليدية والإصلاحية حول مفهوم العدالة الأسرية، وموقع الشريعة الإسلامية في الدولة الحديثة. ورغم أنّ سلطات الحماية لم تمسّ صراحةً بأحكام الإرث، فإنّها أضعفت موقعها الرمزي في بنية القانون.

المنعطف الجوهري حصل سنة ١٩٥٦ مع إصدار مجلة الأحوال الشخصية، التي مثّلت لحظة تأسيسية لتحول المرجعية القانونية من الفقه إلى التشريع الوضعي، مع احتفاظ شكلي بالهوية الإسلامية. فقد تميّزت المجلة بمزج فريد بين روح الاجتهاد ومقتضيات الدولة الوطنية الحديثة، وخصوصاً في مقاربتها لموضوع الإرث. ورغم أنّها لم تُدخل تغييرات جوهرية على نظام الأنصبة، إلا أنّها أرسّت، عبر منع تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، وتمكين المرأة من حقوق جديدة، مبدأ المساواة التدريجية داخل بنية الأسرة، ممّا هيأ الذهنية المجتمعية لتقبّل تحوّلات لاحقة.

ومن أبرز نتائج هذا البحث أيضاً أنّ المسار التشريعي للمواريث بعد ١٩٨١، وخصوصاً مع النقاشات الحامية التي فجّرها مشروع المساواة في الإرث سنة ٢٠١٨، كشف عن انقسام عميق بين من يناصر تأويلاً ديمقراطياً للمرجعية الدستورية يكرّس المساواة التامة بين الجنسين، وبين من يتمسّك بالنصوص القرآنية كمرجعية فوق دستورية. وقد أظهر هذا الصراع أنّ الدولة التونسية، رغم تقدّمها على بقية الدول العربية في مجال حقوق المرأة، ما زالت تتحرك في منطقة رمادية بين الشرعية الدينية والشرعية القانونية، وأنّ مسألة المواريث أصبحت اليوم قضية سياسية وثقافية بامتياز، تعبّر عن صراع عميق حول الهوية، لا يقلّ خطورة عن الصراع حول السلطة ذاتها.

الفصل فيه بسهولة، إذ إنّ هذا المطلب جزء لا يتجزأ من منظومة كاملة. وقبل الحديث عن المساواة بين الجنسين، ينبغي أن نتحدث أولاً عن المساواة بين المرأة والمرأة نفسها، إذ يظهر فرق شائع بين المرأة في المدينة والمرأة الريفية، كما أنّ الأمر ينطبق على الرجال. زد على ذلك أنّ "المال" في هذا السياق هو سلطة حقيقية تمارس تأثيرها المباشر على العلاقات الأسرية والاجتماعية، فهو ليس مجرد أداة اقتصادية، بل وسيلة للنفوذ، التحكم، وإعادة توزيع القوة داخل المجتمع.

خاتمة

مثّل نظام المواريث في تونس مرآة دقيقة للتحوّلات التي شهدتها المجتمع التونسي منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن الحادي والعشرين، ليس فقط على مستوى التشريعات، بل في عمق المنظومة القيمية والتصورات الاجتماعية والدينية التي صاغت العلاقة بين النص والواقع، وبين الفقه والقانون، وبين المرجعية الشرعية والمرجعية الوضعية. وقد كشف البحث، من خلال تتبع هذا المسار، عن جملة من النتائج التي تُضيء أبعاد هذا التحوّل وتُبرز خصوصية الحالة التونسية مقارنة ببقية السياقات الإسلامية.

أول ما يلفت النظر هو أنّ نظام المواريث في تونس، قبل الحماية، كان شديد الارتباط بالمرجعية المالكية التقليدية، حيث مثّل مختصر خليل وشروح المدوّنة مصادر أساسية في ضبط أنصبة الورثة، وتحديد أصحاب الفروض والعصبات، وتنظيم التركات. وقد لعب القضاء الشرعي، إلى جانب تقاليد الفتوى والعرف المحلي، دوراً محورياً في تنظيم هذه العمليات، رغم ما اتّسم به الواقع من تفاوت اجتماعي، وتهميش قانوني لبعض الفئات كذوي الأرحام والعبيد والنساء، وهو ما عكس تواطؤاً ضمنياً بين المنظومة الفقهية والبنية الاجتماعية المحافظة.

واستفتاء العارفين بأحكام الشّرع في مقتضيات الحال حتّى تكون القرارات نابعة من رحم الشريعة الذين هم حماتها".
يُنظر في: عادل، النّقّاتي، **الفقهاء المخزن بإيالة تونس خلال القرن التاسع عشر: قراءة في سيرة الشّيخ إبراهيم الرياحي**، دراسة ضمن مجلة "كان" التاريخية، العدد الرابع والسّتون، ٢٠٢٤، ص ١٣٧.
(١٠) أحمد، بن تيشة ومحمّد، مكحلي، **طبيعة نظام الحكم الحسيني في تونس وتطوّر مؤسّساته السياسيّة والقضائيّة خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر الميلاديّين (١٧٠٥-١٨٨١)**، دراسة ضمن مجلة آفاق فكريّة، العدد ٣، المجلّد ٩، ٢٠٢١، ص ٨٤.

(11) Montana, Ismael M. *The Abolition of Slavery in Ottoman Tunisia*. Gainesville : University Press of Florida, 2013. P147.

(12) Bouzidi, Abdelmadjid. *Pouvoir et esclavage dans la régence de Tunis : les serviteurs des beys Husseinites, XVIIIe - début XIXe siècles*. Tunis : Centre de publication universitaire, 2005. P145-149.

(١٣) محمّد بن عثمان، السنوسي، **مُسامرات الطّريف بخُسن التعريف**، ج١، تحقيق الشّيخ محمّد الشاذلي التّيفر، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤، ص ٦٢.

(١٤) يذكر الأستاذ نور الدّين الجريبي أنّ "هذا المخطوط نصّه العربيّ مفقود وقد عمل الأستاذ الشّتّوفي على نشر ترجمته الفرنسيّة التي ظهرت سنة ١٨٩٧ مشفوعة بتعليق في المجلة التونسيّة RT وقد قام بها الابن الأكبر للمؤلف محي الدّين وابن أخته عبد القادر القبائلي ويذكر الأستاذ الشّتّوفي في تقديمه للنصّ الفرنسيّ أنّ ما دعاه إلى نشره كاملاً هو صعوبة الحصول عليه فيكون بذلك قد أدّى خدمة كبيرة إلى المهتمّين بأدب السنوسيّ عموماً وبقضية المرأة خصوصاً".

يُنظر في: نور الدّين الجريبي، **رسالة تفتّق النُكمام: رسالة محمّد السنوسي في المرأة**، دراسة منشورة بمجلة الحياة الثقافيّة، العدد ٥٢، ١٩٨٩، ص ٥.

يُمكن الاطلاع على التّرجمة الفرنسيّة للمخطوط على الموقع الإلكتروني للمكتبة الوطنيّة التونسية:
https://www.bibliotheque.nat.tn/BNT/doc/SYRACUSE/443183/epanouissement-de-la-fleur-ou-etude-sur-la-femme-dans-l-islam?_lg=fr-FR

(١٥) نور الدّين، الجريبي، المرجع السّابق، ص ١٣.
(١٦) يمكن الإشارة إلى أنّ التدخل الفرنسي في الشؤون التونسية لم يقتصر على الحقبة الاستعمارية الرسمية (١٨٨١-١٩٥٦)، بل كان له جذور أعمق تمتد إلى عقود قبل توقيع معاهدة الحماية. فقد شهدت تونس في منتصف القرن التاسع عشر سلسلة أزمات مالية وسياسية وضغوط دبلوماسية من القوى الأوروبية، وخصوصاً فرنسا وإيطاليا، ما أضعف السيادة المحلية ومهد الطريق أمام النفوذ الفرنسي. في هذا السياق، يقدّم المؤرخ الفرنسي جان غانباخ في أطروحته "جذور الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية (١٨٦١-١٨٨١)" تحليلاً مفصلاً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مهدت لفرض الحماية. موضحاً أنّ النفوذ الفرنسي كان قائماً منذ ما قبل الاستعمار الرسمي، وهو ما يساعد على فهم الخلفية التي مكّنت فرنسا من بسط سيطرتها على البلاد لاحقاً. يُنظر في: جون، غانباخ، **جذور الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية (١٨٦١-١٨٨١)**، ج١، ترجمة عبد الجليل بوقرة، تونس، دار سيناترا، ٢٠١٤، ص ٢١٢.

أخيراً، أكّد هذا البحث أنّ أيّ إصلاح جذري في نظام المواريث لا يمكن أن ينجح إلا إذا انطلق من فهم عميق للواقع الاجتماعي، ومن رغبة حقيقية في صياغة عدالة إرثية جديدة، تتجاوز الصيغ الحسائية الجافة، نحو مقاربة تشاركية تدمج الفئات المهمّشة، وتوازن بين الحق الفردي وروح التضامن الأسري، في ضوء مستجدات العصر ومقاصد الشريعة.

الإحالات المرجعية:

(١) يُستعمل في أغلب الدّراسات التاريخيّة التونسيّة، خصوصاً تلك التي أنجزها مؤرّخون توكّونوا في الجامعات الفرنسيّة، لفظ "الحماية الفرنسيّة" لوصف المرحلة الممتدّة بين ١٨٨١ و١٩٥٦. غير أنّ هذا المصطلح ذو أصل قانوني إداري فرضته فرنسا لتجميل صورة وجودها في تونس والتقليل من طابعه الاستعماري. ومن ثمّ فإنّنا نرى أنّ ما حدث كان استعماراً فعليّاً، وإنّ اتّخذ شكلاً تعاقدياً خاصاً. لذلك سنحافظ في هذا البحث على استعمال لفظ "الحماية" انسجاماً مع المراجع الأصليّة، مع وعي بما يحمله من شحنة إيديولوجيّة، ودون أن يعني ذلك تبني دلالته أو التسليم بمقاصده.

(2) Raymond, André. *Tunis sous les Mouradites : La ville et ses habitants au XVIIe siècle*. Tunis : Cérès Editions, 2006, P68.

(٣) محمّد، بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، تقديم وتحقيق حمّادي السّاحلي والجيلاني بن الحاج يحي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦-١٨٧، ص ١٨٦-١٨٧.

(٤) عبد الباسط، قوادر، **تأثير الفقه المالكيّ في مجلة الأحوال الشخصية: كتاب الميراث نموذجاً**، مداخلة علميّة ضمن وقائع الدّعوة العلميّة الدوليّة الموسوم بـ "إشعاع الفقه المالكي على التّقنين المدنيّ في تونس" من تنظيم مخابر القانون المدنيّ (كلية الحقوق والعلوم السياسيّة/جامعة تونس المنار)، ٢٣-٢٤ فيفري ٢٠١٩، ص ٣١٣.

(٥) كمال، مايدي، **السّلطة والمجتمع بإيالة تونس خلال العهد الحسيني (١٧٠٥-١٨١٤): مقاربة سياسيّة اجتماعيّة**، أطروحة دكتوراه في التّاريخ الحديث، جامعة غرداية (الجزائر)، ٢٠١٨، ص ٥٨.

(٦) محمّد الهادي، الشّريف، **تاريخ تونس: من عصور ما قبل التّاريخ إلى الاستقلال**، تعريب محمّد الشّاوش ومحمّد عجينة، ط٣، تونس، دار سيرانس للنشر، ١٩٩٣، ص ٨٢-٨٣.

(٧) حسن حسني، عبد الوهاب، **شعيرات التونسيّات**، ط١، تونس، المطبعة التونسيّة، ١٩٣٥، ص ٩٨-٩٩.

(٨) المنصف، الشّتّوفي، **رسالة أحمد بن أبي الصّياغ في المرأة** (مخطوط)، مجلة حوليّات الجامعة التونسيّة، عدده، ١٩٦٨، ص ٩٤.

(٩) يذكر الباحث التونسيّ في التّاريخ الثقافيّ المغاربيّ والمتوسّطيّ عادل النّقّاتي أنّ "حاضرة حكم الحسينيّين كانت وجه مطلوبة من قبل طُلّاب وفدوا من دواخل البلاد راغبين في مواصلة تعليمهم بجامع الزيتونة ونيل الشّهادات والإجازات. وكان التّعليم بالجامع الأعظم يهدف إلى تكوين نخبة من المُطلّعين على علوم الدّين ومنها علوم الفقه والقرآن والحديث... فبتلك الشّهادات والإجازات يُمكن للطلبة الانخراط في سلك موظّفي الدّولة وكان إلى شيوخ الزيتونة يتوجّه عادة البايات لاختيار من يتولّى خطّة القضاء والفتوى ولطلب المشورة

على أنه حاكم معتدل ومتوازن. فالمؤسسات النسوية والمجتمعية أظهرت الانفتاح على قيم العصر الحديث وحقوق المرأة، وهو ما أكسبه دعم الحداثيين، في حين أن مراقبته لنشاط هذه الجمعيات وضمّنها قيوده الضمنية على الإصلاحات الفعلية أكسبه رضا النخب المحافظة التي لم ترَ في سياسته تهديداً لأعرافها وقيمها. بهذا الشكل، تحوّل النشاط المدني إلى أداة رمزية للتسويق السياسي، بينما بقيت الإصلاحات الجوهرية محدودة.

يُنظر في: صابرين، الجلاصي، **النضال النسوي في تونس في فترتي حكم بورقيبة وزين العابدين بن علي**، مقال منشور بالموقع الإلكتروني "حفريات" بتاريخ ٢٠٢٥/٠٨/٠٦. <https://shorturl.at/5d3gO>

(34) Booley, Ashraf. "Progressive Realisation of Muslim Family Law : The Case of Tunisia." *Potchefstroom Electronic Law Journal* 22 (2019) : 1–28. <https://doi.org/10.17159/1727-3781/2019/v22i0a2029>.

(٣٥) يُنظر في الموقع الإلكتروني لرئاسة الجمهورية التونسية: <https://shorturl.at/DpsFU>

(٣٦) مجموعة من الأكاديميين، **تقرير لجنة الحريات الفردية والمساواة**، إشراف مؤسسة رئاسة الجمهورية، ٢٠١٨، ص ١٤١.

(٣٧) الفصل ٢ من الدستور التونسي.

(٣٨) الفصل ٢١ من الدستور التونسي.

(٣٩) تقرير لجنة الحريات الفردية والمساواة، ص ١٨٣.

(٤٠) تقرير لجنة الحريات الفردية والمساواة، ص ١٤١.

(٤١) ساري، حنفي وعزام، طعمة، **ما وراء الديانة والعلمانية: نقاش الميراث والمساواة بين الجنسين في تونس وتشكيل التفكير غير الاستبدادي**، ورقة بحثية ضمن مجلة "عمران" الصادرة عن "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد الدوحة للدراسات العليا، العدد ٣٢، قطر، ٢٠٢٠، ص ٩٠.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٤٣) نجم الدين، شعبان، **المساواة في الإرث بين الزيادة على الإرث البورقيبي والخضوع للإملاءات الخارجية**، مقال صحفي منشور على الموقع الإلكتروني لصحيفة "باب نات" بتاريخ ٢٢ أوت ٢٠١٧. يُنظر في: <https://www.babnet.net/festivaldetail-146754.asp>

(44) Charrad, Mounira, and Maro Youssef. **Stumbling Block : Inheritance and Women's Rights in Tunisia**. Baker Institute for Public Policy, June 29, 2021. <https://www.bakerinstitute.org/research/stumbling-block-inheritance-and-womens-rights-in-tunisia>.

(٤٥) إلهام، الرمضاني، **المرأة التونسية والمساواة في الميراث: التمثلات والمعيش اليومي**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، إشراف الأستاذ عبد الستار السحباني (٢٠٠٩/٢٠٠٨) (الأطروحة محفوظة بمكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس تحت رمز T7576).

(١٧) مجموعة من المؤلفين، **تونس عبر التاريخ: الحركة الوطنية ودولة الاستقلال**، ج٣، تونس، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، ٢٠٠٥، ص ٤١٤.

(١٨) محمّد، حدّاد، **بُنية إدارة المسار المهني للقضاة: الإرث الاستعماري للنموذج الفرنسي**، مقال منشور على الموقع الإلكتروني التالي بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠٢٤: <https://shorturl.at/5LuZY>

(19) Stigall, David E. **Law and the Lodestar : Tunisian Civil Law and the Task of Ordering Plurality in the Aftermath of the Jasmine Revolution**. *Journal of Comparative Legal Studies*, 2025. Consulté le 1er septembre 2025. P28.

(20) Abdelaziz Ben Achour, « La justice tunisienne avant 1956 », *Leaders*, 23 octobre 2014, consulté le 1er septembre 2025, <https://www.leaders.com.tn/article/32792-la-justice-tunisienne-avant-1956>.

(٢١) آمال، النّاجي، **بدايات الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مقال منشور بمجلة "نقد وتنوير" العدد ١، ٢٠٢٢، ص ٣٧.

(22) Jacques, Berque, **Le Maghreb entre deux guerres**. Paris : Éditions du Seuil, 1962, P154.

(٢٣) عبد الواحد، المكني، **النخب الاجتماعية التونسية زمن الاستعمار الفرنسي (١٨٨١-١٩٥٦): الأشراف والبلدية مثالا**، ط١، صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ٢٠٠٤، ص ٨٩.

(24) Hernández-Justo, Tatiana. **"Between Individual Thinkers and Women's Associations : An Overview of the 'Female Issue' in Tunisia from the Beginning of the Protectorate to World War II."** *Revista de Estudios Internacionales Mediterráneos* 32 (2022) : P3 <https://doi.org/10.15366/reim2022.32.002>.

(٢٥) الطاهر، حدّاد، **الجمود والتّجديد في قوّتهما**، تحقيق عبد المجيد الشرفي، ط١، قرطاج، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ٢٠١٨، ص ١٣.

(٢٦) للاطلاع بشكل أعمق على الرؤية الإصلاحية لهذين المفكرين، يُنظر في كتاب خير الدين التونسي **"أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"** لفهم مقاربه لإصلاح الدولة والقوانين وربط الشريعة بالمصلحة العامة، وفي كتاب عبد العزيز الثعالبي **"روح التحرر في القرآن"** لدراسة منهجه في تجديد الفكر الإسلامي وحقوق المرأة وإعادة صياغة دورها في المجتمع.

(٢٧) عبد الرزاق، الحماصي، **الفكر الإسلامي في تونس (١٩٥٦-١٩٨٧)**، ط١، تونس، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٥، ص ٣.

(٢٨) الطاهر، بلخوجة، **الحبيب بورقيبة: سيرة زعيم (شهادة على العصر)**، ط١، مصر، دار الكتب المصرية، ١٩٩٩، ١٤-١٥.

(٢٩) محمّد، الشرفي، **الإسلام والحريّة: سوء التفاهم التاريخي**، ط٢، دمشق، دار بترا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٩٢.

(٣٠) سورة النساء/ الآية ١١

(٣١) قرار تعقيبي مدني عدد ٣٤٣٧ مؤرخ في ٢٠٠٧/٠٢/١٩٩٥.

(٣٢) Bostanji, Sami. **"Turbulences dans l'application judiciaire du Code tunisien du statut personnel : le conflit de référentiels dans l'œuvre prétorienne."** *Revue internationale de droit comparé* 61, no. 1 (2009). P23. <https://doi.org/10.3406/ridc.2009.19838>.

(٣٣) رغم أن نظام بن علي لم يقدم إصلاحات جذرية على مستوى قانون الموارث، فقد استغل هذا التوتر لصالحه، إذ سمح بإنشاء الجمعيات والمنظمات النسوية، وهو ما أتاح له التسويق لصورته السياسية

القايد سي محمد بن السنوسي ودار القيادة بقصر مسعد "بيوكحيل" خلال القرن التاسع عشر الميلادي دراسة تاريخية عمرانية معمارية

د. حسن بربورة

دكتوراه تاريخ الدولة العثمانية
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور
جامعة يحي فارس المدينة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

خُصِّصَتْ دراسةٌ إحصائيةٌ للأبحاث حول منطقة الجلفة وأولاد نائل عمومًا بالجزائر، من حيث أعدادها، طبيعتها ومجالات اهتمامها، تركيزها على مواضيع الرحلة والرحالة، ويأتي الواقع الاستعماري الفرنسي في المرتبة الثانية، في حين ظلت الدراسات المونوغرافية سواء اجتماعيًا، اقتصاديًا، أو عمرانيًا بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والدراسة، وذلك بسبب غنى وطول فترة الاستعمار من جهة، وكثرة الأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة من جهة ثانية. في هذا الإطار تأتي هذه الدراسة والمعنونة بـ: "القايد سي محمد بن السنوسي ودار القيادة بقصر مسعد خلال القرن التاسع عشر الميلادي، دراسة تاريخية عمرانية معمارية"، كدراسة مونوغرافية تخص أحد قياد قصر مسعد خلال فترة الاحتلال الفرنسي ووصف عمراني معماري لمبنى قيادته، الذي كان يُشرف من خلاله على تأدية خدمته وإدارته للقصور ١٣ المجاورة له. وقد كان لتعاون القياد انعكاسات كبيرة على المجتمع الجزائري، سواء من الناحية الاجتماعية، الاقتصادية، أو حتى السياسية، وقدّموا بذلك خدمات كبيرة لسلطة الاحتلال، إلى درجة أن كثير من الأدبيات - خاصة أدبيات الثورة - صورتهم كفتنة مستفيدة من النظام الاستعماري، ضحّت بمجتمعها من أجل تحقيق مكاسب مادية، وبالأحرار من صدق هاته النظرة إلى حد بعيد، فلا شك أن هناك بعض الاستثناءات، كما أن قياد الفترة الأولى للاحتلال، لا تنطبق عليهم هاته الأدبيات دائمًا، بسبب غياب شكل وفكر الوطنية لدى الكثير منهم.

كلمات مفتاحية:

القايد سي محمد بن السنوسي؛ دار القايد؛ جامع الراس؛ قصر مسعد،
القرن التاسع عشر الميلادي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.417250.1267

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة، "القايد سي محمد بن السنوسي ودار القيادة بقصر مسعد "بيوكحيل" خلال القرن التاسع عشر الميلادي: دراسة تاريخية عمرانية معمارية"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون، يناير ٢٠٢٦، ص ١٤٦ - ١٦٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: barbora.hacen@univ-medea.dz

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC-ND 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تفطنت إدارة الاحتلال الفرنسي منذ بداياتها إلى أهمية "القياد" ^(١) كإرث إسلامي حضاري عثماني في الجزائر، فالقايد كان يُمثّل عشيرته في الجزائر، ومسؤولاً عن تصريف أمورها، وأمور المنتسبين إليها قبل الاحتلال الفرنسي، ومع البدايات الأولى للاحتلال عملت السلطات الفرنسية على توظيف نظام القياد لصالحها، من خلال اخضاع الفضاء الريفي وحتى الحضري، وتشديد القبضة على مجاله بواسطة امكاناته الاجتماعية وسلطاته الروحية أحياناً، فحافظت على الوظيفة بمُتَوَلِّيها السابقين أحياناً، أو بتعيين قياد جدد شريطة الازعان والولاء في الحالتين لسلطة الاحتلال الفرنسي، في مقابل الحد من صلاحياتهم العسكرية والأمنية، وفعلت بذلك جهاز القيادة لاستغلال المكون القبلي لصالحها بعد أن شرعت في تقويض وتفكيك أسسه، من خلال جملة القوانين التي أصدرتها تباعاً قصد تفتيت الملكية، وفرض هيمنة ترابية تمكّنها من المزيد من الاستنزاف المالي والمسخ الثقافي والاجتماعي ^(٢).

وبذلك فقد تحتم الأمر أن يكون القايد هو الوسيط السياسي بين أهالي عرشه والسلطات الاستعمارية، وإلّا أعتبرت قبائل مُتمرّدة Des Tribus Non Soumises à L'appel وتُعاقب بمصادرة أراضيها والنفي التام، أو بالتشريد، والتعرض للعمليات العسكرية المستمرة ضدها، أو حتى للإبادة، حيث أبادت فرنسا العديد من العروش والقبائل في الجزائر في الثلاثون سنة الأولى فقط للاحتلال ^(٣).

هكذا ومنذ بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر، لم يعد نظام القياد -هذا النظام الإداري المحلي الجزائري- إسلامياً كما كان، بل أصبح فرنسياً استعمارياً، يخفي وراءه السلطة الاستعمارية التي تمتلكها سلطة "المكاتب العربية" Bureaux Arabes التي أنشأها الحاكم العام بالجزائر الجنرال دو روفيشو De Rovigo، والذي أسس أول هيئة رسمية لها سنة ١٨٣٣م ^(٤).

وقد كانت سلطات الاحتلال تختار القياد من ضمن العائلات الكبرى (الخيمة الكبيرة)، حتى تضمن خضوع

الأهالي، لكن ومنذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي أخذت تبعد نسبياً عن ذلك بسبب انهيار نفوذ هاته العائلات سواءً من الأجواد أو المرابطين ^(٥)، حيث شرعنت الإدارة ترسانة من القوانين، أضعفت من خلالها سلطة القياد والباشاوات والآغات وقبائلهم بما فيهم من مساوي، فجردت القبائل من أراضيها لإنشاء مدن إدارية مختلطة، وأحدثت تغييراً شاملاً في تركيبة المجتمع الجزائري من خلال قوانين الحالة المدنية، بهدف تشتيت سلطة القبائل إلى عوائل صغيرة يسهل السيطرة عليها، ولذلك لم يكن تعيينهم يتوقف على كفاءات أو مؤهلات بقدر ما يعتمد على صفة الولاء، وكان عددهم في المناطق الخاضعة للحكم العسكري في الجنوب لا يتجاوز ٢٠٧ قايد ^(٦).

وفيما يخص صلاحيات القياد فقد كانوا يعتبرون بمثابة نواب لرؤساء البلديات الخاضعة للحكم المركزي، حسب القرار الصادر في ٢٠ ماي ١٨٦٨م ^(٧)، ولعبت المكاتب العربية دوراً في تأطير مهماتهم، وكان دخلهم السنوي يتمثل في عُشر (١٠/١) الضرائب العربية المفروضة على الأهالي (أمرية ١٧ جانفي ١٨٤٥م)، لكن ومع مرور الوقت ازداد نفوذهم ودخلهم السنوي وأصبح لا يقل عن ١٢٠٠ فرنك فرنسي، ولم يكن بإمكانهم البث في القضايا المصيرية ما عدا الأمور التوجيهية في حق السكان، كما لم تكن لهم صلاحيات قضائية بالمعنى الحقيقي، سوى التدخل لفك النزاعات، وتسليم المطلوبين إلى المكاتب العربية، وفرض الغرامات التي لا تتجاوز ٢٥ فرنك فرنسي مع الاحتفاظ بثُلث العقوبة، وله حق البرنوس (ضريبة يدفعها الأهالي عند تعيينه لأول مرة)، والتي لم تُلغى سوى سنة ١٨٦٣م، لكنها ظلت سائدة بطريقة غير رسمية ^(٨).

وقد كان لتعاون هؤلاء القياد انعكاسات كبيرة على المجتمع الجزائري، سواءً من الناحية الاجتماعية، الاقتصادية، أو حتى السياسية، وقدموا بذلك خدمات كبيرة لسلطة الاحتلال، إلى درجة أن كثير من الأدبيات -خاصة أدبيات الثورة- صورتهم كفتة مُستفيدة من النظام الاستعماري، ضحّت بمجتمعها من أجل تحقيق مكاسب مادية، وعلى الرغم من صدق هاته النظرة إلى حد بعيد، فلا شك أن هناك بعض الاستثناءات ^(٩)، كما

ينقسمون إلى قَارَّينَ وهُم أهل القُصور، وبَدُو رُحَّلَ يمثلون الأغلبية ديمغرافياً وجغرافياً، وقد نشأ قصر مسعد كنشأة باقي قصور المنطقة، مُعتمداً على مصادر السَّقي والفلاحة (وادي الحُمَيْضَة)، ما سمح بوجود بساتين من الفواكه، وواحات، وأنظمة ري تقليدية^(١٧).

وقد أكَّد المترجم العسكري الفرنسي آرنو A. Arnaud عند وصفه للمنطقة منتصف القرن التاسع عشر الميلادي نمو وتطور قصر مسعد^(١٧)، والفضل يرجع طبعاً لتأسيس الزوايا والمدارس القرآنية داخل القصر وفي ضواحيه، سواءً من طرف الشيوخ والعلماء الأوائل، كزاوية الشيخ محمد بن عياش بن عزوز، وزاوية الشيخ سي الطاهر طاهيري سنة ١٨٣٧م (على اختلاف بين المصادر)، والشيخ التواتي الصَّلَحي الأعوري النابلي (القادري طريقة)^(١٨)، وزاوية الشيخ الحاج سي براهيم خليفة، وزاوية الشيخ سي بولبراح بن المحفوظ، وزاوية الشيخ سي أحمد بلحموروش اليحياوي سنة ١٨٦٠م، وزاوية الشيخ الحاج سي أمحمد حامدي حوالي سنة ١٨٧٠م، وزاوية الشيخ سي الصادق بن الشيخ النَّاجوي وغيرها^(١٩)، وأيضاً الزوايا التي أُسِّست من طرف وفود العلماء والحجيج التي كانت تمر وتستقر أحياناً بالمنطقة، كزاوية الشيخ موسى بن الحسن الدرقاوي سنة ١٨٣١م^(٢٠)، وزاوية العلَّامة محمد بن علي السنوسي خلال الفترة ١٨١٩-١٨٣٠م (على اختلاف بين المصادر)، غير أنَّ ما كتبه "البارون ديتورنال" Estournelles De Constant حول السنوسية يُؤكِّد فيه أنَّ الشيخ السنوسي غادر فاس سنة ١٨٣٠م، ثم توجه إلى الأغواط، وهناك التقى بالشيخ موسى الدرقاوي، ثم غادر نحو قصر مسعد وأسس زاويته هناك^(٢١).

وفي العهد العثماني لم يشدَّ قصر مسعد عن حملات سلطة البايك، على غرار ما كانت عليه سائر بلاد أولاد نايل في حروبها مع السلطة العثمانية الحاكمة، فيذكر "آرنو" أنَّ القصر قد تعرَّض لحملة من طرف أحد بايات وهران "موركي" Mourki سنوات قليلة قبل الاحتلال الفرنسي، بسبب امتناع أهل دمَّ عن دفع الضرائب^(٢٢).

ويعكس قصر حاضرة مسعد عُمرانياً خلال القرن التاسع عشر الميلادي صموده في وجه التأثيرات الاستعمارية، إذ ظلَّ يحمل مزيجاً من التأثيرات العربية

أنَّ قياد الفترة الأولى للاحتلال، لا تنطبق عليهم هاته الأدبيات دائماً، بسبب غياب شكل وفكر الوطنية لدى الكثير منهم.

ومن مشيخة وقياد قصور مسعد الثلاث، خلال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين الميلادي نذكر: الأحرش بن بافة، ابراهيم بن سالم، لطرش بن عبد الله خلال أواخر العهد العثماني، كما عيَّنت فرنسا الأطرش بن عبد الله ١٨٥٢م، وسي محمد بن السنوسي (١٨٥٣-١٨٩٩م) قياد على قصر مسعد، وما جاورها من قصور: سَلْمَانَة، البُرج، عين سُلطان، عمُورة، المويلح، المُجْبَارَة، زَكَّار، عين الابل، عامرة، وحتى أنثيلة، وبعدهم كانت القيادة لكل من سي الشريف لحرش (ثلاث سنوات)، الكاكي، يحيى بن عطالله^(١٠) (١٩٢٠-١٩٣٠م)، الحاكم جيرمان (١٩٣٠-١٩٤٥م)، رابحي عبد الحفيظ^(١١) حتى سنة ١٩٥١م، بن قرينة قريصة العبزووي (١٩٤٥-١٩٥٣م)، وآخر قايد أحمد بن الشريف ١٩٥٦م.

أولاً: نظرة على أوضاع قصر مسعد خلال

منتصف القرن التاسع عشر الميلادي

تاريخياً يعتبر قصر مسعد^(١٢) من أقدم قصور منطقة جبل بوكحيل، هاته المنطقة التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، إذ كانت من آخر مناطق تَوسُّع الاحتلال الروماني جنوباً في الجزائر عند تشييدهم لخطوط اللِّيمس الدفاعية، وتمَّ فيها تأسيس وبناء الحصن الروماني الشهير كَاسْتِيلُوم دِيمِيدِي Castelleum Dimmidi^(١٣)، وخلال القرن التاسع عشر الميلادي كانت حاضرة مسعد تتكوَّن من ثلاث قصور هي: (دمد، مسعد والحنية)، وقد ذكر الرائد نيوكس أنَّ قصر مسعد هو الأكثر سُكَّاناً والأجمل^(١٤)، بينما نجد أنَّ قصر دمد هو أقدمها على الإطلاق، والأكثر حُضوراً في كتابات الرحلة الحجازية خلال القرنين ١٧-١٨م كَمَحَطَّ ومُسْتَرَاَح^(١٥)، كما ورد ذكره في رحلات الأوربيين من أمثال الرَّحَّالة الانكليزي "توماس شو" Thomas Shaw في رحلته سنوات (١٧٢٤-١٧٢٥م)، والذي اعتبره مع دَشَرَات الأغواط من أكبر القُرى في الصَّحراء، غير أنَّ أهل مسعد عموماً كباقي عُرُوش أولاد نايل كانوا

الجبال ما عدا العاجزين، بعدها وُضِعَت المنطقة تحت سُلْطَة خليفة فرنسا على الأغواط أحمد بن سالم^(٣١)، وفي سنة ١٨٤٧م انطلقت الحملة الثانية لماري مونج من أجل إحكام السَّيطرة على المنطقة والقضاء على الشيخ الدَّرَقاوي وأتباعه، والذي تمكَّن من الفرار إلى متيلي، كما حلَّ الجنرال يوسف بقصر مسعد في أبريل ١٨٤٧م ونفَّذَ حملةً عسكريةً، وعَزَلَ واستبدل ثلاثة قياد بسبب استقبالهم للدَّرَقاوي، وعدم خضوعهم لِسُلْطَة الاحتلال وهم: ابراهيم بن سالم، الأحرش بن باقة، ولطرش بن عبد الله^(٣٢).

وفي جوان ١٨٤٩م حلَّت حملةً عسكريةً أخرى بقيادة الجنرال لادميرو، حيث قام بتدمير دار وزاوية الدرقاوي الذي انضمَّ إلى ثورة الزعاطشة، إلى غاية استشهاد سنة ١٨٤٩م رفقة كتيبته من أولاد نايل، والتي قدَّمت أكبر عدد من الشهداء حسب احصائيات مسؤول المكاتب العربية ببسكرة العقيد سيروكا Sèroka^(٣٣).

وبسبب مشاركة فرسان من أولاد نايل في الدفاع ضدَّ حصار مدينة الأغواط ١٨٥٢م، قَادَ الكولونيل "بان" Pein بعد سقوط المدينة^(٣٤) حملة عقابٍ جماعي على المنطقة، تسبَّبت في هجرة وفرار كثيرٍ من العروش، واندلاع مقاومة أولاد طُعبَة (أكتوبر ١٨٥٢-١٨٥٤م) بجبل كَرَبِيطْ ومنطقة وادي جدي^(٣٥).

ثانيًا: القايد سي محمد بن السنوسي وتولَّيه قيادة قصر مسعد

كانت دائرة الجلفة^(٣٦) أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تحديدًا سنة ١٨٧٧م برئاسة النقيب "دو لا بونينيار" De La Bounnière de Beaumont A.E.J، وبمقتضى التَّظيم الفرنسي المعمول به آنذاك كان هناك ثلاثة أصنافٍ من الرُّتب وهي: باشاغا أولاد نايل وهو: سي بلقاسم بن لحرش، منذ ٢٠ أكتوبر ١٨٦٤م، ومنصب الآغا وتنقسم دائرته إلى أربع آغاليك، (باستثناء أولاد سعد بن سالم من عيَّنت عليهم فرنسا آغا)، وهناك منصب القايد^(٣٧).

وقد ضُمَّت دائرة الجلفة ٢٠ عرشًا، على رأس كل واحد قايد، إضافةً للشيوخ وأعضاء الجماعة، حيث عيَّنت فرنسا على أولاد سعد بن سالم الآغا بن ناصر بن

الاسلامية، وبحسب الفرنسي دوماس Daumas فإن: "دَمْدَمُ قريةٍ صغيرة، تتكوَّن من ثلاثين إلى أربعين منزلًا مُنخَفَضَ البناء، وتُحيطُ بها حدائق مزروعةً بأشجار الفاكهة، ويُزرَع فيها العديد من الخُضروات والعنب عالي القيمة، يوجد هناك عددٌ قليلٌ من أشجار النخيل، ولكن ثَمَارُهَا ذات نوعيةٍ رديئة، ويقوم أهلُ دَمْدَمُ بصناعة البَارُود الذي يتمتَّع بِسَمْعَةٍ طيبةٍ في الصَّحراء"^(٣٨)، أمَّا قصر مسعد فيقول عنه: "تقع مسعد على بُعدِ فَرَسَخَيْنِ إلى الغرب من دَمْدَمُ؛ وهو عبارةٌ عن قصرٍ يتكوَّن من أربعين إلى خمسين منزلًا، مبنيٌّ بشكلٍ جيدٍ إلى حدٍّ ما، وتُحيطُ به حدائق مزروعة"^(٣٩)، في حين يصفه الفرنسي فيكتور بيرار Bérard سنة ١٨٦٧م بأنه كان يَضُمُّ حوالي تسعين كُوْحًا طينياً، تأثَّر وسَقَطَ منها أربعون بسبب هُطُولِ أمطارٍ غزيرةٍ سنة ١٨٨٤م^(٤٠)، أمَّا ديمغرافياً فَتَشِيرُ احصاءات سنة ١٨٧٩م أنَّ قصور مسعد كانت عامرةً، فقصر دَمْدَمُ كان تعدادُ سُكَّانه ٤٨٧ نسمةً، بينما يُقدَّر عدد سُكَّان قصر مسعد بحوالي ١٥٣٢ نسمةً في نفس السنة، وقصر الحنية حوالي ٢٥٠ نسمةً، هذا عدداً عن البدو الرُّحَّل^(٤١)، وكان حي الرُّحبة بالحاضرة مركزاً تجارياً وتعليمياً، تضمَّن أيضاً الرَّاوية القادرية، ومحكمة دار القاضي، وكان سُوْقُ الأحد الأسبوعي الذي تأسَّس منذ سنة ١٨٦٠م، يُضفي على الحاضرة حركةً تجاريةً واسعةً ومتنوعةً^(٤٢).

وفيما يَخْصُ المقاومة الشَّعبية ضدَّ الاحتلال الفرنسي، فقد لعبت منطقة مسعد دوراً كبيراً في المقاومة ارتبط خاصةً بالانتفاضات التلقائية، كانتفاضة الشيخ موسى بن الحسن الدرقاوي، واحتضانهم للأمير عبد القادر الذي زار المنطقة منذ سنة ١٨٣٦م^(٤٣) بهدف الحصول على التأييد والمؤونة، وهو ما تجسَّد في مشاركة فرسان قبائل المنطقة في حصار عين ماضي سنة ١٨٣٨م، وفي أغلب المعارك التي خاضها الأمير كعمركة بُوغْنِي، ويسَّر بالقبائل الكبرى بداية سنة ١٨٤٦م، وفي انتفاضة التَّلي بلكل سنة ١٨٤٩م، الذي كان شبيهاً بِتَمَرْدُ الزَّيْبَان (الرَّعاطشة) ومُتَزَاماً معه^(٤٤).

لذلك قاد الجنرال "ماري مونج" Marey-Monge حملته الأولى على المنطقة سنة ١٨٤٤م، التي وبمجرد وصولها إلى قصر زَكَار^(٤٥)، فَرَّ أهل قصر مسعد إلى

محمد بن السنوسي باسم العلّامة سيدي محمد بن السنوسي العالم المغربي^(٤٨).

وفي تفصيل تسمية محمد ابن السنوسي، يذكر الشيخ الرئيس أنّ العلامة الجزائري محمد بن علي السنوسي^(٤٩) حين عَزَمَ على الحج إلى بيت الله الحرام انطلاقاً من مدينة فاس سَلَكَ طريق شيوخه مُروراً بمنطقة مسعد، وأمضى جزءاً من الثلاث سنوات التي قضاها في الجزائر في أثناء رحلة حجّه في مدينة مسعد، تزوّج خلالها "منة بنت سي محمد بن عبد الرحمن" من أولاد طُعبة^(٥٠)، لكنّها رفضت السفر معه لاحقاً إلى الحجاز، وأثناء مُكوّنه في قصر مسعد أنشأ زاوية^(٥١)، وهناك جاءت أمباركة بنت الصّيد بمولودها الذي أسمته عليه تبرُّكاً، وطلبت منه أن يدعوا له^(٥٢) وممّا يتداول أنّ العلامة محمد بن علي السنوسي مسح على رأس الصّبي ودعا له بهذا الدعاء: "لَا رَأْسَ فَوْقَ هَآذِ الرَّأْسِ"^(٥٣)، وهو ما كان فعلاً بعد سنوات، حين تولّى محمد بن السنوسي قيادة قصر مسعد سنة ١٨٥٣م وحتى وفاته.

من أوصافه الخَلْقِيَّة التي أوردها الشيخ الرئيس في رسالته: "أنّه كان نَحِيلٌ أحدى الإِلَيْتَيْنِ والفخذ والسَّاقِ، فكان يجعل مقعده مُرتفعةً من إحدى الجهتين لإليته النَحيلة ليتمكن من الجلوس مُعتدلاً، وكان لأجل هذا لا يَقْدِرُ على رُكُوبِ الجَوَادِ القَوِي، وإنّما يَرْكَبُ فَرَساً ضعيفاً"^(٥٤)، ومنها أيضاً أذانه المقطوعة بعد الحادثة الغريبة التي تعرّض لها مع الجنرال يوسف، والتي يرويها دي باراي De Barrail في مذكراته تحت عنوان (آذانٌ مألحة)، حيث أنه وأثناء تعقّب الجنرال يوسف للأمير عبد القادر في منطقة أولاد نائل^(٥٥)، يدّعي دي باراي أنّ جنود الأمير قتلوا ضابطين فرنسيين أسيرين مُصابين غير قادرين على اصطحابهم معهم وهما: "لاكوست" رئيس المكتب العربي في تيارت، ومُترجمه العسكري السيّد "ليفي"، وقد أثارت الحادثة حسب دي باراي الجنرال يوسف، الذي حوّل غضبه إلى قبائل أولاد نائل التي ساندت واحتضنت الأمير عبد القادر بمنطقة بوكحيل، وبعد استجوابه لسُجنائِهِ من المنطقة أدرك يوسف أنّ الأمير قد أخطأ الطّريق وأنّه لا يزال بين قبائل دائرة بُوغَار^(٥٦)، وعند وصوله إلى قصر الشارف أمر

أحمد (آغا شرقي)، وكان يُقيم بالأغواط ولا يتدخل في تسيير الآغاليك، كما عيّنت عدداً من القياد على العروش منهم: القايد سي فرحات بن الحاج خنيش^(٣٨) على أولاد طُعبة بفرقتيهم (اليبالة الرُّحل، والبِقارة المستقرّين)، والقايد لطرش بن الطيّب^(٣٩) على أولاد يحي بن سالم بفرقهم الأربعة^(٤٠)، وعيّنت على عرش أولاد عيسى كُلٌّ من: القايد قويدر بن لُقْبَج ابتداءً من ٢٥ فيفري ١٨٧٣م على أولاد لعور والمهاش (بفرقهم الاحدى عشر)، وعلى أولاد عَيْفة بفرقهم السبعة القايد بن عياش بن السّلمي^(٤١)، وعلى أولاد أم الإخوة بفرقهم العشرة القايد محمد بن سعد (١٨٣٧-١٨٨٨م) ابتداءً من ٢٥ نوفمبر ١٨٧٣م، وهو الذي كان قائداً على أولاد لعور والمهاش منذ ١٠ فيفري ١٨٦٥م^(٤٢)، أمّا قصور مسعد الثلاث (مسعد، دمد، الحنية) وما جاورها، فقد عيّنت فرنسا عليها سي ابراهيم بن سالم من عرش أولاد طُعبة ثمّ عزل، وعيّن سي لطرش بن عبد الله وعزل أيضاً (على اختلاف بين المصادر)^(٤٣)، ثم عيّنت فرنسا القايد سي محمد بن السنوسي ابتداءً من ٢٨ فيفري ١٨٥٣م^(٤٤).

١/٢- سيرة وشخصيّة القايد محمد بن

السنوسي

محمد بن السنوسي بن أحمد المسيلي، وامباركة بنت الصّيد ابن الجنيد من عرش أولاد يحي بن سالم من قصر مسعد، ولد سنة (١٢٣٦هـ / ١٨٢١م) كما جاء في وثيقة الازدياد الصّادرة عن محكمة الجلفة^(٤٥)، لكن نسبته إلى قصر مسعد في الوثيقة خاطئة، لأن أصله من المسيلة كما جاء في مخطوط رسالة الأنوار في تحقيق نسل بني نائل الأبرار، للسعيد بن عبد السلام بن القندوز بن الأحرش (ت ١٩٣١م)، والتي جاء فيها: "أمّا العائلات الصّغار فكثيرون كمثل ابن السنوسي القائد، كان بمسعد من المسيلة طالباً فأمسكه عنده الصّيد ابن الجنيد اليحيوي وزوّجه بنته فولدت القائد بن السنوسي وإخوانه بقوا إلى الآن يُنسبون إلى مسعد"^(٤٦)، وهو نفس ما أكّده الشيخ محمد بن عبد الرحمن الرئيس^(٤٧)، يقول: "أبوه (يقصد ابن السنوسي) أحمد بن المسيلي جاء من المسيلة قديماً إلى مسعد، ووُلِدَ له ابن السنوسي، وسمي

سيدي بن عيَّاش بن عزوز أن يُعطي فَرَسَهُ للحشاني للذهاب عليها لكنه رفض. في النهاية ذهب فقط محمد بن السنوسي وسي بن عيَّاش، وفي طريقهم التقوا بالصبايحية في (الدور الأصغر)، وعندما سألوهم عن وجهتهم قالوا نحمل رسالة الولاء والطاعة للقائد بوشوشة، فأخذهم الصبايحية إلى الجنرال مارغريت Marguerite^(٥٩) في (المقيّد)، يقول الرئيس: "فَسَأَلَهُمَا الجنرال: هل هَرَبَ أَهْلُ الْقُرَى؟ فقال له سيدي بن عيَّاش: من قدر هرب ومن لم يقدر بقي، فقال له: يا كلبة بنت كلبة، كيف لم يبق إلّا من عجز! ثم أمر بقتله، أمّا بن السنوسي فقال له: أُعِفُّ عَنِّي وَأَدُلُّكَ عَلَى قَوْمِ هَارِبِينَ، وهم أولاد طُعبة، فدَلَّهم عليهم فَاحْضَرُوهُمْ ب: (قَطُّو)، فَتَقَاتَلُوا فِيهِ، فَقَتَلَ مِنْ أَوْلَادِ طُعبة سبعة، وإلى الآن مَوْضِعُهُمْ يُسَمَّى ب: (المَقْبِلَة)، ثم قَسَمَ الجنرال جيشه إلى قسمين، قَسَمَ تَحْتَ دَلَالَةِ ابْنِ السنوسي، فَسَارَ بِهِمْ مع وادي جدي إلى القدير إلى الخَنْفَ إلى بُوَكْحِيل إلى (مقطع سعد بن مَهِيرِس)، حيث التقى بالطائفة من الجيش الباقية مع الجنرال"^(٦٠).

وقد ذكر الرئيس دخول الجنرال مارغريت إلى مسعد، وابطاحتها لعساكره حيث يقول: "أمّا الجنرال فجاء إلى مسعد.. وَقَتَلَ رَجُلًا يَحْيَاوِيًا وَهَرَبَ سَعْدُ بْنُ صَرَصَابَ حِينَ رَأَى مَقْتَلَ بَدِيرِيْن، وَأَبَاحَ الْجَنَرَالُ لِلْجُنْدِ فَعَاثَ فِيهِ فَسَادًا، أَمَّا أَهْلُ دَمْدَمَ فَالتَقَاهُ الْحَشَانِي، وَقَالَ لَهُ: إِنَّا فَارِحُونَ بِكَ، وَإِنَّ أَوْلَادَ نَائِلٍ يَنْبَزُونَنَا بِأَنَّا رُومَانُ، وَيَحْقِرُونَنَا وَيَنْهَبُونَ بِسَاتِينَنَا.. وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقَيِّدَهُ (يجعله قايد على القصر) فامتنع الحشاني.. وقال له: أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ يَقُومُ بِالْقِيَادَةِ، وَهُوَ الْأَطْرَشُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَعُورِي، فَجَعَلَهُ قَائِدًا وَالْحَشَانِي خَلِيفَةً وَابْنُ السنوسي خَوْجَةً"^(٦١). وكلام الرئيس صحيح باستثناء أنه أخطأ في ذكر الجنرال مارغريت بدل العقيد بان، الذي يذكر بنفسه في مذكراته غزوه لقبيلة أولاد طُعبة، وأخذ غنائمهم إلى مسعد ودمدَم، ووصله إلى مقطع سعد بن مَهِيرِس"^(٦٢).

دامت قيادة الأطرش بن عبد الله لقصر مسعد حوالي سنة ونصف، كان خلالها محمد بن السنوسي خوجه لديه، لكن الأمر لم يَدُم طويلاً للقايد الأطرش، وهذا بسبب وشاية ابن السنوسي به إلى حاكم الأغواط،

الجنرال بقتل رجلين وقطع أذانهما "كان يوسف.. عندما يأمر بالإعدام يتحقّق بنفسه من ذلك، بإحضار أذان الرجل المُعدم إليه.. هذا ما حدث لـشيطانٍ مسكينٍ يدعى سي محمد بن السنوسي، الذي وُجِدَ فِي وَضْعٍ غَامُضٍ وَمُرِيبٍ، اعتبره الجنرال جَاسُوسًا، فَأَشَارَ بِإصْبَعِهِ إِشَارَةً صَغِيرَةً تعني: (اقطع هذا الرأس)، كان سي محمد بن السنوسي مُقْعَدًا: يَعْرجُ، ربما أثار هذا المرض شفقة عميدي.. الحقيقة أن الرجل الأعرج المسكين حَافِظًا عَلَى رِبَاطَةِ جَاشِهِ، لَكِنَّهُ فَقَدَ أُذُنَيْهِ، وَجَدْتُهُ فِي الْأَغْوَاطِ، حَيْثُ أَصْبَحَ مِنْ أَوْفَى خَدَمِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ أُنْذَاهُ قَدْ ضَلَّتْنَا، فَلَا بَدَ أَنْهُمَا مَعَ كَثِيرِينَ غَيْرُهُمَا فِي بُورْدُو، مَعَ عَائِلَةِ كَارَايُون لَاتُور Carayon-Latour، حَيْثُ أُرْسِلَتَا، مَحْفُوظَتَيْنِ فِي الْمَلْحِ، كَتَذْكَارٍ لِهَذِهِ الْحَمْلَةِ مِنَ السَّيِّدِ هَنْرِي دُو كَارَايُون لَاتُور، مُلَازِمُ الْفُوجِ وَضَابِطُ التَّنْظِيمِ"^(٥٧)، وَتَعَكَّسَ هَاتِهِ الْحَادِثَةُ سَادِيَةً، هَمَجِيَّةٌ وَوَحْشِيَّةٌ الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ مِنْ جِهَةٍ، وَالْحِظُّ الْوَافِرُ لِلْقَائِدِ سَيِّ مُحَمَّدُ بْنُ السَّنُوسِيِّ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنَ الْمَوْتِ مَرَّتَيْنِ، الْأُولَى فِي قَصْرِ الشَّارْفِ سَنَةَ ١٨٤٦م، وَالثَّانِيَةِ فِي قَصْرِ مَسْعَدِ سَنَةَ ١٨٥٢م، وَهِيَ الْحَادِثَةُ الَّتِي نَسْتَعْرِضُهَا فِي ظُرُوفِ تَوَلِيهِ الْقِيَادَةَ.

٢/٢-ظروف قيادته قصر مسعد وبعض

انجازاته

بعد انطلاق حملة العقيد بان T. Pein على منطقة قصور مسعد سنة ١٨٥٢م لمعاقبة القبائل المشاركة في الدفاع عن مدينة الأغواط بعد هجوم الجنرال يوسف، فرَّ كثيرٌ من أهلها باتجاه مناطق مختلفة، منهم فرعٌ من عرش أولاد يحيى بن سالم بزعامة الشيخ سي أحمد بلحمورورش نحو منطقة "جبل أحمر خدو" بين بسكرة وباتنة، وعاشوا حياةً صعبةً، بعد أن خَلَفُوا وَرَاءَهُمْ كُلَّ ثَرَوَتِهِمْ مِنْ مَوَاشِي وَأَغْنَامٍ، وَلَمْ يَعُودُوا إِلَى الْمُنْطَقَةِ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ^(٥٨).

وقد تشاور من تبقى من أهل قصر مسعد واتَّفَقُوا عَلَى تَعْيِينِ ثَلَاثَةِ مِنْهُمْ لِلذَّهَابِ لاسْتِقْبَالِ قَائِدِ الْحَمْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، أَوِ الذَّهَابِ إِلَى قَائِدِ الْمَقَاوِمَةِ مُحَمَّدِ الشَّرِيفِ بوشوشة نواحي الأغواط وآفلو، وحملوا معهم رسالتين تَتَضَمَّنَانِ الطَّاعَةَ وَالْوَلَاءَ لِلسَّابِقِ مِنْهُمَا، فَاخْتَارُوا الْحَشَانِي مِنْ دَمْدَمَ وَمُحَمَّدَ ابْنَ السَّنُوسِيِّ، وَطَلَبُوا مِنْ

أَكْرَمَهُمْ، وطلب من أحد عُمَّالِهِ ويدعى "الصَيْفَع" بإعطائهم مصروف كامل من بيت القيادة، وبعث ببرقية للحاكم تفيد بعدم العثور عليهم^(٦٦).

وفيما يخص الزراعة في قصور مسعد، فقد حظيت باهتمام كبير من طرف القايد ابن السنوسي، وقد أشاد الجنرال فيلبرت Phillebert بذلك، يقول: "تعهد السيد سي محمد بن السنوسي -الخادم غير المباشر- من خلال ذكائه وتفانيه تحت قيادة مارغريت، بجعل مسعد مدينة عظيمة ومزدهرة، وذلك بمساعدة من القبائل المحيطة بها، حيث قام ببناء سدٍّ، زاد بشكل كبير من مياه الواحة، وقام بإنشاء مزارع ضخمة.. تحتوي أكثر من ٤٠٠ بستان جديد مزروع بـ ٣٠ ألف إلى ٣٥ ألف شجرة"^(٦٧)، كما فصل المترجم العسكري آرنو ذلك سنة ١٨٥٧م، عند وصفه بساتين الفواكه من تين، رمان، مشمش، سفرجل، عنب، تفاح وخوخ في قصور مسعد الثلاث وحتى سلمانة، البرج وعين سلطان: "لقد شهدت القصور الجنوبية للملحق، والتي كانت تحت إشراف محمد بن سنوسي، الذي يُعَادِلُ ذكائه أفضل المستوطنين لدينا، تطوراً كبيراً منذ عام ١٨٥٧م، وكدليل على ذلك، أود أن أذكر فقط عدد الحدائق وأشجار الفاكهة التي زاد بها حماس هذا القائد في كل قصر"^(٦٨)، فقصر دمد كان يضم ٥٨ بستاناً، بمجموع ٤٥٥٤ شجرة مثمرة، أما قصر مسعد فيذكر بأنه كانت توجد به زراعات رائعة عبر ١٩٤ بستان، بمجموع ١٥٩٢١ شجرة فاكهة، و٣١ بستاناً بقصر الحنية بمجموع ٢٦٣٤ شجرة مثمرة، وقصر سلمانة ١١ بستاناً بمجموع ٧١٣ شجرة فاكهة، وقصر البرج بستان واحد يوجد فيه ٣١٨ شجرة فاكهة، أما عين سلطان فيوجد فيها ١٩ بستاناً بمجموع ٢٠٥٦ شجرة^(٦٩)، وهذا الثراء الفلاحي أشار إليه أيضاً قاموس بلديات الجزائر سنة ١٩٠٣م الذي تحدث عن كثرة الواحات وبساتين الفواكه والخضر^(٧٠)، كل هذا أدى إلى تنشيط حركة التجارة بالمنطقة ونمو الأسواق^(٧١). كما كان ابن السنوسي يشجع على الانتاج الزراعي ويدعو إليه، ومما يروى أن يحيى بن هلوب أحد أعيان قصر مسعد أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كان يزرع الجزر في بساتينه، ثم يقوم بتجفيفه ويخلطه مع قليل من القمح المطحون لصناعة الخبز، وفي أحد المرات قدّم منه

وهذا بسبب أخذ القائد لنفسه غنمين للمخاليف بالدخلة (الأغواط)، فاستدعاه الحاكم وخلع عنه البرنوس والطّابع وسلّمهما لابن السنوسي، الذي أصبح قائداً على قصر مسعد في حدود سنة ١٨٥٣م^(٦٣)، وإلى غاية سنة ١٨٩٩م، شهدت خلالها قُصُور مسعد اهتماماً وتنظيماً خاصاً في عديد المجالات الحضريّة والريفية.

ومن جوانب تسيير ابن السنوسي لقصور مسعد وما جاوره، وشدّته وخوف العروش منه، ما ذكره الشيخ محمد الرايس فيما يخص مجال الرعي وحماية الأراضي الرعوية، حيث كان يخرج بنفسه لإحصاء مواشي قبائل أولاد نائل التي تحت حكمه (الجريدة) بخيمته، "فَخَرَجَ سَنَةً إلى ناحية يُقَالُ لها (بن حراث)، وأمَرَ الناس بالمجيء للجريدة للإحصاء، فظنعت الناس إلى القبلة، قال الحاج المسعود: فأمرني أن أذهب وراءهم للإحصاء، يسرون ليلاً ونهاراً بأظعانهم ومواشيهم، قال: ولكنهم طلبوا مني أن أرفق بهم، فأتركهم ينزلون ليلة للاستراحة. فتركهم نزلوا، وارتحلوا آخر الليل خوفاً من ابن السنوسي"^(٦٤)، وفي تنظيمه وحمايته للمراعي يذكر الرايس: "أنّه كان حمى الموضع الذي يُقال له الكُم (جعله محمية Reserve) بضاحية مسعد، فرعى فيه سنة بعض القبائل، فرفع بن السنوسي بهم شكوى إلى الحاكم الفرنسي وكانوا خمس قبائل، فسُلّط عليهم غرامة مالية مائة دينار على كل قائد يدفعونها لابن السنوسي"، وفيما يخص الحفاظ على أمن القصر، فقد كان القايد ابن السنوسي يضع عيونه على مختلف ضواحي مسعد^(٦٥).

ومن مظاهر عدل وأنفة ابن السنوسي على أولاد نائل وسكان المنطقة -وإن كان هذا لا يُعدّل من النظرة إلى نظام القياد ودورهم في خدمة سلطات الاحتلال بشكل عام- أنّه وصلته برقية من الحاكم العسكري بملحق الأغواط بالبحث عن اثنين من عرش أولاد يحيى بن سالم اعتدوا على المكلف بحراسة عيون الماء بحاسي الدلاعة بالأغواط، حيث كان قد منّهم من سقي دوابهم وإبلهم القادمة من منطقة السافل (جنوب قطارة)، فأعتدوا عليه بالضرب، وكسروا سلاحه ورموا بالخرطوش في الماء، فلما وصلت الشكوى للقايد بن السنوسي بحث عنهم وأحضرهم بالفعل إلى مبنى قيادته بالراس وهما: أحمد بربورة وهلوب، ولما سمع منهم وتأكّد بأنه مظلومين

الدرقاوي على يد الجنرال لادميرو منذ جوان ١٨٤٩م^(٧٩).

بحسب المترجم الفرنسي آرنو A. Arnaud في إحدى مقالاته في المجلة الأفريقية Revue Africaine سنة ١٨٦٣م: فإن "مسجداً رائعاً بناه الفرنسيون يُزِينُ القرية منذ خمس سنوات، إنه نصبٌ تذكاريٌّ بسيطٌ، مليءٌ بالذوق، مع بهو؛ تم تشييد الواجهة باستخدام الطوب الأحمر والأبيض، فتشكلت تصميماتٌ جذابةٌ ومتعرجةٌ على حواف الشرفة، ويؤدي درجٌ حجريٌّ إلى قاعة الصلاة، حيث ترتفع منها منضدةٌ أنيقةٌ تدور في أعلاها ريشة الرياح، وتقع شقُّ القايد أسفل فناءٍ وبئرٍ وأقبيةٌ تكملُ بقية المبنى"^(٨٠).

أما المؤرخ ماسكراي Masqueray فينقل لنا في مذكراته (ذكريات ورؤى في إفريقيا) معانيته لمسجد الراس ومبنى القيادة: "أتناول العشاء بالقرب من المسجد الذي بني بإشراف الجنرال مارغريت^(٨١)، إنه جميلٌ جداً ويُشرفُ على القرية المبنية بالحجارة والطين.. الانطباع الذي تركته في نفسي أحد أعزُّ إبداعات مسعد، على بُعد مسافة قصيرة من الأغواط لا تُمحي، هذه المدينة الصغيرة تطفو فوق غابة نخيل سوداء من مسافة بعيدة جداً، في أسفل طريقٍ مهجورٍ تم تصميمه من أمة بدوية محرومة، وكان بجانب هذا الطريق سلسلتين جبليتين جرداء رمادية اللون من اللؤلؤ... وعندما دخلت الواحة وجدت بجوارها قريةً بأسنة مبنية من الحجارة المفتتة على الطراز الشرقي، تصطفُ على جانبيه أروقةٌ، ويُقدِّمها فناء الساحة، وبجانبها مسجدٌ أنيقٌ بُني مؤخراً على قبر مسلمٍ متدين"^(٨٢).

أما جيلبرت فيلبرت G. Philbert فيقول عنه: "من بين جميع القصور، تستحق مسعد مكانة خاصة، فنحو سنة ٧٠٠هـ.. في موقعٍ روماني قديم، تُشير أطلاله إلى حدود الاحتلال الروماني في ولاية الجزائر، لا تزال هناك نقوشٌ، براميلٌ عموديةٌ، ويستخرج العرب منها نترات الصوديوم لصنع مسحوق البارود، وقد اكتسب شهرةً بين الصَّحراويين... إلى جانب ذلك هناك بيت القيادة على الطراز المغربي"^(٨٣).

ويقول لويس بياس Piesse في كتابه (مسار الجزائر تونس وطنجة): "مسعد عند سفح ثنيةٍ أعمر، عاصمة

للقايد بن السنوسي، فأعجبه وصاح في الحاضرين: لما لا تقومون بما قام به، خاصة وأن ذلك صادقٌ نقص محاصيل القمح بالمنطقة"^(٧٢).

هكذا بقي القايد سي محمد بن السنوسي في قيادة قصر مسعد إلى أن توفاه الله يوم الاثنين ١١ رمضان ١٣١٦هـ/ ٢٢ جانفي ١٨٩٩م بقصر مسعد، تاركاً إحدى عشر بنتاً وثمانية أولاد منهم السيد أحمد، محمد البشير دفين مسعد، محمد السعيد دفين الجلفة، محمد الصديق، والسيد عبد الله الكبير المقيم بالأغواط إمام جامع الشاذلية^(٧٣)، والسيد عبد القادر المقيم بالمغرب، والسيد عبد الله الصغير المقيم بمسعد، ومن البنات مباركة بنت الصيد، حليلة، وخيرة بنت الحاج، فاطمة، مباركة بنت الصيد الصغيرة، ويامنة المتزوجة بالحاج بن عيسى بالمسيلة (خلّفت معه ولدين وبنت)، وحفصة^(٧٤).

ثالثاً: دار القايد بقصر- مسعد تاريخياً ومعمارياً

١/٣- دار القايد وجامع الراس في الكتابات الأجنبية

تاريخياً ومعمارياً لا يمكن الفصل بين تشييد دار القيادة وجامع الراس (راس الجبان) الملاصق له، والذي يعتبر أحد المساجد العتيقة في مدينة مسعد، ومركزاً روحياً واجتماعياً مهماً، وتعود فترة بناء دار القايد والجامع إلى الفترة الاستعمارية (على اختلاف بين المصادر)، فالفرنسي بياس Piesse يُحدد سنة ١٨٥٠ فترة بناء المسجد ومبنى القايد^(٧٥)، أما المترجم الفرنسي آرنو فيحدد سنة ١٨٥٨م. حيث أشرفت على أعمال البناء خدمة الهندسة العسكرية لسلطات الاستعمار^(٧٦)، وشيّد المبنى فوق مقبرة قديمة^(٧٧) جنوب قصر مسعد، وبلغت تكلفتها المالية آنذاك كما تشير بعض الوثائق الأرشفية إلى ٥ آلاف فرنك فرنسي (٤ آلاف فرنك فرنسي للجامع، و١٠ آلاف لبنى القيادة)^(٧٨)، وهي التي جمعت من أصولٍ مختلفةٍ أهمهما مساهمة أعيان المنطقة وعروش المدينة، وكان الهدف من تأسيس الجامع استقطاب السكان وكسب ثقتهم، ومن ثمّ التّحكّم فيهم، وابعادهم عن مسجد المقاوم ومُقدّم الطريقة الرحمانية الشيخ سي محمد بن عيَّاش، خاصة بعد تدمير زاوية آل

les balustres en croix تعود لعصر النهضة، بالإضافة إلى المعرض المحاط بالأروقة التي تعكس جماليةً غير عادية، أنجزت من خلال النمط المعماري للقرنين ١٩ و ٢٠م، حيث يشتمل العمل الواحد على مزيج من العناصر والأساليب المعمارية وهو ما يُسمى النمط الانتقائي، وحسب رئيس مصالح دائرة مسعد السيد بن دراح العياشي^(٨٧)، فقد ظلت دار القيادة تحت إشراف القائد محمد بن السنوسي خلال الفترة ١٨٥٨-١٨٩٩م وهي أطول فترة سلطة قيادة في تاريخ مسعد، ليتولّى بعدها القيادة ولفترات قصيرة تراوحت بين ٣ سنوات إلى ١٥ سنة، كل من: الشريف بن لحرش (٣ سنوات)، الكاكي، يحيى بن عطا الله (١٩٢٠-١٩٣٠م)، بن قرينة قريصة العبوزي، الحاكم جيرمان Germain (١٩٣٠-١٩٤٥م)، وقد كان بن الشريف أحمد (ابن الشريف) آخر قائد لمسعد، لأن نظام الإدارة والقيادة تغير بعد عام ١٩٥٦م، وبعد نظام القيادة تحول المبنى ليصبح مقر (قسم إداري متخصص) المعروف بـ: Section SAS (Administrative Spécialisée) خلال الفترة ١٩٥٦-١٩٥٩م، وظلّ تحت إدارة الدرك الفرنسي حتى الاستقلال سنة ١٩٦٢م، بعدها أصبح المبنى تابعا لقيادة الدرك الجزائري خلال الفترة ١٩٦٥-١٩٦٧م، ثم حوّلت بعض قاعاته كإدارة لحزب جبهة التحرير الوطني، ومنظمة أبناء الشهداء.

وقد خضع مبنى القيادة في قصر مسعد للعديد من التحوّلات والتّغييرات، إن على مستوى المساحة، أو على مستوى الواجهات والتّخطيط، فعلى مستوى المساحة ووفقا للتحليل التي تم إجراؤه والتحقيقات على الصور والخرائط القديمة فقد تم إضافة فناء خارجي كبير بمساحة تزيد عن ٤٥٠م^(٨٧)، إضافة إلى تعديل على مستوى الجزء الخلفي من المبنى، بسبب أن هناك جزء مدمر، وعلى مستوى الواجهات تم إجراء بعض التعديلات مثل الإغلاق الجزئي، وآخر كُليّ للنوافذ الجانبية، مما أثر على جمالية وتوازن واجهة المبنى، وأيضاً إضافة مدخل ثانوي في الجهة الخلفية يؤدي إلى الفناء الصّغير، وتعديل النوافذ الأصلية^(٨٨)، وعلى مستوى المخططات شهد المعلم العديد من التعديلات خاصة على النوافذ والأبواب (كإغلاق القوس وإضافة

قصور أولاد نايل ومقر إقامة القائد، على الضّفة اليمنى من وادي الحميّة هناك ١٣٠ منزل، مكونة من طابق أرضي وشرفة، مفصولة بأرصفة ضيقة، مُحاطة بجدران مشهورة بخصوبتها الهائلة.. هناك مسجد بناه الفرنسيون سنة ١٨٥٠م، لكسر رتابة البيوت الطينية في مسعد؛ وأجهته مصنوعة من الطوب الأحمر والأبيض، ومزينة برواق، الطابق الأرضي مؤثث لقائد القصر؛ يؤدي درج حجري إلى قاعة الصلاة، حيث ترتفع مئذنة أنيقة^(٨٩).

٢/٣- دار القائد معماریاً، وأشغال الترميم

بالخوض في تفاصيل الجانب العمراني والمعماري لدار القيادة ومسجد الراس، فقد تم بناء المعلمين بشكل مُلاصق، وبنفس النمط العمراني تقريبا، بالقرب من مركز مدينة مسعد القديم (رحبة النواورة)، وبحسب خريطة مسعد سنة ١٩٢٩م فإن المعلمان يقعان في أقصى جنوب قصر مسعد، وهو ما يفسر توجه الواجهة الرئيسية لهما نحو الشمال، ومن ناحية أخرى ووفقا لشارل بيكار্দ Picard فإن قصر مسعد امتد إلى الشمال من دار القيادة^(٩٠)، لكن الواجهة الخلفية للمبنيان اليوم أصبحت هي التي تطل على مدينة مسعد بأكملها، غير أنّها محجوبة بحاجز صخري صغير، وجدار دائري مُلتف، يُوازيه طريق مُؤدي إلى أعلى انطلاقا من الجهة الغربية ويلتف وصولا للواجهة في الجهة الشمالية، ويتكوّن مبنى دار القيادة من طابق أرضي منظم حول مساحة مركزية وهي الفناء (الحوش)، إضافة لشرفة، ويضم الطابق الأرضي عدة غرف ومخازن للحبوب، بالإضافة إلى سجن لمعاقبة المخالفين للقانون، ووفقا لصور رولود Roulaud في مسعد سنة ١٩٦٠م يمكننا أن نرى أن الواجهة الخلفية لمبنى القيادة لم تخضع لتحوّلات كبيرة باستثناء إضافة نافذتين صغيرتين، وباب بقوس نصف دائري كمدخل ثانوي يؤدي مباشرة إلى سوق المدينة^(٩١).

ولدار القيادة وجامع الراس قيمة معمارية باعتبارهما نصباً فريداً وغنياً من خلال تكوينهما المعماري، أو من خلال العناصر الزخرفية التي تُزيّنهما، من أقواس مُدبّبة، وأعمدة دورية، ودرازينات متقاطعة

أما دار القيادة فتحمل عديد القيم: قيمة تاريخية، إذ بُنيت في فترة مهمة من التاريخ الفني لقصر مسعد، وتمثل البصمة الاستعمارية الأولى في القصر، وقيمة حضرية وعمرانية بالنظر لموقعها الاستراتيجي وارتفاعها على تلة في قلب مدينة مسعد، ومن خلال تكوينها المعماري والعناصر الزخرفية التي تزيينها، بالإضافة إلى القيمة الاجتماعية لارتباطها بالزعيم الأكثر شهرة في بلاد أولاد نايل القايد سي محمد بن السنوسي، الذي وجه مسعد عبر سلطته نحو الزراعة، وكان ذكياً جداً في إدارته ورؤيته المستقبلية.

وقد خضع جامع الراس الملاصق لمبنى القيادة، لعدة عمليات ترميم نتيجة التصدعات الكبيرة التي تعرض لها هو ومبنى القيادة، كان أولها على الجامع سنة ١٩٣٨م، وخصص له مبلغاً مالياً معتبراً يقدر بـ ٣٢ ألف فرنك فرنسي^(٩١)، كما يشير بعض سكان المنطقة القدامى أن سطح الجامع خضع لعملية ترميم من طرف أحد الميزابيين، أما حديثاً فقد أجريت عمليات ترميم بسيطة سنة ٢٠١٨م، وكذا سنة ٢٠٢٣م^(٩٢)، في حين ظل مبنى القيادة يعاني التهميش والإقصاء التام من أشغال الترميم وهو ما يحمل أكثر من تساؤل.

كما ظلت الترميمات على الجامع بدورها محدودة، ولا ترقى لأهمية المعلم التاريخي والمعماري، وتجري حالياً وابتداء من مارس ٢٠٢٥م عملية ترميم واسعة للجامع، نأمل أن تكون في المستوى وبنفس المواد التي تم بناؤه بها، من دون طمس وتغيير في هذا المعلم الأثري والحضاري للمدينة، وأن تشمل دار القيادة، ولما لا تحويله إلى متحف للولاية المنتدبة الجديدة.

باب ذو دفتين) ممّا أخلّ بالتوازن التنظيمي بين المساحات الداخلية، وأثر أيضاً على جماليته، إضافة إلى وضع خزان للمياه وما نتج عنه من مشاكل تسرب المياه على مستوى الشرفة، وإضافة فناء كبير بسور من الكتل الخرسانية، ما قلّل من قيمة العناصر المعمارية والإنشائية للواجهة.^(٩٩)

خاتمة

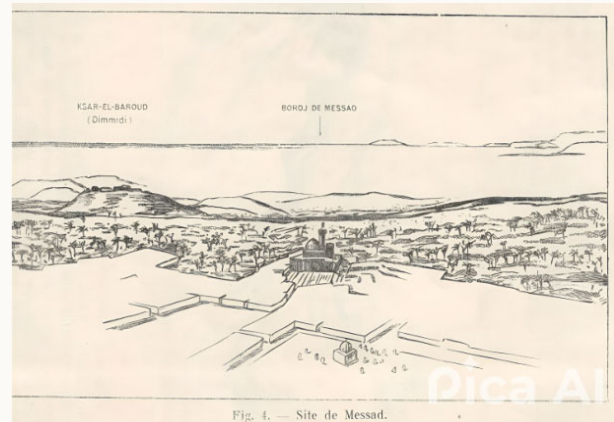
ممّا سبق يتّضح أنّه وبخلاف الصورة النمطية السائدة التي تجعل من المشايخ والقياد والزعماء المحليين مجرد أداة في يد المستعمر، فإنّ حالة سي محمد بن السنوسي قايد قصور مسعد وما جاورها خلال فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، تعكس حالة من حالات الجزائري الواقع ضمن سلطة الاحتلال الفرنسي، والذي لم يكن بحال من الأحوال مرتاحاً تماماً ولا منسجماً في عمله مع الفرنسيين.

يبرز هذا من خلال ما حاول بذله من جهود ربما يملك من سلطة هشة وضعيفة- في إدارته لقصور مسعد وفقاً لمتطلبات ومقتضيات المرحلة، حيث حرص على تطبيق العدالة كما روى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الرايس عنه: "تولّى قيادة القصور، وعدّل في ولايته بحق"^(٩٠)، وسعى لتحقيق الأمن، الحفاظ على إرث المنطقة من عادات وتقاليدها- كان مثلاً يمنع خروج المرأة لوحدها كما يروى عنه- كما سعى جهده من جانب آخر في حماية أراضي ومراعي المنطقة، وتطوير الإنتاج الزراعي، من خلال دعم شبكات السقي وبناء السد، وبالتالي لم تكن فترته الطويلة في قيادة قصور مسعد ١٨٥٣م-١٨٩٩م مجرد وظيفة، بقدر ما كانت تحمل ربما صراعاً داخلياً بين مقتضيات الولاء وجذور الانتماء.

الملاحق

ملحق رقم (١)

منظر عام لمدينة مسعد، تظهر دار القايد وجامع الراس
وقصر البارود سنة ١٩٤٨م

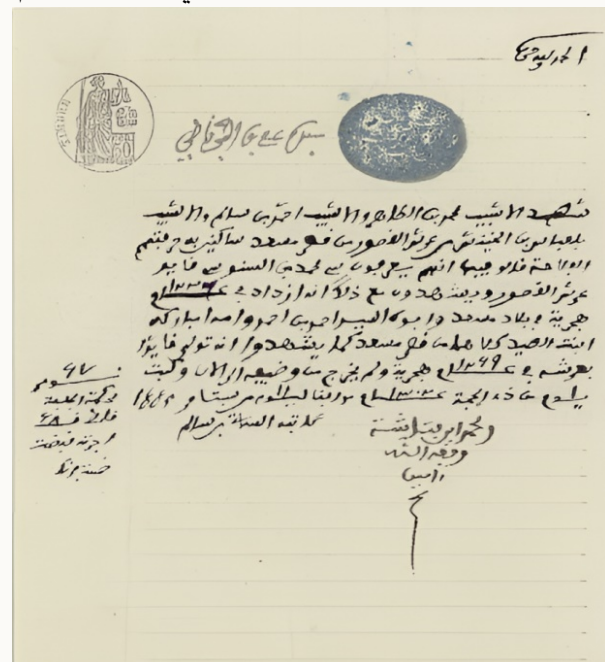


Gilbert Charles Picard, **Castellum Dimmidi**, ed Bocard, Paris, 1948

ملحق رقم (٢)

وثيقة عقد الازدياد والنسب

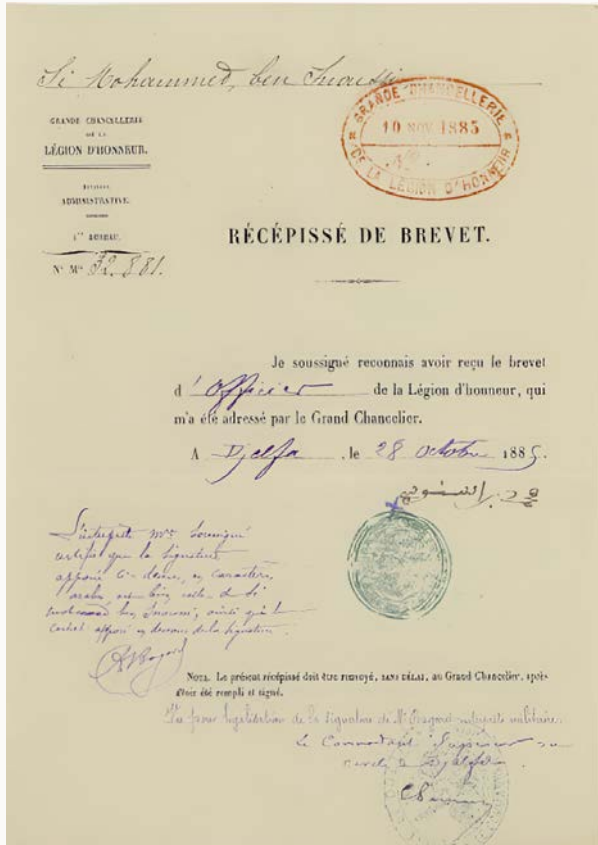
لقايد عرش القصور محمد بن السنوسي ١٨٢١-١٨٩٩م



SI-MOHAMMED BEN-SNOUSSI, N° de la notice : L2519080, Archives Nationales, base Léonore, site de Pierrefitte-sur-Seine, République Française, p13.

ملحق رقم (٣)

شهادة الترقية إلى ضابط في وسام جوقة الشرف
الفرنسي للقايد محمد بن السنوسي
مؤرخة في ٢٨ أكتوبر ١٨٨٥م.



SI-MOHAMMED BEN-SNOUSSI, N° de la notice : L2519080, Archives Nationales, base Léonore, site de Pierrefitte-sur-Seine, République Française, p4.

ملحق رقم (٤)

وثيقة حالة الخدمة لقايد عرش القصور محمد بن
الشنوسي (١٨٥٣-١٨٩٩م)

DIVISION D'ALGER
PROVINCES RÉGÉNÉRÉES
GÉNÉRAL DE LA

Etat de Services
Mohammed ben Snoussi
Caid des Caid

Nom, surnom, etc. du militaire	Grade ou fonction	Date de son nomination	Campagne ou service	Notes particulières sur son comportement	Signature
Mohammed ben Snoussi	Caid des Caid	28 février 1873	Legation de la légation d'Alger du 1 ^{er} au 15 mars 1873.	Né en 1821 dans la tribe des Kabyles (tribe de Boufrique)	

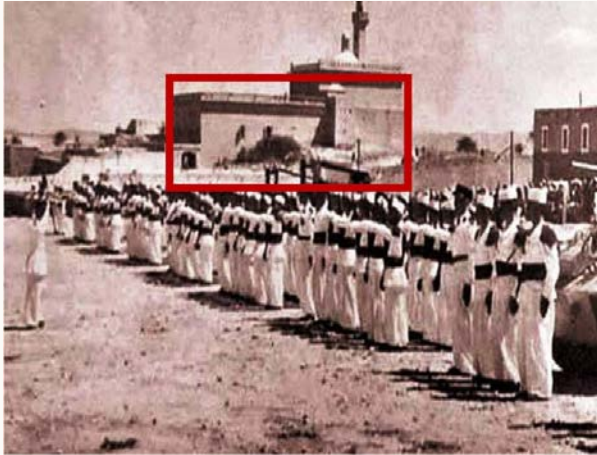
Par son sous-officier
M. L. 13. L. 13. L. 13.
Le Commandant Supérieur de l'Alger

SI-MOHAMMED BEN-SNOUSSI, N° de la
notice : L2519080, Archives Nationales,
base Léonore, site de Pierrefitte-sur-Seine,
République Française, p10.

ملحق رقم (٥)

جنود المعسكر الثالث الفرنسي خلال حفل كامبيرون
٣٠ أفريل ١٩٥٨م ويظهر مسجد الراس ومبنى القايد بن
الشنوسي في الخلفية

3^{eme} CSPL Camerone Cèrémonie a
Messaad 30 Avril 1958

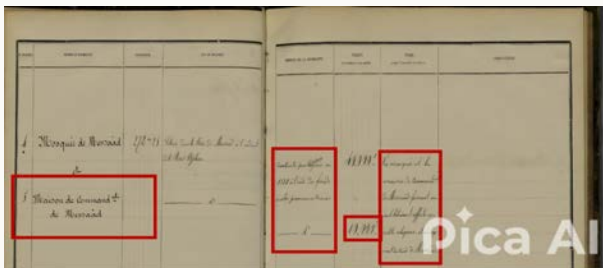


Pascal-Jean Dlin De Longueuil, **Les
Compagnies Montées et la Cavalerie de la
Légion étranger en Afrique du Nord**, Vol.5,
p67.

<https://www.calameo.com/read/002964070320123ae780d>

ملحق رقم (٦)

تقرير تكاليف بناء جامع الراس ومبنى بيت القيادة



وثيقة أرشيفية من سجلات مجلس التيطري

(المدية حاليا)، مؤرخة في: ١٨٨٢/٠٣/٣١.

Registre de la mairie de Titterie 1882,
ANOM, N.36.

الإحالات المرجعية:

- (١) القايد Caïd: لغة القيايد هو الجبل الذي تقود به. والمقوّد الجبل الذي يُشدّ في الزمام أو اللجام تُقَادُ به الدّابة. أمّا اصطلاحاً فينبغي الانتباه إلى أنّ الكتابة الاستعمارية فرضت استعمال مصطلحات خاصّة تبدو عربية! لكن هناك فرق في الترجمة بين قايد بحرف (ق) Caïd في نظام القيايدية في الجزائر قبل ١٨٦٧م (أي قايد المكاتب العربية)، وقايد بحرف (ف) Gaïd في النظام البلدي بعد ١٩١٩م، وهو موظّف (مساعد أهلي) Adjoint-Indigène، موظف بسيط يتصرّف في شؤون الدّوار (القرية). يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مج ٣، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٤٥٥؛ كريم ولد النبية، "القياد في نظام الإدارة الاستعمارية التّواطؤ والتّعسف والخيانة ١٨٦٧-١٩٦٢م"، مجلة القرطاس، مج ٣، ع ٢، ج ١٥، ص ٢٢٧.
- (٢) سعيد شريدي، دور القيايد في تفعيل السّلطة العثمانية في الجزائر، ١٥١٩-١٨٣٧م، أطروحة دكتوراه، إشراف: فلة موساوي القشاعي، جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله، ٢٠١٧-٢٠١٨، ص ٤٤٣.
- (٣) عمر سعد الله، "جريمة الإبادة الجماعية أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر"، المصادر، مج ١، ع ٢، الجزائر، ديسمبر ٢٠٠٨، ص ٧٤-٧٥.
- (٤) ولد النبية، مرجع سابق، ص ٢٣.
- (٥) نفسه، ٢٣٥-٢٣٦.
- (٦) صباح علّال وهنية يوسف، القيايد وعلاقتهم بالسلطة الاستعمارية والسكان ١٨٣٠-١٨٧٠م، رسالة ماستر، إشراف رضا ميموني، جامعة الوادي، ٢٠١٦-٢٠١٧، ص ١٩-٢١.
- (٧) نفسه، ص ١٩-٢١.
- (٨) علّال ويوسف، نفس المرجع السابق، ص ٢١؛ ولد النبية، المرجع السابق، ص ٢٢٩-٢٣٠.
- (٩) محمد بن داره، "القيادة والقياد في توات خلال العهد الاستعماري القايد مولاي لحسن الرقاني ١٨٩٥-١٩٥٨م"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج ٨، ع ٢، الجزائر، جوان ٢٠٢٣، ص ٧٦١-٧٦٢.
- (١٠) القايد يحيى بن عطالله: بن علي وخيرة بنت الصادق من عرش العيايز، ولد عام ١٢٥٩هـ / ١٨٤٢م. حصل على رتبة فارس بتاريخ ١٨ جوان ١٨٨٤م، ثم ضابط سنة ١٩٠٩م، عُرف بقسوته وظلمه، حتى أنّ الشاعر المسعدي بولرباح بن علي دودو هجّاه بقصيدة طويلة، بعد أن نفاه من مسعد نحو قصر زينة، وإمعاناً في ظلّمه منعه من اصطحاب أمه، فقال الشاعر قصيدته عند قبر الولي الصالح سيدي محمد بن صالح: صَبَّاحَ الْخَيْرِ صَبَّاحَ سُكَّانِ الْبَلَدَةِ، بولرباح المسعدي جَاكُمُ جَالِي، أَنْدَهَكُمُ يَا رَجَالَ الْمَوَدَّةِ، نُوضُو لِيَّا لَا تَخْلُونِي تَالِي. بيّا يحيى بن عطالله لَا جَدَّةَ، حُكْمُو زُورَ يَفُكْ حَقَّ الزَّوَالِي.. إلى أن يختم قصيدته بدعائه عليه: حُكُوْ حَكْ سُبُوْلَ طَائِبٍ فِي ضَهْدَى، وَطَوَّلَ عَمْرُوْ حَفَّتْ لَا يَغْدَا غَالِي. المال ولولّد في دَرْسَةِ وَحْدَةٍ، وَبَعْدَ الرِّقْمَةِ تَخَفَّضُو رَجَّعْ تَالِي. ويُقال أنّ الله استجاب دُعاءه بعد الجريمة التي ارتكبها أولاده، والعار الذي لحق به، وقد تناولتها الصحف الفرنسية آنذاك، كصحيفة الأخبار Les Nouvelles بتاريخ ٢ أوت ١٩٢٣م، وصحيفة France coloniale moderne بتاريخ ٣ أوت، رواية شفوية من الوالد: رببورة بلخير بن علي، بتاريخ: ٢٠٢٠/٤/٢٦م، ٢٢٠٠. يُنظر أيضاً:

ملحق رقم (٧)

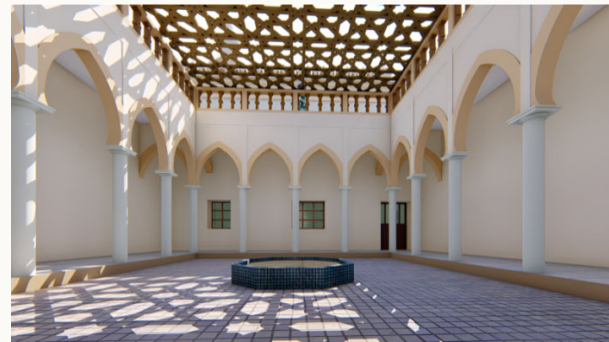
بداية أشغال ترميم جامع الراس
الملاصق لدار القايد (مارس ٢٠٢٥)



<https://2u.pw/EOrtC6oi>

ملحق رقم (٨)

صورة ثلاثية الأبعاد للفناء الداخلي
لمبنى القايد بن الشنوسي بعد الترميم المفترض



Hatem Tahar Nadjem, La Reconversion de la Maison de Commandement à Messaad, Djelfa en Musée Historique, Op. Cit, Annexe

ملحق رقم (٩)

صورة ثلاثية الأبعاد للواجهة الأمامية
لمبنى القايد بن الشنوسي بعد الترميم المفترض



Nadjem, Op. Cit, Annexe

(١٦) بلخضر شولي وآخرون، **مقاومة الحاج موسى بن الحسن المدني الدرقاوي ١٨٣١-١٨٤٩م**، دار الجلفة إنفو للنشر والتوزيع، ط ١، الجلفة، ٢٠١٧، ص ٤٢.

(١٧) Marc Antoine Arnaud, R.A, 09/1863, 7(eme) Année, N.41, Type Bastide Alger, p350.

(١٨) نعاس علي بن عبد الله، **تنبيه الأتحاف بمناقب الأجداد**، مطبعة رويغي، الأغواط، الجزائر، ٢٠١٦، ص ١٨٥-١٨٦.

(١٩) لمباركي بلحاج، **المسعد في أعلام وأقلام عين الإبل وفيض البطمة ومسعد**، ط ٢ منقحة ومزودة، مسعد، الجزائر، ٢٠١٨، ص ٨، ١٣، ١٦، ١٧٧، ١٧٩.

(٢٠) شولي، مرجع سابق، ص ٩٧-١٠٠.

(٢١) Estournelles De Constant (le Baron), **Les Congrégations religieuses chez les arabes et la conquête de L'Afrique du Nord**, Maisonneuve et Ch. Leclerc Editeur, Paris, 1887, P44.

(٢٢) بن سالم، "قصور بلاد أولاد نايل.."، مرجع سابق، د.ص.

(٢٣) Daumas (Le lieutenant-Colonel), **Le Sahara Algérien Etudes Géographiques Statistiques et Historiques Sur La Region Au Sud Des Etablissements Français En Algérie**, Fortin Masson et Langlois et Leclercq, Paris, 1845 p152. (٢٤) Ibid, p152.

(٢٥) Bérard Victor, "Indicateur général de l'Algérie : description géographique, statistique et historique de chacune des localités des trois provinces", 3(eme) éd, 1867, p307 ; **The newspaper Akhbar**, journal de l'Algérie, 1884.

نقلا عن:

Mebrouk Ben fettacha, **Late 19th Century Echoes : Exploring the Correspondence of Cadi Ben fettacha Al-Messaadi and His Sons**, Journal of law and humanities Sciences, Vol.18, N°.1, 2025, p15.

(٢٦) بن سالم، "قصور بلاد أولاد نايل.."، مرجع سابق، د.ص.

(٢٧) M. Marius Outrey, **Dictionnaire de Toutes les Localités de L'Algérie**, Imprimerie Alger Dubos Frères, Libraires-Éditeurs, 1860, p122.

(٢٨) انضم أولاد نائل تحت لواء الأمير عبد القادر منذ سنة ١٨٣٦م، حيث قسمهم إلى ٦ فرق، على رأس كل فرقة شيخ، كلهم تحت قيادة سي عبد السلام بن القندوز، والذي استبدل بحفيده سي الشريف بن الأحرش سنة ١٨٣٨م، وقد رقاها الأمير إلى رتبة خليفة، ورافقه أثناء بسط نفوذه على المناطق الشرقية، كما صاحبه في جولته سنة ١٨٣٧م في المنطقة، وقد تمت مبايعة الأمير من طرف العروش بالكرمونية. يُنظر: غالب الأضر، **الحركة الإصلاحية في ربوع أولاد نائل منطقة مسعد أنموذجا ١٩٢٨-١٩٥٦م**، ط ١، دار خيال، ص ٣٣-٣٤؛

Notice sur la tribu, on Algérie (Période coloniale), Journal officiel de l'Algérie, 31/05/1935, p452. Source gallica.bnf.fr/Bibliothèque interuniversitaire CUJAS.

(٢٩) François de Villaret, **Siècles de steppes**, éd centre de documentation saharienne, Ghardaïa 1995, P129.

YAHIA BEN ATTALAH, N° de la notice : L2760030, Archives Nationales, base Léonore, site de Pierrefitte-sur-Seine, République Française, p4,6; Les Annales coloniales: organe de la "France coloniale moderne" / directeur: Marcel Ruedel. Jeudi 3 aout 1923.

(١١) **القايد رابحي عبد الحفيظ**: بن محمد بن يحيى من عرش العباريز، فرع أولاد سي أحمد، ولد حوالي سنة ١٨٩٠م، يعدّ من الشخصيات الجزائرية البارزة التي وثّقت في الأرشيف الوطني الفرنسي ضمن قاعدة بيانات Léonore الخاصة بحاملي وسام جوقة الشرف الفرنسية منذ ١٩٢٦م، وشخصيته تندرج في إطار النخبة المحلية التي لعبت أدواراً إدارية وسياسية في فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، حيث حمل لقب **باشاغا** على أولاد الرقاد الشراقة منذ ١٨ سبتمبر ١٩٤٥م. توفي في ٢٦ أوت ١٩٥١م، وأقيمت له جنازة ببلدية الجلفة، حيث أدت مفرزة من الفيلق الأجنبي بقيادة الملازم برودوم مراسم التكريم، حسب ما جاء في جريدة La Dépêche Quotidienne. يُنظر:

La Dépêche quotidienne d'Algérie : la presse algérienne / directeur général Raoul Perrier | 1951-08-26 | Gallica; Journal officiel de la République française. Lois et décrets | 1950-01-12 | Gallica

(١٢) **منطقة مسعد**: استوطنها الانسان من أقدم العصور الحجرية القديمة والحديثة، وشهدت منذ ما قبل العهد النوميدي بدايات التمدّد الإنساني، كما عرفت أزمنه فترات في العهد الروماني حين أنشأوا بها إحدى حامياتهم العسكرية "حصن كاستيليوم ديميدي"، كما شهدت المنطقة ميلاد قصور وأعراس في فترة الفتوحات الإسلامية وقبلها. يُنظر:

Louis Piesse, **Itinéraire de L'Algérie de Tunis et de Tanger**, Librairie Hachette et CIE, Paris, 1882, pp120-121.

(١٣) **حصن كاستيليوم ديميدي Castelleum Dimmidi**: شرّع في بنائه منذ سنة ١٩٨م من قبل الرومان، واستمرّ في شغل وظيفته إلى غاية سنة ٢٣٨م، ولعب دوره ضمن الخطوط الدفاعية المتقدّمة المسماة "الليمس"، والتي كانت لها أدوار في الاستيطان واستغلال الأراضي. يُنظر:

et Paul Massiera, **"Le poste romain de Eugène Albertini Messaad (Algérie)"**, Revue des Études Anciennes Année 1939 41-3 pp. 223-244.

(١٤) المسعود بن سالم، "قصور بلاد أولاد نايل بين الماضي والحاضر قصور حاضرة مسعد"، موقع الجلفة انفو، ٢٠١٧، د.ص.

(١٥) أشار "اليوسي" في رحلته ١٦٩٠-١٦٩١م إلى موضع دَمَد، وهي الضواحي الشرقية اليوم لمدينة مسعد، والتي قضى الحجاج ليلة بالقرب منه، كما وصفها الشرقي وذكرها بنفس الاسم، وذكرها العياشي في رحلته سنة ١٦٦٤م ولو أنه أخطأ في الاسم (دماك)، وذكرها النَّاصري في رحلته سنة ١٧٠٩م، والتي نزل فيها مع ركب الحجاج ويُسَمَّىها (دمت)، كما ذكرها العامري باسم (دادمد). يُنظر: محمد العياشي بن الحسن اليوسي، **رحلة اليوسي ١١٠١-١١٠٢/ ١٦٩٠-١٦٩١م**، تح: أحمد الباهي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، ٢٠١٨، ص ٧٧.

فيفري ١٨٦٥م على اختلاف (١٨٦٣م في بعض المصادر)، وُرُقِّي إلى رتبة فارس. توفي في ٢٣ جويلية ١٩١٦. يُنظر:

SI FERHAT BEN EL HADJ KHENICH, N° de la notice : L2516045, Archives Nationales, base Léonore, Op. Cit, p10, 15.

(٣٩) **القايد لطرش بن الطيب**: قايد أولاد يحيى بن سالم، ابن الحاج الطيب بن غراب، وأم هاني بنت أحمد، ولد عام ١٨٤٤م، بصحراء بؤدرين، تولّى قيادة العرش وعمره لا يتجاوز ٢٩ سنة، بتاريخ ١٩ فيفري ١٨٧٣م، وُرُقِّي إلى رتبة فارس بعد ١٩ سنة من الخدمة. يُنظر: **الوثائق الأرشيفية لعقد الزدياد الصادر عن قاضي محكمة مسعد محمد بن ورقلة، والمؤرخ في ١٣ أفريل ١٨٩٢م، ومرسوم الترقية المؤرخ في ٩ جويلية ١٨٩٢م.**

LATREUCH BEN TAIEB, N° de la notice : L1495036, Archives Nationales, base Léonore, Op. Cit, p2, 10, 11.

(٤٠) **أولاد يحيى بن سالم**: يُعرّفها "أكاردو" في فهرسه الصّادر أواخر القرن ١٩م بأنها قبيلة متمردة، وغير خاضعة لطلب مجلس الشيوخ الفرنسي Des Tribus Non Soumises à L'appel، لكنها تابعة للهيئة المستقلة ومحكمة الجلفة (مقاطعة المدية)؛ على بُعد ٥ كم جنوب الجلفة وشرق الطريق الوطني بين العاصمة والأغواط، يبلغ عدد سكانها ١١٤٩ نسمة، تتكوّن من فرق (أولاد جنيدي، أولاد العيشي، أولاد جيش، وأولاد سعد بن بوزيد)، ومن قيادهم: جعيد بن التّومي، وجنيدي بن جعيد، ولطرش بن الطّيب. يُنظر:

F. Accardo, Op. Cit, p167.

(٤١) **القايد بن عياش بن السلمي**: قايد عرش أولاد عَيْفَة (أولاد نصير)، ولد عام ١٨٣٨م في بلاد الشويويه، ابن السلمي بن الجعرون ومسعود بنت عيسى، دخل في خدمة الدولة الفرنسية صابحيا لمدة خمس سنوات، وبعد حسن الخدمة دخل في قيادة عرش أولاد أم الاخوة، ولما بقي عرشه بلا قيادة عينته السلطات الفرنسية قائداً لعرش أولاد عَيْفَة في ١٨ جوان ١٨٦٤م، وتقلّد رتبة فارس بتاريخ ١١ جويلية ١٨٩٦م. يُنظر:

BEN-AYACHE-BEN-SELMi, N° de la notice : L0177014, Archives Nationales, base Léonore, Op. Cit, p1-14.

(٤٢) بن سالم، "التقسيم القبلي لدائرة الجلفة سنة ١٨٧٧م"، مرجع سابق، د.ص.

(٤٣) يذكر الشيخ الرايس أن سي الأطرش بن عبد الله هو من تولّى قيادة قصور مسعد بعد وصول الجنرال مارغريت إلى المنطقة سنة ١٨٥٢م، بينما أشارت الجريدة الرسمية الصادرة في الجزائر سنة ١٩٣٥م أن فرنسا بعد وصولها للمنطقة عينت سي ابراهيم بن سالم قائدا على قصور مسعد، ثم عزل بعد فترة، وتم تعيين الأطرش بن عبد الله. يُنظر: محمد بن عبد الرحمن الرايس، **من تاريخ ابن السنوسي**، مخطوطة محفوظة عند ابنه شكيب. نقلنا عن: زيان، مرجع سابق، ص٢٢٩.

Notice sur la tribu, Op. Cit, p453.

(٤٤) بن سالم، "التقسيم القبلي.."، نفس المرجع السابق، د.ص.

(٤٥) **وثيقة محكمة الجلفة، رقم ٦٧**، مؤرخة في اذي الحجة ١٢٨٣ / ١١ سبتمبر ١٨٨٥م، موقع وزارة الثقافة الفرنسية. نقلنا عن: زيان اسماعيل، **صفحات مطوية..**، مرجع سابق، ص٣١٩.

(٣٠) **قصر زُكَّار**: يتوسط الجبال الواقعة شمال مسعد، تقطنه قبيلتي بني مابدة وقبيلة أولاد طعية، المنتسبتان إلى أولاد سعد بن سالم، والذي يمتد المجال الطبيعي للقبائل المنتمية إليهم من الشارف وزينية شمالا، إلى سيدي مخلوف وحدود عرش أولاد يحيى بن سالم غربا، وإلى ما وراء وادي جدي جنوبا، وحتى ما وراء المجبارة شرقا، وفي مسعد تتلاقى حدودهم مع حدود أولاد عيسى. يُنظر:

L. Arnaud, *Exploration du Djebel Bou Kahil et des Ksar de l'annexe de Djelfa*, 1862, T6, pp 253 et 1863, T7, P309 ; F. Accardo, *Répertoire alphabétique des tribus et douars de l'Algérie/dressé d'après les documents officiels sous la direction de M. le Myre de Vilers*, Première Partie Tribus et Fraction de Tribus, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1879, p166.

(٣١) **القايد أحمد بن سالم**: من "أولاد زعنون" الأكلاف بالأغواط، توفي والده سنة ١٧٨٢م، وقبل وصول حملة الجنرال ماري مونج إلى مدينة الأغواط في ٢١ ماي ١٨٤٤م، كان قد أرسل أحمد بن سالم سنة ١٨٤٣م وفداً بقيادة أخيه يحيى، يقترح تعيينه خليفة باسم فرنسا على القصور الخمسة لمنطقة الأغواط، وقبائل الحزازلية والأرباع وبني ميزاب، وعند وصول حملة ماري مونج كان في استقباله، ونُظِّمَت احتفالية بـ "الحويطة" يوم ٢٥ ماي ١٨٤٤م لتنصيب خليفة فرنسا، وتُلي القرار بالفرنسية والعربية، وأُلبِسَ بن سالم برونوس القايد. للمزيد يُنظر:

Marey Monge, *les Expédition De Laghouat Dirigée aux mois de mai et juin 1844 par le général marey*, De L'imprimerie de A. Bourget, Alger, 1846, pp5-6 ; C. Trumelet, "Notes Pour Servir à L'Histoire de L'Insurrection dans le Sud de la province D'Alger en 1864", in *Revue africaine*, Vol 21, N° 122, A. Jourdan Libraire-Éditeur, Alger, mars 1877, pp70-72.

(٣٢) بن سالم، مرجع سابق، د.ص.

(٣٣) حكيم بن الشيخ، "الأوضاع الاجتماعية والمظاهر الأنثروبولوجية لقبيلة أولاد نائل بالجزائر"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مج٣، ١، ع١، جوان ٢٠٢٠، ص٣٤.

M.T.H. Pein, *Lettres familières sur l'Algérie un petit royaume arabe*, T. Martin, Imprimeur-Libraire éditeur, Paris, 1871. Pp380-384.

(٣٥) Ibid.

(٣٦) في تلك الفترة كانت دائرة الجلفة من ضمن دوائر مقاطعة المدية إضافة لدائرتي الأغواط وبوغار، وقد أشار السّجل التّنظيمي الفرنسي لقبائل وفاق اقليم الجزائر وسط سنة ١٨٧٧م أنه مُشكّل من خمس مقاطعات هي: الجزائر، دّلس، أومال، أورليونز فيل (الشلف)، إضافة للمدية. يُنظر: المسعود بن سالم، "التقسيم القبلي لدائرة الجلفة سنة ١٨٧٧م"، خيمة التراث الشعبي لمنطقة الجلفة، أوت ٢٠٢٣، د.ص، الرابط على النت: <https://2u.pw/IW5ou>

(٣٧) نفسه.

(٣٨) **القايد فرحات بن خنيش**: قايد عرش أولاد طعية، ابن الحاج خنيش بن قُطاف، والولية السعدية بنت عبد الله من عرش أولاد طعية، ولد عام ١٨٤٣م في قصر مسعد، وتولّى القيادة على عرشه ابتداءً من ٢١

- (٤٦) السعيد بن عبد السلام، رسالة الأنوار في تحقيق نسل بني نائل الأبرار، نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية، ص ٢٢٧.
- (٤٧) الرايس محمد بن عبد الرحمن المسعدي (١٩١٢-١٩٦٨م): أديب وشاعر ومصلح، ولد بمنطقة دمّ، نشأ يتيم الأب فكفله خاله معلم القرآن عمر، حفظ القرآن قبل العاشرة، وتلقى تعليمه الأول على يد الشيخ عبد القادر بن ابراهيم (ت ١٩٥٦م)، ثم انتقل إلى قسنطينة أين كان ينشر مقالاته في جريدة البصائر، ومنها إلى الزيتونة بتونس سنة ١٩٠٤م، وقد عينته جمعية العلماء المسلمين بعد عودته مديرا بمدرسة الاخلاص بالجلفة، كما تولى التدريس في عديد المدن، وواصل نشاطه بعد الاستقلال مدرسا بثانوية عبد الكريم فخار بالمدينة، حتى وفاته يوم ٢٨ جانفي ١٩٦٨م. يُنظر: سالم علوي، الرايس محمد بن عبد الرحمن المسعدي أديب وشاعر نماذج من شعره، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ص ٢٩-٥، التلفزيون الجزائري، وثائقي علماء الجزائر الشيخ محمد الرايس، يوم ١١/٥/٢٠١٩.
- (٤٨) الرايس، من تاريخ ابن السنوسي، نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية.. مرجع سابق، ص ٣١٩.
- (٤٩) العلامة الجزائري محمد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي: ولد سنة ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م، في محلة الواسطة (مستغانم) على أشهر الروايات، ودرس في مستغانم ومازونة على يد بعض العلماء كأبو طالب المازوني، ومحمد بن القندوز، وأبو راس المعسكري، ثم ارتحل إلى فاس ١٨٠٥-١٨١٩م، وعين إماما بالجامع الكبير، ثم هاجر إلى بيت الله الحرام وفي طريقه مكث ثلاث سنوات في الجزائر ١٨٢٠-١٨٢٣م قضى جزءا منها بقصر مسعد أين أنشأ أول زاوية بها، وتزوج مئة بنت سي محمد بن عبد الرحمن، لكنه ارتحل إلى الحجاز من دونها، عاد بعد ذلك ليستقر في ليبيا وينشئ زاوية البيضاء ببرقة سنة ١٨٤٤م، ثم نقلها إلى منطقة الجغبوب سنة ١٨٥٥م، ويتفرغ للتأليف والتصوّف حتى وفاته سنة ١٨٥٩م. يُنظر:
- Louis Rinn, *Marabouts et Khouan Étude sur L'islam en Algérie*, Adolphe Jourdan, Libraire éditeur, 1884, pp484-485 ; ميلود بلعالية، "الشيخ محمد بن علي السنوسي ١٧٨٧-١٨٥٩م"، مجلة عصور، مج ٢، الجزائر، ديسمبر ٢٠٠٦، ص ص ١٠٨-١٣٢.
- (٥٠) Estournelles, *Les Congrégations*, Op. Cit, P43; Rinn, *Marabouts*, Op. Cit, p484.
- (٥١) زيان اسماعيل، "على خطى الرحلات الحجازية لعلماء المغرب الأقصى، رحلة الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي ومكثه بمسعد"، موقع الجلفة إنفو، الجلفة الجزائر، أوت ٢٠٢٤.
- (٥٢) الرايس، من تاريخ ابن السنوسي، مصدر سابق. نقلًا عن: زيان اسماعيل، "على خطى الرحلات الحجازية.."، مرجع سابق.
- https://www.djelfainfo.dz/ar/homme_histoire/145152.html
- (٥٣) رواية شقوية متداولة في مسعد، رواها لي الوالد بلخير بن علي بن العيد بربورة، نقلًا عن القايد السعيد بن داود. اللّثنين اشوال ١٤٤٦هـ / ٣١ أفريل ٢٠٢٥م، . . . ١١.
- (٥٤) الرايس، من أخبار القائد ابن السنوسي، رسالة خطية محفوظة عند ابنه شكيب الرايس. نقلًا عن: زيان اسماعيل، صفحات مطوية.. مرجع سابق.
- (٥٥) De Logis De Barrail, *Mes Souvenirs 1820-1851*, Tome 1, 14(em) Edition, Libraire Plon, Paris, 1897, p288.
- (٥٦) De Barrail, Op. Cit, pp290-291.
- (٥٧) Ibid, pp300-301.
- (٥٨) رواية شقوية: بربورة بلخير بن علي، نقلًا عن أبيه عن جده. ٨ جوان ٢٠٢٥. . . ١١: يُنظر أيضا:
- Arnaud, Notice Sur Le Sahari Les Oulad Ben Aliya Les Oulad Nail et Sur L'Origine Des Tribus Cheurfa, R.A, N° 44, pp21-22.
- (٥٩) الجنرال مارغريت جون أوغست (١٨٢٣-١٨٧٠م): ولد في مدينة منهيل (الميز)، وتوفي في بوراين ببلجيكا خمسة أيام بعد إصابته برصاصة في الرأس خلال معركة سيدان، كانت أول زيارة له للجزائر سنة ١٨٣١م كعسكري قادما من كوبا التي قضى فيها معظم حياته ومسيرته العسكرية، وترقى إلى رتبة رقيب سنة ١٨٤٢م، تولى قيادة الفوج الثاني دي ماركي، وكانت عودته الثانية للجزائر سنة ١٨٦٣ كعقيد. يُنظر:
- Grand dictionnaire encyclopédique Larousse – xx siècle, éditions librairie Larousse, 1982, vol. 12, Paris, p 1284.
- (٦٠) الرايس، من تاريخ ابن السنوسي. نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية.. مرجع سابق، ص ص ٢٢٨-٢٢٩.
- (٦١) زيان، صفحات مطوية.. مرجع سابق، ص ص ٢٢٩-٢٣٠.
- (٦٢) Pein, *Lettres familières*, Op. Cit, pp384,386
- (٦٣) الرايس، من تاريخ ابن السنوسي، مصدر سابق. نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية.. مرجع سابق، ص ٢٣.
- (٦٤) الرايس، من أخبار القائد ابن السنوسي، مصدر سابق. نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية.. مرجع سابق، ص ٢٣.
- (٦٥) نفسه.
- (٦٦) رواية شقوية: بلخير بربورة بن علي بن العيد (نقلًا عن أبيه عن جده). بتاريخ: ٢٦/٤/٢٠٢٥م، . . ٢٢: مساءً.
- Charles PHillebert, *Algérie et Sahara Le General Marguritte*, Direction Du Spectateur Militaire, Paris, 1882, p165.
- (٦٨) Arnaud, R. A, Op. Cit, p350.
- (٦٩) Ibid.
- (٧٠) بن سالم، مرجع سابق، د.ص.
- (٧١) شولي، مرجع سابق، ص ٤٣.
- (٧٢) رواية شقوية: جلّول هلوب (الكاتب العام السابق لبلدية سدرحال ولاية الجلفة). يوم: ٢٦/٤/٢٠٢٥. . ٢١:٣٠.
- (٧٣) مسجد الشاذلية: هو مسجد الموسوية في الاسم الأصلي، أو مسجد الدرايش كما تواترت التسمية وبقيت إلى اليوم، وأصله الراوية الأولى للشيخ موسى بن الحسن الدرقاوي رحمه الله في الأغواط وفي الجزائر عموما، وهذا المسجد بالأغواط كائن بحي الضلعة محاذيا لرقاق الحجاج حيث نزل الشيخ أول مرة. يُنظر: محمد تاج الدين، موسى بن الحسن المصري المدني الشاذلي، مجموع المذكرات والمكتاتبات ومعه الوصية السنية في الطريقة المدنية، تحقيق وشرح وتعليق: محمد بن مصطفى الطيبي، ط ١، دار صبحي، غرداية الجزائر، ٢٠٢١.
- (٧٤) الرايس، ثالث رسالة للشيخ الرايس حول ابن السنوسي. نقلًا عن: زيان، صفحات مطوية، الملحق ٩، ص ٣١٨.
- (٧٥) Piesse, Op. Cit, p120.

(٧٦) *Registre de la mairie de Titterie 1882*, ANOM, N.36.

وثيقة سجلت مجلس التيطري (المدينة حاليا)، مؤرخة في: ١٨٨٢/٢/٢١. نقلت عن: غالب، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٣؛

Hatem Tahar Nadjem, *La Reconversion de la Maison de Commandement à Messaad, Djelfa en Musée Historique*, Mémoire de Master, Domaine : Sciences et Technologies, Filière : Architecture et Urbanisme, Rapporteur : Dali Rachida, Université Mohamed Khider de Biskra, 2018 – 2019, P35.

(٧٧) يؤكد ذلك كتابات: آرنو، ماسكيراي، وبياس لويس، وكذا بعض الحفريات التي جرت أثناء عمليات الترميم سنة ١٨٠٢، حيث عُثِرَ على بعض البقايا العظمية القديمة تحت أرضية المسجد (أكثر من ٢٦ جمجمة مع العظام). يُنظر: زيان، مرجع سابق، ص ٢٤.

Registre de la mairie de Titterie, ANOM, Op. Cit, n.p (٧٨).

Ibid. (٧٩).

Arnaud, *Revue Africaine*, vol.7, 1863, p53. (٨٠).

(٨١) **الجنرال مارغريت جون أوغست (١٨٢٣-١٨٧٠م)**: ولد في مدينة منهيل (الميز)، وتوفي في بوراين ببلجيكا خمسة أيام بعد إصابته برصاصة في الرأس خلال معركة سيدان، كانت أول زيارة له للجزائر سنة ١٨٣١م كعسكري، قادماً من كوبا التي قضى فيها معظم حياته ومسيرته العسكرية، وترقى إلى رتبة رقيب سنة ١٨٤٢م، كما تولّى قيادة الفوج الثاني دي ماركسي، وكانت عودته الثانية للجزائر سنة ١٨٦٣م كعقيد. يُنظر:

Grand dictionnaire encyclopédique Larousse – xx siècle, éditions librairie Larousse, 1982, vol. 12, Paris, p 1284.

(٨٢) Emile Masqueray, *Souvenir et Visions D'Afrique*, éd E. Dentu, paris, 1894, pp152, 349, 350.

(٨٣) G. Philbert, *Algérie et Sahara : le général Margueritte*, publication du secteur militaire, Paris, 1882, P165.

Piesse, Op. Cit, p120. (٨٤)

Nadjem, Op. Cit, p36. (٨٥)

Ibid, p36. (٨٦)

Ibid, p37. (٨٧)

Ibid, pp39-42. (٨٨)

Ibid, pp43-44. (٨٩)

(٩٠) الرايس، **ثالث رسالة للشيخ الرايس حول ابن السنوسي**. نقلًا زيان،

صفحات مطوية، الملحق ٩، ص ٣١٨.

Les Travaux Nord-Africains, 29.12.1937, p3. (٩١)

(٩٢) استشارة مديرية الثقافة والفنون لولاية الجلفة، رقم: ٢٣/١١. ٢٢، ٢٤

أكتوبر ٢٣. ٢٠م.

حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها خلال فترة الحماية مدينة وزان أنموذجاً سنة ١٩٢٠م

محمد هوارى

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
لجهة طنجة - المملكة المغربية



ملخص

يعالج المقال جوانب مهمة من حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها من خلال دراسة مدينة وزان كنموذج في هذا الإطار، وذلك خلال البدايات الأولى لفترة الحماية بالمغرب في القرن الماضي، وتتناول بشيء من التحليل تفاصيل الدخول العسكري الفرنسي لمدينة وزان وإخضاعها للمناطق التابعة لها، وذلك من خلال رصد ما جاء في الكتابات الفرنسية التي حصلنا عليها من الموقع الرسمي للمكتبة الوطنية الفرنسية، على اعتبار أن المصادر التقليدية المغربية لا توفر معطيات مهمة وكثيرة حول الموضوع، كما أن الكتابات الفرنسية تبقى أوفر عدداً وأكثر غزارة نظراً لحضورها القوي خلال فترة الحماية في المغرب وساهمت في تقديم لمحات مهمة عن تاريخه، فرغم أن النظرة الاستعمارية هي الطاغية على مضامينها إلا أنها احتوت على معلومات ومعطيات في غاية الأهمية تساعد في دراسة جوانب ظلت مغفية من تاريخ مدينة وزان، لهذا سوف نركز في المقال الراهن على البحث في كيفية حدوث الاحتلال الفرنسي لمدينة وزان، وتاريخ ذلك، وكذا الطرائق التي استعملت من طرف سلطات الاستعمار الفرنسي من أجل تحقيق ذلك، مع محاولة البحث في مختلف ردود الفعل الممكنة حول هذا الحدث.

كلمات مفتاحية:

وزان؛ الاحتلال الفرنسي؛ تاريخ المغرب المعاصر؛ الزاوية الوزانية؛ بويميراو؛
ليوطي؛ مولاي يوسف

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١١ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.427911.1284

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد هوارى، "حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها خلال فترة الحماية: مدينة وزان أنموذجاً سنة ١٩٢٠م". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦. ص ١٦٣ - ١٧٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: mohamed1999hawari@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في ذُوربة كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

إن موضوع "حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها خلال فترة الحماية: مدينة وزان أنموذجاً في سنة ١٩٢٠م" على جانب كبير من الأهمية، وي طرح إشكالية مركزية تتجلى في تسليط المزيد من الضوء على الأحداث والتفاصيل العسكرية التي شهدتها المدينة في فترة الحماية والتي أدت إلى إخضاعها نهائياً ضمن منطقة الحماية الفرنسية في سنة ١٩٢٠م، حيث ستسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الإشكالية التالية: كيف تم الاحتلال الفرنسي لمدينة وزان؟ ومتى تم ذلك؟ وماهي الطرق التي استعملتها سلطات الاستعمار الفرنسي من أجل تحقيق ذلك؟

أولاً: الحماية (نظام جديد بالمغرب ابتداءً من ١٩١٢م)

إن توقيع معاهدة الحماية من طرف السلطان المولى عبد الحفيظ في القصر الملكي بفاس في ٣٠ مارس سنة ١٩١٢م كان بداية عهد جديد بالمغرب يختلف كلياً عن العهد السابق. فقد أعطت هذه المعاهدة الحق القانوني لفرنسا بالاستئثار ببناء نظام جديد بالمغرب، مشتمل على عدد من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والأمنية، التي ترى فرنسا ضرورة إدخالها، والحاجة إليها. وقد شرعت فرنسا بعد وقت وجيز من توقيع المعاهدة في تنفيذ ما وعدت به من "إصلاحات" وتحديثات على الصعيد السياسية والأمنية والاقتصادية....، ويندرج في هذا السياق اقتسامهم النفوذ مع الإسبان، وتفويضهم لبناء نظام شبيه في المناطق الشمالية والجنوبية استناداً إلى اتفاق سابق بينهما، تم توقيعه سنة ١٩١١م.^(١)

لقد بدأ الاحتلال العسكري للمغرب قبل توقيع معاهدة الحماية بمدة معتبرة، ففي ٣٠ مارس ١٩١٢م كانت العديد من المناطق المغربية في الشرق والشمال والغرب تقع فعلاً تحت نفوذ القوات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية. وبعد توقيع الاتفاقية اتسعت رقعة الاحتلال تدريجياً، وهدمت كافة مناطق المملكة الشريفة مع حلول سنة ١٩٣٤م. يمكن تقسيم مراحل احتلال المغرب إلى ثلاث مراحل كبرى: مرحلة تأمين السواحل السهلية والمدن الكبرى (١٩٠٧ - ١٩١٤م)؛ ومرحلة

على الرغم من التراكم الكمي والنوعي الذي حققته الدراسات المونوغرافية التي اهتمت بدراسة عدة قبائل ومدن في مختلف ربوع المغرب، فإن مدينة وزان لم تحظ بالاهتمام الكافي وبقيت على هامش البحث التاريخي بالمغرب، وبقيت المعطيات عنها مغمورة ومطموسة ومتناثرة تحتاج إلى من يكشفها ويميط اللثام عنها، وتسعى هذه الدراسة إلى محاولة سد هذه الثغرة وتسلط الضوء على جزء هام من تاريخ مدينة لعبت أدواراً مهمة في تاريخ شمال المغرب خاصة والمغرب عموماً. إن من أهم الدوافع العلمية التي كانت وراء اختيار هذا الموضوع وجعلتني أخوض البحث فيه إضافة إلى العامل الذاتي بحكم انتمائي إلى هذه المدينة وطموحي في التعريف بتاريخها والبحث عن أسرارها هي: ضعف الاهتمام بالأبحاث التاريخية الخاصة بمدينة وزان عموماً وبفترة الحماية خاصة، فجعل الأبحاث التي عالجت تاريخ هذه المدينة إنما اهتمت بما قبل فترة الحماية وبالأشراف الوزانيين خاصةً في شخص زوايتهن الشهيرة، ثم الكشف عن إشكاليات كثيرة تخص المدينة خلال فترة الحماية، فإذا كنا اليوم نعرف ملامح من تاريخ المدينة ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي وإلى حدود القرن التاسع عشر الميلادي، على اعتبار أن بداية تاريخ وزان يرتبط بتاريخ تأسيس الزاوية بها ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي، إلا أننا اليوم لا نعرف الكثير حول الاحتلال الفرنسي لمدينة وزان وتفصيله الكثيرة.

تروم فكرة هذه الدراسة إلى المساهمة في كتابة جزء من تاريخ مدينة وزان خلال فترة الحماية وذلك من خلال ما كتب حول المدينة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في مختلف الكتابات الاستعمارية الفرنسية التي اهتمت بتاريخ المغرب خلال هذه الفترة، والتي حصلنا عليها عن طريق الموقع الإلكتروني للمكتبة الرقمية للمكتبة الوطنية الفرنسية "Gallica"، وفق منهج تاريخي صارم يقوم على استنطاق الوثائق والمصادر واستخراج ما تكتنزه من معطيات.

أو بآخر على نجاعة السياسة الأهلية التي اعتمدها ليوطي Lyautey ، والمعتمدة على كبار القواد، وتقديم الخدمات الصحية والاقتصادية للسكان، وتنفيذ عدد من مشاريع البنية التحتية...، ومن ثَمَّ، اكتفى الفرنسيون خلال هذه المرحلة بما تحت أيديهم من سهول وسفوح، وهي الأراضي التي تسمى في بعض الأدبيات التاريخية بـ " بلاد المخزن "...^(٢) فما هي خصوصيات ومميزات كل مرحلة من مراحل احتلال المدينة؟

ثانياً: المرحلة الأولى لاحتلال المدينة ما

قبل ٢ أكتوبر ١٩٢٠م

إخضاع المحيط الخارجي (القبائل المجاورة للمدينة)

تشير مختلف الكتابات الأجنبية إلى أن العائق الأكبر الذي وقف في وجه القوات الفرنسية في سعيها للدخول إلى مدينة وزان وإخضاعها ضمن المناطق التابعة لها في مرحلة الحماية، تمثل في المحيط الخارجي للمدينة والمقصود به هنا مختلف القبائل التي كانت تحيط بالمدينة، والتي امتلكت قوة كبرى قاومت الاستعمار، وصعبت من أمر إخضاع المدينة بشكل خاص والمغرب بشكل عام، ففي كل أجزاء التراب المغربي لم يكن الاحتلال العسكري له بالأمر اليسير والهين، بل واجه المستعمر في مختلف جهات المغرب مقاومة شرسة كبذته خسائر بشرية ومادية مهمة.

في هذا الإطار يبدوا لنا من خلال استقراء مختلف الكتابات الفرنسية التي وجدناها تتطرق لموضوع الاحتلال العسكري للمدينة سواء عن طريق ذكر المعلومات بطريقة مباشرة، أو بصفة غير مباشرة إذا ما كانت مرتبطة بموضوع آخر، فإنخاض المحيط الخارجي للمدينة قبل الدخول إليها قد تم من كل الجهات، من الجهة الغربية، والجهة الجنوبية الشرقية، والجهة الشمالية.

ففيما يتعلق بالجهة الغربية نتوفر في هذا الإطار على كتاب " الجيوش الفرنسية في الحرب العالمية الأولى Les Armées Françaises dans la Grande Guerre " الذي أصدرته هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة ما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٩، في ١١ مجلداً، إذ نقرأ فيه ما يلي:

التهدئة المحدودة في الأطلسين المتوسط والكبير (١٩١٤ - ١٩٢٦م)؛ ومرحلة إتمام السيطرة على باقي التراب المغربي (١٩٢٦ - ١٩٣٤م).^(٣)

انطلاقاً من هذا السياق العام والظروف السياسية الجديدة التي أصبح عليها المغرب ابتداء من سنة ١٩١٢م، وأمام شح المعلومات في مختلف المصادر التقليدية المتعلقة بالدخول الفرنسي لمدينة وزان واحتلالها وإخضاعها للمناطق المسيطر عليها، نطرح التساؤلات التالية: ماذا يمكن لنا أن نستفيد من معلومات حول الموضوع في الكتابات الفرنسية؟ وكيف تمت السيطرة على مدينة وزان؟ ومتى تم ذلك؟

انطلاقاً من قراءتنا لمختلف الكتابات الفرنسية حول الموضوع، استنتجنا أن الدخول الفرنسي للمدينة قد تم على مرحلتين: مرحلة ما قبل أكتوبر ١٩٢٠م، ثم المرحلة الثانية المرتبطة بالدخول الرسمي والسيطرة نهائياً على المدينة في أكتوبر من نفس السنة.

أول نقطة وجب الوقوف عليها، تمت الإشارة إليها سابقاً، وتتفق حولها معظم الكتابات الأجنبية التي سيأتي ذكرها، هي المتعلقة بتاريخ احتلال مدينة وزان، أي في سنة ١٩٢٠م، وهو ما يعني ثماني سنوات بعد دخول معاهدة الحماية حيز التنفيذ رسمياً سنة ١٩١٢م، وهو ما يجعلنا نستنتج أنها تنتمي للمناطق المغربية التي احتلت في إطار المرحلة الثانية من المراحل السالفة الذكر، وهي المراحل التي يتفق حولها معظم المؤرخين المغاربة. فبم يمكن تفسير تأخر احتلال المدينة حتى سنة ١٩٢٠م؟

لقد ركز الفرنسيون جهودهم خلال المرحلة الثانية على تأمين مكاسبهم الترابية التي حققوها خلال المرحلة السابقة، وتأمين الطرق والمعابر الاستراتيجية، ... ويفسر الهدوء النسبي الذي عرفته هذه المرحلة، وتراجع حدة المعارك إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى، والطلب الذي تلقاه الجنرال ليوطي Lyautey من الحكومة الفرنسية، والذي يقضي بالانسحاب إلى السواحل والتمركز في المدن الرئيسية وإرسال الجزء الأعظم من القوات إلى فرنسا، وهو ما استجاب له ليوطي Lyautey بذكاء ودهاء، دون أن يفقد المجالات الترابية التي كسبها في المرحلة السابقة. الشيء الذي دل بشكل

القبائل الخاضعة، في صد أخطر تهديد لسهول الغرب الغنية منذ بداية الحرب.^(٥) وبالتالي نستنتج أنه ما إن حل شهر دجنبر من سنة ١٩١٩م، حتى كان المحيط الخارجي للمدينة من الجهة الغربية خاضعا للقوات الفرنسية. هذا فيما يتعلق بإخضاع المحيط الخارجي للمدينة قبل الدخول إليها من الجهة الغربية، فماذا عن الجهة الجنوبية الشرقية والجهة الشمالية؟

نقرأ في مقال ل روجر هومو Roger Homo بعنوان "تهدة المغرب La Pacification du Maroc"، ضمن كتاب "نهضة المغرب: عشر سنوات من الحماية ١٩١٢م - ١٩٢٢م" La Renaissance du Maroc : Dix " " ١٩٢٢-1922 Ans de Protectorat، وهو كتاب جماعي يضم مجموعة من المقالات لمجموعة من الباحثين، تم تأليفه بمناسبة الذكرى السنوية العاشرة الأولى للحماية، وذلك لقياس العمل المنجز والشهادة عليه، وهي مناسبة صادفت زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية إلى الدار البيضاء في ٥ أبريل ١٩٢٢م،^(٦) يقول فيه:

"...إن احتلال وزان يأتي في الوقت المناسب. يتم تنفيذ ذلك في أقل وقت ممكن، مع أقل قدر من الضرر، لأن الوسائل تضاعفت: الدبابات، والسيارات المدرعة، والطائرات، والفرسان. تحيط بالمدينة خمس قبائل: إلى الجنوب الشرقي، سطا، وبني مزكلدة، وبني مستارة، في الشمال رهونة وغزاوة. وتتمثل مناورة بويميراو Poeymirau في الاستيلاء على وزان كملاذ أخير، بعد تطهير محيطها وتغطيتها.

تم تقليص القبائل الجنوبية الشرقية أولاً، وتم أخذها من الخلف من الشمال إلى الجنوب، وتم إنشاء مواقع جبل إيسوال وجبل تروال بينهم، ومن ثم تتعرض القبائل الشمالية للضغط بسبب التقارب بين العمل الفرنسي والإسباني. تمنحنا ولاية وزان السيطرة على ١٦٠٠ كيلومتر مربع، مزروعة بالكامل تقريباً. إن المزايا السياسية التي حصلت عليها الحماية من هذه القضية يمكن قياسها من خلال الثمن الذي لم يتوقف السكان الأصليون عن ربطه بامتلاك مدينة شريفة في الأساس، أي مدينة مقدسة، ونوع من الأرض الموعودة، ولكنها كانت محرمة عليهم بسبب المعارضة العنيدة من قبل قبائل

"ورغم التوجيهات المتكررة من المقيم العام الذي عانى رغماً عنه من دوامة في تافيلالت"، فقد أكد مرة أخرى في شتبر أنه لا يريد "دوامة أخرى على جانب وزان بأي ثمن"، إلا أن الوضع أصبح خطيراً في الغرب ابتداء من أكتوبر ١٩١٩م. في الواقع، لم يتطلب الأمر سوى استطلاع غير مناسب، يتعارض تماماً مع روح تعليمات القيادة العليا، لإحداث رد فعل قوي من جانب جبالة، الذين لم يفشل المحرضون قاسم بن صالح وكوهنيل في إثارة الخوف في نفوسهم من عدوان وشيك من جانبنا على وزان: في ٥ أكتوبر، تمت مهاجمة موقع بني وال، وقتل زعيمه؛ وفي اليوم العاشر، استولى العدو على موقع هام في منطقة الرمل، وقطع بذلك الطريق من عرباوة إلى حدكورت. تطلب هذا التنبه المفاجئ تشكيل "مجموعة مراقبة الغرب"، والتي تولى قيادتها بنفسه العقيد بيليجرين، قائد فرقة الرباط؛ لكن هذه المجموعة، التي تم تشكيلها من وحدات مأخوذة من مناطق الرباط ومراكش ومكناس وفاس، لن تكتمل حتى ١٢ نونبر. وفي هذه الأثناء، كانت مهمة القوات الجوية والثوار هي وقف تقدم العدو وتعزيز الغطاء المحلي. نجح سرب من الرباط في إثارة الذعر بين قوة كبيرة من العدو، وأجبرتها على الفرار بشكل فوضوي نحو وزان. وعلى رأس ٦٠٠ بندقية زمر وشراردة، تمكن رئيس مركز بني وال من منع أكثر من ١٢٠٠ من جبالة من الخروج من الرمل وأوقع بهم خسائر فادحة. لكن الحركة استمرت في الانتشار، وسرعان ما ساءت الأوضاع في جانب عرباوة، حيث انتقلت قبائل صرصار تحت الضغط الشديد إلى جانب العدو.^(٧)

في ١٤ نونبر، تحركت المجموعة المتنقلة بقيادة العقيد بيليجرين، مع ثلاث كتائب وبطاريتين ونصف وسرب، إلى اللوكوس لاستعادة الوضع هناك. وبعد معركة بني ليمان المنتصرة، استولى على مدينة الرميل، وصد هجوما مضادا بأكثر من ألف بندقية. وأخيراً، تم استكمال هذه النتائج من خلال عمليات انتقامية قام بها أهلنا جتى مزارع الزيتون في وزان، ومن خلال إنشاء مركز دائم في الرمل.

وفي الأول من دجنبر، تم حل مجموعة المراقبة: وبعد شهرين من الجهود المتواصلة، نجحت قواتنا، بمساعدة

مستوى التطور الذي وصل إليه؟ يقول ريجينالد كان دائماً - من الطبيعي أن تطرح هذه الأسئلة على شخص يعود بعد غياب دام سبع سنوات - . لقد قمت بفحصهم خلال إقامتي لمدة أربعة أشهر في الشتاء الماضي. ويعتبر هذا المستكشف أن صفحات كتابه هي نتائج ملاحظاته. لا يدعي أنه يدرس جميع المشاكل بعمق أو يجد حلاً لكل منها. إنه راضٍ بنظرة عامة تغطي أهم المواضيع: السلام، وتنظيم الحماية ووظيفتها، والتنمية الاقتصادية للإمبراطورية؛ هي ملاحظات بسيطة عن الحماية المغربية قام بجمعها.^(٨)

حيث يقول: "وفي الشمال، الوضع أكثر تعقيداً لأننا لسنا وحدنا هناك. لو تم تحديد الحدود بشكل واضح في الجزء من منطقته الذي لا يسيطر عليه الإسبان، لكان بوسعنا، دون أي إزعاج، عبورها مؤقتاً في حالة العدوان، من أجل ملاحقة القبائل التي قد تعبها هي نفسها لمهاجمتنا... ولذلك فإن الحكمة تدعونا إلى تجنب احتلال ليس فقط الأراضي التي قد تكون موضع نزاع، بل حتى تلك التي قد تتعرض لغارات من المنطقة الإسبانية. ولا تنطبق هذه الاعتبارات على الأجزاء الجنوبية من قبائل الضفة الشمالية لنهر ورغا، ولا على محيط مدينة وزان، وهي مدينة تقع على بعد ٢٥ كيلومتراً على الأقل من الحدود، وفقاً لأحكام اتفاقية ١٩١٢م. إن هذه المناطق خصبة، ويسهل الوصول إليها، وعندما تتاج الفرصة لإخراج أبنائها من السلطة، سيكون من المناسب القيام بذلك. وهذا ما فعلناه في وزان هذا العام".^(٩)

وأوردت جريدة "الديمقراطية Démocratie" في ١٠ أكتوبر ١٩٢٠م، ما يلي: "الفرنسيون واصلوا تقدمهم نحو وزان دون تكبد أي خسائر. في العشرين من شتبر ١٩٢٠، تحرك القوات الفرنسية كان مصحوباً بعملية إسبانية موازية. لعلها أهم عملية عسكرية تجري الآن منذ تأسيس الحماية الفرنسية في المغرب. يتقدم ما بين ١٢,٠٠٠ و ١٤,٠٠٠ جندي من قوات الحماية في المنطقة الجبلية لمدينة وزان المقدسة، بهدف احتلال أراضٍ شاسعة لم يخضع سكانها للفرنسيين بعد. في الوقت نفسه، تتحرك القوات الإسبانية شمالاً بشكل مواز، حيث تتقدم شرق القصر الكبير، بهدف احتلال شفشاون.

جباله. حول المدينة، غلاف: في الشمال تشير الأعمدة إلى الحدود الإسبانية، في الغرب مواقع ريجانة وإيسوال وتروال وفي نهاية عام ١٩٢٠، كان الوضع العام ممتازاً في مجمله. لقد زادت نجاحات قواتنا من مكانتها هناك بعد الاستيلاء على وزان"^(٧)

وهي الإشارات الواضحة هنا لكون العملية تطلبت وسائل عسكرية مهمة ومتنوعة، الشيء الذي يبرز لنا بوضوح ضخامة وقوة المقاومة التي تعرضت لها القوات الفرنسية قبل الدخول للمدينة من قبل القبائل الخمس المحيطة بالمدينة، إضافة لكون المعارك بدأت مع القبائل الموجودة في الجنوب الشرقي للمدينة (سطا، بني مزكلدة، بني مستارة) ومن ثم الانتقال لمواجهة القبائل الشمالية (غزاوة ورهونة) وهو الأمر الذي تطلب أيضاً تعاوناً عسكرياً ما بين القوتين الإمبرياليتين فرنسا وإسبانيا لتحقيق هذا الإخضاع، ونظراً أيضاً لكون هذه القبائل كانت توجد في المناطق الحدودية ما بين مناطق نفوذ الدولتين في المغرب، ونستخلص أيضاً من مقال روجر كون السلطات الفرنسية عملت على إنشاء مواقع لمراقبة تحركات هذه القبائل بمختلف المرتفعات الجبلية (جبل إيسوال، جبل تروال...)، ونرجح في نظرنا اختيار التضاريس الجبلية لكونها تمنح ارتفاعاً يسهل من عملية المراقبة، وأيضاً لكون هذه القبائل تعرف باستقرارها في الجبال، لذا من الطبيعي أن يكون اختيار الجبل عوض أشكال تضاريسية أخرى لتثبيت أبراج المراقبة.

نفس النقطة المتعلقة بإخضاع المناطق الجبلية من أجل تهديد السبيل نحو دخول مدينة وزان، نجدها أيضاً عند ريجينالد Réginald Kann كان في كتابه "المحمية المغربية Le Protectorat Marocain"، وحول هذا الكتاب نقرأ في مقدمة الكتاب المعلومات التالية، هذا المستكشف من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩١٢ قام بعدة رحلات إلى المغرب. أولاً كمراسل صحفي، ثم كضابط، ذهب إلى هناك تسع مرات مختلفة، في أغلب الأحيان للمشاركة في العمليات العسكرية. منعت الأحداث في أوروبا من العودة إلى المغرب بعد ذلك (ظروف الحرب العالمية الأولى). وسيفعل ذلك في سنة ١٩١٩م، بعد أن كان قد غادره للمرة الأخيرة عندما بدأت الحماية في التنظيم. بأية أساليب عمل النظام الجديد؟ ما هو

وتحكي لنا مجلة " إفريقيا الفرنسية l'Afrique Française " عن معلومات إضافية أخرى حول احتلال مدينة وزان، كالتالي: "كانت وزان ...، على الرغم من ارتباطها بالمخزن، تحت سيطرة القبائل الجبلية المجاورة، مما فصلها تماماً عن المغرب الخاضع، مما فسر الشذوذ الذي جعل هذه المدينة الدينية، الموالية للسلطان وفرنسا، مركزاً للعداء. كان من المناسب لإعادة إرساء سلطة السلطان وضمان الاحترام والهدوء للزاوية الشهيرة... كان احتلال وزان ومنطقتها متصوراً لفترة طويلة. وقد تأخر لأسباب مختلفة من الحكمة والمصلحة، واستحالة استخدام الوحدات المستوعبة في الحركات العاجلة على مختلف جبهات حماية المغرب، والطابع الغريب لهذه المنطقة والرغبة في تجنب الصعوبات المتوقعة بسبب قرب المنطقة الإسبانية، وفي ١٦ شتبر، تم تركيز القوات تحت قيادة الجنرال بويميراو، المسؤول عن العمليات ضد جبالة، في عين دفالي. وكان من بينهم قوات من أقسام مكناس وفاس والرباط، قوة من ١٢ كتيبة و ١١ سرباً و ٤ غومات و ٦ بطاريات و ٦ أسراب وقسم دبابة واحد وسيارات مدافع رشاشة وكان من الضروري أولاً تقليص القبائل المعادية التي سيطرت على مدينة وزان والذين شكلوا مجموعتين رئيسيتين، إلى الشرق، السطة وبني مزكيدة وبني مستارة، وإلى الشمال غزاوة ورهونة. ركز الجنرال بويميراو جهوده أولاً، مستهدفاً بشكل خاص بني مستارة، الذين يُعتبرون الأكثر ثباتاً والذين غالباً ما واجهت دائرة تغطية الغرب مشاكل معهم، ومنذ ١٧ شتبر، وصلت الاستسلامات الأولى إلى الجنرال بويميراو المتمركز في الهباجين، على المنحدرات الشمالية لجبل إيسوال. منذ تلك اللحظة، بدا أن سطة ومزكيدة والجزء الأكبر من بني مستارة قد تم تقليصها. لم تكلفنا الحركة سوى ١٣ قتيلاً، من بينهم ضابط واحد و ٢١ جريحاً. تم إنشاء موقع في إيسوال، وهو موقع يهيمن على المنطقة الخاضعة بأكملها، من المناسب التأكيد، بمناسبة احتلال وزان، على الدور المهم بشكل خاص الذي لعبه الطيران العسكري في العمل العظيم المتمثل في تهدئة المغرب. تم التحضير للهجوم الذي بدأ في ١٧ سبتمبر من خلال قصف فعال من قبل ٤ أسراب أطلقت ٦٠٠٠ كيلوغرام من المقذوفات على جبهة بني مسارة

تبعد الجيوش الفرنسية والإسبانية أقل من ٢٢ كيلومتراً عن بعضها البعض. سيضعف هذا التحرك المشترك مقاومة القبائل، لكن من المرجح اندلاع قتال شرس. أخيراً، في الرابع والعشرين من الشهر... تستمر عمليات وزان دون اشتباكات جادة. ويستمر استسلام القبائل المجاورة المحيطة بالمدينة المقدسة. وقد استسلم حتى الآن أكثر من ٧٠٠٠ من السكان الأصليين. وقد فرّ شريف وزان، ولد سيدي حمامي، ولجأ إلى قبائل غزاوة، بالقرب من المنطقة الإسبانية. وحتى الخامس والعشرين من الشهر، خسر الفرنسيون اثني عشر قتيلاً وعشرين جريحاً... القوات الفرنسية عملت في بلد غير مستكشف وغير معروف على الإطلاق، لم يسبق للأوروبيين زيارته، تعد الحملة مثالاً رائعاً على العمل والسياسة الفرنسية، التي تقوم على إظهار القوة، وتوجيه ضربة قاصمة، وإحلال السلام الفوري، بأقل خسائر ممكنة من الجانبين. لم يكن من الممكن أن تتجح الحملة بشكل أفضل... يبدو أن حملة وزان قد انتهت.^(١٠)

وبالتالي يبدو لنا أن القوات العسكرية نجحت نسبياً في مسعاها في السيطرة على المحيط الخارجي للمدينة، ودخلت بالفعل للمدينة، دون أي مقاومة تذكر، ذلك ما يؤكد " ريكارد بروسبير Ricard Prosper " في كتابه " المغرب Le Maroc " وهو كتاب حول الطرق والمدن بالمغرب، والإشارة إلى وسائل زيارتها بشكل مفيد، وإيقاف المسافرين أمام المعالم والحقائق الأكثر استحقاقاً للملاحظة، من خلال تزويده ببعض التفسيرات المفيدة، هذا الدليل، الذي نُشر لأول مرة بعد الحرب. بروسبير ريكارد، الذي بعد أن أثبت نفسه في الجزائر، تم استدعاؤه إلى المغرب أولاً كمفتش للفنون الأصلية في فاس، ثم كرئيس لدائرة الفنون الأصلية في المغرب، في الرباط. لم يكن هناك أحد أفضل منه للقيام بهذا العمل الضخم. بعد أن سافر عبر البلاد لأكثر من عشرين عاماً، تمكن من جمع خلال رحلاته المتواصلة جميعها رحلات دراسية، ووثائق وفيرة، أصلية، وشخصية، ومتجددة باستمرار،^(١١)... حيث ينقل لنا: " بقيادة الجنرال بويميراو، دخلت القوات الفرنسية المدينة دون إطلاق رصاصة واحدة في ٢ أكتوبر ١٩٢٠."^(١٢)

في أكتوبر ١٩٢٠ فرصة للشريف ليغير علناً عن ولائه للمخزن".^(١٥)

من هنا نطرح السؤال التالي: ما الذي جعل شرفاء الزاوية الوزانية يخصصون ترحيباً للاستعمار الفرنسي؟ وما الذي جعلهم لا يقومون بأي رد فعل مقاوم عندما دخل الاحتلال للمدينة؟ نجد أجوبة لهذه الأسئلة في دراسة للأستاذ قاسم الحادك، حيث يقول: "بادرت هذه الأخيرة (الزاويا) بعد فقدان المخزن لهيبته للبحث عن تعويض لسلطته، ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو، فمع انطلاق المخططات الاستعمارية الفرنسية في المغرب كانت الزاويا والطرق الصوفية تمثل أهم تنظيم سياسي وديني يتمتع بنفوذ كبير وقاعدة شعبية عريضة، وبالتالي كانت هي المؤسسات الوحيدة إلى جانب المؤسسة المخزنية والقوى القبلية القادرة على تأطير القوة البشرية الهامة التي كانت تتوفر عليها وتنظيمها لإعلان الجهاد والتصدي للقوات الاستعمارية. لكن وبعد نجاح الفرنسيين في استمالة المؤسسة المخزنية إلى جانبهم، لم يبق في المغرب من يرفع المقاومة وينظمها سوى القبائل المؤطرة من طرف شيوخ الزاويا والطرق الصوفية الذين كانوا لوحدهم في المجتمع القبلي إلى جانب عدد قليل من الزعماء القبليين، لأنهم كانوا يتمتعون بمكانة خاصة وقدرة على التأطير والإقناع والتعبئة مما جعلهم مؤهلين للتدخل في وقت التهديد الخارجي. وقد وضع الغزو العسكري الفرنسي النخب المغربية وخاصة زعماء الزاوية والطرق الصوفية أمام إشكالية معقدة ساهمت في ظهور جدل كبير بينهم أدى إلى بروز انقسام واضح بين هذه الزعامات الروحية والقبلية، بين من رأى أن ظروف وشروط الجهاد غير متوفرة معتبرا دعاة الجهاد مجرد مثيرين للفتنة وخارجين عن الشرع والحكمة ما دام أن الجهاد لا بد أن يكون تحت راية السلطان وبأمره، وهذا الأمر ينطبق على الزاوية الوزانية والناصرية والشرقاوية والزاوية الدرقاوية الأم، وبين الزعامات الصوفية الدرقاوية التي رأت في الغزو الاستعماري غزوا نصرانيا مسيحيا وانتهاكا لأرض الإسلام من طرف "الكفار" الذين لا بد من إعلان الجهاد للتصدي لهم

وبني مزكيدة، مما تسبب في خسائر فادحة وإحباط معنويات القبائل المعادية... في الأيام التالية، واصل الطيران مساعدته الفعالة بقصف جديد في ٢٧، أطلقت ٧ طائرات ٦٢٠ كيلوغراماً من المقذوفات على الدواوير التي تم التحليق فوقها؛ في ٢٩، تم إسقاط ١٢٠٠ كيلوغرام أخرى. ساهم العمل الفعال بشكل خاص للطيران العسكري بقوة في كسر جميع المقاومة... ومنذ أواخر شتبر، اعتبرنا قبائل بني مزكيدة وسطية وبني مستارة مهزومة... وفي ٢ أكتوبر، دخل الجنرال بوميمراو المدينة... ذهب الشريف مولاي الطيب وقائد المخزن علال للقاء الجنرال، على بعد ٤ كيلومترات من المدينة، مع رايات ووفود الإخوان وأعربوا عن ارتياحهم لرؤية المدينة ومنطقتها تتحرر أخيراً من الفوضى. أقام الجنرال مقره على هضبة العدير، على بعد كيلومتر واحد إلى الشمال الشرقي".^(١٦)

ثالثاً: المرحلة الثانية لاحتلال المدينة

ما بعد ٢ أكتوبر ١٩٢٠م (تعزيز احتلال المدينة)

نستخلص من خلال ما سبق إذن أن دخول الفرنسيين لمدينة وزان تم في سنة ١٩٢٠م، وذلك بعد أن قامت سلطات الاستعمار عن طريق قواتها العسكرية بإخضاع مختلف القبائل التي تحيط بالمدينة من كل الجهات، والواضح جيداً أن القوات الفرنسية كانت تعلم جيداً أنه بدون السيطرة على قبائل جبال لا يمكنها بتاتاً أن تدخل إلى المدينة، كيف لا ونحن نعلم أن هذه القبائل شكلت على مر التاريخ حصناً منيعاً يحيط بالمدينة، وفعلاً دخل المقيم العام الأول لفرنسا بالمغرب المارشال ليوطي Lyautey في أكتوبر من سنة ١٩٢٠م للمدينة، بعد أن فتحت جميع الطرق في وجه ذلك كما أسلفنا الذكر، إذ نقرأ في كتاب " لويس كروس Louis Cros " " المغرب للجميع Le Maroc pour Tous " وهو كتاب يخبرنا بوصف صغير صاحبه في الصفحة الأولى منه أنه سوف يجيب على سؤالين كيف تذهب وماذا تفعل في المغرب؟^(١٧) ما يلي: "نحو الحدود نحتفل بمرحلة ممتازة، وهي مرحلة وزان، حيث خصص لنا الشرفاء ترحيباً تقليدياً. وكان دخول الجنرال ليوطي إلى المدينة المقدسة

الاستيلاء على وزان"، ردّ المقيم العام: "أشعر بفخر عميق وتأثر بالغ بالبرقية التي تلقيتها من جلالتك، وأرجو منكم قبول شكري وتقديري. أسارع إلى إيصال برقيتكم إلى القوات العاملة، التي، إذ تُقدّر قيمتها العالية، ستجد فيها شهادة جديدة على مشاعر جلالتك تجاه فرنسا وحيشها، لم يكمل احتلال وزان العمل المطلوب في هذه المنطقة. بل ظل هناك جزء من بني مستارة، وغزاوة، ورهونة، شمال المدينة، على تخوم المنطقة الإسبانية غير خاضعين، والذين انضم إليهم الشريف ولد سيدي حماني، الذي حاول عبثاً تجميع قبائل جباله الخمس الكبرى ضدنا، وربما قاسم بن صالح، القنصل النمساوي السابق الذي كان خصمنا اللدود خلال الحرب، بفضل إمداداته عبر طريق العرائش. لذلك، نُفذت عملية وزان وفقاً لخطة منهجية استبقت كل شيء، ووفرت الجهد والتضحيات والخسائر. بفضل روح القوات ومهارة القادة".^(١٨)

وحول الأهمية الكبرى لاحتلال المدينة، خاصة منها ما يتعلق منها بالجانب العلمي والاقتصادي، يقول جون سيليري Jhon Célérier "في مقال له بمجلة "هسبريس HESPERIS"، وهي المجلة المتعلقة بأرشفيف ونشرة معهد الدراسات العليا المغربية معنون بـ "السنة الجغرافية في المغرب" ما يلي: "ولهذا السبب يمكننا القول إن أعظم تقدم في جغرافية المغرب سنة ١٩٢٠م كان بفضل العمليات السياسية والعسكرية التي أدت إلى إخضاع الزيانين واحتلال وزان. هاتان المنطقتان من بين المناطق الأكثر إثارة للاهتمام في المغرب والمفتوحة للبحث العلمي... إن احتلال مدينة وزان سيسمح بإعادة فتح العلاقات الاقتصادية بين المغرب وهذه المدينة".^(١٩)

وفي سنة ١٩٢١م ستشهد المدينة ولأول مرة زيارة لها من طرف السلطان المولى يوسف، والذي سوف يوجه رسالة للمارشال ليوطي بمناسبة إحياء ذكرى الدخول الفرنسي للمدينة، ذلك ما نقرأ في جريدة "أخبار Akhbar" "زار سلطان المغرب، مولاي يوسف، خلال رحلة عودته من فاس إلى الرباط، ولأول مرة مدينة وزان المقدسة، التي ظلت منشقة لفترة طويلة، واليوم تستعيد عافيتها بعد أن تحررت من ضغط القبائل المعادية. في تاريخ ٨ يوليوز ١٩٢١م، أراد السيد مولاي يوسف إحياء

والوقوف في وجههم، فنظمت الجهاد وأعلنت التعبئة وأطرت المجاهدين للوقوف في وجه الغزو الفرنسي بإمكانات محدودة لم تكن كافية لعرقلة تقدمه".^(٢٠)

وفي هذا الإطار أيضاً كتبت جريدة "Nîmes-Soir"، مايلي: "كان للجنرال ليوطي أول ظهور له في وزان، حيث استقبله الجمهور المسلم والإسرائيلي بحرارة في الساحات".^(٢١) وأوردت أيضاً مجلة إفريقيا الفرنسية حول نفس الموضوع تفاصيل أخرى حول دخول المقيم العام ليوطي Lyautey إلى المدينة، مع ما رافق ذلك من ردود فعل مختلفة، حيث نقرأ: "وفي ٧ أكتوبر كان الجنرال ليوطي هو الذي قام بدوره بدخول رسمي إلى وزان. وقد رحب به جميع السكان. أكد الشريف والسلطات ولاءهم للمخزن وفرنسا، وقال لهم الجنرال هذه الكلمات البسيطة التي لخصت كل شيء: "من الآن فصاعداً، سيسود هنا النظام والعدل والحرية واحترام الدين" وأرسل إلى السلطان، الذي سيزور المدينة المقدسة قريباً، البرقية التالية

"أود أن أخبر جلالتك بمدى روعة زيارتي الأولى لوزان، استقبلني رجال الشرطة، معبرين بحماس عن مشاعرهم تجاه جلالتك، وفرحهم برؤيتكم قريباً، ورضاهم العميق لتحررهم من حالة الفوضى وانعدام الأمن التي عانوا منها لسنوات طويلة. وكما أخبرني أحدهم، هذه هي المرة الأولى منذ زمن طويل التي يتمكنون فيها من مغادرة منازلهم دون إزعاج. وقد أكد لي هذا الانطباع جميع سكان وزان، الذين كان وصولنا بمثابة راحة حقيقية لهم. أعلن الجنرال بيوميراو، عند وصوله، بوضوح أنه باسم جلالتك جاء لإحلال النظام والسلام. يسعدني جداً أن قواتي وأنا نجحنا، هذه المرة أيضاً، في تحقيق مهمة السلام هذه في الإمبراطورية، من أجل جلالتك، مُلبين بذلك الهدف الأساسي الذي تسعى إليه فرنسا في هذا البلد النبيل. هذا ما فهمته الحكومة بوضوح"، كما وجه رئيس الجمهورية تهنئته. وجاءت التهاني أيضاً من السلطات الإسبانية المجاورة التي حرص الجنرال ليوطي على الإعلان لها مسبقاً عن هدف ونطاق العمليات وأبرق ملك إسبانيا نفسه إلى الجنرال: "أسارع إلى أن أنقل إليك، يا عزيزي الجنرال، وكذلك إلى قواتك الممتازة، تهنئتي الصادقة على

إذ نقرأ في هذا الصدد في مقال روجر هومو السالف الذكر مايلي:

"من المقرر تنفيذ العمليات التالية في عام ١٩٢١: الجبهة السلبية ستشمل: الجبهة الشمالية حيث سنعزز المواقع التي حصلنا عليها من احتلال وزان، مع تجنب التدخل قدر الإمكان عسكرياً تتحول الجبهة الشمالية من بداية العام إلى جبهة نشطة، والأحداث التي تجري هناك كانت لها أصول متعددة. بقيادة ماهرة من الجنرال بويميراو، أدت العمليات التي جرت العام الماضي إلى استسلام جميع قبائل جباله المحيطة بوزان. وقد طلبوا الأمان بالأشكال التقليدية...، لكن نادراً ما كان المغاربة ينجحون في الوفاء بيمينهم: لم يكن من الممكن أن يخطر ببال المنتصر أنه ستكون هناك خيانة هذه المرة. الآن في فبراير، ثارت جباله، وكانت المعارك التي كان لابد من خوضها لاستعادة الوضع مفاجئة إلى حد ما...، ضربت الشرارة بني مستارة، الذين كانوا أول من ثار، مما أدى إلى انشقاق بني مزكيدة. في ١٥ فبراير، تم إغلاق موقع إيسوال. في ٢ مارس، حاصره عدة آلاف من المتمردين. تم دفعهم للخلف بعد خمس ساعات من القتال المميت الذي وصل إلى حد القتال اليدوي في شبكات التحصينات. كانت هناك حاجة إلى أربعة أشهر من العمليات التي سيتعين على جنود بويميراو خلالها التعامل مع عدو هائل يعرف كيفية استخدام التلال، والوديان وحفر الخنادق وتطويقها. في ٢٥ أبريل، في فيلاكين، وجهت معركة استمرت سبع ساعات ضربة حاسمة للعدو. ثم تم تعزيز تسليم وزان".^(٢٢)

ذكرى هذه المرحلة من التاريخ المغربي بإرسال البرقية التالية إلى المارشال ليوطي: "بعد ظهر أمس، دخلنا إلى مدينتنا وزان، حيث حظي جلالتنا باستقبال غير مسبوق، نود أن نتقدم بالشكر الجزيل للقيادة التي لم تدخر جهداً للحفاظ على طابع وأهمية حدث هام في تاريخ المغرب، بقدر ما كان تكريس حضورنا الشريف لإحلال السلام في هذا الجزء من إمبراطوريتنا. إنه لمن دواعي سرورنا أن نعرب هنا للجنرال بويميراو عن إعجابنا بالعمل الذي أنجزته قواته، التي يقاتل في صفوفها الفرنسيون والمغاربة جنباً إلى جنب، دون تردد، في بلدٍ صعب كهذا، والذين اكتسبوا حقوقاً خالدة في تقدير جلالتنا وشعبنا. نرجو من فخامتكم أن تثقوا بمشاعر صداقتنا الصادقة... مولاي يوسف"^(٢٠)

لكن على ما يبدو أن فرنسا لم يهدأ لها البال، ولم تنعم براحة طويلة حتى بعد دخولها للمدينة، إذ يظهر لنا أن سرعان ما كان عليها مواجهة من جديد مناوشات القبائل الجبلية المحيطة بها والتي استمرت في مقاومة القوات الاستعمارية.

فريكارد بروسبير في كتابه السالف الذكر وهو يسرد لنا دخول القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بويميراو إلى المدينة في ٢ أكتوبر ١٩٢٠م، يتابع حديثه فيؤكد لنا: "ومن هناك، عملوا على تهدئة قبائل جباله التي ظلت عصية على الحل حتى ذلك الحين: بني مستارة، وبني مزكيدة، وسطة، وغزاوة، ورهونة، والتي يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠٠ ألف نسمة، ولكنها خاضعة منذ عام ١٩٢٦.^(٢١) وبالتالي نستخلص أن الدخول الفرنسي للمدينة الذي تم بعد مواجهة القبائل الجبلية التي شكلت مانعا قويا أمام تحقيق هذا المبتغى، لم يكن يعني القضاء نهائياً عليها، والحد من مقاومتها، وإنما كان فقط ما يمكن أن نسميه هدوء مؤقت في صراع القوات العسكرية الفرنسية ببرجال المقاومة الجبلية في هذه الفترة، فالملاحظ أن الاشتباكات سوف تستأنف بين الطرفين، لكن هذه المرة بمعطى جديد يتمثل في كون قوات فرنسا سوف تخوض صراعاً ضد المقاومة الجبلية وهي محتلة للمدينة بصفة رسمية.

خاتمة

معارك جديدة هذه المرة من داخل المدينة بغرض تعزيز الاحتلال النهائي للمدينة.

مجمل القول، فقد حاولنا جهد المستطاع أن نجيب على الإشكالية التي طرحناها من خلال ما هو متاح، ولا ندعي أننا أحطنا بالموضوع من كل جوانبه، وأعطينا لكل العناصر حقها لقلّة المادة المصدرية، ولطبيعة الموضوع الذي اشتغلنا عليه. ومع ذلك، فإن هذه الدراسة يمكن اعتبارها قاعدة أولية لأبحاث أخرى أوسع وأشمل عن تاريخ مدينة وزان، كأعمال المقاومة والحركة الوطنية.

يكتسي موضوع "حيثيات الدخول الفرنسي للمدن المغربية واحتلالها خلال فترة الحماية: مدينة وزان أنموذجاً في سنة ١٩٢٠م"، أهمية بالغة نظراً لشح الدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ هذه المدينة خلال فترة الحماية، على الرغم من وجود رصيد وثائقي هام ودراسات أجنبية عديدة، كانت بحاجة إلى من ينقب ويميط اللثام عنها، لما تحتويه من معطيات غزيرة وغاية في الأهمية لفهم طبيعة التحولات التي شهدتها المدينة خلال الفترة التي تعرض فيها المغرب للحماية الفرنسية خاصة على المستوى السياسي والعسكري.

نستخلص إذن أن مدينة وزان في إطار تقسيم النفوذ الذي تعرض له المغرب خلال فترة الحماية ما بين الدول التي شاركت في احتلاله كانت تابعة للاحتلال الفرنسي، وهي المدينة التي تأخر احتلالها والدخول إليها بشكل نهائي حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى وتحديدًا في أكتوبر ١٩٢٠م، وذلك بسبب انشغال فرنسا منذ ١٩١٤م بمجريات الحرب العالمية آنذاك والتي كانت طرفاً فيها، ولم يكن احتلال المدينة بالشيء السهل على قوات الاحتلال الفرنسي، فهذه الأخيرة واجهت مقاومة شرسة من طرف مختلف القبائل المحيطة بالمدينة سواء من الغرب أو من الشمال الشرقي، تطلب الحصول على المدينة تجاوز كل هذه القبائل في معارك تعترف فيها الكتابات الفرنسية ذاتها أنها تطلبت معدات وتجهيزات مادية وبشرية ضخمة، كما أنها خسرت الشيء الكثير خاصة على المستوى البشري، وبعد أن تم الدخول لقيت ترحيباً رسمياً ومباشراً من طرف الزاوية الوزانية، بل ولم تتلقى قوات الاستعمار أي مقاومة تذكر داخل المدينة فهذه الأخيرة بادرت بعد فقدان المخزن لهيبته للبحث عن تعويض لسلطته، ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو، ورغم أن فرنسا دخلت إلى المدينة بشكل رسمي في أكتوبر ١٩٢٠م، إلا أن ذلك لم يكن يعني القضاء نهائياً على القبائل المحيطة بالمدينة، فقد اضطرت السلطات الاستعمارية لخوض

الإحالات المرجعية:

(21) Ricard Prosper, "Maroc", op.cit, p. 267.

(22) Rojer Homo, "La Pacification du Maroc", op. cit, p. 166 – 167 .

(١) امحمد جبرون، "تاريخ المغرب المعاصر (١٩١٢ – ١٩٩٩) من الحماية إلى وفاة الملك الحسن الثاني"، دار الإحياء للنشر والتوزيع، طنجة، الطبعة الثانية، ٢٣. ٢٠م، ص ١٥.

(٢) امحمد جبرون، "تاريخ المغرب المعاصر (١٩١٢ – ١٩٩٩) من الحماية إلى وفاة الملك الحسن الثاني"، المرجع نفسه، ص ٢٢ و ٢٣.

(٣) امحمد جبرون، "تاريخ المغرب المعاصر (١٩١٢ – ١٩٩٩) ..."، المرجع نفسه، ص ٢٦ و ٢٧.

(4) Anonyme, " Les Armées Françaises dans la Grande Guerre", France. Etat-Major des Armées, Tome 9 ,Imprimerie National, Paris, 1930 – 1939, p 161 / <https://gallica.bnf.fr>

(5) Ibid, P. 161 – 162.

(6) Anonyme, "La Renaissance du Maroc : dix ans de protectorat, 1912 – 1922", Résidence Générale de la République Française au Maroc, Rabat, 1922, P 1 / <https://gallica.bnf.fr> .

(7) Rojer Homo, "La Pacification du Maroc", un article dans un livre " La Renaissance du Maroc : dix ans de protectorat, 1912 – 1922", Résidence Générale de la République Française au Maroc, Rabat, 1922, p 164 – 165 / <https://gallica.bnf.fr> .

(8) Réginald Kann, " Le Protectorat Marocain " , Berger-Levrault, Nancy, 1921, p 7 – 8 / <https://gallica.bnf.fr> .

(9) Ibid, P. 27.

(10) Anonyme, "La vie politique est-ce l'heure d'occuper de nouveaux territoires au Maroc ", la Démocratie, N°61, 10 Octobre 1920, Page 8 / <https://gallica.bnf.fr> .

(11) Ricard Prosper, "Maroc", 5eme édition, Hachette, Paris, 1936, p 5 / <https://gallica.bnf.fr> .

(12) Ibid, P. 267.

(13) Anonyme, "Occupation d'Ouezzane", l'Afrique Française Bulletin Mensuel du Comité de l'Afrique Française et du comité du Maroc, Trentième Année N°1, Comité de l'Afrique Française, Paris, 1920, 269 – 271 – 272 .

(14) Louis Cros, " Le Maroc pour Tous ", Albin Michel, Paris, 1926 , p 1 / <https://gallica.bnf.fr> .

(15) Ibid, P. ٢٣.

(١٦) قاسم الحادك، "الزوايا والطرق الصوفية في المغرب العلاقة مع المخزن والمستعمر"، دورية كان التاريخية، العدد ٢٦، دجنبر ٢٠١٤ م، ص ٨٦.

(17) Anonyme, "le Général Lyautey à Ouezzane", Nîmes – Soir, N° 321, 9 Octobre 1920, Page 2 / <https://gallica.bnf.fr> .

(18) Anonyme, " Occupation d'Ouezzane", op. cit, Page 272.

(19) Jhon Célérier, " L'année Géographique au Maroc ", Hésperis, Tome 1, Paris, 1921, p 448 / <https://gallica.bnf.fr> .

(20) Anonyme, " Le Sultan à Ouezzane", Akhbar, N° 13902, 23 Août 1921, Page 2 / <https://gallica.bnf.fr> .

منبر فرنسي لقراءة التاريخ المغربي

جريدة السعادة تحت المجهر

سليم الملوغ

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة
جامعة شعيب الدكالي - المملكة المغربية



ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الأساسي للوثائق التاريخية في عملية كتابة وتدوين الأحداث في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية...، فهي المصدر الوحيد للمعلومات عند الباحث بصفة عامة والمؤرخ على وجه الخصوص وذلك من أجل بناء الماضي البشري على أسس وقواعد علمية دقيقة، ومما لا شك فيه أن الوثيقة التاريخية هي الدليل الشاهد على الشخصية الحضارية لأمة من الأمم، وإلا كان التاريخ مجرد سرد للأحداث عن طريق الروايات المتوافرة والتخمينات، فالوثيقة هي الأثر المادي الذي تركه الفعل الإنساني في الماضي، فبدون وثائق تبقى حقب عريضة من الماضي مجهولة ومبهمه وغير معروفة. ومن هذا المنطلق تبرز أهمية "جريدة السعادة" باعتبارها وثيقة مكتوبة تعكس مرحلة مهمة من تاريخ المغرب وهي فترة الاستعمار الفرنسي، بحيث تمثل مرجعاً خصباً لفهم الميكانيزمات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي عرفها المغرب خلال فترة الحماية. ومما لا شك فيه أن الصحافة تعد واحدة من بين أهم مصادر تدوين البحث التاريخي، إذ هي سجل حي ومادة خصبة يرجع إليها الباحثون والدارسون والمهتمون فيما يخص الأحداث اليومية سواء منها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية؛ فالتاريخ والصحافة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، وزاد من هذا الارتباط عندما انفتح التاريخ على أساليب ومناهج جديدة للكتابة التاريخية، بعيدة كل البعد عن التاريخ التقليدي الحداثي الذي يركز وينبني على الأحداث الكبرى السياسية فقط، فالصحافة بكل أنواعها المختلفة إلى جانب مجموعة من المصادر البديلة والمتمثلة أساساً فيما أسماه المؤرخ المغربي محمد المنوني بالمصادر الدفينة، والتي تشمل كتب النوازل الفقهية والفتاوي وكتب الحسبة والأمثال الشعبية والمخطوطات، بالإضافة إلى كتب الرحلات والطبقات والتراجم والأعلام، فهي كلها مصادر ومراجع تسهم بنفس الحجم في إيجاد حل لمشكلات التأريخ والتدوين التاريخي.

كلمات مفتاحية:

الصحافة والتاريخ؛ جريدة السعادة؛ التاريخ المغربي؛ الوثائق التاريخية؛
التاريخ المغربي المعاصر

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٣١ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.427447.1283

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سليم الملوغ، "منبر فرنسي لقراءة التاريخ المغربي: جريدة السعادة تحت المجهر"، دورية كان التاريخية - السنة التاسعة عشرة - العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦، ص ١٧٤ - ١٨٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: elmouloue2020@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدُّ الوثيقة التاريخية لبنة أساسية في عملية كتابة وتدوين الأحداث في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية... فهي المصدر الوحيد للمعلومات عند الباحث بصفة عامة والمؤرخ على وجه الخصوص وذلك من أجل بناء الماضي البشري على أسس وقواعد علمية دقيقة، ومما لا شك فيه أن الوثيقة التاريخية هي الدليل الشاهد على الشخصية الحضارية لأمة من الأمم، وإلا كان التاريخ مجرد سرد للأحداث عن طريق الروايات المتوافرة والتخمينات، فالوثيقة هي الأثر المادي الذي تركه الفعل الإنساني في الماضي، فبدون وثائق تبقى حقبة عريضة من الماضي مجهولة ومبهمة وغير معروفة. ومن هذا المنطلق تبرز أهمية "جريدة السعادة" باعتبارها وثيقة مكتوبة تعكس مرحلة مهمة من تاريخ المغرب وهي فترة الاستعمار الفرنسي، بحيث تمثل مرجعاً خصباً لفهم الميكانيزمات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية... التي عرفها المغرب خلال فترة الحماية.

ومما لا شك فيه أن الصحافة تُعَدُّ واحدة من بين أهم مصادر تدوين البحث التاريخي، إذ هي سجل حي ومادة خصبة يرجع إليها الباحثون والدارسون والمهتمون فيما يخص الأحداث اليومية سواءً منها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية...؛ فالتاريخ والصحافة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، وزاد من هذا الارتباط عندما انفتح التاريخ على أساليب ومناهج جديدة للكتابة التاريخية، بعيدة كل البعد عن التاريخ التقليدي الحداثي الذي يركز وينبني على الأحداث الكبرى السياسية فقط، فالصحافة بكل أنواعها المختلفة إلى جانب مجموعة من المصادر البديلة والمتمثلة أساساً فيما أسماه المؤرخ المغربي محمد المنوني بالمصادر الدفينة⁽¹⁾، والتي تشمل كتب النوازل الفقهية والفتاوي وكتب الحسبة والأمثال الشعبية والمخطوطات، بالإضافة إلى كتب الرحلات والطبقات والتراجم والأعلام...، فهي كلها مصادر ومراجع تُسهم بنفس الحجم في إيجاد حل لمشكلات التأريخ والكتابة التاريخية والتي أعطت إضافة نوعية للمؤرخ من أجل رصد "تييمات" جديدة غير متوفرة

في المصادر الكلاسيكية للتاريخ. وبهذا، صارت الصحافة إلى جانب هذه المصادر الدفينة، رافداً أساسياً يثري المعرفة التاريخية ويجعلها أكثر شمولية ورسوخاً. ومن جهة أخرى، فإن الدول التي لم تعرف صحافة في وقت مبكر، أو تأخرت في ظهورها لأسباب متعددة، تجهل جزءاً مهماً من تاريخها في مختلف المجالات، وبالتالي يصبح المؤرخ في حيرة من أمره بسبب عدم توفره على إحصائيات وأرقام وجداول وبيانات خاصة بفترة معينة، إضافة إلى المعلومات الثقافية وبعض المعطيات الاجتماعية والسياسية والدينية، التي كان بإمكان أن تغطي عدة فراغات وبياضات وقضايا جديرة بالاهتمام، ومن هنا قد يلجأ المؤرخون للصحافة الأجنبية لسد هذه البياضات والثغرات في التاريخ.

وحتى لا يخفى على الجميع، رغم أن الحقبة المعاصرة تزخر بكم لا بأس به من المادة المصدرة للاضطلاع على تاريخ المغرب، إلا أنها لازالت تعرف كثيراً من الالتباس والغموض، ويُعزى هذا الأمر في بعض الأحيان إلى عدم توسيع دائرة الوثائق والمصادر المعتمدة. وكما هو معلوم، فإن الصحافة، باختلاف توجهاتها ولغاتها تشكل مصدراً غزيراً بالمعطيات والمعلومات والأخبار، تتضافر بذلك إلى المصادر الجديدة التي تزود المؤرخ بأحداث ووقائع يومية، قد لا يصادفها في المصادر التقليدية للتاريخ، مثل السجلات والمعاهدات والمراسلات الدبلوماسية إضافة إلى القصص الشعبية والأساطير.

ويستوقفنا المقام في هذا الباب أن "جريدة السعادة" تُعَدُّ مصدراً ومورداً علمياً ثميناً، ينبغي استغلاله والاستفادة منه على أكمل وجه، والإبحار كذلك في زاد المعلومات التي توفره. ومن هذا المنطلق، حاولنا في هذا المقال إلى تناول الملابس التاريخية لنشأة "جريدة السعادة" والتعريف بها، حيث تأسست سنة ١٩٠٤م، وانقطع إصدارها بعد حصول المغرب على استقلاله، إذ صدر العدد الأخير منها ٩٨٦٤ يوم ٢٧ دجنبر ١٩٥٦م، وقد مرت الجريدة بمرحلتين رئيسيتين، كما سنتطرق كذلك إلى أهم المواضيع و"التييمات" التي تناولتها، بالإضافة خلفيتها السياسية والأيدولوجية.

أولاً: الملاحظات التاريخية لنشأة جريدة السعادة

والمستكشف الفرنسي فرانسيس غارنييه (Francis Garnier) "إن هذه الأمة السخية صاحبة الأفكار التي غزت العالم قد كلفتها القدرة الإلهية بمهمة أسمى، وهي عتق أجناس مازالت خاضعة للجهل والاستبداد وإيصالها إلى النور والحرية..."^(٢). وقد نشرت "جريدة السعادة" هذه الأفكار وسط النخبة المثقفة المغربية التي كانت تتلهف بشغف وحب كبيرين لقراءة الأخبار الصادرة في الجرائد المستوردة من المشرق العربي والتي لم تتماش مع مصالح فرنسا الامبريالية.

فالمشروع الفرنسي، منذ البداية، سعى إلى استمالة القراء المغاربة وشحنهم بالوعود، مع إضفاء الصبغة العربية الإسلامية على "جريدة السعادة". وقد تم ذلك بتوظيف أقلام أدباء وشعراء ومثقفين مشاركة، مثل قلم الشامي الماروني وديع كرم^(٣) والشيخ ياكب، للكتابة بأسلوب أدبي رصين ومتميز، بهدف تمرير المشروع الفرنسي على أعمدة الجريدة.

وكانت من بين المواضيع التي اهتمت بها "جريدة السعادة" مواضيع تخص الرحلات الحجازية، حيث قامت الجريدة بتشجيع المثقفين الحجاج المغاربة على نشر رحلاتهم الحجازية على أعمدها، وقد بدأت ذلك برحلة أحمد بن محمد الصبيحي السلوي سنة (١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م)، "الرحلة المغربية المكية"، تلتها رحلة إدريس بن محمد بن إدريس الجعدي السلوي "الرحلة الحجازية" سنة (١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠م)، ثم رحلة أبي بكر بن عبد الله عواد السلوي، سنة (١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢م)، وكانت "جريدة السعادة" تنشر هذه المواضيع ذات الطابع الديني خدمة لمصالحها الإعلامية والسياسية، وتعزيزاً لإشعاعها وسط القراء، إذ عمدت إلى تناول هذا الموضوع الروحي الذي يمس مشاعر المغاربة الدينية بعمق وحب كبيرين.

وفي هذا الصدد يمكن إضافة رحلة حجازية أخرى، بدأ صاحبها الحاج أحمد معنيو السلوي بكتابة العدد الأول في "جريدة السعادة"^(٤)، لما وصل إلى مدينة مرسيليا، لكنه توقف عن مواصلة كتابة باقي الأعداد، بعد وصوله إلى مدينة الإسكندرية للوقائع والأحداث التالية نذكرها كما ذكرها الحاج أحمد معنيو في مذكراته: "... الدافع لنشر هذه الكلمة هو اللبناني

عرف المغرب منذ مطلع القرن العشرين ظهور الصحافة الأوروبية، التي جاءت لخدمة المصالح السياسية والدبلوماسية للأوروبيين في البلاد، فقد كانت الصحافة الأوروبية شريكاً رئيسياً للإقامة العامة الفرنسية، إذ وجدت في أعمدها مجالاً خصباً للقيام بالدعاية لسياساتها وتمرير مخططاتها الاستعمارية، إضافة إلى برامجها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية.

وفي هذا السياق، ومنذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك عندما احتدم الصراع الإمبريالي حول المغرب، إذ توج هذا الصراع الإمبريالي بعدة اتفاقيات ومؤتمرات، ومنها الاتفاق الفرنسي - البريطاني حول المغرب ومصر سنة ١٩٠٤م، وقد تنازلت في هذا الاتفاق فرنسا لبريطانيا عن مصر في المقابل تنازلت بريطانيا لفرنسا عن المغرب.

وفي خضم هذه الأحداث التاريخية أقدمت المفوضية الفرنسية بمدينة طنجة في السنة ١٩٠٤م على تأسيس جريدة فرنسية ذات إصدار عربي، من أجل خدمة مصالحها السياسية والدبلوماسية، وكذا وسيلة من وسائل ما كان يسمى آنذاك بالتغلغل الاستعماري، وقد اختير لهذا الجريدة اسم "السعادة" تيمناً بإدخال السعادة على المغاربة الذي كانوا يعيشون تحت وطأة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية، إضافة إلى العديد من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية... وقد صدرت هذه الجريدة بإشراف وتمويل فرنسي، إذ كانت تهدف إلى تقديم الأخبار والتوجيهات الرسمية، بالإضافة إلى نشر خطاب دعائي يعكس مصالح الاستعمار الفرنسي في المغرب.

وتُعدّ "جريدة السعادة" المنبر الإعلامي الأجنبي الوحيد المكتوب باللغة العربية والناقل لآراء ومواقف فرنسا الغازية الاستعمارية في مطلع القرن العشرين، وقد ارتكز خطها التحريري الرئيسي على التعريف بمزايا فرنسا الحضارية الحاملة للقيم التنويرية باعتبارها رمزا للتقدم والنور والحرية، وفي هذا الصدد يقول الضابط

وقد دونت "جريدة السعادة" بالحرف عن نفسها: "أنها ظهرت في المغرب والإيالة خالية من الصحف العربية والفوضى ضاربة أطنابها، والفتنة منتشرة بين الخلق، والدوائر مرتبكة الأحوال وجو السياسة مكفهر....، وصرخت صرختها بين زعماء الفتنة، ودافعت عن المخزن تجاه العصاة وسألت الحكومة الرفق بالشعب وقيام قسطاط العدل"^(٨). وفي هذا الصدد يقول السوسيولوجي والأنثروبولوجي الفرنسي إدمون دوتي Douthé Edmond : "الآن بالإمكان أن نحاول نشر جريدة بطنجة تكون شبه رسمية وفي مظهرها مستقلة، يتكلف بتحريرها بعربية سليمة كتاب مغاربة أكفاء، وتكون مسيرة بمهارة من طرفنا"^(٩)، وقد أخذ مسؤولو المفوضية الفرنسية بطنجة هذه الفكرة على محمل الجد، عندما أدركوا أن الحاجة أصبحت ملحة في "إيجاد جريدة عربية تعوض القراء المغاربة عن تلهفهم إلى الصحافة العربية المشرقية، التي كانت غالبا ما تتضمن أخبارا وتعليق لا تتماشى مع المصالح الفرنسية في منطقة شمال إفريقيا عامة والمغرب على وجه الخصوص"^(١٠). كما اقتنعوا "بأن الظروف الداخلية والخارجية كانت كفيلة بضمان نجاح المشروع لدى القراء، فعلى الصعيد الداخلي كان الناس يتشوقون إلى معرفة تطورات حركة الجيلالي الزرهوني الروكي المعروف ببوحمارة، وعلى الصعيد الخارجي كان من المتوقع أن تشكل الحرب الروسية - اليابانية مادة تستقطب اهتمام النخبة المغربية"^(١١).

وبعد توقيع عقد الحماية الفرنسية يوم السبت ٣٠ مارس ١٩١٢م، قرر المقيم العام المارشال هوبير ليوطي^(١٢) نقل مركز إدارة "جريدة السعادة" إلى مدينة الرباط، بشارع دلکاسي عمارة لسكوني، في أكتوبر من سنة ١٩١٣م. وأصبحت الجريدة منبرا إعلاميا رسميا ينشر الأفكار الفرنسية بين المغاربة، كما كانت تصدر خطاباتها بعناية كبيرة وذلك من أجل تسويق الفكر الفرنسي بالمغرب، الذي كان يزين غزوه لدى نخبته من مثقفين وعلماء ورجال المخزن المغربي، ونقل أخبار الدولة الفرنسية إلى المغاربة والمقيمين الفرنسيين في المغرب، ومحاولة البحث عن الأسس المشتركة بين المغرب وفرنسا تاريخيا، وقد وصلت نسخ الجريدة إلى جميع

المسيحي الشيخ ياكب، الذي يسهر على تحرير "جريدة السعادة"، وقد عرفني به في الباخرة توفيق الخياط أستاذ مادة اللغة العربية بثانوية مولاي يوسف بالرباط....، نعم تلقيت عنه شبه دروس في التاريخ والعلوم والمدنيات والديانات السماوية ونحن نمخر سواحل البحر الأبيض المتوسط....، ولما بلغنا ميناء الإسكندرية اتصل بنا بعض المهاجرين اللبنانيين المستقرين بالإسكندرية، الذين فروا من ضيق الاستعمار الفرنسي، وعلى حسن نيتي بادرت بتقديم الشيخ ياكب... أخاكم في الوطن محرر "جريدة السعادة" بالمغرب ورفيقي في السفر... فصاح في وجهي أحدهم من قال لك بأنه أخي؟ إنه خائن لبلاده وعون للمستعمر، ونحن نناهضه ونحاربه... اكفهر الجو وندمت على ما فرط مني....، منذ ذلك الوقت غاب وجه الرفيق المخدوش، ولم يجد وجهاً لمقابلتي بعد...^(١٣). وبالتالي لم يكمل الحاج أحمد معنيو فصول وأعداد هذه الرحلة.

ثانياً: جريدة السعادة (تعريف ومجال العمل)

"جريدة السعادة" هي جريدة سياسية، أدبية، اقتصادية، فلاحية، إخبارية، مصورة، تم تأسيسها بمدينة طنجة في ٧ نونبر من سنة ١٩٠٤م^(١٤)، وهي جريدة أسبوعية كانت تصدر باللغة العربية، وطبعت أول مرة بمقر المفوضية الفرنسية بمدينة طنجة، حيث وصل عدد ما طبعته الجريدة في سنتها الأولى إلى حوالي ١٠٠ نسخة، وبعد سنة بالضبط أي سنة ١٩٠٥ ارتفع عدد ما طبعه إلى ٥٠٠ نسخة، وفي السنة الثالثة تجاوزت عدد النسخ إلى ٨٠٠ نسخة. وبعد مؤتمر الجزيرة الخضراء (الخزيرات) بتاريخ ٧ أبريل ١٩٠٦م، أصبحت تصدر بانتظام مرتين في الأسبوع، كما صدرت كذلك ثلاث مرات في الأسبوع وفي بعض الأحيان كانت تصدر بشكل يومي، وإبان الحرب العالمية الثانية صدرت يومين في صفحتين^(١٥)، وهكذا، وبذلك ارتفع عدد النسخ بشكل كبير، وتنوعت موضوعاتها لتشمل السياسة، الأدب، الاقتصاد، الفلاحة، والأخبار المختلفة.

دجنبر من سنة ١٩٥٦، ومن العدد ٦٣٦ إلى العدد ٩٨٦٤^(١٧)، حيث أصبحت منبراً إعلامياً رسمياً ينشر الأفكار الفرنسية، ويصل إلى جميع المدن المغربية، مع استمرار دعم الإقامة العامة الفرنسية لها مالياً وبشرياً.

ثالثاً: مواضيع و"تييمات" جريدة السعادة

اعتبرت "جريدة السعادة" منذ بدايات صدورها المنبر الرسمي للحماية الفرنسية بالمغرب، وعملت من خلالها على إصدار كل ما يهمها من مقالات في مختلف الميادين والمجالات، وذلك من أجل ترويج أطروحاتها الاستعمارية، وسط المغاربة وقياس ميولاتهم السياسية ومواقفهم الدينية، وحرصت الإدارة الاستعمارية بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢م، على منع المغاربة من إصدار جرائد وطنية بصفة عامة، وضيق الخناق بشكل خاص على الصحف الصادرة باللغة العربية، مُفرضةً بذلك قيوداً مشددة على حرية نشر الصحف بالنسبة للمغاربة لكي تظل "جريدة السعادة" المنبر الإعلامي الوحيد الناطق باللغة العربية الذي يخاطب شرائح واسعة من المواطنين. وقد حاول بعض المثقفين والوطنيين المغاربة التحايل على هذه القيود عبر إصدار بعض الجرائد باللغة الفرنسية، غير أن سلطات الحماية الفرنسية كانت تتدخل بشكل مُمنهج لمنعهم، بحجة عدم حملهم للجنسية الفرنسية أو انعدام صفة "الفرنسية" فيهم، وهو ما يكشف الطابع الإقصائي لسياسة الاستعمار التي هدفت إلى مصادرة حرية التعبير عند المغاربة، مقابل فتح المجال أمام جريدتها الرسمية للقيام بدور الوسيط الإعلامي المهيمن.

١/٣- أزمة طنجة ١٩٠٥م (خطاب الانتصار

الدبلوماسي الفرنسي)

من بين المواضيع البارزة التي تطرقت إليها صحيفة السعادة "أزمة طنجة سنة ١٩٠٥م" التي شكّلت محطة أساسية في تاريخ التنافس الإمبريالي حول المغرب. فقد علقت الصحيفة على هذا الحدث بقولها "لا شك أن هاته الاتفاقية الفرنسية الألمانية قد كشفت قناع المسألة المغربية وأزالته جميع العقبات التي كانت سابقاً في وجه الدولة الفرنسية حيث تحصلت بحسن سياسة وزير خارجيتها وخبرته بالأمور الحكومية على اعتراف

المدن المغربية، إذ وفر لها المارشال ليوطي كل أشكال الدعم المالي بالإضافة إلى الموارد البشرية المؤهلة والمؤطرة في المجال الصحفي.

كما انطلق مسؤولون "جريدة السعادة" في إغراء الأدباء والشعراء المغاربة وكذلك الشباب الذين أصبحت لهم تجربة وخبرة كبيرتين في الكتابة، للانخراط في هذه الصحيفة الفرنسية، وكانت الجريدة تتابع أيضاً الأحداث في كل من تونس والجزائر مسلطة الضوء إنجازات فرنسا فهذين البلدين في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لتعزيز صورة الاستعمار الفرنسي أمام القراء المغاربة.

وأنيطت مهمة الإشراف على إدارة "جريدة السعادة" للمستعرب الفرنسي "أوجين ماركو" المسؤول عن الإعلام والأخبار في الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، وقد عهد ماركو بمسؤولية إدارة الجريدة إلى شخص جزائري يدعى مولاي إدريس بن محمد الخبزاوي^(١٣)، بمساعدة وديع كرم اللباني الذي كان يعمل بالسفارة الفرنسية بطنجة^(١٤). وكان "أوجين ماركو" يوجه الكتاب والمدونين بالجريدة للتحري عن صحة الأقوال والصدق والدقة في الكتابة والمقال، والالتزام بسياسة الاعتدال^(١٥). ونتيجة لذلك، أصبحت "جريدة السعادة" تصدر أعمدتها بتلميع صورة فرنسا أمام القراء المغاربة باعتبارها منارة النور والحرية والحضارة الفرنسية والتجديد الأوروبي، ووسيلة لتعق المغاربة من الجهل والاستبداد^(١٦).

وجدير بالذكر في هذا السياق أن "جريدة السعادة" عاشت في حياتها حوالي ٥٢ سنة، ومرت بمرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: (بمدينة طنجة، من نونبر ١٩٠٤ إلى أكتوبر ١٩١٣) وهي الفترة التي صدرت فيها الجريدة بمدينة طنجة من نونبر ١٩٠٤ إلى أكتوبر ١٩١٣، من العدد الأول إلى العدد ٦٣٦، واستمرت حوالي ٩ سنوات في مدينة طنجة، حيث تأسست وأصبحت المنبر الإعلامي الفرنسي الصادر باللغة العربية الأول في المغرب.

المرحلة الثانية: (بمدينة الرباط، من أكتوبر ١٩١٣ إلى دجنبر ١٩٥٦) وهي المدة التي عاشتها هذه الصحيفة بمدينة الرباط من سنة ١٩١٣، إلى يوم الخميس ٢٧

تمرده على الأعراف السياسية والدينية التي كانت تحكم علاقة السلطان بالعرية.

هذا الموقف لا ينفصل عن خلفية الجريدة ووظيفتها كممبر إعلامي ناطق باسم المصالح الفرنسية بالمغرب، فقد كان السلطان المولى عبد العزيز - رغم ما عرف به من ضعف داخلي وتراجع سلطته - فقد كانت له علاقات جيدة مع القوى الأجنبية، وخاصة فرنسا، مقارنة بأخيه المولى عبد الحفيظ الذي عرف بميله إلى التيار المناهض للوجود الأجنبي وسعيه لاستثمار الحس الوطني والديني لرفض التغلغل الأوروبي. ومن ثم فإن انحياز السعادة إلى السلطان المولى عبد العزيز لم يكن مجرد اختيار صحفي محايد، بل كان تعبيراً عن توجه سياسي يخدم مشروع فرنسا في المغرب، ويسعى إلى إبقاء السلطان الأقرب إلى مصالحها في موقع الحكم.

٣/٣- استهداف رموز المقاومة (الشيخ ماء العينين أنموذجاً)

لم تتوقف "جريدة السعادة" عند حدود الصراع بين السلطان المولى عبد العزيز وأخيه المولى عبد الحفيظ، بل وجهت سهامها الإعلامية أيضاً نحو رموز المقاومة المغربية، وعلى رأسهم الشيخ ماء العينين، الذي كان يمثل إحدى أهم الشخصيات الدينية والسياسية المناهضة للتغلغل الاستعماري في الجنوب المغربي، فقد شنت عليه حملة إعلامية شرسة استهدفت مكانته، وصلت حدتها إلى درجة التشكيك في عقيدته وفي وطنيته، ففي أحد مقالاتها كتبت "لهذا الرجل كل يوم حكاية، تضحك السفاء منها ويبكي من عواقبها الحكيم" (٢٠) وللشيخ "في سياسة المغرب خطة مبتكرة، وآداب مستكرة، فذنوبه مغفورة، وعيوبه مستورة، وقوله فعل الخطاب ورضاه الثواب، ونقمته العذاب، وتهديده عقاب، وسكوته جواب، فهو يلعب بالألباب لعب الصبية بالإكراه، ضارباً زيدا بعمر غير مبال بما كتم ولا بما ظهر، كأنه ينظم سياسة القصايد... مؤخراً المبتدأ عن الخبر أو حاذفاً المبتدأ ومكشف عن خبره بما أنكر" (٢١).

وأضافت السعادة: "ومن المشهور أن الشيخ ماء العينين يتبع الطريقة القادرية ويبالغ في التعبد والتقشف، وقد زعم أخيراً أنه وصل إلى مرتبة الأولياء

دولة الألمان بجميع حقوقها في المغرب ومما يتعلق به كالمعاهدات العتيقة" (١٨).

إن هذا المقتطف الصحفي يكشف بوضوح عن طبيعة الخطاب الذي كانت تعتمد الجريدة، باعتبارها لسان حال السلطة الاستعمارية الفرنسية بالمغرب. فهي تقدم الأزمة في صيغة تُظهر فرنسا باعتبارها الطرف المنتصر دبلوماسياً، مبرزةً حنكة وزير خارجيتها في تدبير الملف المغربي، في حين اعتبرت أن ألمانيا قد تراجعت وقبلت بالاعتراف بـ "جميع حقوق فرنسا في المغرب". ومن خلال هذا التوصيف، يتضح أن الصحيفة تبني منطق القوة، واعتبرت أن ما تم التوصل إليه يمثل إزالة لكل العقبات التي تحول دون بسط النفوذ الفرنسي على التراب المغربي.

ويلاحظ أيضاً أن خطاب "جريدة السعادة" لم يترك مجالاً لوجهة النظر المغربية، إذ لم يُشر إلى موقف السلطان عبد العزيز أو ردود فعل النخبة المغربية إزاء هذه الأزمة التي كانت تهدد السيادة الوطنية. بل على العكس من ذلك، انحصر اهتمامها في تصوير الاتفاق الفرنسي - الألماني باعتباره لحظة حاسمة لتثبيت حقوق فرنسا التاريخية في المغرب، مستندةً في ذلك إلى ما سمته "المعاهدات العتيقة"، ويعكس هذا الاستعمال المتكرر للمفاهيم ذات الحمولة القانونية والدبلوماسية (حقوق، معاهدات، اعتراف، سياسة حكيمة...) محاولة الصحيفة إضفاء الشرعية على الأطماع الفرنسية، وإقناع الرأي العام القارئ بوجاهة الموقف الفرنسي.

٢/٣- الصراع السلطاني بين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ

ساندت "جريدة السعادة" السلطان المولى عبد العزيز في صراعه السياسي مع أخيه المولى عبد الحفيظ، وذلك حينما اشتدت الأزمة بينهم حول الحكم ما بين سنتي ١٩٠٧م و١٩٠٨م، فقد اتخذت الجريدة موقفاً صريحاً برفضها "البيعة الحفيظية المشروطة"، معتبرةً إياها خروجاً عن الشرعية التقليدية التي تميز نظام الحكم المغربي، وفي هذا السياق استمرت السعادة في شن حملة إعلامية قوية ضد المولى عبد الحفيظ (١٩)، ركزت فيها على إبراز عجزه عن تدبير شؤون البلاد وإظهار

لذلك، الدولة الفرنسية المذكورة، ففرضت الحج على عدد باهر من المغرب الأقصى والجزائر وتونس، تحت نفقتها وفي كفالتها برهانا على ما لها من العواطف السامية نحوهم ونحو إقامتهم شعائر دينهم، بعد أن كان السبيل إلى ذلك غير متيسر...^(٢٤).

وقد أشار الصبيحي السلوي في هذه الرحلة التي نشرتها صحيفة السعادة إلى العدد المهم من الحجاج الذين ارتحلوا لأداء مناسك الحج "... ومن الرباط (أربعة) (٤) بينهم ناظر أحباس عبيد الحرم المكي، الحاج محمد جُورِيُو، ومن مراكش: ستة وثمانون (٨٦)، ومن الصويرة ونواحيها: ستة عشر (١٦) بينهم الخير، السيد الحسن بن أحمد النكفاني، ومن الدار البيضاء ونواحيها: اثنا عشر (١٢)، ومن فاس: ثلاثة وأربعون (٤٣)^(٢٥).

بالإضافة إلى هذا فقد أشار الصبيحي السلوي كذلك إلى أهمية الدولة الفرنسية في توفير السبل اللازمة لهذه الرحلة من ظروف مريحة للسفر عبر تجهيز باخرة من نوع أورينوك "فحملتنا على ظهر الباخرة أورينوك، التي هي من أعظم البواخر الفرنسية وأجملها ومع كون هذه الباخرة مسلحة، عززتها ببواخر حربية فرنساوية كانت تترادف في خفارتها، ثم سرنا والحالة تلك على غاية من الاطمئنان والانشرح والمسرة والارتياح ولقينا من عناية رجال الدولة الفخيمة...^(٢٦).

ويكشف نص الصبيحي، الذي نسب الفضل في تسهيل الحج إلى "الدولة الفرنسية الفخيمة"، عن الخليفة الدعائية التي تبنتها الصحيفة، فبدل تقديم الحج كتجربة دينية محضة، صاغت الرحلة في قالب يُضخم صورة فرنسا باعتبارها الراعية لشؤون المسلمين، والضامنة لأداء شعائرهم. وهكذا، وظفت الجريدة موضوعاً روحياً يمس مشاعر المغاربة لإبراز الوجه الإيجابي للاستعمار الفرنسي، وربط الدين بالهيمنة الاستعمارية.

إن استعراض هذه التيمات المتعددة يبرز بجلاء أن "جريدة السعادة" لم تكن مجرد صحيفة إخبارية، بل كانت أداة إعلامية موجهة لخدمة مشروع الحماية الفرنسية، فقد استغلت الأحداث السياسية، فقد استغلت الأحداث السياسية (أزمة طنجة، الصراع بين السلطانين)، ورموز المقاومة الوطنية (الشيخ ماء

وتلقب بالقطب الرباني، فبذلك يستطيع أن يعلم أتباعه أية طريقة اقترحتها عليه إرادته ولم يكن في هذه الناحية رجل يضاهيه نفوذاً، ويقولون إن تلامذته على مذهب الشيعة وهي الطريقة المتبعة في بلاد فارس...^(٢٢)، وزادت السعادة من نقمتها على الشيخ ماء العينين مستغربة من الطريقة التي تقاد بها العمال إلى طاعة الشيخ صاغرة كالنعا لى الراعي والأمناء تتسابق للتبريك...، حاملة الهدايا والدراهم والشيخ يهزأ بالمخزن ويضحك عليه وتأله وتمجده كلما تعبدته الناس وكرست له التوبة وسألته الغفران"^(٢٣).

إن هذا الخطاب الموجه ضد الشيخ ماء العينين يبرز بجلاء طبيعة الدور الذي أوكل إلى "جريدة السعادة" باعتبارها أداة إعلامية استعمارية. فبدل الاكتفاء بتغطية مواقف السياسية أو الدينية، لجأت إلى حد التشهير الشخصي والتقليل من شأنه بأسلوب تهكمي ساخر، يزاوج بين النقد اللاذع والمبالغات البلاغية. والغاية من ذلك كانت واضحة؛ وهي إضعاف صورته في المخيال الجماعي للمغاربة، ونزع غطاء الشرعية عنه كمقاوم شرس للتدخل الأجنبي.

٣/٤- التيمات الدينية في جريدة السعادة من خلال الرحلات الحجازية

لم تقتصر الجريدة على المجال السياسي، بل اهتمت كذلك بالرحلات الحجازية، حيث قامت الجريدة بتشجيع المثقفين الحجاج المغاربة على نشر رحلاتهم الحجازية على أعمدها، بداية برحلة أحمد بن محمد الصبيحي السلوي سنة ١٩١٧م، ويظهر من خلال هذا الاهتمام أن الصحيفة لم تقتصر على نشر الأخبار أو المقالات السياسية، بل استغلت الموضوعات الدينية والثقافية لتعزيز حضورها وإشعاعها بين القراء المغاربة. وقد كتب الصبيحي السلوي متحدثاً عن أسباب رحلته قائلاً: "كان السبب في هذه الرحلة المباركة، ما رآته الدولة الفرنسية الفخيمة من مساعدة الراغبين في الحج من مسلمي مستعمراتها الإفريقية بمناسبة فتح الطريق إلى مكة المكرمة، لقيام شريفها المُجد هناك، ومناداته بالاستقلال، ومد يده لمصافحة كل المُوالين، ومُحبي المسلمين. فكان من أول الدول المبادرة

عليه قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء، والدفاع عن شرعية المخزن العزيمي ضد "العصاة وزعماء الفتنة" وعدم الاعتراف بشرعية بيعه السلطان المولى عبد الحفيظ وتوجيه سهام النقد اللاذع لدعاة الجهاد ضد الأطماع الفرنسية في المغرب.

وعلى الرغم من أن حرص القائمين على أمر "جريدة السعادة" على إبعاد الطابع الرسمي الذي ميز خطها التحريري، باعتبارها "ليست جريدة رسمية للحكومة الفرنسية كما يظنه بعضهم بل السعادة جريدة مغربية مفتوحة أبوابها للكتاب المغاربة من العلماء والأدباء والمؤرخين، فهي تدعوهم إلى الكتابة فيها وإعانة محرريها على شرط الاعتدال وعدم التطرف في المقال وترك القيل والقال"^(٢٢)، بيد أن المتصفح المتبصر لأعدادها يخرج بانطباع مفاده أن السعادة شكلت على مدى أكثر من نصف قرن من الزمن بوقاً رسمياً يستلهم توجهاته وخطاباته من منظري الإقامة العامة بالرباط، وغالباً ما كانت تجانب الصواب والحياد في التحري والتعليق على الأخبار والقفز على بعض الوقائع وتجاهل الحديث عنها بدعوى أنها تعرقل المهمة التي جاءت بها فرنسا وهي "المهمة الحضارية" التي تباشرها فرنسا بالمغرب، وإلا كيف نفسر وصف السعادة لقادة المقاومة المسلحة أمثال الهيبة والحجامي وعبد المالك والكندافي وغيرهم بأوصاف قذحية من قبيل الأوباش والعصاة والفتانين والمارقين...^(٢٣).

وقد سلطت "جريدة السعادة" الضوء على نبض الحياة اليومية للمواطنين المغاربة من خلال تخصيص بعض الأعمدة لأحوال السوق والأسعار وأحوال الجو وأنواع الأوبئة وكيفية الوقاية منها والقضايا المعروضة على المحاكم...، كما استقطبت "جريدة السعادة" إليها ثلة من المثقفين المغاربة أمثال عبد الحفيظ الفاسي ومحمد بوجندار ومحمد الغربي ومحمد الحجوي وغيرهم للمساهمة في تحرير أعمدها، حيث كانت مواقف البعض منه معارضة للوجود الفرنسي بالمغرب^(٢٤).

العينين)، والمواضيع الدينية (الرحلات الحجازية) لتكريس خطاب استعماري يشرعن وجود فرنسا بالمغرب، ويضعف كل مقاومة أو بديل وطني لذلك الوجود.

رابعاً: الخلفية السياسية والإيديولوجية للجريدة

أصبحت "جريدة السعادة" قناة استعمارية تهدف إلى تمرير مختلف المشاريع الهادفة التي كانت ترمي إلى جعل مصير المغرب مرادفاً لما آلت إليه كل من تونس والجزائر، وقد ازداد هذا التوجه إصراراً مع احتدام الصراع بين السلطان المولى عبد العزيز وأخيه المولى عبد الحفيظ، حيث ناصرت الجريدة السلطان المولى عبد العزيز بشتى الطرق، مستغلة المرجعية الدينية بشكل بارز لضمان تأييد القراء.

ولكي تستقطب المفوضية الفرنسية القراء المغاربة كانت السعادة "لا تبخل بتوزيع عدد من أعدادها على بعض قرائها مجاناً بدون عوض"^(٢٥)، لأن مطمح نظرها إنما هو في النشر وما ينتج عنه من الفوائد الإصلاحية والاجتماعية والعمرانية وغيرها لا في الربح^(٢٦). كما أضفت المفوضية الفرنسية على "جريدة السعادة" مسحة إسلامية، باستجلاب محرر لها من الجزائر في شخص إدريس الخبزاوي، ليمرر الخطاب الفرنسي على أعمدة السعادة بأسلوب لا يتنافى مع المشاعر الدينية لعموم القراء المغاربة^(٢٧)، وقد تمكن هذا المحرر من نسج خط تحريري قوامه أن السعادة منذ نشأتها لن تبرح مدى الأزمان أن تذب عن شعائر الملة والدين وتقاتل أهل البدع والزيف والملحدين، وإذا ما نحت مناحي الدين دأبت السعادة عن حماية الملة المطهرة وحذرت من البدع والضلالات وبينت المنهاج المستقيم والمحجة البيضاء بلسان صدوق ونية طاهرة^(٢٨).

ومنذ سنة ١٩٠٦م، اتخذت السعادة توجهاً آخر عندما أسندت مهمة رئاسة تحريرها للشامي الماروني "وديع كرم"، الذي تفتن بأسلوب أدبي رصين ورائع^(٢٩)، من تدشين خط تحريري للسعادة كان يروم إلى تبيان أحقية ومشروعية مطامح فرنسا بالمغرب، والدعوة إلى فتح أبواب هذا البلد لمباشرة الإصلاحات التي نصت

خاتمة

المصدرية يستوجب ممارسة قراءة نقدية مزدوجة، تقوم على التحليل والمقارنة والمساءلة التاريخية، إلى جانب توظيف أدوات منهجية رصينة تساعد على استجلاء معظم جوانب الحقيقة التاريخية، بما يقرب الباحث من إعادة تركيب الصورة التاريخية بأكبر قدر ممكن من الدقة والموضوعية.

ومن جهة أخرى، فإن "جريدة السعادة" بما حملته من خط تحريري متحيز للمصالح الاستعمارية الفرنسية، تمثل بدورها مرجعاً خصباً لفهم التاريخ المغربي المعاصر، إذ تسلط الضوء على التداخل القوي بين ما هو سياسي وإعلامي في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ المغرب. وإذا كانت "جريدة السعادة" قد انخرطت في خدمة مشروع استعماري واضح، فإنها في الآن ذاته تقدم للمؤرخ مادة ثرية تسمح بفهم صورة المغرب كما أرادها الاستعمار أن تُقدم للداخل والخارج، وهو ما يجعلها وثيقة مزدوجة القيمة؛ قيمة إخبارية تحليلية، وقيمة نقدية تكشف عن آليات الدعاية الاستعمارية. وهكذا فهي تمنح الباحث المعاصر فرصة لإعادة بناء صورة أوضح وأدق عن المغرب خلال فترة الحماية، شريطة الوعي بطبيعتها الدعائية والتعامل معها بمنهج نقدية صارمة.

وبناءً على ذلك فإن "جريدة السعادة" لا تقتصر أهميتها على كونها شاهداً على التاريخ الإعلامي والسياسي للمغرب مطلع القرن العشرين، بل إنها تمثل أيضاً دعوة مفتوحة للباحثين والمهتمين من أجل استغلال أرشيفها الغني، مع استحضار خلفياتها وتوجهاتها، قصد الوصول إلى معرفة تاريخية أكثر عمقاً وشمولية، تتيح إعادة تركيب ملامح التاريخ المغربي المعاصر في ارتباطه بالبعد الاستعماري.

انطلاقاً مما سبق، يمكن القول أن "جريدة السعادة" تأسست في خضم التغلغل الاستعماري الأوروبي على المغرب، حيث تفتن المنظرون السياسيون والدبلوماسيون الفرنسيون إلى أهمية توظيف الصحف والجرائد في تسهيل مهمة التوغل الاستعماري في مطلع القرن العشرين للانفراد بالمغرب، وهكذا مثلت "جريدة السعادة" منذ صدورها سنة ١٩٠٤م، منبراً إعلامياً للدعاية لأطروحات المفوضية الفرنسية بمدينة طنجة بخصوص المسألة المغربية، كما سعت أن تقدم نفسها باستمرار على أنها النموذج الأمثل للصحافة التي نجحت في "هذه الإيالة وإقبال القراء عليها واعتمادهم على أقوالها مع اختلاف نزعاتهم وتباين أغراضهم"^(٣٥)، وأنها الجريدة الوحيدة التي سلكت خطاً تحريرياً يدافع عن أحقية ومشروعية مطامح فرنسا بالمغرب، والدعوة إلى فتح أبواب هذا البلد لمباشرة الإصلاحات التي نصت عليها قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦م.

كما جاء إصدار "جريدة السعادة" أيضاً استجابةً لحاجة استعمارية ملحة لتعويض القراء المغاربة عن إقبالهم الكبير إلى الصحافة العربية التي كانت قادمة من المشرق العربي، والتي كانت كثيراً تتضمن أخباراً وتعليقاً لا تسائر المصالح الفرنسية في شمال إفريقيا عامة والمغرب على وجه الخصوص، لذا لم يكن للسعادة خيار وتوجه آخر سوى مجارة خطها التحريري لما كان يُملأ عليها من مكتب الإقامة العامة الفرنسية بالرباط.

وعليه، فالصحافة بصفة عامة تعد بمثابة خزاناً ومورداً علمياً مهماً، إذ تزود الباحثين والدارسين بمادة تاريخية غنية ومتنوعة، خاصة تلك التي تندرج ضمن الطابع الإخباري والتحليلي، فالمقال الصحفي إذن شأنه شأن باقي المواد المصدرية الأخرى، يتيح معطيات كثيرة عن مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، غير أنه يفرض على المؤرخ التعامل معه بكثير من الحيطة والحذر، لأن ما يتضمنه من أخبار وتعليق لا يكون دائماً بريئاً أو محايداً، بل قد يكون موجهاً لخدمة أجندات معينة أو الدعاية لإيديولوجية محددة، لذلك فإن التعامل مع هذه المادة

الملاحق

(١٠) جامع بيضا، مجموعة "جريدة السعادة"، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، "معلمة المغرب"، مطابع سلا، الجزء ١٥، ٢٠٠٢، ص ٤٩٨٢.

(١١) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(١٢) المارشال هوبير ليوطي جنرال فرنسي وأول مقيم عام عينته الإدارة الفرنسية بالمغرب لمدة ١٣ سنة كاملة، أي من سنة ١٩١٢ إلى غاية سنة ١٩٢٥، وأثناء الحرب العالمية الأولى شغل منصب وزير الحرب، وتوفي ليوطي يوم ٢١ يوليوز من سنة ١٩٣٤ ودفن بالمغرب قبل أن تتم إعادة دفنه في باريس بفرنسا سنة ١٩٦١.

(١٣) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، "مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة"، تحقيق محمد العلمي والي، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣، ٢٠٠٢، ص ٦٨.

(١٤) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥) "جريدة السعادة"، العدد ٢٥٣، ٢١ غشت ١٩٢٣م.

(١٦) جامع بيضا، الصحافة كمصدر من مصادر تاريخ العهد اليوسفي "السعادة نموذجا"، ضمن كتاب السلطان مولاي يوسف ١٩١٢-١٩٢٧م، الدولة اليوسفية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية - الريصاني، ٤، ٢٠٠٤، ص ٤٩٨٢.

(١٧) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، "مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة"، مرجع سابق، ص ٧٠.

(١٨) "جريدة السعادة"، العدد ٢٤٣، ٣١ مارس ١٩٠٦م.

(١٩) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، "مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة"، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٢٠) "جريدة السعادة"، العدد ١٣٢، ٢٥ أبريل ١٩٠٧م.

(٢١) "جريدة السعادة"، العدد ١٥٨، ٢٤ أكتوبر ١٩٠٧م.

(٢٢) "جريدة السعادة"، العدد ٤٢٨، ٨، ١٩١٠، نونبر.

(٢٣) "جريدة السعادة"، العدد ١٥٨، ٢٤ أكتوبر ١٩٠٧م.

(٢٤) "جريدة السعادة"، العدد ١٣٦٤، ١٧ نونبر ١٩١٧م.

(٢٥) "جريدة السعادة"، العدد ١٣٦٤، ١٧ نونبر ١٩١٧م.

(٢٦) "جريدة السعادة"، العدد ١٣٦٤، ١٧ نونبر ١٩١٧م.

(٢٧) "جريدة السعادة"، العدد ٢٥٣، ٢١ غشت ١٩٢٣م.

(٢٨) "جريدة السعادة"، العدد ٢٥٣، ٢١ غشت ١٩٢٣م.

(٢٩) جامع بيضا، الصحافة كمصدر من مصادر تاريخ العهد اليوسفي "السعادة نموذجا"، مرجع سابق، ص ٤٩٨٢.

(٣٠) "جريدة السعادة"، العدد ٢١٥، ٢٩ أكتوبر ١٩٢٠م.

(٣١) جامع بيضا، الصحافة كمصدر من مصادر تاريخ العهد اليوسفي "السعادة نموذجا"، مرجع سابق، ص ٤٩٨٢.

(٣٢) "جريدة السعادة"، العدد ٢٠٧، ٢٥ نونبر ١٩١٩م.

(٣٣) "جريدة السعادة"، العدد ١٧٦٩، ٢٧ يوليوز ١٩١٨م.

(٣٤) جامع بيضا، الصحافة كمصدر من مصادر تاريخ العهد اليوسفي "السعادة نموذجا"، مرجع سابق، ص ١٠.

(٣٥) "جريدة السعادة"، ٢٠٦، ٣١ يوليوز ١٩٠٨م.

(٣٦) صورة الجريدة محفوظة بـ"المكتبة الوطنية للمملكة المغربية" - الرباط، قسم الجرائد والمجلات، كما أن بعض أعدادها متاحة للتحميل بعدة مواقع إلكترونية مختلفة.



صورة رقم (١)

"جريدة السعادة"^(٣٦) التي كانت تصدر بالرباط

في عهد الحماية الفرنسية

المصدر: المكتبة الوطنية للمملكة المغربية - الرباط

الإحالات المرجعية:

(١) محمد المنوني، "المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث"، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٣م، ص ٢٢.

(2) Francis Garnier, "La Cochinchine Française En 1864", Paris, E. dentu Libraire-Éditeur, 1864, pp. 44 - 45.

(٣) رجل مثقف ماروني من بلاد الشام عين سنة ١٩٠٦م رئيس التحرير بـ "جريدة السعادة"، وكان يدون بأسلوب أدبي رصين ورفيع المستوى لتجيب المثقفين المغاربة في قراء أعداد الجريدة، كما عمل كذلك موظف بالسفارة الفرنسية ببورت اللبنانية وكذلك بالسفارة الفرنسية بمدينة طنجة.

(٤) "جريدة السعادة"، ٣٥٢٥، ١٠ أبريل ١٩٣٠م.

(٥) الحاج أحمد معنيو، "ذكريات ومذكرات"، الجزء الأول ١٩٣١ - ١٩٢٠، طنجة، ١٩٩٦م، ص ١١٣.

(٦) "جريدة السعادة"، العدد الأول، ٧ نونبر ١٩٠٤م.

(٧) "جريدة السعادة"، العدد ٨٧٧٣، ٣٠ ماي ١٩٥٣م.

(٨) "جريدة السعادة"، العدد ٦٣٥، ٢٩ مارس ١٩١٣م.

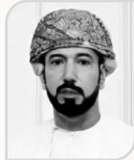
(٩) نقلاً عن: جامع بيضا، "صحافة طنجة مرآة للصراع الدولي حول المغرب ١٩٠٠ - ١٩١٢"، ضمن كتاب طنجة في التاريخ المعاصر ١٨٠٠ - ١٩٥٦، طنجة، ١٩٩١، ص ٢٠٧.

سياسة ألمانيا الاستعمارية في شرق أفريقيا من خلال حماية بعض الشخصيات العمانية السيدة سالمة والسيد خالد نموذجًا

د. سليمان بن سعيد الكيومي

أستاذ مساعد

مركز الدراسات التأسيسية – جامعة اليريم
مدينة اليريم – سلطنة عُمان



ملخص

يتناول المقال الراهن السياسة الاستعمارية الألمانية في شرق أفريقيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال تحليل مواقف ألمانيا تجاه شخصيتين عمانيتين بارزتين هما السيدة سالمة بنت سعيد والسيد خالد بن برغش بن سعيد. تسعى الدراسة إلى الكشف عن أبعاد الحماية الألمانية لهاتين الشخصيتين، وبيان كيف استخدمتها ألمانيا كوسيلة لتحقيق مكاسب سياسية واستعمارية في مواجهة النفوذ البريطاني المتنامي في المنطقة. اعتمد المقال على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، بالاستناد إلى مجموعة من المصادر الوثائقية والمراجع التاريخية العمانية والعربية والأجنبية، إضافة إلى مذكرات السيدة سالمة التي شكلت مصدراً أولياً مهماً لفهم طبيعة العلاقات بين زنجبار وألمانيا. وقد أظهرت النتائج أن ألمانيا تبنت سياسة ناعمة قائمة على التحالفات الفردية والحماية الدبلوماسية للشخصيات ذات التأثير المحلي، بهدف إيجاد موطنٍ قديمٍ سياسي واستراتيجي في شرق أفريقيا، في حين واجهت بريطانيا تلك التحركات بحذر ورفض صريح خشية الإضرار بمصالحها الاستعمارية. وتخلص الدراسة إلى أن الحماية الألمانية لم تكن عملاً إنسانياً بقدر ما كانت أداة ضغط سياسية ضمن التنافس الأوروبي على زنجبار، كما تبرز أهمية الدور العماني غير المباشر في رسم ملامح الصراع الاستعماري في المنطقة.

كلمات مفتاحية:

شرق أفريقيا؛ سالمة بنت سعيد؛ خالد بن برغش؛ زنجبار؛ ألمانيا

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٩ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.426288.1279

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سليمان بن سعيد الكيومي، "سياسة ألمانيا الاستعمارية في شرق أفريقيا من خلال حماية بعض الشخصيات العمانية: السيدة سالمة والسيد خالد نموذجًا"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة- العدد الخامس والسبعون: يناير ٢٠٢٦، ص ١٨٤ – ١٩٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: kiyumi1977@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في ذُويّة كان ٤.٠ Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: الوجود الألماني في شرق أفريقيا

بدأ التنافس الاستعماري في شرق أفريقيا خاصة في المناطق التي كانت تتبع نفوذ سلاطين زنجبار خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان الانجليز والألمان والفرنسيين والإيطاليين هم أبرز المتنافسين حول استعمار تلك المنطقة، وتجلّى ذلك بوضوح في مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م-١٨٨٥م لإقرار تقسيم القارة الأفريقية بين الدول الاستعمارية الأوروبية (R W Bailey, P68-69) وبالتالي بدأت زنجبار تفقد سلطتها وقوتها المؤثرة في المنطقة (فليجة، أحمد نجم الدين، ٢٠٠٥م، ص٤٣٦-٤٣٨) كان الانجليز يرون أنفسهم بأنهم أصحاب الحق في التدخل في شؤون مناطق شرق أفريقيا بشكل عام وسلطنة زنجبار بشكل خاص، وكانوا يبررون تدخلاتهم تلك بعدة حجج مثل مكافحة تجارة الرقيق أو تنفيذ وصية ملك أو سلطان كما حدث مع وصية السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م)، أو بحجة نشر الحضارة بين سكان شرق أفريقيا. (الشبلي، أحمد بن خلفان، ٢٠٠٩، ص١٢)

أما فيما يخص النفوذ الألماني في شرق أفريقيا فإنه لم يكن لدى الألمان قبل العقد الثامن من القرن التاسع عشر الميلادي أي نفوذ على منطقة شرق أفريقيا، حيث كان الوجود الألماني في تلك المنطقة مقتصرًا على بعض الأنشطة الاستكشافية والتبشيرية والتجارية، ولم تتخذ تلك الأنشطة الطابع الرسمي إلا بعد عقد مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥م) (الشبلي، أحمد بن خلفان، ٢٠٠٩، ص٢٦) لذا تُعدّ ألمانيا من الدول الأوروبية التي دخلت ميدان الاستعمار في وقت متأخر مقارنة مع دول أخرى في هذا المجال مثل بريطانيا والبرتغال وفرنسا، حيث عرف عن ألمانيا اقتناعها بأن مجالها الحيوي يكمن في أوروبا. (تركي، بنیان، ٢٠٠٧م، ص٥٣)، ولم يكن المستشار الألماني بسمارك يتطلع لمد نفوذ الألمان خارج حدود القارة الأوروبية في الفترة التي سبقت العام ١٨٨٤م على الرغم من نداءات الرحالة والتجار ورجال الصناعة الألمان للدخول في هذا المجال. (الشبلي، أحمد بن خلفان، ٢٠٠٩م، ص٢٦)

في مرحلة من مراحل الصراع الاستعماري البريطاني الألماني من أجل السيطرة على مناطق شرق أفريقيا سعت ألمانيا إلى دعم المعارضين للوجود البريطاني في شرق أفريقيا، كما قام الألمان كذلك بحماية بعض الشخصيات التي كانت مطلوبة لدى البريطانيين بسبب معارضتهم للتدخلات البريطانية في شؤون شرق أفريقيا.

وكانت ألمانيا تهدف من وراء ذلك هو استخدام أولئك المعارضين كورقة ضغط على بريطانيا من أجل إرغامها على تقديم بعض التنازلات الخاصة بالسيطرة على مناطق شرق أفريقيا، ومن الأمثلة على ذلك ما قامت به ألمانيا في حماية السيدة سالمة التي هربت إلى ألمانيا برفقة شاب ألماني حيث تزوجته بعد ذلك وتم منحها الجنسية الألمانية، ثم حاولت الحكومة الألمانية بعد ذلك استغلال تلك المسألة في سبيل تحقيق الأهداف الاستعمارية للألمان وإيجاد موطئ قدم لهم في زنجبار كون الأميرة سالمة أحد ورثة عرش والدها السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م)، حتى أن الألمان دأبتهم فكرة أن يفرضوا ابنها "سعيد" سلطاناً على زنجبار، فهو ألماني الجنسية من جهة، وحفيد السيد سعيد بن سلطان من جهة أخرى.

من الأمثلة الأخرى كذلك على الدور الألماني في حماية بعض الشخصيات العمانية في شرق أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي هو قبول الألمان لطلب الحماية الذي تقدم به السيد خالد بن برغش بن سعيد الذي لجأ إلى القنصلية الألمانية في زنجبار بعد أن لاحقته بريطانيا نتيجة محاولته السيطرة على الحكم في زنجبار عام ١٨٩٦م، وقد أبدى القنصل الألماني في زنجبار موافقته على منح السيد خالد حق الحماية ورفض تسليمه للبريطانيين. يركز هذا المقال بشكل خاص على الدور الألماني في حماية بعض الشخصيات العمانية خدمة لمشاريع ألمانيا الاستعمارية في شرق أفريقيا، مع التركيز على نموذجين هما: السيدة سالمة والسيد خالد بن برغش، وذلك من خلال تتبع الأحداث المرتبطة بهذا الموضوع.

أفريقيا بعد مؤتمر برلين (١٨٤٤م-١٨٨٥م) الذي عقدته الدول الاستعمارية الأوروبية من أجل اقتسام مناطق القارة الأفريقية، حيث وقع الإمبراطور الألماني وليم الأول على مرسوم الحماية الإمبراطوري للمناطق المقابلة لجزيرة زنجبار في البر الأفريقي عام ١٨٨٥م ومن أبرز تلك المناطق دار السلام. (الشبلي، أحمد بن خلفان، ٢٠٠٩م، ص ٢٩)

أصبح مركز الأسطول البحري الألماني في الساحل الشرقي لأفريقيا قويا، حيث بدأت سفنه تجوب ساحل شرق أفريقيا وكانت تتصرف بحرية في تلك المنطقة، كما حدث لاحقا حين قامت بعض القوات الألمانية برفع العلم الألماني في بعض المناطق التي كانت تتبع نفوذ سلطان زنجبار وهي بجمايو وفنجاني وذلك في سنة ١٨٨٨م، إلا أن المستشار الألماني بسمارك طلب من تلك القوات الخروج، وقدم رسالة اعتذار للسلطان خليفة بن سعيد (١٨٨٨م-١٨٩٠م)، موضحا له أن ما حدث كان خطأ من القوات الألمانية، وتمتني في الوقت نفسه أن تظل العلاقة طيبة بين الطرفين، وتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلاً. (صكوك ومكاتبات من زنجبار، وثيقة رقم ٦٧) (١٨٨٨م).

في عام ١٨٩٠م أقرت فرنسا وألمانيا الحماية البريطانية على زنجبار وتوابعها في تصريح مشترك، فنودي بها محمية بريطانية (R W Bailey, P68-69) مقابل تنازل بريطانيا عن امتيازاتها في مدغشقر لفرنسا وعن جزيرة هليوجولاند (Heligoland : جزيرة صغيرة في بحر الشمال، تبعد عن ساحل ألمانيا حوالي ٤٥ كم في بحر الشمال (الجمل، ص ٦٥٣) وأيضاً عن البلاد الواقعة بين نهر روفوما وأومبا، وهي المناطق التي صارت تعرف فيما بعد باسم تنجانيقا (الطائي، ص ١٤٨؛ قاسم، ص ٣٢٠)

ثانياً: قضية السيدة سالمة والموقف الألماني منها

السيدة سالمة هي ابنة السيد سعيد بن سلطان الذي كان حاكماً لعمان منذ عام ١٨٠٤م، ثم مد نفوذه إلى شرق أفريقيا متخذاً من زنجبار عاصمة لأملاكه في تلك المنطقة ابتداء من عام ١٨٣٢م. ولدت السيدة سالمة في

وكانت وجهة نظر بسمارك في عدم الزج بألمانيا في مشاريع استعمارية خارج القارة الأوروبية مردداً إلى أن ألمانيا غير جاهزة لخوض غمار المنافسة الاستعمارية خاصة وأنها كانت في عداً مع جارتها فرنسا في تلك الفترة. لذا نجد أن الوجود الألماني في شرق أفريقيا بدأ بجهود ذاتية من قبل بعض الجهات غير الرسمية، وتأتي في مقدمتها البعثات الاستكشافية التي برز عملها في المنطقة الواقعة بين زنجبار وتنجانيقا (إبراهيم، جلال، ١٩٩٩م، ص ٤٠١). ويمكن أن نذكر في هذا المجال أشهر المستكشفين الألمان الذين وفدوا إلى منطقة شرق أفريقيا والذين يأتي في مقدمتهم جون كرابف John Crapf وجوهان ريمان Johan Rebmann.

كان كرابف قد توجه أولاً إلى الحبشة ثم توجه إلى زنجبار، حيث زوده السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م) برسالة توصية ساعدته في الحصول على بعض التسهيلات من حكام المناطق التي توغل إليها في البر الأفريقي، وكان مما ورد في تلك الرسالة: "إن هذا الشخص قادم من طرف السيد سعيد، تحياتاً إلى كل رعايانا وأصدقائنا وحكامنا، وقد كتب هذا الخطاب من أجل الدكتور كرابف الألماني الجنسية، فهو رجل طيب يرغب في تحويل العالم إلى عبادة الله، فعاملوه معاملة طيبة وكونوا في خدمته في كل مكان". (كام، جوزفين، ١٩٨٣م، ص ٢٢٥)

ومن أبرز المناطق التي وصل إليها المستكشفين الألمان هي جبل كلمنجارو عام ١٨٤٨م بجهود المستكشف ريمان، أما كرابف فقد وصل إلى جبل كينيا عام ١٨٤٩م، بينما تمكن المستكشف الألماني فوندير ديكن Vonder Decken من إعادة اكتشاف الساحل الشرقي لأفريقيا وكذلك منطقة جبل كلمنجارو، وتعتبر نشاطات هذا الأخير هي البوادر الأولى لحركة الاستعمار الألماني في شرق أفريقيا، على الرغم من مقتله عام ١٨٦٥م بالقرب من نهر جوبا. (Coupland, R, 1967, p381)

وفي العام ١٨٨٢م تم إنشاء الجمعية الألمانية للاستعمار، وقد لعبت تلك الجمعية دوراً مهماً في توجيه الرأي العام الألماني نحو ضرورة دخول ألمانيا ميدان المنافسة الاستعمارية، وهو ما حدث بالفعل حين أعلنت ألمانيا بسط سيطرتها على أجزاء من ساحل شرق

السيدة سالمة نفسها في وضع غير جيد هي وأطفالها الثلاثة، وهو ما تؤكد في مذكراتها عند حديثها عن تلك اللحظات فتقول: "لم تدم حياتنا السعيدة الراضية طويلاً. كان قد مضى على انتقالنا إلى هامبورغ أكثر من ثلاث سنوات بقليل حين تعرض زوجي الحبيب لحادث، إذ سقط لدى القفز من عربة الخيول ودهس وفارق الحياة بعد ثلاثة أيام من الآلام المبرحة، وجدت نفسي وحيدة في العالم الكبير الغريب مع ثلاثة أطفال صغار عمر أصغرهم ثلاثة أشهر فقط، فكرت طيلة فترة من الزمن أن أعود إلى بلادي، لكن القدر أراد أن يموت أخي ماجد أيضاً الذي كان طيباً معي، بعد شهرين من تلك الضربة الكبيرة، لم يمس خطيبي بعد سفري قيد شعرة وتركه يصفى أعماله في زنجبار دون عائق، ولم يضغن علي فيما بعد بسبب هروبي سراً بأية صورة، لقد آمن كمسلم ورع بإرادة الله وكان مقتنعاً أنها هي التي قادتني إلى ألمانيا. وقد قدم لي دليلاً مؤثراً على استمرار شعوره الأخوي قبل وفاته بوقت قصير، إذ حمل سفينة بخارية بأشياء من كل الأنواع، وطلب تسليمها إلي في هامبورغ كهدية، وكانت السفينة لا تزال في طريقها حين فارق المعطي الكريم الحياة فجأة، لم أستلم أياً من الأشياء التي أرسلت إلي، ولم أكن قد عرفت في ذلك الوقت بوجه عام عن نية ماجد النبيل، ولم أسمع إلا لاحقاً أن نيته الطيبة أحبطت وأنتي خدعت" (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٧).

انتقلت السيدة سالمة بعد ذلك من هامبورج إلى درسدن التي تقول إنها صادفت تعاملًا ودوداً فيها، ثم انتقلت إلى مدينة رودولف شتادت وعاشت بها بضع سنوات، لاقت أيضاً خلالها الترحيب والمحبة خاصة من السادة والامراء بالمدينة، لتنتقل بعد ذلك إلى برلين بهدف الحصول على تربية جيدة لأطفالها. (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٨).

حاولت السيدة سالمة العودة إلى زنجبار إلا أن أخيها السلطان برغش لم يسمح لها بذلك، وتفسر السيدة سالمة سبب رفض السلطان برغش عودتها إلى زنجبار هو الموقف الذي كانت السيدة سالمة قد وقفته مع السلطان الراحل ماجد وتصالحها معه بعد أن تسلم

زنجبار عام ١٨٤٤م من أم شركسية، وفي عمر الثانية والعشرين تعرفت السيدة سالمة على شاب ألماني يدعى هاينريش روته حيث كان يقيم في زنجبار كممثل تجاري لأحد البيوت التجارية في هامبورج الألمانية (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٥).

وتسرد السيدة سالمة في مذكراتها السيناريو الذي قادها إلى التعرف على الشاب الألماني، حيث تقول: "تعرفت على زوجي المقبل بعد انتقالني من بوبويو (القصر الذي كانت تسكنه في زنجبار) بوقت قصير. كان بيتي يقع في جوار بيته مباشرة، وكان سطح بيته أوطاً من سطح بيتي، وكثيراً ما شاهدت من أحد شبابيك الطابق الأعلى مجالس الرجال البهيجة التي كان ينظمها من أجل أن يريني وجبات الطعام الأوروبية. شاع في المدينة بعد وقت قصير أمر صداقتنا التي تحولت مع الزمن إلى حب عميق، وعرف بها أخي ماجد أيضاً. لم يبد لذلك إزائي أي عدا أو يسجنني كما روت الأساطير" (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٥-٣٢٦).

غادرت السيدة سالمة زنجبار سراً عام 1866م، وقد تعاون معها في تسهيل مهمة هروبها من زنجبار زوجة الطبيب الانجليزي ونائب القنصل، وكانت تربطها بها علاقة صداقة، حيث غادرت على متن السفينة البريطانية "هاي فلاير" المتجهة إلى عدن، وبعد وصولها عدن نزلت في ضيافة عائلة إسبانية كانت السيدة سالمة قد تعرفت عليها خلال إقامة تلك العائلة في زنجبار سابقاً. (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٦). تلقت السيدة سالمة في عدن دروساً في تعاليم الديانة المسيحية، وجرى تعميدها بعد ذلك، وحصلت على اسمها الجديد وهو "إميلي"، ثم وصل خطيبها هاينريش روته بعد ذلك بعدة أشهر، وتم عقد قرانهما في الكنيسة البريطانية في عدن، ثم رحلا معاً إلى مدينة هامبورج الألمانية، وتذكر السيدة سالمة أن عائلة زوجها استقبلتها أحسن استقبال. (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٦)، ورزقت في هامبورج بثلاثة أطفال: الابنة الكبرى أنطونيا توكا والابن رودولف سعيد والابنة الصغرى روزاليا غوزا.

إلا أن القدر كان يخبي للسيدة سالمة الكثير من الأحداث التي لم تكن تتوقعها، حيث توفي زوجها بعد حوالي ثلاث سنوات في حادث قطار عام ١٨٧٠م، لتجد

الحكم عند وفاة والدهم السيد سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م.

وقد تطرقت السيدة سالمة إلى هذه النقطة في مذكراتها بقولها: "بقيت على اتصال مع وطني عبر تبادل الرسائل، ولم أتخل أبداً عن الأمل في أن أراه ثانية. إلا أن عناد أخي برغش جعل كل تقارب حتى الآن غير ممكن. ولم يكن سبب عدم استعداده للمصالحة التطرف بأية حال من الأحوال، وإنما العناد والحقد اللئيم، فلم يستطع أن يغفر لي أبداً أنني كنت قد استعدت العلاقة الودية مع خصمه السابق ماجد! لكن شوقي إلى أحبائي في الوطن البعيد لم يتضاءل بسبب ذلك، وقد أملت سراً في مصالحتهم" (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٣١).

وكانت أبرز محاولات السيدة سالمة لإقناع السلطان برغش بإمكانية عودتها إلى زنجبار هي محاولتها لمقابلة السلطان في لندن أثناء الزيارة التي قام بها إلى بريطانيا عام ١٨٧٥م، حيث انطلقت من ألمانيا إلى لندن من أجل ذلك الغرض، إلا أن محاولتها تلك جابهت معارضة من الحكومة البريطانية التي رأت أن تلك المقابلة بين السلطان وأخته الأميرة سالمة قد تضر بمصالح بريطانيا الاستعمارية وقد تنصب في مصلحة الألمان الذين بدأوا يوجهون انظارهم نحو التوسع الاستعماري في القارة الأفريقية في تلك الفترة، وهو ما ذكرته السيدة سالمة في مذكراتها حيث أوردت أن السير بارتل فيرير وهو المبعوث الذي أرسلته الحكومة البريطانية للتفاوض مع سالمة في لندن قد عرض عليها بأن تصرف النظر عن موضوع لقاءها مع السلطان مقابل تكفل الحكومة البريطانية بنفقات معيشتها هي وأولادها، وقد أثار ذلك العرض الانجليزي الريبة في نفسها مما دعاها إلى طلب توضيح من السير بارتل فيرير عن طريق أحد أصدقائها في لندن حول ذلك فكان جوابه هو: "إننا نسدي للسلطان بذلك صنيعاً، ونكفل بقاء الأميرة هادئة لفترة من الزمن، ونسلب المستشار الألماني بسمارك كل فرصة للتدخل في هذه الأشياء فيما بعد." (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٣٦).

ومن باب تسهيل موافقة الحكومة البريطانية على تقديم المساعدة المالية للأميرة سالمة فقد اقترح عليها السير بارتل فيرير كتابة مذكرة إلى الحكومة البريطانية

بهذا الخصوص، إلا أن الرد على تلك المذكرة والذي أتى بعد عدة أسابيع كان مخيباً لآمال السيدة سالمة، حيث تم رفض طلبها من قبل الحكومة البريطانية بحجة أنها تزوجت ألمانيا، وتعيش في ألمانيا، وبالتالي من واجب الحكومة الألمانية وليس البريطانية أن تتكفل بنفقاتها وأن تدافع عنها. (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٢٨). لقد ترك ذلك الموقف الانجليزي أثراً سيئاً في نفس السيدة سالمة وهو ما عبرت عنه في مذكراتها بقولها: "إذا كان مثل هذا التعامل إزاء امرأة تعيسة يليق بقوة مثل إنجلترا، فهو أمر أترك الحكم فيه لكل من يفكر بعدالة، أريد فقط أن أطرح سوالاً: ألم تكن الحكومة الانجليزية تعلم هي والسير بارتل حين تقربت مني بعرضها أن زوجي كان ألمانيا، وأنني أحمل الجنسية." (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٣٨).

وهنا يتضح مدى القلق الذي أبداه الانجليز من أي تقارب بين السيدة سالمة والسلطان برغش، حيث نظروا للأمر على أنه قد يكون محاولة مدعومة من الحكومة الألمانية للحصول على بعض الامتيازات في منطقة شرق أفريقيا بشكل عام وزنجبار بشكل خاص من خلال استغلال ورقة السيدة سالمة. ويبدو أن الانجليز لم يكونوا مخطئين بنسبة كبيرة حين أبدوا قلقهم من الأمر، حيث نجد بأن الحكومة الألمانية قد وجهت دعوة للسيدة سالمة من أجل زيارة زنجبار وأنها على استعداد لتوفير الحماية لها في سبيل تحقيق تلك الزيارة التي كانت السيدة سالمة تطلع إليها دائماً.

تذكر السيدة سالمة ذلك في مذكراتها بقولها: "استلمت ذات يوم من وزارة الخارجية دعوة للاستعداد للسفر إلى زنجبار خلال وقت قصير، بلغ انفعالي من هذا الخبر أنني لم أفرح فرحاً حقيقياً في الحال بهذه السعادة التي تلهفت عليها طويلاً، بعد أن حمدت الله وشكرته على إرادته الرائعة شعرت بالدرجة الأولى بالعرفان العميق لقيصرنا المحبوب الجليل ومرافق حكومته العالية التي سنحتفظ أنا واطفالي لها دائماً بامتنان لا يمحي" (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٤٢).

أبحرت السفينة الألمانية "آدلر" حاملة على متنها السيدة سالمة وأبنائها الثلاثة في رحلة وصفتها السيدة سالمة بأنها "رحلة العودة إلى الوطن ثانية بعد تسعة عشر عاماً" وذلك في عام ١٨٨٥م، وحين وصلت السفينة "

سالمة وهو رودلف رويت فرصة اعتلاء كرسي السلطة في زنجبار. (قاسم، جمال زكريا، ص ٣١٥)

ومهما يكن من أمر فقد كانت لفترة طيبة من الحكومة الألمانية حين ساعدت السيدة سالمة في تحقيق رغبتها لزيارة زنجبار بغض النظر عن دوافع الألمان من ذلك، وقد ترك ذلك العمل انطبعا جيدا لدى السيدة سالمة، وهذا ما عبرت عنه بقولها: "لقد بدا لي في هذه اللحظة كما لو أن شبابي كله يعود ثانية من أجل أن يعوضني عن السنوات المليئة بالقهر والهم، حضر كل شيء الآن حيا في ذهني، وبرزت صور الماضي المرححة واحدة بعد الأخرى في خيالي". (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٤٩). لقد كانت عودة السيدة سالمة إلى زنجبار هي الأولى والأخيرة بعد غياب دام تسعة عشر عاماً، حيث ما لبثت أن عادت مرة أخرى إلى ألمانيا في نفس العام الذي أتت فيه.

ثالثاً: الحماية الألمانية للسيد خالد بن برغش بعد أحداث زنجبار عام ١٨٩٦م

ولد السيد خالد بن برغش عام ١٨٧٥م في زنجبار، ووالده هو السلطان برغش الذي حكم زنجبار خلال الفترة من ١٨٧٠م إلى ١٨٨٨م. كان السلطان برغش يرغب في أن يتولى ابنه السيد خالد حكم زنجبار من بعده، وحاول إقناع الحكومة البريطانية بأن تضمن له ذلك، وكان من أبرز تلك المحاولات هو كتابته عام ١٨٨١م لوصية ضمنها رغبته تلك وسلمها للقنصل البريطاني في زنجبار جون كيرك، مطالباً فيها الحكومة البريطانية أن تسهل أمر تنصيب السيد خالد سلطاناً على زنجبار، لكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك. (تركي، بنيان، ٢٠٠٢، ص ٣٦٢-٣٦٣).

وعنما وقعت الحكومة البريطانية مع السلطان علي بن سعيد اتفاقية الحماية البريطانية على زنجبار عام (١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م)، كان من ضمن بنودها أن يتم تعيين سلطان زنجبار بقرار يصدر من ملكة بريطانيا وبتوصية من القنصل البريطاني المعتمد في زنجبار (الموسوعة العمانية، مج ٤، ص ١٢٢٣). إلا أننا نجد بعد وفاة السلطان حمد بن ثويني عام (١٣١٤هـ / ١٨٩٦م) قام السيد خالد بن برغش بالسيطرة على قصر الرئاسة ونصب نفسه سلطاناً على زنجبار (حكم السيد خالد بن

أدler " إلى زنجبار كان هناك سفن ألمانية أخرى تابعة للأسطول الألماني تجوب الساحل القريب من زنجبار وقد وضعت جميعاً في حالة تأهب لمساندة السفينة " أدler " تحسباً لأي تطورات محتملة، وكان أبرز تلك الاحتمالات هو تدخل الانجليز للحيلولة من دخول السيدة سالمة إلى زنجبار.

وتصف السيدة سالمة حجم الدعم الذي وفره الأسطول الألماني من أجل تأمين مسالة دخولها إلى زنجبار فتقول: " أفقنا في الصباح التالي في حوالي الساعة السادسة، فلاح لنا في الأفق غابة الصواري للميناء، ثم أبحرنا ثانية قريباً من اليابسة مروراً ببساتين نخيل رائعة تتناثر بينها قرى صغيرة للزنج، وعبر إشارات متواصلة أرشدتنا لدى وصولنا السفينة " فلاغشيف" إلى مكان رسونا، الذي كان علينا أن نغيره بعد نصف ساعة، ثم رأينا أربع سفن حربية ألمانية هي " شتوش " و " غنايسناو " و " إليزابيث " و " برنس أدلبيرت " وقد رأى الكومودور باشن أنه من الضروري أن اعتبر مؤقتاً "حمولة سرية" وهو وصف أثار مرحا لدى ضباط الأسطول، ولكن ما إن وصل الأدميرال " كنور " اللطيف والجريء بسفينة "بسمارك" الحربية حتى تغير الوضع، واستطعت أن أذهب إلى الجزيرة متى أردت". (سالمة، ٢٠٠٦، ص ٣٥٠-٣٥١)

وإذا عدنا إلى الجانب السياسي المتعلق بهذا الموضوع فإن البعض يرى أن تصرف الألمان المتعلق بقضية السيدة سالمة كان ردة فعل للاحتجاج الذي تقدم به السلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار إلى الحكومة الألمانية يحتج فيه على قرار الحماية الألمانية على مناطق كيوزاجارا وتابورة ويوجيجي، والتي كان السلطان يعتبرها جزءاً لا يتجزأ من سلطنته، حتى أن السلطان كان عازماً على السفر إلى ألمانيا لمقابلة الإمبراطور، لكن القنصل البريطاني في زنجبار جون كيرك نصحه بعدم السفر. (الشبلي، أحمد بن خلفان، ٢٠٠٩م، ص ٤٠)

ومن أجل زيادة الضغط على السلطان برغش أرسلت الحكومة الألمانية ضمن السفن الحربية الألمانية أخت السلطان برغش بحجة المطالبة بنصيبها من ميراث والدها السيد سعيد (١٨٠٤-١٨٥٦م)، كما أن عدم وجود قانون ينظم عملية وراثة العرش كان يعطي ابن السيدة

(المغيري، ص ٢٨٥-٢٨٦)، وبقي في ممباسا حتى وفاته في عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٧م) مخلفاً ستة أبناء ذكور هم: برغش وعلي وغالب، وقيس وماجد وسعيد. (مخطوط عن زنجبار تحت رقم (٢١٧٠، ص ٧٨؛ المغيري، ص ٣٨٥-٣٨٧؛ الموسوعة العمانية، مج ٤، ص ١٢٢٢-١٢٢٤).

خاتمة

تُظهر دراسة سياسة ألمانيا الاستعمارية في شرق أفريقيا من خلال حماية بعض الشخصيات العمانية أن التحركات الألمانية في المنطقة لم تكن عشوائية أو ذات طابع إنساني محض، وإنما جاءت في إطار سياسة استعمارية مدروسة سعت من خلالها برلين إلى منافسة النفوذ البريطاني وتعزيز حضورها السياسي والاقتصادي في شرق القارة الأفريقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد مثلت قضية السيدة سالمة بنت سعيد مثلاً واضحاً على توظيف ألمانيا للعلاقات الشخصية والروابط الأسرية مع بيت الحكم البوسعيدي في زنجبار لخدمة مصالحها الاستراتيجية، إذ حاولت السلطات الألمانية استثمار وضع الأميرة سالمة وأصولها العمانية للحصول على موطن قدم في زنجبار، بل ووصل الأمر إلى التفكير في فرض ابنها "سعيد رودلف" كحاكم محتمل للجزيرة، مستندين إلى قرابة الدم والجنسية الألمانية.

كما أبرزت قضية السيد خالد بن برغش الوجه الآخر من السياسة الألمانية، وهو استخدام الحماية الدبلوماسية كأداة سياسية لمواجهة الهيمنة البريطانية. فقد منحت القنصلية الألمانية في زنجبار حق اللجوء للسيد خالد بعد فشل محاولته للاستقلال بالحكم عام ١٨٩٦م، في موقف يعكس بوضوح الرغبة الألمانية في تقويض النظام السياسي الخاضع لبريطانيا ودعم كل من يمكن أن يخدم مصالحها في المنطقة.

من خلال هذين النموذجين يتضح أن الاستراتيجية الألمانية في شرق أفريقيا اعتمدت على التحالفات الفردية واستثمار التناقضات الداخلية في زنجبار أكثر من اعتمادها على القوة العسكرية المباشرة، وهو ما

برغش لمدة أربعة أيام فقط (٢٤-٢٧ أغسطس ١٨٩٦م) مدعوماً بقوة مكونة من جنود الحرس السلطاني والعرب المؤيدين له الذين بلغ عددهم حوالي ١٢٠٠ رجل. (الريامي، ناصر، ص ٣٣٠)

رأت بريطانيا أن تصرف السيد خالد يُعدّ خرقاً صارخاً لاتفاقية الحماية، ومن ثمّ قررت التدخل، حيث طلبت في البداية من السيد خالد الخروج من القصر وقبول من ترشحه بريطانيا لمنصب سلطان زنجبار، إلا أن السيد خالد رفض التخلي عن الحكم وأرسل بياناً إلى القناصل المعتمدين في زنجبار يخبرهم باستلامه للحكم ويدعوهم للاعتراف به سلطاناً على زنجبار (الريامي، ناصر، ص ٣٣٣). وأمام تغت السيد خالد بن برغش وتمسكه بأحقّيته في الحكم قررت بريطانيا التدخل عسكرياً لمواجهة ذلك الموقف، وقامت البوارج البريطانية بقصف قصر الحكم وبيت العجائب مسجلة بذلك حدثاً مهماً في تاريخ زنجبار عرف بأقصر حرب في التاريخ. (الموسوعة العمانية، مج ٤، ص ١٢٢٢-١٢٢٤)

خرج السيد خالد بمساعدة رئيس الحرس السلطاني صالح مرمباجني القمري الذي بقي موالياً لسيده ومرابطاً معه (المغيري، ص ٣٨٤)، فاتجه به مباشرة إلى القنصلية الألمانية حيث حصل على الحماية الألمانية، فنقله الألمان إلى دار السلام التي كانت مستعمرة ألمانية آنذاك، وظل مقيماً هناك حتى الحرب العالمية الأولى وتحديداً عام (١٣٣٥هـ/١٩١٧م). عندما خسر الألمان الحرب عرضت عليه الإدارة الألمانية - قبيل خروجها من دار السلام - الانتقال إلى برلين والعيش فيها لكنه أثار الانتقال إلى ممباسا. وبعد أن خرج الألمان ألقى البريطانيون القبض عليه ونفوه إلى جزيرة سانت هيلينة ثم إلى جزيرة سيشل عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، ثم سمحت له عام (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) بالعودة إلى ممباسا شريطة أن يعتزل العمل السياسي.

حاول السيد خالد العودة إلى زنجبار من أجل العيش بها، وذلك في عهد السلطان خليفة بن حارب (١٩١١-١٩٦٠م) حيث وجه رسالة إلى السلطان في عام (١٣٣٩هـ/١٩٢١م) يرجوه فيها أن يسمح له بالعودة إلى زنجبار هو وأسرته متعهداً له بعدم المطالبة أو التدخل في شؤون الحكم، إلا أن السلطان خليفة رفض ذلك

زنجبار، وهو ما يبرز حدة الصراع الاستعماري بين القوتين في أواخر القرن التاسع عشر.

أثبتت الدراسة أن السياسة الألمانية في شرق أفريقيا كانت ذات طابع محدود الأثر على المدى الطويل، إذ لم تستطع ألمانيا الحفاظ على نفوذها بعد الحرب العالمية الأولى، مما يشير إلى فشل النموذج الألماني في تحقيق استقرار استعماري دائم في المنطقة.

تسلط الدراسة الضوء على الدور غير المباشر للعمانيين في التاريخ الاستعماري لشرق أفريقيا، حيث شكلت شخصياتهم محوراً للتفاعل بين القوى الكبرى، وأسهمت مواقفهم الفردية في صياغة مسارات الصراع الدولي آنذاك.

التوصيات

ضرورة التوسع في دراسة الوثائق الألمانية والبريطانية المتعلقة بزنجبار وشرق أفريقيا، للكشف عن تفاصيل المواقف السياسية والدبلوماسية غير المعروفة بعد.

الدعوة إلى دراسات مقارنة بين الأساليب الاستعمارية لكل من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا في شرق أفريقيا، مع التركيز على طريقة تعاملهم مع الزعامات المحلية.

تشجيع تحليل مذكرات السيدة سالمة وغيرها من المصادر الشخصية بوصفها وثائق ثقافية تكشف عن صورة "الأخر الأوروبي" في الوعي العربي العماني خلال القرن التاسع عشر.

الاهتمام بالمصادر العمانية المحلية من وثائق ومراسلات ومذكرات لتكميل الصورة التاريخية عن دور الشخصيات العمانية في الصراع الاستعماري.

تضمين المنهج التحليلي النقدي في الدراسات المستقبلية حول التاريخ العماني-الأفريقي لتجاوز السرد التقليدي وتقديم قراءات تفسيرية أعمق.

اقترح إعادة نشر هذه الدراسة بعد تطويرها لتصبح بحثاً أكاديمياً موسعاً يضم تحليلاً نظرياً للسياسة الاستعمارية الألمانية في ضوء مفاهيم النفوذ والتغلغل الثقافي والسياسي.

يعكس خصوصية التجربة الاستعمارية الألمانية مقارنة ببريطانيا أو فرنسا. وقد أثبتت التجربة في النهاية محدودية هذا النهج، إذ لم تنجح ألمانيا في ترسيخ وجود طويل الأمد في المنطقة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى.

ويمكن القول في ضوء ما تقدم إن دراسة السياسة الألمانية في شرق أفريقيا من خلال علاقتها ببعض الشخصيات العمانية تكشف عن تشابك البعدين السياسي والإنساني في التاريخ الاستعماري، كما تسلط الضوء على الدور غير المباشر الذي لعبه العمانيون في تشكيل مسار الصراع الاستعماري في شرق أفريقيا. ويوصى بإجراء دراسات أعمق مستقبلاً تتناول وثائق القنصليات الألمانية والبريطانية في زنجبار ودار السلام لتوسيع الفهم حول طبيعة التنافس الدولي في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ المنطقة.

نتائج الدراسة

يتضح من الدراسة أن الوجود الألماني في شرق أفريقيا جاء متأخراً مقارنة بالقوى الاستعمارية الأوروبية الأخرى، إلا أن ألمانيا تمكنت من إيجاد موطئ قدم من خلال استخدام أدوات غير مباشرة كالديمقراطية السياسي والحماية الدبلوماسية لبعض الشخصيات المؤثرة في المنطقة.

كشفت وقائع حماية السيدة سالمة بنت سعيد والسيد خالد بن برغش أن السياسة الألمانية لم تكن عملاً إنسانياً أو دبلوماسياً بريئاً، بل كانت جزءاً من إستراتيجية استعمارية أوسع هدفت إلى منافسة النفوذ البريطاني وترسيخ المصالح الألمانية في زنجبار والساحل الشرقي لأفريقيا.

أظهرت دراسة الحالتين أن التحركات الألمانية اعتمدت على استغلال الروابط الأسرية والسياسية العمانية لتبرير تدخلها في شؤون زنجبار، وهو ما يعكس وعياً سياسياً دقيقاً بالأوضاع المحلية ورغبة في توظيفها لصالح المشروع الاستعماري الألماني.

أما بريطانيا فقد تعاملت مع تلك التحركات الألمانية بقدر كبير من الحذر والتوجس، مدركة أن أي تقارب بين الشخصيات العمانية وألمانيا قد يُضعف قبضتها على

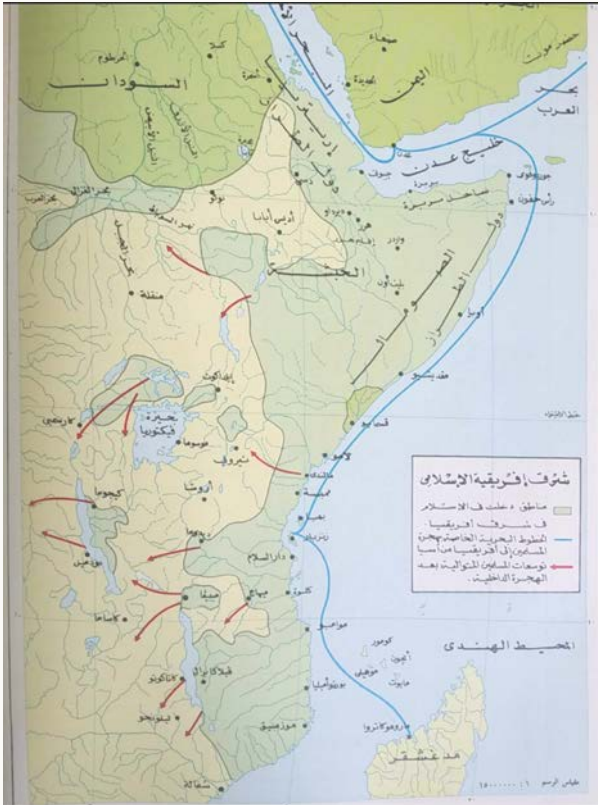
الملاحق

ملحق رقم (١)



السيدة سالمة رفقة زوجها وطفليها سعيد وانطوني
المصدر: سالمة بنت سعيد. مذكرات أميرة عربية. دار
الجمال، ط ١، ألمانيا: ٢٠٠٢

ملحق رقم (٢)



خريطة المدن والمراكز على الساحل الشرقي لأفريقيا
المصدر: مؤنس، حسين. أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء
للإعلام العربي، القاهرة: ١٩٨٦م، ص ٣٧٠

ملحق رقم (٣)



المراكز العمرانية والطرق الرئيسية

المصدر: محمد، صالح محروس. سلطنة زنجبار في شرق أفريقيا ١٨٩٠-١٩٦٤م. ط١، جامعة السلطان قابوس، مسقط: ٢٠١٦م

ملحق رقم (٤)



سلاطين زنجبار

الذين حكموا خلال الفترة (١٨٥٦-١٩٠٢م)

المصدر: كرهيل، حامد. العلاقات التاريخية بين الدولة البوسعيدية وجزر جمهورية القمر المتحدة (١٢١٩هـ-١٢٨٣هـ/١٨٠٦م-١٩٦٤م). بيبلس كونسالتينغ للطباعة والنشر والتوزيع، موسكو: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

المصادر والمراجع:

أولاً: الوثائق

- كام، جوزفين. المستكشفون في إفريقيا. ترجمة: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٣م.
- مجموعة باحثين. الموسوعة العمانية. مجلد ٤، ط ١، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠١٣م.
- الطائي، عبد الله بن محمد. تاريخ عمان السياسي، ط ١، مكتبة الربيعة للنشر والتوزيع، الكويت: ٢٠٠٨م.

رابعاً: المراجع الأجنبية

- R W Bailey. Record of Oman (1867-1947). VOL1, Archive Edition, Buckinghamshire, England
- Coupland, R, The Exploitation of East Africa, 1856-1890, The slave trade and the Scramble. Northwestern university press, London, 1967.

- صوك ومكاتبات من زنجبار. وثيقة رقم (٦٧)، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيد، السيب. عبارة عن رسالة اعتذار من بسمارك إلى السلطان خليفة بن سعيد عن دخول القوات الألمانية مناطق نفوذ السلطان في بجمايو وفنجاني، ومؤرخة في ١٨٨٨م.
- مخطوط عن زنجبار تحت رقم (٢١٧٠). دار المخطوطات، وزارة التراث والثقافة، مسقط.

ثانياً: المصادر

- سالمة بنت سعيد. مذكرات أميرة عربية. دار الجمل، ط ١، ألمانيا: ٢٠٠٢.
- المغيري، سعيد بن علي. جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ط ١، تحقيق: محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠٠١م.

ثالثاً: المراجع العربية والمُعربة

- يحيى، جلال. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية: ١٩٩٩م.
- تركي، بنیان سعود. ثورة الشيخ بشير الحارثي في شرق أفريقيا (١٨٨٨-١٨٨٩م). المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٩٩، الكويت: ٢٠٠٧م.
- تركي، بنیان. الأمير خالد بن برغش. حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣، القاهرة: أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٢.
- الجمل، شوقي. تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها. ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر: ١٩٨٠م.
- الريامي، ناصر بن عبد الله. زنجبار شخصيات وأحداث. ط ٢، مكتبة بيروت، القاهرة: ٢٠٠٩م.
- الشبلي، أحمد بن خلفان. الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيد (١٩١١-١٩٦٠م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة السلطان قابوس، مسقط: ٢٠٠٩م.
- فليجة، أحمد نجم الدين. أفريقيا: دراسة عامة وإقليمية. مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية: ٢٠٠٥م.
- قاسم، جمال زكريا. دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان (١٧٤١-١٩٧٠م). مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.



ندوة دولية في وجدة مناهج البحث في الدراسات الاستشرافية

أنس العزوتي

باحث في التواصل والثقافة الرقمية
جامعة محمد الأول - وجدة
المملكة المغربية



ملخص

شهدت جامعة محمد الأول بوجدة - المغرب، في ماي ٢٠٢٥، انعقاد ندوة دولية تحت عنوان: "مناهج البحث في الدراسات الاستشرافية"، نظمتها المركز الجامعي للدراسات والبحوث الإفريقية بشراكة مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ويتعاون مع شعبة الدراسات الإفريقية. شكلت هذه الندوة العلمية محطة بارزة للحوار الأكاديمي، حيث تم استعراض مسارات البحث الاستشرافي ومناهجه المختلفة وتحليلها نقدياً. وقد تناولت المداخلات التي قدمها المشاركون عدة محاور. سنحاول من خلال هذا المقال الوقوف عند أهم المحاور التاريخية والمنهجية والنقدية، وكذلك المقاربات المعتمدة في دراسة الحضارات الشرقية وما تطرحه من إشكالات معرفية ومنهجية. كما ناقشت الندوة آفاق التعاون البحثي بين المؤسسات المغربية والألمانية، وأكدت على أهمية الانفتاح على التقنيات الرقمية الحديثة وتوظيفها في خدمة الدراسات التاريخية والإسلامية. وشكلت هذه الفعالية العلمية منصة خصبة لتبادل الخبرات والتجارب، وتعزيز النقاش الأكاديمي حول موقع الاستشراف في الدراسات المعاصرة، وإعادة التفكير في طرائق وأدوات البحث العلمي في هذا المجال. وبذلك ساهمت الندوة في تعزيز الروابط الأكاديمية الدولية، ودعم إنتاج المعرفة في الدراسات الاستشرافية، مع فتح أفق واسع لمشاريع بحثية مستقبلية بين المغرب وألمانيا.

كلمات مفتاحية:

الدراسات الاستشرافية؛ التاريخ الإسلامي؛ الاستشراف الألماني؛ وجدة؛
الدراسات التاريخية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.427300.1282

معرف الوثيقة الرقمي:

بيانات الندوة:

نظم المركز الجامعي للدراسات والبحوث الإفريقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في وجدة صباح يوم الجمعة ٢ ماي ٢٠٢٥، ندوة دولية لمدة يوم واحد في موضوع "مناهج البحث في الدراسات الاستشرافية"، عرفت حضور ثلة من الباحثين والخبراء من المغرب وخارجه.

للقرآن الكريم في بعض السياقات. بينما اختتم المحور الثالث بمناقشة بدايات اهتمام الاستشراق الألماني بعلم الكلام، من خلال تأثير ترجمات كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون.

المحور الأول: نظرات في المنهج الاستشراقي بين الماضي والحاضر

قام الدكتور وأحمد أديوان^(١)، بمقاربة تاريخية لدراسات الاستشراق باعتباره علاقة بين دول الاستعمارية ودول أخرى دخلها المحتل لاستثمار خيراتها وجلب لنفسه ما فيها خيرات ويترك لها السلبيات. وتطرق الى ماضي الاستشراق القديم، لأنه هو الذي حفر مجرى في الثقافة الإنسانية يبني على أساس أن العلاقة كانت علاقة صدام وان هذا الصدام كان مركزي في مرحلة من المراحل، وكانت هذه العلاقات في القرن (١٦-١٧م) تبنى على أساس ما يسمى التفاعل بين أنماط من الحياة والثقافات والمجتمعات، لان الطرق التجارية والطرق الاقتصادية كان مبنية على أساس نوع من التاريخ القديم، الذي بنية فيه المصالح ليس على أساس الحروب دوما وانما على أساس التبادل التجاري.

كانت حركة الاستشراق في البدايات الأولى في صلب الشرايين الاقتصادية، وبنيت علاقات على أساس الانتفاع أو ما سماه الدكتور أديوان (طرق اجتلاب المنافع)، وأدت هذه الطرق التجارية الى التفاعل بين الأمم، وكذلك بناء الاقتصادات الكبيرة، والاستشراق بدأ أولا كطريقة معينة لتبادل المصالح والمنافع ولم تكن له خلفيات أخرى من غير تصريف البضاعة لان السوق كانت تتحكم في الاقتصاد، لكن الثورات الفكرية والصناعية والاقتصاد وضور الطاقة البخارية وغير ذلك، كل هذا تحول بشكل مغاير من تحكم وسيطرة على الأسواق عنوان الى تحكم ثقافي وسيطرة ثقافية، هذا ما جعل العلاقات تتوتر قليلا لا سيما مع الامبراطوريات الكبرى في تلك المرحلة (الامبراطورية البرتغالية، والفرنسية، والبريطانية وكذلك الامبراطورية البيسماركية تحت وحدة ألمانيا)، كلها هذا سوف يؤدي الى تحول فكري عميق لدى الثقافات.

هذا التحول سوف يجعل الناس يدرسون هذه العلاقات خارج الاقتصاد لذلك أصبح يفكرون تفكير آخر، بما أن هذه الثورات الاقتصادية، ووجود السفن البخارية وغيرها من الطاقات التي قلصت المسافات في المعمورة بين الأصقاع وبين الأماكن المتباعدة، فكان من اللازم العودة الى تفكير آخر يقلص المسافات بين الأفكار والثقافات، فكما أن هذا التبادل قلص المسافات على المستوى الاقتصاد والثقافة والفكر، هذا ما أدى

شهدت جامعة محمد الأول بوجدة - المغرب، في مايو ٢٠٢٥، انعقاد ندوة دولية تحت عنوان: "مناهج البحث في الدراسات الاستشرقية"^(١) وهي ندوة علمية تروم الوقوف عند المسار الطويل للدراسات الاستشرقية وما رافقه من بحث وتأمل في الحضارات الشرقية منذ القرن الثامن عشر، حين اعتبر بعض المستشرقين أن الذهنية الشرقية ما تزال أسيرة الخرافة والسحر، وأن مجتمعاتها لم تنخرط بعد في مسار الثورة الفكرية والتنويرية الأوروبية. غير أن هؤلاء أغفلوا جانباً مهماً من التاريخ، يتمثل في أن الفكر العربي الإسلامي هو الذي أسس لمركزية العلم في مسار الحضارة الإنسانية، وأسهم في إبعاد مظاهر السحر والخرافة، خاصة في لحظات نضجه خلال القرن الثاني عشر الميلادي الذي عُدَّ بحق قرن الثورة الفكرية في المغرب والأندلس، وقبل ذلك منذ القرن الخامس الهجري في ظل الدولة العباسية، بل ومنذ العصر الأموي أيضاً.

لعبت حركة الأنوار الأوروبية دوراً محورياً في نقل مفاهيم الحرية الفكرية والاهتمام بالآخر إلى المجتمعات الشرقية، وقد اهتم مفكرون كبار مثل مونتسكيو، جان جاك روسو، فولتير، وديدرو، إضافة إلى الفلاسفة الألمان ككانط وهيغل، بدراسة الفكر الشرقي ضمن سياق نقدي وتحليلي، مع التركيز على فهم الذهنيات الشرقية ومقارنتها بالأنساق الفكرية الأوروبية، وسعى عدد من المستشرقين الأوروبيين، من أمثال رودري باريت، وأبراهام جايجر، وهنري لاوست، وجوزيف شاخت، إلى دراسة النصوص الإسلامية والقرآن والفقه والفرق الإسلامية بمنهجية علمية موضوعية، بعيداً عن المغالطات أو التعميمات السطحية التي اعتمدتها بعض المدارس الفرنسية المبكرة مثل إرنست رينو وأنطوان جالان، الذين ركزوا على الثقافة الأدبية والترفيهية دون الاهتمام بالإنجازات الفكرية والعلمية الكبرى، وقد أظهرت هذه الدراسات قدرة الفكر الإسلامي على إرساء أسس العلم العقلاني والفكر النقدي، مما ساهم لاحقاً في تشكيل النهضة الأوروبية عبر حركة الترجمة ونقل العلوم. وتؤكد هذه الممارسة على أهمية النزاهة العلمية والموضوعية في الدراسات الاستشرقية الحديثة، باعتبارها أداة لفهم الهوية الذاتية والآخر، وبناء حوار ثقافي مستنير يتجاوز التنازع أو الصراع بين الحضارات.

تم مناقشة مجموعة من القضايا تخص الاستشراق، توزعت على مجموعة من المحاور من بينها المحور الأول الذي تناول قراءة تاريخية في تطور الدراسات الاستشرقية وعلاقتها بالسياق الاستعماري، أما المحور الثاني تطرق لعلم الحديث باعتباره عماد الحضارة الإسلامية ومصدراً تشريعياً موازياً

الى تلاحق الأفكار، (الأفكار المسيحية واليهودية مع الأفكار الإسلامية).

هذا ما أدى الى انفتاح كبير يدل على أن الانسان في القرن الثامن عشر بدأ يفكر بوعي آخر مخالف لما كان عليه الأمر في "النظريات الفيزيوقراطية القديمة"^(٣)، وفي نظريات الاقتصاد التي كانت تقدم المنفعة الاقتصادية على غيرها من الأشياء الأخرى، ولكن خلال القرن الثامن عشر انتقلت المنفعة الاقتصادية الى منفعة فكرية ومنفعة في نفس الوقت، أي أنه تم الونائم والتداخل التاريخي بين مجريين في تاريخ الإنسانية، البحث عن الخيرات في دول مختلف عبر القارات المختلفة في الشرق أو في افريقيا، وفي وقت ذاته تم هناك التعبير عن ضرورة والحاج مجال آخر ومجرى آخر في تاريخ البشرية هو البحث عن الأفكار والبحث عن العلم والعلوم الموجودة عند الآخر.

رأى الدكتور أديوان أن هذه النظرية تعتبر تعاقب فكري ثقافي رمزي بين ثقافة قديمة مصلحية ونفعية، وثقافة جديدة متجددة هي ثقافة الفكر والعلم، ولكن كانت لديها خلفية اقتصادية ومالية وبالتالي انتقلنا من حضارة الفكر الاقتصادي "المركنتيلي"^(٤) المبني على التجارة، الى نوع آخر من التفكير العلمي والثقافي والفكري التي تنوي أن تأتي بالجديد على مستوى الأفكار والثقافات. هذا ما سوف يؤدي ظهور "نوادي الاستشراق"^(٥)، مع مدارس الاستشراق وتوجهات استشراقية باعتباره هي حركة مواكبة فكريا وثقافيا لما يجري داخل المجري الأول المذكور في السابق وهو الاقتصاد والمنفعة وسائر التحكيمات السياسية التي كانت في تلك المرحلة، فكان لا بد من المواكبة بين المجريين فظهرت حركات الاستشراق الكبيرة باعتبارها توطد السبيل وتمهيد الطريق لهذا النوع من الفكر الجديد.

سيتوجه المنهج الاستشراق في مراحل القرن الثامن عشر على الخصوص توجه جديد سوف يحمل معه آثار ثورة فكرية لا سيما أننا حينما يتم تأطير هذا الفكر سوف يتم تأطيره ضمن حركة الانوار، وحركة الأنوار كانت موجودة في ألمانيا وفرنسا بريطانيا فلاسفة كبار من (منتسكيو- وجون جاك روسو- ملابرنش وديدرو- وفولتير) وكذلك نجد في ألمانيا (كود- وهغل- وكدنز- ولينين- وايمانويل كانط)، هؤلاء الذين استفادوا من الفلسفة الألمانية في تلك الوقت.

فيلاحظ الدكتور أديوان أن هذه التصورات سوف تنتقل الى المجتمعات عبر مجموعة من المراكز الأوروبية الفكرية، وستنقل هذه الثورة الفكرية نوعا من الرموز التي تسمى حرية التفكير وكذلك حرية التفكير في الآخر، والبحث عن الآخر (هذا الأنا

وهذا الآخر)، التي سوف توضع كتب في هذا المجال في الثقافة الألمانية كما وضعت في الثقافة الفرنسية، مثل (جون لوك) سوف يتحدث عن مفهوم الحرية، وسوف تظهر نظريات كبيرة في المفهوم مع الاستشراق مباشرة، وسوف تسير مع الاستشراق لتبين أن هؤلاء المفكرين هم أيضا سيفكرون في ثقافة الآخر وسيتحدثون على هذا الآخر باعتباره اكتشاف جديد، لا يكتشف فقط الطرق التجارية ولا يكتشف فقط المجالات لتصريف البضائع وإنما يكتشف ثقافة الآخر وعقل الآخر وذهنية الآخر.

هذا ما سوف يؤدي بنا الى القول إن الاستشراق في المراحل الأولى اهتم بالذهنيات لأنه كان ينظر الى الآخر باعتباره مغاير ومخالف وهذا التصور كان عند (وولف- وهردر...) من الذين تحدثوا عن الأعراق وعلى أن هذه الأعراق مختلف عن الأعراق الأخرى، مما سيشكل ثورة فكرية تتحد باعتبار موجبات التصور لمفهوم الآخر باعتباره أقل أودون مركزية الأنا، وهذا خلق نوع من التفكير المغاير عند الأوروبيين الذي سماه الدكتور أديوان ووصفه بالاستعلاء لأنهم كانوا يملكون ما يستعملون به وهي "الأفكار التنويرية"^(٦)، فيما كان الشرق كان يعرف نوع من الانغلاق كما نراه في آسيا اليوم ضمن ما يسمى أنظمة الاكتفاء الذاتي في الصين واليابان في عهد بعض الأسر الكبيرة.

كان الشرق في تلك الفترة يعرف نوع من المرض والوهن مع الدولة العثمانية ذلك الرجل المريض، فعندما استنتجوا الأوروبيون هذا الوضع الذي يعرفه الشرق بدؤوا يبحثون في الذهنيات وليس في العقل، وبالتالي سوف يبدأ الاستشراق كبحت في الذهنيات على أساس أن النظر في الذهنية يوفر لنا الكثير من المشاق ويختصر الطريق الى ما عليه هذا الشرق من بنياته الذهنية.

اعتبر الدكتور أديوان أن الذهنية هي المؤسسة للإنسان، وعندما وجد هؤلاء الأوروبيون أن هذه الذهنية المشرقية تعتمد على الخرافة والسحر، واستنتجوا أن هذه المجتمعات لم تنخرط بعد في ما يسما بالثورة الفكرية التنويرية في القرن الثامن عشر الميلادي كما فعلوا هم في القرن الثاني عشر الميلادي، ولكن هناك مسألة مهمة التي لم ينتبهوا اليها الأوروبيون أن من خلق مركزية العلم في تاريخ الحضارة الإنسانية وأبعد سائر السحر والخرافة هو الفكر العربي الإسلامي في مراحل نضجه، لا سيما في القرن الثاني عشر الميلادي، الذي يعتبر قرن الثورة الفكرية في بلاد المغرب والأندلس، وكذلك منذ القرن الخامس الهجري في عهد العباسيين وقبل ذلك مع "دار الحكم"^(٧) في زمن الأمين والمأمون.

بالترجمة فقط كما يدعي "إيرنستري نو"، انما قام ببعث الفكر اليوناني من جديد وألبسه لباس عربي لكن ليس بالصفة التي يقدمها لنا "إيرنستري نو"، وانما بطريقة أخرى مغايرة تمام تعتمد على إنشاء نوع من الحوار الفكري البناء بين الحضارة الإسلامية وبين فكر ابن رشد الخلاق، وحتى ان اليونانيين أحيانا يقولون انهم لم يعرفوا الكثير من الأشياء في العلم كما عرفها المسلمون.

وبتالي نستنتج أن السبب وراء عدم اعتراف "إيرنستري نو" بقوة الرشدية في ذلك الوقت فهو من باب الخلفية المغرضة للمنهج الاستشراقي، ولن يقف عند هذا الحد، بل يمتد الى كتاب آخرين ومستشرقين آخرين، من أمثال "أنطوان جالان"^(١٠)، في المدرسة الفرنسية يتحدث عن كتاب كليلا ودمنة وعن ألف ليلة وليلا كما لو ان ما أشتهر به العرب المسلمون وما أنجزه فكرهم يقتصر على هذه الكتابات عن الطبيعة الصاخرة أو يمكن تسميتها بالثقافة الخفيفة أي ثقافة الترفيه.

فيرى الدكتور أديوان أنه عندما قام "أنطوان جالان" بشرح وتحقيق هذه الكتب كان يريد أن يتعرف الغرب على الوجه الشرقي الذي لا يستطيع أن يصل الى مستوى الفكري الذي وصله الغرب، وأن الشرق لا يملك رموز فكرية، ولكن هذا غير صحيح في الحقيقة، لان الشرق لديه رموز كبيرة في الفكر الإسلامي لم يهتم بها أحد الى بعض المستشرقين الذي أتوا بعد "جالان" سوف يكتبون على "الجاحظ"^(١١)، وسوف يكتشفون هؤلاء المستشرقين قامات كبيرة عقلانية مثل الجاحظ.

وكذلك نجد المستشرق "شارل بلا"^(١٢) الذي كتب على الجاحظ في أطروحته ويقول: ان الجاحظ أنتج لنا فكر كلامي متميز وفكر مؤسس لثورة فكرية تنويرية، ولكن مع ذلك يرى الدكتور أديوان أنه كان يتحايل في منهجه الإستشراقي، ولم يستطيع أن يقول في ذلك الفكر المركزي أنه فكر تنويري وأنه فكر يستطيع أن ينافس الفكر الأوروبي، بحيث كان الجاحظ متمكن في علمه استطاع الرد على معاصريه في علم الكلام بطرق علمية التي يبنّا من خلالها أنواع من الجدل والحجاج، وبتالي لن يستطيع أن يقول هذا بل ما قاله "شال بلا" أن الجاحظ يمثل فرقة صغيرة في علم الكلام تسمى الجاحظية، ونسباً أن طريق الجاحظ في الاعتزال هو طريق التنوير، وأن المعتزلة في زمنهم كانوا يمثلون التنوير أي العدل و التوحيد ومتصدي للفكر الخارجي الذي كان متطرف ولل فكر الشيعي أيضاً، وكان الجاحظ مصحح كثير في الفكر المسيحي في ما يتعلق في الاختلافات الموجودة بين الأنجيل والاختلافات بين النصوص المقدسة والتفسير.

هؤلاء المستشرقين وقفوا حائرين أمام هذا الزخم الفكري والعلمي، لأنهم كانوا في زمنهم لم يطلعوا بعد على هذا الزخم الموجود لدى الحضارة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، ولن يدروا ولم يدركوا بعدوا أن أسس حضارة النهضة في أوروبا كانت على أساس الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية، في ما قام به حركات الترجمة سواء "الإسكندرية القديمة" أو حتى "طليطة" وغيرها من المدن الأسبانية، كان التراث العربي إسلامي ينقل بلغات اللاتينية القديمة أو لغات عبرية قديمة الى المجال الأوروبي، وعبر هذه السيرة الثقافية والحضارية سوف يبرز نوع آخر من التفكير وهو تفكير المقارنة ضمن تصور معين لمفهوم مركزي الغرب وهامشية الشرق.

وأشار الدكتور أديوان الى الشاعر الألماني "غوته"^(٨): والمقلب بـ "عاشق الشرق"، حيث كان يتحدث عن الشرق بقوة وجمال الشرق، وأن الشرق في خياله متميز وأن خيال الشرق خيال خلاق ومبدع وليس خيال دنيا وينبغي الاستهزاء به أو التفكير في أنه جزء من تخلف العرب والمسلمون كما يدعي البعض من المستشرقين، أبدا لم يكن الشرق في ذلك الوقت الا شرق توقف لحظة من الزمن لأنه لم يجد الطريق لكي يعيد أمجاد الماضي ليصنع على أساسها ثورة فكرية، وبتالي هذا سوف يحدث في النهضة الفكرية في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين الميلادي ما يسما بصحوة الإسلام ويقظة العرب.

وغيرهم من المستشرقين من أمثال "غوته" الذي كانوا يعتمدون في المنهج الاستشراقي على بعض المدركات التي كانت قصيرة ومنحصرة وكان جاهلة مما كانت عليه الحضارة الإسلامية وعلى رأس هؤلاء في المدرسة الفرنسية "إيرنستري نو"^(٩) الذي يقول: لا فضل للفلسفة العربية الإسلامية على الإنسانية الا ان ترجمة الفكر اليوناني وأنت به بصورة من الصور وأنه كان قصير ولم يستطع أن يدرك حتى مستوى الفكر اليوناني.

فيرى الدكتور أديوان أن "إيرنستري نو" كان مخطأ في ما قاله بخصوص الشرق، فهذا يرجع الى سببين رئيسيين: أولهما أن لما تحدث عن الرشدية فهنا يقصد "ابن رشد" فهو ركز على الرشدية للأسف، ذهب الى أكبر مستوى من نضج الفكر الإسلامي والعقل الفلسفي وتهمة بالقصور وقال أنه نقل فلسفة اليونان في حين أن ما كتبه ابن رشد في كتبه كان ينتقد ابن رشد ويكمل المشروع الرشدي، وذلك بدليل أن كتاباته تحمل دائماً شرح لكتابات ابن رشد والتعليق على كتب (كتاب الطبيعيات- كتاب السياسة- كتاب الاخلاق...)، وبتالي لم يكتفي ابن رشد

البعثة، "والرسول محمد قال: أبان هؤلاء اليهود هم منا ومن ارومتنا السامية"، وعند ما ندرس اللغات نجد فصائل اللغات هي تتحدث عن لغة سامية هي اللغة العبرية والعربية، وهكذا اتجه اهتمام الالمان الى دراسة أصل اللغات.

انتقل الدكتور أدويان الى بعض المستشرقين الذين صححو بعض الأشياء الغميسة المنطوية تحت طبقات من الفكر الإسلامي وهو "هنري لاوست"^(١٩) الذي كتب حول الفرق الإسلامية، حيث استطاع أن يدرك الكثير من القضايا الكبرى في علم الكلام انطلاق من المقارنات وبناء جسور تواصلية حقيقية بين الفكر الإنساني وعبر عن ذلك بأن قوة الفرق الإسلامية تكمن في أنها بنت أنظمة الحجاج والمناظرة قبل زمن المناظرات وقبل زمن الحجاج.

وأشار الدكتور أدويان الى المستشرق "جوزيف شاخ"^(٢٠) الذي تحدث على الفقه الإسلامي ومدارسه بحديث خبير يقر بأهمية الفقه الإسلامي من نظريات المعاملات ونظريات التشريع ولا يتحدث بشكل استهزائي ولا سخرية منها، بل هو عالم حقيقي استطاع ان يرد الاعتبار الى مفهوم حقيقة العلم ومفهوم الموضوعية والنزاهة على الرغم مما شابه من بعض النقص فيما يتعلق بقلت الاطلاع على النصوص كلها.

انتقل الدكتور أدويان الى التصوف فاعتبره على أنه أعمق الأفكار وأعمق التخصصات الفكر الإسلامي وهو علاقة بين الانسان وخالفه، وأشار الى انا "ماري شيميل"^(٢١) تتحدث بكون التصوف مرتبط بما يسمى بالمحبة وأن المحبة أساس التصوف، هذا أخذته من الفلسفة الإسلامية، وأشار كذلك الى المستشرق الألماني "كريستوف لكسنبرغ"^(٢٢) الذي كتب على الأصول الأرامية "للقران الكريم"، وهو في الحقيقة توهم انطلق من أنه وجد مخطوطات سريانية قديمة فيها (١٦) آية من "القران الكريم" فوجد فيها بعض الكلمات الموجودة في القران، فحول القران المقدس والمنزول الى ما يسمى الأصول السريانية، فالسبب في هذا هو عدم اطلاع على كتب مثل كتب "الجواليقي" وكتب "الصاحبي لابن فارس" وعن الدخيل في اللغة وعن الدخيل في القرآن وعن غريب القرآن، وأن مسألة وجود كلمات سريانية في القرآن، فهي من خلال هذا يتم الانفتاح الوحي على سائر اللغات لأن خالق اللغات هو الذي نزل القرآن.

فيذكر كذلك الدكتور أدويان المستشرق "يوهان فولفغانغ فون غوته"^(٢٣) قدر الإسلام وقدر الشرق وقدر شخصية "الرسول محمد"، وألف كتاب (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) وقال فيه: أنه ينبغي أن ننظر الى هذه الشمس التي أتت لنا من

وانتقل بعد ذلك الدكتور أدويان الى جانب آخر في المنهج الاستشراقي هو منهج آخر حاول أن يفكر في الذهنيات فأشار الى هذا النوع من هذا الجانب من بينهم المستشرق "هنري دو كاستري"^(٢٤) وغيره كلهم كانوا يتخصصون في دراسة تاريخ المغرب، وأيضا المستشرق "شارل دوفوكوا"^(٢٥) صاحب كتاب "التعرف على المغرب"، والمنهج الذي اتبعوه هؤلاء في دراساتهم هو محاولة البحث على الذهنيات، وكذلك المستشرق "ماستر مارك"^(٢٦) الذي تحدث على الأمازيغ والمغاربة في أصولهم القديمة وعلى ما كانوا يعبدون قبل ظهور الإسلام، ولكن عندما انتقل الى مرحلة الإسلام وجد نفسه لن يستطيع أن يعبر عن عقيدة وإيمان المغاربة، وبالتالي قال أن زمن القديم كان زمن وثني ولكن زمن الحديث زمن عقائدي، وبالتالي صحح لنفسه، لأن هؤلاء الأمازيغ لما اندمجوا في الحضارة الإسلامية أخذوها وتبنوها لأن "المولى ادريس الأول" لما لجى الى المغرب واستقر في ويلي عند القبائل الأوربية الأمازيغية تنازل له "حميد الأوربي"^(٢٧) على الحكم ووضعه في مكانه، بمعنى أنهم لم يكونوا من الاشقياء ولن يبحثوا على أي نوع من الأنواع الاختلاف مع هذا الدين، لانهم كانوا يعرفونه انه دين حق وبالتالي اندمجوا فيه وصاروا فيه وبنوا الدولة المغربية التي لزلت الى اليوم تعضوا على الإسلام بالنواجد.

وانتقل الدكتور أدويان الى الحديث عن المدرسة البريطانية لما ذهب الى الهند والشرق وتحدثت على الشرق وهم لا يذهبوا الى الشرق، بل فقط من خيالهم، تخيلوا الشرق على صفت من الصفات، وبالتالي هذا ما سوف يقوله "ادوارد سعيد" بأنهم خلقوا شرق غير شرقنا وخلقوا لنا ذهنية ليست ذهنيتنا.

وتطرق الى مسألة تطور الفكر الاستشراقي من الداخل، وأن من بين المدارس الاستشراقية أكثر انصافا هي المدرسة الشرقية الألمانية، لأنهم في دراساتهم لم يكون لديهم أي نوع من التحكمات السياسية أو خلفية مغرضة، وبالتالي كان الهاجس الواحد لديهم هو هاجس فكري وذلك منذ العهد القديم على سبيل المثال "رودي باريت"^(٢٨) لما ترجمة "القران الكريم" لم يترجمه الا لغاية واحدة قال: لأن هذا النص المقدس له خصوصيات وفيه حكمة معينة وله لغة، وكان يريد من هذه الترجمة هو معرفة الانساق والأساليب اللغوية في القران فدخل الى هذه المتاهات وضع كتاب ترجمة للقران وكان الغاية منه هو البحث عن العلم ولا يبحث عن غير العلم.

انتقل الى المستشرق الألماني "أبراهام جايجر"^(٢٩) الذي حاول أن يرد بعض النصوص المقدس في الإسلامي الى التراث العلمي اليهودي، لكن مسألة بعض التشابهات تربط اليهودية بالإسلام فهذا شيء قرره القران الكريم منذ الوحي في زمن

الشرق تحملاً لنا البشارة تقول لنا أن العلم العقل الفكر شيء مشترك لدى الإنسانية.

وختم الدكتور محمد أديوان مداخلته القيمة بوصف أهم ما تميز به المنهج الإستشراقي الألماني من بين مميزاته: الأمانة وحمل الهم العلمي والفكري، وكذلك أضاف أن ما تحتاجه الدراسات الاستشراقية هي مسألة النزاهة والتجرد والموضوعية والتخصص في الموضوع والدخول والغوص الى أعماقه، وأن اليوم أصبح الاستشراق مجال للبحث عن الهوية هويتنا نحن وهوية الآخر، وليس على أسس التنازع بالألقاب، بل على أساس بناء مجتمع انساني يرفض نظرية صراع الحضارات.

المحور الثاني: مناهج البحث في الدراسات الإسلامية علم الحديث نموذجاً

انطلقت الدكتور ياسمين أحمد أمين^(٢٤) من الحديث النبوي الشريف، بحث اعتبرته بمثابة العمود الفقري للحضارة الإسلامية ورفعوا المسلمون مكانته كمصدر لتوجيه الأخلاقي وحتى للشريعة الدينية ويأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، وأحينا يرتفع الى مرتبة توازي القرآن الكريم. وقالت الاستاذة أن الحديث ينقسم الى جزئين الإسناد هو سلسلة الروايات والثاني المتن، وكالإسناد هو توثيق للحديث قد ورد بالفعل عن لسان النبي لم يكف علماء المسلمين من القرن الثاني الهجري ترديد ما قوله الإسناد من الدين "ولو الإسناد لقال من شاء ما شاء ونسبه النبي". وأضافت بأن في العصر الحديث درس الأكاديميون الغربيون المسلمين والغير المسلمين آليات الحديث في البداية كمصدر تاريخي محتمل للإسلام في نشأته الأولى، وقادته مناهجهم أحيانا الى رواية مثيلة لتكوين مجموعات الحديث.

وأشارت الدكتور ياسمين أن الدراسات الأكاديمية الغربية المهتم بعلم الحديث تعود الى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي مع المستشرق إسكتلندي وليام وير^(٢٥) والمستشرق النمساوي لويس اشبرنجر^(٢٦)، فقد قاموا بدراسة السيرة النبوية، وانتقلت الى ذكر المصلح الهندي أحمد خان^(٢٧) صاحب كتاب (الأحمدية في العرب والسيرة المحمدية)، من أجل الرد على التصوير الذي قاموا به لشخصية النبي محمد (ﷺ).

وأشارت كذلك الى المستشرق الألماني جوزيف شاخ^(٢٨) له كتاب حول أصول الفقه المحمدي، الذي قدم فحص أكثر منهجية وشمولاً للمصادر المتاحة، ويقول شاخ ان الشريعة الإسلامية نشأة من التطور التاريخي لثلاث سنن مختلف وجدة بالتوازي، السنة الأولى سنة الجاهلية شبه الجزيرة العربية، والسنة الثانية القانون الإداري المختلط للدولة الاموية، والسنة

الثالثة هي التقاليد لمذاهب الفكرة الفقهية الإسلامية، ويجادل أن السنة الإسلامية هي نفسها سنة الجزيرة العربية قبل الإسلام مع تجديدات قليلة.

وتم الرد وانتقاد الادعاءات التي جاء بها شاخ من علماء مسلمين ومن بين أشهرهم محمد مصطفى الأعظمي^(٢٩) في كتاب أصول شاخ للفقه المحمدي، وأشارت الدكتور ياسمين الى تاريخية الأحاديث فالدراسات الغربية والشك الذي يلف حول نشأت الحديث عند النبي محمد ويجادلون ان الأحاديث تم تلفيقها في وقت لاحق من زمن الرسول وتم اسقاطها بشكل عكسي في المقام الأول بين القرنين الثالث والرابع ومن بين هؤلاء أبراهام وليم جوينبول^(٣٠) وغيره من المستشرقين الذين اقترحوا مناهجهم الخاصة لتاريخ الأحاديث تحيدي موقعها وتحديد صحتها. وعرضة الدكتور ياسمين بعض النظريات للمستشرقين من بين بينها (الراوي المشترك لشاخ) التي تقول عدم انتظام نظام الاسناد، وطورها بعد ذلك جوينبول.

وفي الأخير أشارت الدكتور ياسمين الى المستشرق هارالد موتسكي^(٣١) صاحب نظرية ربط الاسناد بالمتن وذلك لتحديث الحديث بأكملهم وهذا المنهج ساعد الأكاديميين المستشرقين والعلماء المسلمين لفهم تاريخي لأكثر تفسير لأصول علم الحديث.

المحور الثالث: علم الكلام في الدراسات الاستشراقية الألمانية

سلط الضوء الدكتور المدراري يوسف^(٣٢) على مسألة بدايات التعرف على علم الكلام في ألمانيا جاء بالعرب السبب في ذلك هو أن القارئ الغربي الأوربي عندما تم ترجم كتاب (دلالة الحائرين) للفيلسوف اليهودي "ابن ميمون"^(٣٣) الذي كان له الفضل الكبير في تعريف المكرين الأوربيين في العصر الوسيط بعلم الكلام وذلك من خلال الترجمات اللاتينية المبكرة للكتاب، ومن بين الترجمات اللاتينية نجد ترجمة "سالومن مونك"^(٣٤) سنة (١٨٥٠م) وكذلك ترجمات كثيرة لكتب لابن رشد الى اللغة اللاتينية التي كان فيها اخذ ورد بين أوساط المكرين الأوربيين، وشكلت خلفية معرفية تعرف عليها القارئ الغربي بشكل عام والألماني بشكل خاص على علم الكلام العربي الاسلامي.

أشار الى المصادر الغربية التي عرفت القارئ الأوربي بالمتكلمين العرب المسلمين ومن بينهم "طوما الاكويني"^(٣٥)، الذي ناقش الاشعرية خصوصاً في قضية إنكار العلوية والسببية وقام بالرد عليها في كتابه "مجموعة الرد على الكفار أو الأمم".

أشار كذلك الى "سعديا غاؤون"^(٣٦) الذي ترجمة كتاب (الأمانات والاعتقادات)، ويعتبر من أشهر المترجمين من العهد القديم الى اللغة العربية، وجل الباحث في فهرس الكتاب له تعلق بعلم الكلام، وكذلك قال الدكتور المدراري أن علم الكلام تعرف عليه القارئ الألماني بشكل عربي لان الكثير الذي درسوا علم الكلام ذاوي خلفية يهودية أي أنهم متخصصين في بتاريخ اليهودية، وبالتالي دراسة اليهودية في عصر الوسيط أهم مدخل لها هو دراسة علم الكلام بسبب وجود الكثير من الفرق المذاهب الكلامية والدينية التي تأثرت بعلم الكلام. وأشار كذلك الدكتور مدراري الى أول كتاب كلامي حقق ونشر في الغرب هو كتاب للغزالي (قواعد العقائد) نشره مستشرق بريطاني ادوارد بوكوك^(٣٧).

وفي الختام أشار الأستاذ المدراري الى العوامل التي ساعدة على انتشار الكتب علم الكلام العربية في ألمانيا اما عن طريق التجارة، وكذلك لعب القناصل بدور كبير عن طريق شراء الكتب والمخطوطات العربية، وكذلك الترجمة من العربية الى اللاتينية.

توصيات الندوة

- الدعوة إلى مراجعة نقدية شاملة للمناهج التي اعتمدها المستشرقون في دراسة المجتمعات العربية والإسلامية، وتفكيك خلفياتها المعرفية والإيديولوجية.
- ضرورة التمييز بين الاستشراق كمنجز معرفي أكاديمي، والاستشراق كأداة خطابية ذات أهداف استعمارية أو سياسية.
- تطوير برامج أكاديمية متخصصة في دراسة الاستشراق، مع التركيز على البعد المنهجي والنقدي في التكوين.
- إنشاء وحدات بحثية أو مراكز دراسات تهتم بتحليل الإنتاج الاستشراقي وتصنيفه وتقييمه ضمن أفق الفكر العربي والعالمي.
- تبرير جدوى العودة النقدية للنصوص الاستشراقية الكلاسيكية والمعاصرة، مع تبني شروح علمية ومنهجية مصاحبة.
- الدعوة إلى تعميق البحث النقدي في مجال الاستشراق من الأحكام المسبقة، سواء بالتأصيل أو الإدانة المطلقة.
- تجميع القراءة السلبية للنصوص الاستشراقية، وربطها بالظروف السياسية والثقافية والاقتصادية التي نشأت فيها.

- ضرورة دمج دراسة الاستشراق في المناهج الجامعية، خصوصاً في تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية، لتكون أداة نقدية لدى الطلبة.
- تطوير أرشيف إلكتروني شامل يوثق المنجز الاستشراقي وتصنيفه حسب المواضيع والمناهج والمدارس المختلفة.
- تعزيز البحث المقارن بين الاستشراق والمدارس النقدية الغربية، مثل دراسات ما بعد الاستعمار، لفهم التحولات المفاهيمية والمنهجية.
- تشجيع الباحثين العرب على الإنتاج النقدي في مجال الإنتاج الاستشراقي وعدم الاكتفاء بالموقف الدفاعي أو الرفض الأيديولوجي.
- إقامة دورات تدريبية وورش عمل للشباب الباحثين لتأهيلهم منهجياً في التعامل مع النصوص الاستشراقية وتحليلها بلغة علمية دقيقة.
- الدعوة إلى إعادة الاعتبار للغات الحضارية والثقافية في مقابل الغلبة الاستشراقية، وذلك عبر إنتاج معرفة علمية ذاتية.
- العمل على بناء شراكات أكاديمية بين الجامعات العربية والمؤسسات الغربية المتخصصة في الاستشراق على أساس التكافؤ المعرفي.
- تعميق البحث في تاريخ تطور الاستشراق وأطماعه، وتتبع تجذره الجغرافي (الفرنسي، الألماني، البريطاني، الروسي، الأمريكي...).
- ضرورة دراسة تأثير الإنتاج الاستشراقي في السياسات الثقافية والتعليمية الغربية تجاه العالم العربي والإسلامي.
- التحضير لتصنيف موسوعة شاملة باللغتين العربية والإنجليزية توثق بالإعلام والرموز الأكاديمية التي اشتغلت على الاستشراق.
- الدعوة إلى إنتاج سرديات علمية عربية مضادة تبين المنهج العلمي الرصين وتقدم صورة واقعية عن الحضارة العربية والإسلامية.
- دعم المجالات المحكمة التي تنشر دراسات نقدية حول الاستشراق، وتفتح المجال للنقاش الأكاديمي الحر والمتوازن.

- (١) كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، "تعلن ندوة دولية تحت عنوان مناهج البحث الاستشراقي"، **فيسبوك**، ٤ مايو ٢٠٢٥، <https://www.facebook.com/share/p/19oiQCratz>
- (٢) **أحمد أديوان**: أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب
- (٣) **الفيزيوقراطية Physiocrats**: هي مذهب نشأ في فرنسا في القرن الثامن عشر، وذهب أصحابه إلى القول بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هي مصدر الثروة كلها.
- (٤) **المركنتلية**: هي سياسة اقتصادية ظهرت في أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتهدف إلى تعزيز قوة الدولة الاقتصادية من خلال التحكم في التجارة وزيادة الثروة الوطنية، تعتمد المركنتلية على تصدير أكبر كمية ممكنة من السلع وتقليل الواردات، وذلك من أجل جلب أكبر قدر من المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة إلى داخل البلاد.
- (٥) **الاستشراق**: هو حركة فكرية وفلسفية أسسها البيروقراطيون في بريطانيا بغرض فهم ثقافات وفلسفات وأديان الشرق إبان الاستعمار البريطاني للهند وأواسط القرن الـ١٨، وتوسعت حركة الاستشراق في الدول الاستعمارية كبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، ودُرست من قبل الأكاديميين في أروقة الجامعات والمعاهد العلمية بصورة أكثر منهجية، وشملت الشرق الأقصى والأدنى والأوسط بما فيها الدول العربية.
- (٦) **الفكر التنويري**: جاء عصر التنوير في القرنين ١٧ و١٨ الميلاديين ليكمل ما بدأه عصر النهضة في القرنين السابقين، كردة فعل طبيعية للظلم والقهر والاستبداد الذي كانت الشعوب الأوروبية تعاني منه على أيدي السلطة السياسية ممثلة في الملكية، والسلطة الدينية ممثلة في الكنيسة، والسلطة الاقتصادية ممثلة في الإقطاع، وكان عصر التنوير هو القاعدة التي قام عليها البناء الفكري للنظام السياسي والاقتصادي والديني والأخلاقي في القرون اللاحقة حتى يومنا هذا.
- (٧) **دار الحكمة**: تعبير يُطلق على دار علمية ظهرت في عصر هارون الرشيد (٧٦٦-٨٠٩ م)، وازدهرت في عصر المأمون والخليفة أبي جعفر المنصور، إذ ازدهرت الترجمة إلى العربية من خلال ترجمة الكتب اليونانية في العلم والفلسفة.
- (٨) **غوته**: الشاعر الألماني الشهير والمقلب بـ "عاشق الشرق"، فرغم أنه لا يمكن اعتباره مستشرقاً متخصصاً، ولكنه مثقف وشاعر كان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية الألمانية والأوروبية في عصره.
- (٩) **أرنست رينو Ernest Renan**: ١٨٩٢-١٨٢٣ مؤرخ وكاتب فرنسي اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقداً تاريخياً علمياً.
- (١٠) **أنطوان جالان Antoine Galland**: (١٦٤٦ - ١٧١٥ م) هو مستشرق فرنسي قدم الفرنسي إلى الغرب أوروبا



الشكر والتقدير:

يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور وسام شهير، أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الأول في وجدة، ورئيس المركز الجامعي للدراسات والبحوث الإفريقية في وجدة المملكة المغربية، على ما قدّمه من توجيه علمي مثمر وملاحظات منهجية دقيقة أسهمت في تقويم هذا التقرير وتحسين مضمونه، دون أن يكون له أي تدخل في قرار نشره.

نالت قدراً من التبجيل والاحترام في جميع الأوساط العلمية؛ سواءً بين الألمان أو المسلمين، ليس هذا فحسب، فالرجل لم يكتفِ في اهتمامه بالقرآن بمجرد الترجمة، بل أتبع ترجمته بعدة كتب في الدراسة حول القرآن.

(١٨) **أبراهام جايجر** Abraham Geiger: ١٨١٠م- ١٨٧٤م هو بُرّ يهودي ألماني تناول بالدراسة المشابه (علم مقارنة الأديان) بين القرآن وبين الكتب المقدسة عند اليهود، ألف كتاب الذي حمل عنوان: ماذا أخذ محمد من اليهودية؟

Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen - أول كتاب استشرافي في العصر الحديث يبحث المطابقة بين القصص القرآني وقصص العهد القديم.

(١٩) **هنري لاؤوست** Henri Laoust: ١٩٠٥م- ١٩٨٣م هو مستشرق فرنسي، من أبرز المستشرقين المُعْتَبَرين بالتراث العربي والإسلامي، ولا سيما مدرسة الحنابلة وأحمد بن تيمية، ومن أقربهم إلى الإنصاف والموضوعية.

(٢٠) **جوزيف شاخت** Joseph Schacht: ١٩٦٩- ١٩٠٢م مستشرق وباحث ألماني في الدراسات العربية والإسلامية. متخصص في الفقه الإسلامي. له مؤلفات عدة أبرزها (بداية الفقه المحمدي والذي حل فيه فقه الإمام الشافعي ورأته الشهيرة بالإضافة إلى تحليل نشأة علم الحدي).

(٢١) **أنا ماري شيمل** Annemarie Schimmel: ١٩٢٢م- ٢٠٠٣م، مستشرقة ألمانية، وباحثة في الإسلام والعرفان والتصوف، ولها العديد من المؤلفات في العرفان والثقافة الإسلامية بلغات مختلفة.

(٢٢) **كريستوف لُكسنبرغ** Christoph Luxenberg: هو اسم مستعار لمؤرخ وعالم عربيات وساميات ألماني، اشتهر بكتابة كتاب قراءة آرامية سريانية للقرآن التي افترض فيها كتابة أجزاء من القرآن باللغة السريانية.

(٢٣) **يوهان فولفغانغ فون غوته** Johann Wolfgang von Goethe: ١٧٤٩م- ١٨٣٢م هو أديب وروائي وقاص وشاعر ألماني شهير، له إسهام كبير في الأدب العالمي، والألماني خاصة، وله كتاب مشهور الديوان الشرقي للمؤلف الغربي.

(٢٤) ياسمين أحمد أمين مديرة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بالقاهرة.

(٢٥) **وليام موير** William Muir: ١٨١٩م- ١٩٠٥م متشرق أسكتلندي ولید في غلاسكو، قام بعمل دراسات حول حياة النبي محمد والخلافة الإسلامية المبكرة.

(٢٦) **ألويس اشبرنجر** Aloys Sprenger: ١٨١٣م- ١٨٩٣م هو مستشرق نمساوي اشتغل في مدرسة دهلي ومطبعة كالكوفا في الهند عام ١٨٤٢م تنجس بالجنسية الإنكليزية، واشتهر بكتابه عن حياة النبي محمد.

كتاب "ألف ليلة وليلة" مترجماً إلى الفرنسية، وقد حققت هذه الترجمة حالة من الهوس بالكتاب في فرنسا ثم اجتاحت أوروبا بأكملها منذ أوائل القرن الثامن عشر.

(١١) عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، فُلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلق، ومات والكتاب على صدره. قتلتها مجلدات من الكتب وقعت عليه. أنظر: الأعلام للزركلي.

(١٢) **شارل بلا** Charles Pellat: هو مستشرق فرنسي، عني خصوصاً بالجاحظ والنبي محمد ص - الفتوحات الإسلامية، ولد في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٤ في مدينة سوق أهراس، وحصل على (الأجريجاسيون) في اللغة العربية، ثم على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس، وتوفى في فجر يوم الأربعاء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٩٢. أنظر: موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي، ١٩٩٢.

(١٣) **هنري دو كاستري** Comte Henry deCastries: ولد عام ١٨٥٠م، وتوفي في سنة ١٩٢٧م، كاتب مسيحي فرنسي، عاش في المغرب فترة زمنية، من خلال مطالعته لأحوال المسلمين والتأمل، وله مؤلفات هامة حول العرب المسلمين يأتي في مقدمتها "مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب" و"الأشراف السعديون" و"رحلة هولندي إلى المغرب" و"الإسلام خواطر وسوانح" وغيره، اهتم بالمووروث الثقافي المغربي من خلال دراسته لرباعيات «سيدي عبد الرحمان المجدوب».

(١٤) **شارل دو فوكو** Charles de Foucauld: ولد في فرنسا ١٨٥٨م راهب وقسيس كاثوليكي فرنسي، عاش فترة من عمره بين الطوارق في الصحراء الكبرى جنوب، صاحب كتاب التعرف على المغرب، اغتيل عام ١٩١٦م خارج أبواب الحصن الذي بني له بحماية الطوارق في تمنغست.

(١٥) **إدوارد أليكساندر ويسترمارك** Edvard Westermarck: ١٨٦٢م- ١٩٣٩م، كان فيلسوفاً وعالم اجتماع فنلندياً، درس عدة مواضيع من بينها الزواج الخارجي وطاوبه زنا المحارم، عاش في المغرب قرابة السبع سنوات من أجل تحقيق منجزه العلمي في مجال علم الاجتماع حيث تناول المجتمع المغربي نموذجاً في دراسة ميدانية شامل.

(١٦) **إسحاق بن عبد الحميد الأوربي**: كان زعيماً لقبيلة أوربة الأمازيغية، وهي إحدى أكبر القبائل في منطقة المغرب الأقصى، قام بتحالف مع مولى إدريس الأول بعد هروب الأخير من المشرق بسبب الاضطهاد العباسي، وسانده وتنازل له على الحكم، وتأسيس الدولة الإدريسية.

(١٧) **رودي باريت** Rudi Paret: ١٩٠١م- ١٩٨٣م هو واحد من أهم المستشرقين الألمان الذين ارتبطت أسماؤهم بالقرآن الكريم، صاحب أشهر ترجمة علمية للقرآن الكريم، والتي

(٣٥) **طوما الاكوينى Thomas Aquinas** 1226م-1274م راهبٌ دومينيكانى وفيلسوف وكاهنٌ كاثوليكى، ومُلفانٌ فى الكنيسة الكاثوليكية، عارض الفيلسوف الرشديہ اللاتينيه. (٣٦) **سعيد بن يوسف أبو يعقوب الفيومى** المشهور بـ «سَعْدِيَا» (ولد فى 882م-942م، بغداد حاخام وفيلسوف يهودى مصرى تأثر بالمدرسة الكلامية ومذهب المعتزلة ودافع عن شرعية النبوة ووحداية الله، كما رفض الإيمان بالسحرة والمنجمين، وهو أول شخصية عبرية مهمة تكتب على نطاق واسع بالعربية، ويعتبر مؤسس الأدب العربى اليهودى. (٣٧) **إدوارد بوكوك Edward Pococke**: ١٦٠٤م - ١٦٩١م هو مستشرق إنكليزى، ولد باوكسفورد انجلترا، أبحر فى ١٦٣٠ إلى حلب وقضى فيها خمس سنوات حيث درس اللغة العربية وجمع عدة مخطوطات قيمة، من مؤلفاته كتاب (عن تاريخ العرب).

(٢٧) **السيد أحمد خان**: 1817م- 1898م من أبرز رجال الإصلاح الإسلامى فى القرن التاسع عشر الميلادى فى الهند، وهو مؤسس جامعة (عليكرة)، ألف العديد من الكتب، ردَّ فيها على بعض المُعرضين من المستشرقين من بينها (الاحمدية فى العرب والسيرة المحمدية)، ودعا فيها إلى تجديد الفكر الإسلامى.

(٢٨) **جوزيف شاخت Joseph Schacht** : 1902م- 1969م مستشرق وباحث ألماني فى الدراسات العربية والإسلامية، متخصص فى الفقه الإسلامى له مؤلفات عدة أبرزها «بداية الفقه المحمدي» والذي حلل فيه فقه الإمام الشافعى ورسالته الشهيرة بالإضافة إلى تحليل نشأة علم الحديث.

(٢٩) **محمد مصطفى الأعظمى** ١٩٣٢م- ٢٠١٧م عالم مسلم هندي محدث مسند، وباحث محقق، تخصص بدراسة الحديث النبوي، واشتهر بتمحيصه لبعض مؤلفات المستشرقين عن الإسلام والحضارة الإسلامية، من شاكلة: جولد تسيهر، ومرجليوث، وشخت، والرد عليهم.

(٣٠) **أبراهام وليم جوينبول A. W. Th. Juynbol**: ١٨٣٣م- ١٨٨٧م مستشرق هولندي ابن المستشرق، قام بتدريس الإسلام فى معهد تدريب الموظفين العموميين الاستعماريين فى دلفت.

(٣١) **هارالد موتسكى Harald Motzki** : مستشرق ألماني ولد عام ١٩٤٨، حصل على الدكتوراه من جامعة بون الألمانية عام ١٩٧٨، واهتمامه الأساس هو نقل الحديث فى التراث الإسلامى، له عدد من الكتب، منها: «أصول الفقه الإسلامى، ٢٠٠٢».

(٣٢) **المدراى يوسف** أستاذ باحث بجامعة محمد الأول وجدة، المغرب.

(٣٣) **أبو عمران موسى بن ميمون**: كان فيلسوفاً يهودياً سفاردياً وأصبح من أكثر علماء التوراة اجتهاداً ونفوذاً فى العصور الوسطى فى زمنه، كان كذلك عالم فلك وطبيباً بارزاً، وُلد فى قرطبة ببلاد الأندلس فى القرن الثانى عشر الميلادى، ومن هناك انتقلت عائلته سنة 1159 إلى مدينة فاس المغربية حيث درس بجامعة القرويين، ثم انتقلت سنة 1165 إلى فلسطين، واستقر فى مصر آخر الأمر، وهناك عاش حتى وفاته.

(٣٤) **سالومون منك Salomon Munk**: ١٨٠٣م- ١٨٦٧م، هو مستشرق ألماني المولد، يهودي الدين، فرنسي الشهرة والإقامة والوفاة، من آثاره تحقيق وترجمة كتاب (دلالة الحائرين لموسى بن ميمون).

المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد - هولندا



بيانات الكتاب

الكتاب: المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية
المؤلف: أ.د. أنور محمود زناطي
تقديم: أ.د. كارين بينتو
الناشر: دار الأفاق العربية
عدد الصفحات: ٦٤٢ صفحة
سنة النشر: ٢٠٢٦



10.21608/kan.2026.483856

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

اللغة العربية؛ اللغة الإسبانية؛ التفاعل الحضاري؛ تاريخ الأندلس؛ معاجم العربيات

مقدمة

ورغم هذا الثراء، فإن أغلب الدراسات السابقة^(١) انشغلت بإثبات الأصل العربي أو تتبّع التحولات الصوتية، بينما ظلّ البعد الحضاري والمعرفي للكلمة هامشيًا أو تابعًا. من هنا تبرز أهمية المعجم الصادر حديثًا عن دار الآفاق العربية (القاهرة، ٢٠٢٦)، من إعداد الأستاذ الدكتور أنور محمود زناطي، الذي لا يتعامل مع اللفظ باعتباره وحدة لغوية معزولة، بل بوصفه أثرًا تاريخيًا مركّبًا، ونتيجة لتفاعل طويل بين لغتين وحضارتين.

كلمة الناشر (النص الخلفي للغلاف)

يقدم هذا المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية رحلة معرفية عميقة في تاريخ التفاعل اللغوي والحضاري بين العربية والإسبانية، كاشفًا

يمثل التداخل اللغوي بين العربية والإسبانية أحد أكثر ميادين التفاعل الحضاري ثراءً في تاريخ اللغات المتوسطية. فالحضور العربي في الأندلس لم يقتصر على المجال السياسي أو العسكري، بل تجسّد على نحو عميق في بنية الحياة اليومية، وفي أنماط الإنتاج، وفي اللغة بوصفها الوعاء الأوسع لهذه التحولات.^(١) وقد انتقلت آلاف المفردات العربية إلى القشتالية، حاملة معها معارف زراعية، وتقنيات هندسية، ومصطلحات طبية، وألفاظاً إدارية واجتماعية شكّلت جزءًا من البنية اللغوية الإسبانية اللاحقة.

ويُلاحظ أن المؤلف يستثمر خبرته التاريخية^(٤) في استدعاء مصادر عربية كلاسيكية، مثل كتب الزراعة والطب والجِسية، لشرح كيفية تداول هذه المصطلحات في البيئة الأندلسية، وهو ما يمنح المعجم عمقاً توثيقياً نادراً في هذا النوع من الأعمال.

تقديم المعجم بقلم باحثة أجنبية

يكتسب المعجم ثقلًا إضافيًا من تقديمه بقلم الدكتورة كارين بينتو،^(٥) أستاذة التاريخ الإسلامي بجامعة كولورادو بولدر (الولايات المتحدة)، وهي باحثة متخصصة في الدراسات الإسلامية والأندلسية ضمن السياق الأكاديمي الغربي. ولا يقتصر هذا التقديم على الإشادة الشكلية بالعمل، بل يضعه ضمن سياق الدراسات الدولية المعاصرة المعنية بتاريخ التفاعل الثقافي بين الإسلام وأوروبا.

إن وجود تقديم صادر عن باحثة أجنبية متخصصة يمنح المعجم شرعية علمية عابرة للحدود اللغوية، ويؤكد قابليته للتداول في الأوساط الأكاديمية غير العربية، كما يعكس وعي المؤلف بأهمية مخاطبة حقل الدراسات الأندلسية بوصفه حقلًا عالميًا لا محليًا.

نص كلمة التقديم^(٦)

يسعى المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية إلى الإسهام في حقل الدراسات اللغوية والمعجمية من منظور يتجاوز حدود الرصد اللغوي إلى آفاق التحليل التاريخي والحضاري. فالعلاقات العميقة التي نشأت بين العربية والإسبانية عبر القرون، ولا سيما خلال التجربة الأندلسية، خلّفت إرثًا لغويًا بالغ الثراء، تحوّل فيه اللفظ العربي إلى جسر يعبر من خلاله قدر كبير من المعرفة والتقنيات والمفاهيم والأنماط الحياتية.

ويشكّل حضور اللغة العربية في اللغة الإسبانية واحدًا من أكثر الشواهد اللغوية ثراءً وإثارةً في تاريخ الاحتكاك بين اللغات العالمية، جاء هذا التأثير نتاجًا حيًا لمرحلة طويلة من التفاعل الحضاري العميق بين العرب والإسبان امتدّ قرابة ثمانية قرون، منذ الفتح الإسلامي للأندلس سنة (٩٢هـ/٧١١م)، حتى السقوط سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م). وخلال هذه الفترة تشكّلت على أرض الأندلس بيئة فريدة، اتصلت فيها

عن طبقات خفية من الذاكرة المشتركة التي ما زالت حية في اللغة اليومية، والعلوم، والعمارة والزراعة والإدارة، والحياة الاجتماعية. لا يكتفي هذا العمل بتتبع الأصل الاشتقاقي للكلمة، بل يضعها في سياقها التاريخي والثقافي، موضحًا كيف انتقلت من العربية إلى الإسبانية، وكيف تحولت دلاليًا وصوتيًا عبر القرون، محتفظة في كثير من الأحيان بجوهرها الأول.

يمثل هذا المعجم شهادة لغوية على عمق الحضور العربي في الأندلس وما بعدها. ودليلاً علميًا على أن اللغات لا تتطور في عزلة، بل في فضاء التبادل والتأثير المتبادل. وهو موجه إلى الباحثين والدارسين والمترجمين، وإلى القارئ العام المهتم بتاريخ اللغات والحضارات، بوصفه أداة مرجعية دقيقة، وجسرًا معرفيًا يعيد قراءة التاريخ من زاوية لغوية تكشف ما تخفيه السرديات السياسية، وتؤكد أن اللغة تحفظ ما قد يضيع من الذاكرة.

المؤلف وموقعه العلمي في حقل الدراسات الأندلسية

أنور محمود زناتي:^(٧) أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة عين شمس، كاتب وأكاديمي مصري في مجال التاريخ والحضارة. كتابات متعددة في مجالات مختلفة مثل صدام الحضارات والاستشراق والإسلام، وتهويد القدس. حائز على جائزة الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادي من الجمعية التاريخية ٢٠٠٥م، وجائزة الإبداع من السويد ٢٠٠٨م وعضو الهيئة الاستشارية والتحريرية في مجلة حوليات معهد الآداب الشرقية، جامعة القديس يوسف، (بيروت) وفي دورية كان التاريخية المحكّمة (مصر)، كما اختارته جائزة الملك فيصل العالمية ليكون ضمن المائة المختارين على مستوى العالم لكتابة ونشر سلسلة مائة كتاب وكتاب.

ينتمي الأستاذ الدكتور أنور محمود زناتي إلى حقل التاريخ والحضارة الإسلامية (جامعة عين شمس)، وهو تخصص ترك أثره الواضح على طبيعة العمل ومنهجه. فالمعجم لا يصدر عن رؤية لغوية تقنية ضيقة، بل عن منظور تاريخي يرى في اللغة سجلًا حيًا للبنى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية. ويظهر هذا بجلء في ربط المفردات بالسياقات المهنية، مثل الورش الحرفية، والأسواق، والمؤسسات الزراعية، والفضاءات المعمارية.

العربية باللاتينية المتأخرة، والقشتالية والقطلانية والباسكية، فانبثق عنها نسيج لغوي مركّب ترك للعربية أثراً واسعاً في بناء المفردات، والمصطلحات، والتراكيب، وأسماء الأمكنة، بل وفي الممارسات الفكرية والعلمية والإدارية.

وتكشف الدراسات اللغوية التاريخية الحديثة – من أعمال كوروميناس (Corominas) ودوزي (Dozy) وفيدريكو كورينتي (Federico Corriente) ومعاجم الأكاديمية الملكية الإسبانية RAE – عن أن العربية قد خلّفت ما يزيد على ٤٠٠٠ لفظ بين مباشر وغير مباشر، ما يجعلها ثاني أكبر رافد معجمي للغة الإسبانية بعد اللاتينية. ولا يقتصر هذا التأثير على المفردات اليومية أو التقنية، بل يمتد إلى حقول حيوية شكّلت ملامح الحضارة الإسبانية ذاتها، مثل: الزراعة والرّي، العمارة والفنون، الموسيقى، العدالة والإدارة، الفلسفة والعلوم، التجارة والمال، والنسيج والطهي. وهذا الاتساع في الحقول الدلالية يبرز أن تأثير العربية في الإسبانية كان تأثيراً بنيوياً لا عارضاً، وأنه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالبنى الاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي قامت عليها الحياة في الأندلس.

ويأتي إعداد هذا المعجم ليقدم رؤية علمية موسّعة وموثّقة لهذه الظاهرة، عبر تتبع الألفاظ الإسبانية ذات الأصل العربي، وتحليل جذورها الصوتية والصرفية، وشرح مسار انتقالها إلى الإسبانية، وبيان التطورات الدلالية التي طرأت عليها عبر العصور. كما يُعنى المعجم بإبراز السياق الحضاري الذي ولدت فيه هذه الألفاظ: سياقٌ تتداخل فيه حركة الترجمة العلمية في طليطلة، وازدهار المهن والصناعات الحرفية، ورقى العمارة الإسلامية، وتفوَّق الزراعة الأندلسية، وتطوّر النّظم الإدارية والمالية المبنية على الفقه الإسلامي.

إن هذا المعجم لا يقتصر على رصد ألفاظ أو جمع جذور، بل يسعى إلى تقديم قراءة فكرية وحضارية شاملة لحضور العربية في الإسبانية، بوصفه سجلاً حياً لذاكرة الأندلس، وصورةً عن التبادل الثقافي الذي أسهم في تأسيس النهضة الأوروبية. فاللغة، في جوهرها، ليست مجرد وسيلة اتصال، بل وعاءٌ يحمل الثقافات والمعارف والتجارب البشرية. ومن خلال هذا

الوعاء نستطيع أن نقرأ تاريخ الأندلس بعيون جديدة، وأن نعيد بناء فهم أدقّ لطبيعة التلاقح الحضاري الذي جعل من شبه الجزيرة الإيبيرية جسراً بين الشرق والغرب، وبين العروبة واللاتينية.

ولعلّ من أهم أهداف هذا العمل أن يضع القارئ أمام حقيقة لغوية راسخة: أن أثر العربية في الإسبانية ليس أثراً زائلاً ولا زخرفاً لغوياً، بل هو جزء من هوية اللغة نفسها، وأن حضور العربية في إسبانيا لم يكن مجرد هيمنة سياسية عابرة، بل كان مشاركة فكرية وثقافية خلّدت نفسها في أسماء المدن والأنهار، وفي مفردات الطعام والمنزل، وفي ألفاظ العلم والفلسفة، وفي المصطلحات الإدارية والقانونية، حتى أصبحت العربية – بحضورها الداخلي في نسيج الكلمات – عنصراً من عناصر الذاكرة اللغوية الإسبانية.

وهكذا، فإن هذا المعجم هو محاولة لرد الاعتبار لصفحة مشرقة من تاريخ الحضارة الإنسانية، صفحة تؤكد أن التفاعل بين اللغات ليس صراعاً، بل تبادلًا وتكاملاً وإغناءً متبادلاً، وأن الأندلس لم تكن فقط أرض لقاء بين ديانات وثقافات، بل أيضاً مختبراً لغوياً فريداً صاغ واحدةً من أجمل صور التعايش المعرفي في العصور الوسطى.

إشكالية المعجم وأهدافه العلمية

ينطلق المعجم من إشكالية واضحة مفادها أن الاختصار على تتبع أصل الكلمة لا يكفي لفهم دلالتها التاريخية. فالكلمة، في منظور المؤلف، هي نتاج ممارسة اجتماعية ومعرفية، وانتقالها من العربية إلى الإسبانية يعني انتقال نمط من التفكير أو من التقنية أو من تنظيم الحياة.

وعليه، يهدف المعجم إلى:

- توثيق الألفاظ الإسبانية ذات الأصل العربي توثيقاً تأثيلياً دقيقاً.
- تحليل مسارات التحول الصوتي وفق قوانين الفونولوجيا التاريخية.
- تتبع التطور الدلالي للكلمة بين العربية والأندلسية والقشتالية.
- إبراز الخلفية الحضارية المرتبطة بكل مصطلح.

المنهج والبنية الداخلية للمعجم

يعتمد المؤلف منهجاً مركباً يجمع بين التحليل اللغوي التاريخي والقراءة الحضارية. ويتألف كل مدخل معجمي من وحدات شبه ثابتة: اللفظ الإسباني، الأصل العربي، الشرح الدلالي في العربية، مسار الانتقال الصوتي، ثم السياق الحضاري أو المهني.

ولا يكتفي المعجم بذكر التحولات الصوتية المجردة، بل يشرح أسبابها في ضوء اختلاف البنية الصوتية بين العربية والقشتالية، مثل غياب الأصوات الحلقية أو التفخيم، وهو ما يتكرر في مداخل مثل Alcoba (القُبّة)، Haréng (حريم)، Alubiag (اللّوبياء).

مادة المعجم

(حجمها، وتصنيفاتها الموضوعية)

من حيث الحجم، يضمّ المعجم عدداً كبيراً من المداخل التأيلية (Etymological)، يمكن – استناداً إلى فحص مادته وبنيته الداخلية – القول بحذر علمي إنه يتجاوز بوضوح عدة مئات من المصطلحات المعجمية، دون أن يدّعي المؤلف الإحاطة المطلقة بكلّ العربيات في الإسبانية. وتكمن أهمية هذا العدد لا في ضخامته المجردة، بل في طبيعة المعالجة الموسوعية التي خُصّصت لكل مدخل، والتي تجعل كل مادة أقرب إلى وحدة بحثية مصغرة منها إلى تعريف معجمي مقتضب.

يضم المعجم عدداً كبيراً من المداخل المعجمية التي تغطي طيفاً واسعاً من المجالات. ويمكن تصنيف هذه المادة – استناداً إلى طبيعة المداخل – ضمن حقول رئيسية، منها:

- التنظيم الاجتماعي والنسبي.
- الزراعة والنباتات.
- الطب والصيدلة.
- العطور والمواد الطبيعية.
- العمارة والعمران.
- النسيج والأثاث.

ويكشف هذا التنوع عن أن المعجم لا يحصر الكلمات العربية في مجال بعينه، بل يعكس انتشارها في مختلف مفاصل الحياة الأندلسية.

عرض نماذج مختارة من المداخل

في مدخل Alcoba، لا يكتفي المؤلف ببيان انتقال لفظ «القُبّة» إلى القشتالية، بل يشرح كيف تحوّل المفهوم المعماري من الدلالة على البناء المقبّب إلى الغرفة الخاصة، كاشفاً عن خصوصية الفضاء المنزلي الأندلسي. وفي مدخل Alubia، تتحول اللوبيا من مجرد نبات إلى شاهد على الاقتصاد الريفي والغذاء اليومي للفلاحين.

Alcoba القُبّة

ترجع كلمة Alcoba في الإسبانية إلى الأصل العربي القُبّة (al-qubba)، وهو لفظ كان يدل في العربية على المكان المسقوف المقبّب، ثم توسّع استعماله في الأندلس ليشير إلى الغرفة الداخلية الخاصة داخل المنازل، خصوصاً الغرف المخصصة للنوم والراحة. ومن خلال هذا التطور الدلالي انتقلت الكلمة إلى القشتالية، حيث أصبحت تعني في الإسبانية : غرفة النوم، أو الغرفة الداخلية الأكثر خصوصية في البيت. وتُعدّ Alcoba من أشهر العربيات المنزلية في اللغة الإسبانية، وما تزال مستخدمة إلى اليوم دون تغيير يُذكر.

الأصل العربي: القُبّة (al-qubba)

تدلّ كلمة القُبّة في العربية على البناء ذي السقف المستدير أو المقبّب، وهو طراز معماري يُستخدم للغرف المسقوفة بإحكام وللمواضع التي تحتاج إلى تغطية هندسية قوية. كما اتسع استعمال الكلمة لتشير إلى الغرفة الداخلية أو المكان المستور أو موضع النوم والاستراحة، بل وإلى الحجرات ذات الطابع الخاص التي تتميز بانعزالها أو خصوصيتها داخل المبنى. وترد القُبّة في كتب العمارة الإسلامية للدلالة على عناصر إنشائية بارزة مثل قباب المساجد وقباب البيوت وقباب الأضرحة وقباب الحمامات، وهي جميعها شواهد على استمرارية هذا النموذج البنائي في المدن الإسلامية.

وفي الأندلس توسّع معنى القُبّة ليشمل الغرفة الخاصة في المنازل، إذ كان الكثير من غرف البيوت يُسقف بقبو أو عقدٍ خفيف، مما أبقى الصلة الدلالية

بين لفظ "القُبَّة" وهيئتها المَقْبِبة وبين مفهوم "الغرفة" ذات السقف المعقود. وهكذا أصبح المصطلح يجمع بين الدلالة الهندسية والدلالة المكانية، ليعكس خصوصية العمارة الأندلسية وتنوع فضاءاتها الداخلية.

من "القُبَّة" إلى "Alcoba"

عند انتقال لفظ القُبَّة إلى القشتالية خضع لمسار صوتي منتظم، فانتقل من الصيغة العربية al-qubba إلى الشكل القشتالي alcoba. وقد احتفظت الإسبانية بالبادئة العربية al- كما في معظم الألفاظ ذات الأصل الأندلسي، بينما تحوّلت القاف q إلى c/k لغياب هذا الصوت الحلقي في النظام الصوتي القشتالي. أما الباء المشددة (bb) فقد لانت إلى b واحدة، وهو تحوّل طبيعي في سياق التبسيط الصوتي، وسقطت الهاء النهائية كما تسقط في أغلب الكلمات العربية المعربة. كذلك فُتِح المقطع الأخير -ba، واستقرّ النبر على المقطع الثاني في النطق alcóba، بما ينسجم مع الإيقاع الصوتي للإسبانية الوسيطة.

ويمثل هذا النمط الصوتي ما نراه في ألفاظ عربية أخرى دخلت القشتالية عبر الأندلس، مثل aljuba المأخوذة من الجُبَّة، و alcora من القُرَى / القرَّة، و alcoraça من القَرَّاصة. ويكشف ذلك عن انتظام القواعد الصوتية التي صاغت انتقال العربية إلى الإسبانية، ولا سيما في المفردات المتعلقة بالثقافة العمرانية والمكانية.

الدلالة في الأندلس

في البيوت الأندلسية كانت القُبَّة -التي دخلت القشتالية بصيغة alcoba- تمثل الغرفة الأكثر خصوصية في المنزل، وهي الموضع المخصّص للنوم والمبيت، وغالباً ما كانت تُسَقَّف بعقد أو قبو خفيف أو بقبة هندسية صغيرة، الأمر الذي حافظ على الصلة بين اللفظ العربي ودلالته المعمارية. وكان يُحرَص على تصميم القُبَّة في الجزء الداخلي من الدار، بعيداً عن أعين الغرباء، وتُستخدم للتدفئة في الشتاء ولمبيت أهل البيت لا الضيوف.

وتكشف العمارة الأندلسية أن غرفة النوم كانت في العادة صغيرة نسبياً، ومحجوبة عن الأنظار، ومزوّدة

بنوافذ مرتفعة تُتيح تهوية دون كشف، كما كانت جزءاً من تقسيم البيت إلى "حَرَم" (الحجرة الداخلية الخاصة بالأسرة) و"ديوان" (حجرة الاستقبال). ومن هذا التنظيم العمراني والاجتماعي ترسّخ ارتباط لفظ القُبَّة بمعنى الغرفة الداخلية ذات الخصوصية، وهو ما انتقل إلى القشتالية في استعمال كلمة alcoba التي احتفظت بهذا البعد المكاني-الاجتماعي في دلالتها.

الدلالة في القشتالية الوسيطة

منذ القرن الثاني عشر استُخدمت القشتالية كلمة alcoba للدلالة على حجرة النوم أو الغرفة الداخلية الخاصة في المنازل، وهي دلالة تطابق تقريباً معنى القُبَّة في البيوت الأندلسية. ويظهر هذا اللفظ في عدد كبير من الوثائق، من العقود السكنية التي تذكر تقسيمات الدور، إلى قوائم الجرد المنزلي التي تُعدّد محتويات الغرف وأثاثها، كما يرد في الأدب القشتالي -في الرومانث والأشعار- حيث تُستعمل الكلمة لوصف الفضاء الحميمي داخل البيوت. وتبرز وصف المنازل الموريسكية بوصفها السياق الأوسع الذي يظهر فيه المصطلح، إذ كانت البيوت ذات الطراز الأندلسي تحافظ على تنظيم داخلي قائم على الفصل بين غرف الاستقبال والغرف الخاصة. كما يظهر اللفظ في سجلات قصور قشتالة وأراغون، ولا سيما عند وصف الأجنحة ذات الطابع الشرقي. وهكذا ارتبطت alcoba عبر القرون بالعمارة السكنية ذات الجذور الأندلسية، وظلّت تعكس إرثاً معمارياً واجتماعياً عربياً داخل اللغة القشتالية.

الدلالة الحديثة

في الإسبانية المعاصرة ما تزال كلمة alcoba محافظة على دلالتها التقليدية، إذ تُستخدم بمعنى غرفة النوم، وأحياناً للدلالة على الغرفة الداخلية التي تفتقر إلى نافذة مباشرة في بعض المناطق. وقد تراجع استعمالها في إسبانيا لصالح لفظ dormitorio الأكثر شيوعاً، غير أنّ ذلك لم يُلغِ حضور alcoba في اللغة الأدبية والوصفية والتراثية. وفي المقابل يظلّ اللفظ حياً وبكثافة في أمريكا اللاتينية -في المكسيك وكولومبيا وبيرو والأرجنتين وغيرها- حيث تُستخدم الكلمة في الاستعمال اليومي للدلالة على غرفة النوم، كما تظهر في الأدب الحديث واللغة

الحياة الاقتصادية، والعمرانية، والطبية، والزراعية في الأندلس. كما يقدم المعجم مادة غنية يمكن أن تُوظف في أكثر من حقل معرفي، من الدراسات اللغوية، المقارنة، إلى تاريخ العلوم، والأنثروبولوجيا التاريخية، وتاريخ التقنيات.

وبهذا المعنى، لا يكتفي المعجم بسدّ ثغرة معجمية قائمة، بل يسهم في إعادة توجيه دراسة العربيات في الإسبانية نحو أفق تحليلي أوسع، يجعل اللغة مدخلاً لفهم التفاعل الحضاري العميق بين العالمين العربي والإيبيري، ويمنح هذا الحقل البحثي أدوات جديدة للتأويل والمقارنة.

التلقي العلمي الأولي للمعجم

حظي المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية منذ صدوره بتلقّي علمي مبكر، تمثل في عدد من القراءات التعريفية والتحليلية التي توقفت عند طبيعته المنهجية وموقعه ضمن الدراسات المعجمية والأندلسية المعاصرة. وقد اتسم هذا التلقي - في مجمله - بنبرة توصيفية واعية، ركّزت على الطابع الموسوعي للعمل، وعلى كونه يتجاوز منطق الجمع والتعداد الشائع في كثير من معاجم العربيات، لينفتح على أفق التحليل التاريخي والحضاري للكلمة بوصفها حاملاً لمعرفة وسياق وتجربة اجتماعية.

وقد لفتت هذه القراءات الانتباه إلى أن المعجم لا يقدم نفسه بوصفه أداة لغوية تقنية فحسب، بل بوصفه قراءة فكرية لتاريخ التفاعل بين العربية والإسبانية، تُعيد إدراج الظاهرة اللغوية ضمن مسارها التاريخي الطويل الممتد من التجربة الأندلسية إلى تشكّل اللغة الإسبانية الحديثة. كما أبرز التلقي المبكر اعتماد المعجم على مراجع لغوية وتاريخية معتمدة في الدراسات الغربية والعربية على السواء، وهو ما يمنحه قابلية للتداول داخل الأوساط الأكاديمية الدولية، ولا سيما في حقل الدراسات الأندلسية والتاريخ اللغوي المقارن.

وفي هذا السياق، اكتسب تقديم المعجم بقلم باحثة أجنبية متخصصة في التاريخ الإسلامي دلالة إضافية، إذ عدّ مؤشراً على إدراك العمل منذ البداية ضمن فضاء بحثي عابر للحدود اللغوية والثقافية، لا بوصفه جهداً محلياً معزولاً. ومع ذلك، فإن هذا التلقي، على أهميته، يظل تلقياً أولياً لم يستنفد بعد إمكانات النقاش النقدي، الأمر الذي يفتح المجال أمام قراءات لاحقة أكثر

الحضريّة. وبهذا احتفظت **alcoba** بمكانتها التاريخية بوصفها استمراراً مباشراً للدلالة العربية-الأندلسية على **الغرفة الداخلية**، حاضرةً في المعجم الإسباني رغم تغيّر الذوق اللغوي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

الدلالة الحضارية

تكشف كلمة **Alcoba** عن التأثير العميق الذي تركته العربية في **المعجم المنزلي الإسباني**، إذ تُظهر كيف انتقلت مصطلحات العمارة الإسلامية إلى الحياة اليومية للأسر الإيبيرية، لا بوصفها مفاهيم هندسية فحسب، بل باعتبارها عناصر حيّة في تنظيم البيت ووظائفه. وتعكس الكلمة طبيعة البيوت الأندلسية المبنية على **الخصوصية والحجرات الداخلية**، حيث كانت الغرفة المخصصة للنوم تُصمّم في عمق الدار وتُسقّف بعقد أو قبو، الأمر الذي جمع بين الدلالة الهندسية للقبة والدلالة الاجتماعية لحجرة النوم. ويبرز استمرار اللفظ في الإسبانية الحديثة - لأكثر من ثمانية قرون - رسوخ الأثر العربي في الثقافة السكنية الإيبيرية، حيث يمكن القول إن **Alcoba** تجسّد حضور البيت العربي داخل البيت الإسباني، وتُعدّ شاهداً لغوياً ومعمارياً على الامتزاج العميق بين الحضارتين.

القيمة العلمية والإضافة النوعية

تكمّن القيمة العلمية الأساسية لهذا المعجم في كونه لا يقتصر على إضافة عدد كبير من المفردات ذات الأصل العربي إلى سجل العربيات في اللغة الإسبانية، بل يتجاوز ذلك ليقدم نموذجاً منهجياً متكاملًا لدراسة الاقتراض اللغوي بوصفه ظاهرة حضارية مركّبة. فالمعجم لا يتعامل مع الكلمة باعتبارها وحدة لغوية معزولة، وإنما يدرسها في سياقها التاريخي والاجتماعي والمهني، بوصفها حاملاً لمعرفة وتقنية ونمط عيش انتقل من فضاء حضاري إلى آخر.

ويتميّز هذا العمل بقدرته على الربط المنهجي بين التحليل التأيلي (Etymological) للألفاظ والتحويلات الحضارية التي رافقت انتقالها، وهو ما يجعل من كل مدخل معجمي وثيقة تاريخية مصغرة تعكس جوانب من

تفصيلاً، سواء من زاوية لغوية صرف، أو من منظور مقارن مع المعاجم التأبيلية الكلاسيكية، وهو ما يؤكد أن المعجم قد دخل بالفعل دائرة التداول العلمي، وأنه مرشح لإثارة نقاش أكاديمي أوسع في المرحلة المقبلة.

التلقي الثقافي العام لصدور المعجم

إلى جانب التداول الأكاديمي، أثار صدور المعجم اهتماماً ملحوظاً في الفضاء الثقافي العام، كما تعكسه مقالات وتحليلات منشورة في صحف ومواقع متخصصة بقضايا التراث والهوية واللغة.^(٧) وقد تنوّعت هذه القراءات بين التأكيد على عمق التأثير العربي في اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي، والتسليط على الطابع الموسوعي للمشروع وأهميته في استعادة ذاكرة لغوية حضارية.

وعلى الرغم من أن هذه المقالات الصادرة عن كُتّاب ومحلّين غير مختصين لغوياً لا تُعد تلقياً علمياً بصيغته الأكاديمية الصارمة، فإنها تشكّل مؤشراً واضحاً على أن المعجم لم يمرّ مرور الكرام في الحقل الثقافي،^(٨) وأنه أثار نقاشاً لدى جمهور واسع يتجاوز الدائرة الأكاديمية الضيقة. ويمكن اعتبار هذا الاهتمام الثقافي العام انعكاساً لازدهار الاهتمام بقضايا التاريخ اللغوي والهوية في الفضاء العالمي، ومؤشراً إضافياً على أن موضوع المعجم يتجاوز حدود التخصص الضيق ليحظى باهتمام المتخصصين وغير المتخصصين على السواء.

قراءة نقدية

على الرغم من القيمة العلمية الواضحة التي يتمتع بها المعجم، وما يقدّمه من جهد موسوعي لافت في تتبع الألفاظ الإسبانية ذات الأصول العربية، فإن القراءة النقدية تتيح تسجيل عدد من الملاحظات المنهجية التي لا تنتقص من أهمية المشروع، بقدر ما تفتح أفق تطويره في طبقات لاحقة. فمن أبرز ما يلاحظ غياب الفهارس العامة والكشافات الموضوعية، وهي أدوات تُعدّ شبه لازمة في المعاجم الموسوعية المطبوعة، لما توفره من إمكانيات إضافية للباحث في تتبع المواد بحسب الحقول الدلالية أو التخصصات المعرفية، كالألفاظ الزراعية أو المعمارية أو الإدارية والعلمية. كما أن اعتماد الترتيب الألفبائي وحده، دون إرفاق تقسيم موضوعي مساعد، قد يحدّ من الاستفادة التحليلية المقارنة التي يتيحها هذا النوع من المعاجم.

كما أن غياب قائمة عامة بالمراجع والمصادر، على الرغم من اتساقه مع بعض التقاليد المعجمية، كان يمكن تجاوزه بإدراج بليوغرافيا موجزة تعزّز من جودة العمل، وتيسّر الاستفادة البحثية منه، ولا سيما لدى الدارسين المتخصصين في التاريخ اللغوي المقارن.

ويلاحظ كذلك تفاوت نسبي في حجم بعض المداخل، وهو أمر مفهوم في عمل موسوعي واسع، غير أن توحيد المعايير الوصفية للمداخل، ولا سيما فيما يتصل بدرجة التفصيل والإحالات المرجعية، كان سيعزّز من الصرامة المنهجية ويقرب المعجم أكثر من النماذج العالمية في التأثيل المعجمي. كما أن تعزيز نظام الإحالات الداخلية بين المداخل ذات الجذر أو الحقل الواحد كان سيُسهم في إبراز الشبكات الدلالية للتأثير العربي داخل الإسبانية.

ومع ذلك، تبقى هذه الملاحظات ذات طابع تقويمي بناءً، لا تمس جوهر الإنجاز، بل تؤكد أن المعجم مشروع مفتوح قابل للتطوير والتوسيع، وأنه يشكّل أساساً صلباً لأعمال لاحقة أكثر تخصصاً ودقة.

خاتمة

يقدم «المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية» عملاً علمياً رصيناً يعيد الاعتبار للكلمة العربية بوصفها عنصراً فاعلاً في تشكيل اللغة الإسبانية، لا من زاوية التأثير اللفظي فحسب، بل من حيث حضورها العميق في البنية الحضارية والمعرفية التي تشكّلت في الفضاء الأندلسي. ويتميّز المعجم بقدرته على وصل المعالجة اللغوية بالسياق التاريخي والاجتماعي، بما يجعله يتجاوز الوظيفة المعجمية الضيقة إلى أفق قراءة ثقافية أوسع للتفاعل بين اللغات والحضارات.

وفي هذا الإطار، يُعدّ المعجم إضافة نوعية إلى مكتبة الدراسات الأندلسية والتاريخ اللغوي المقارن، ومرجعاً قابلاً للتوظيف في بحوث متعددة التخصصات، تمتد من اللسانيات التاريخية إلى دراسات الترجمة والذاكرة الثقافية. كما يفتح العمل، بما يحمله من إمكانيات تطوير منهجية، المجال أمام مشروعات لاحقة أكثر تخصصاً، سواء على مستوى التصنيف الموضوعي أو المقارنة مع معاجم التأثيل الكبرى، مؤكداً أن دراسة الاقتراض اللغوي تظل مدخلاً أساسياً لفهم تاريخ التفاعل الإنساني ومساراته المعرفية.

- (١) انظر: البدوي، آمنة سليمان محمد. "شواهد على التثاقف اللغوي والاجتماعي في لغة العرب في الأندلس". مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، مج. ٢٢، ع. ١، الجامعة الإسلامية بغزة - شئون البحث العلمي والدراسات العليا، ٢٠١٤، ص. ٣٥-٢٥. محمد، علي عباد. "الألفاظ العربية الباقية في اللغة الإسبانية زمن الأندلس". مجلة علوم التربية الرياضية والعلوم الأخرى، ع. ٦، جامعة المرقب - كلية التربية البدنية، ٢٠٢٠، ص. ٢٠٤-٢١٩. حافظ، هبة محمد. "تعريب الأندلس: مظاهره وآثاره". مجلة كلية الآداب، ج. ١، ٧، جامعة الإسكندرية - كلية الآداب، ٢٠٢٢، ص. ٣٥-١.
- (٢) على سبيل المثال، راجع: باربارا بولويكس غالاردو، إغناثيو فيراندو فروتوس، إغناثيو كوتيرث دي تران كومت بنيتا، نيقولاس روزير نبوت، اللغة العربية في إسبانيا/ تحرير: ماء العينين ماء العينين العتيق- الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ١٤٤٥هـ.
- أنور محمود زناتي https://ar.wikipedia.org/wiki/أنور_محمود_زناتي (3) See: <https://research.asu.edu.eg/cris/rp/rp11455> (4) See: <https://colorado.academia.edu/KarenPinto> (5) See: <https://colorado.academia.edu/KarenPinto>
- (٦) أنور محمود زناتي، المعجم الموسوعي للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية. - القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٢٦. (ص ٧-٩).
- (٧) على سبيل المثال: عبد الحي كريط، "معجم موسوعي جديد يؤثّق الأثر العربي في الإسبانية ويعيد قراءة ذاكرة الأندلس لغوياً". - حديث وطن. - منشور بتاريخ ١ يناير ٢٠٢٦. <https://hadithwatan.com>
- (8) Abdelhay Korret, "El árabe como pilar del español: un diccionario enciclopédico reabre la memoria lingüística de al-Ándalus".- Atalayar: Las claves del mundo en tus manos.- 04/01/26. <https://www.atalayar.com>



2008 - 2026



<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>